

الجمعيات السرية

تحرير: نورمان ماكنزي

ترجمة: إبراهيم محمد ابراهيم

دار الشروق

الجمعيّات السرّية

الطبعـة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الجمعيَّات السرِّية

تحرير: نورمان ماكنزي
ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم

دار الشروق

مقدمة

نحن نعيش فى عالم الظاهر، كل ما نعرفه أمور تنتمى إلى عالم الحواس الخمس. وقد تعلمنا أخيرا أن ما لا يوجد داخل عالم الحواس الخمس، وأن ما لا يمكن التعبير عنه، لا وجود له. ولعل هذا ما يجعلنا نزداد شغفا بالظواهر الخفية التى لا تخضع للمقاييس العلمية الدقيقة، والتى لا يمكن التعبير عنها من خلال اللغة المنطقية الشائعة. وقد لوحظ أخيرا الاهتمام الشديد بالتنجيم والپاراسيكولوچى والمدارس الصوفية، الهندية والصينية.

ومن المعروف أن كثيرا من رواد الأدب الحداثى كانوا يترددون على العرافة مدام بلاڤاتسكى، التى كانت تزعم أن لها علاقة بعالم الغيب. فكانت تُحضِّر لهم الأرواح، وكانوا هم يتحدثون مع هذه الأرواح، ويطلبون منها النصح والإرشاد! وكان الشاعر وليام بتلر ييتس من أكثر المترددين على جلستها. وقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح له نظامه الأسطورى الخاص، الذى حاول من خلاله أن يقرأ تاريخ العالم بأسره.

أما الپاراسيكولوچى، أى دراسة خوارق اللاشعور والغيبيات، (فكلمة Para تعنى «بجوار»)، فهو «علم» يتناول الظواهر التى يعجز عن تناولها علم السيكولوچى العادى. وقد صُدمت كثيرا حين علمت لأول مرة أن جهاز المباحث الفيدرالية الأمريكية F.B.I يستخدم بعضا ممن لهم قدرات غير طبيعية للكشف عن المجرمين، وأن الاتحاد السوڤيتى (الذى ينطلق من مرتكزات مادية فلسفية) كان يستخدم أيضا الپاراسيكولوچى وبعض السحرة فى عمليات التجسس! بل قد أنشئ كرسى لهذا العلم فى إحدى جامعات الكتلة الشرقية (حين كانت لا تزال تحت هيمنة الشيوعية) حتى يتم دراسته بطريقة منهجية.

وقد يكون من الصعب أن نضع التصوف فى نفس الخانة مع التنجيم والپاراسيكولوچى، ولكن مع هذا يمكن القول، بدون أى تردد، إن الاهتمام بالتصوف هو اهتمام بعالم الإنسان الداخلى الذى لا يمكن للعلم الطبيعى الوصول إليه؛ لأنه لو وصل إليه، وعُرِف باطن الإنسان الفرد، لانتهى كظاهرة فريدة، يصعب التنبؤ بسلوكه، ولأصبحَ مثل الفراشات واليرقات، يتبع برنامجا معروفا مسبقا.

ومهما كان موقف المرء من التنجيم والپاراسيكولوچى والتصوف، ومهما كان تفسير هذا الاهتمام المتزايد بهذه الأمور، يظل عالم المجهول عالما يملك علينا شغاف قلوبنا ويسحرنا، ولذا نهرع إليه دائما. ولعل كل هذا هو محاولة من جانبنا أن نؤكد عالم الخاص والجوانى، وأننا لسنا مجرد جزء من هذا العالم المادى المحسوس، وإنما لنا صلة بعالم آخر أكثر اتساعا ورحابة، لا يخضع للقوانين الطبيعية المطردة التى تخضع لها كل الظواهر الطبيعية الأخرى. كل هذا يعنى فى واقع الأمر أن الإنسان كائن حر، وأنه مخير فى كثير من أفعاله.

والكتاب الذى بين أيدينا يتناول موضوعا ينتمى إلى هذا العالم المجهول، وهو موضوع الجمعيات السرية. والاهتمام بالجمعيات السرية قد يكون تعبيرا عن تمرد الإنسان على عالم المادة المصمت، وهو تمرد بلا شك محمود، ولكنه - مع هذا - اهتمامٌ له جانبه المظلم؛ فكثير من الناس الذين يفشلون فى التعامل مع العصر الحديث، وفى تفسير ما يحدث لهم، وهو عصر بلا شك يسبب الاغتراب والقلق، يلجئون إلى الصيغة السحرية : الحركات السرية.

فكل حركة فى التاريخ - فى تصورهم - هى نتاج حركة سرية، وكل حدث سياسى هو الآخر ثمرة جهد تقوم به جمعية سرية. والجمعية السرية هذه عادة ما تضم أعداء الإنسان. فهم تارة اليهود، وتارة البلاشفة أو الأمريكان، وكل العالم هو مجرد رقعة شطرنج، وكل البشر هم مجرد قطع شطرنج يتلاعب بها أعضاء الجمعيات السرية. وهذا ما يسمى «فكر المؤامرة». وفكر المؤامرة هو «فكر» تجاوزًا،

لأنه فى واقع الأمر أساطير تحل محل الفكر، وتهرب من الاجتهاد والتفسير، وتحل وهم المعرفة محل المعرفة الحقة.

لكل هذا نجد أن هذا الكتاب جاء فى موعده، فهو دراسة علمية مستفيضة لهذا الموضوع. فمقدمة الكتاب التى كتبها محرر الكتاب الأستاذ نورمان ماكنزى، هى دراسة فى فكرة السرية ذاتها والتى تستند إليها الجمعيات السرية. وهى مقدمة مفصلة، هى بمثابة مدخل رحب للموضوع. ثم يتناول الكتاب فى الفصل الأول الجمعيات السرية البدائية. ويبدأ هذا الفصل بالجملة التالية الكاشفة:

«كل فرد إذًا هو جمعية سرية (بالنسبة لنفسه). وتختلف طبيعة ما نحتفظ به سرًا باختلاف المجتمعات والثقافات. فقد تحجب آراء الشخص الدينية ومعتقداته عن الجميع عدا القس أو الشخص الذى يعترف له. وقد يعرف مدير البنك الذى يتعامل معه عميل ما عن أحواله المالية أكثر مما تعرفه زوجة ذلك العميل. بل إن أكثر المجتمعات عريا لديها مفهومها الخاص بها عن الخصوصية. ففى إحدى قبائل بوليفيا يستطيع الشخص فعل أى شىء طالما يوجه وجهه نحو الحائط وطالما لا «يرى» الآخرون ذلك الفعل».

مثل هذه التعميمات توجد فى ثنايا جميع فصول الكتاب. ولكن مؤلفيها لا يقفون عند العام، بل يستخدمونه مجرد مفتاح للولوج إلى الخاص، وهو فى هذه الحالة القبائل البدائية فى الفصل الأول، ثم يتبعها الفصل الثانى عن قبائل الماو ماو باعتبارها جمعية سرية. ويتناول الفصل الثالث واحدة من أكثر الجمعيات السرية غرابة وهى جماعة الخناقين التى حيرت المستعمرين الإنجليز بعض الوقت، إلى أن فك أحد الموظفين الإنجليز سرها، وبيّن أن هذه الجماعة كانت تقوم بالقتل بهدف السرقة بطريقة ليس فيها حب أو كره، أى بطريقة عقلانية للغاية، لاينتج عنها أى إحساس بالذنب!

أما الفصل الرابع فعنوانه بالإنجليزية "The Mysteries"، الذى ترجمه الأستاذ إبراهيم محمد إبراهيم، مترجم الكتاب، إلى «الطقوس السرية». وهو بذلك يكون

قد ضحى بالحرفية فى سبيل الوضوح (وهذا هو أسلوبه فى الترجمة). والطقوس السرية هى العبادات السرية التى سادت بين حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط قبل ظهور المسيحية.

والكتاب يتبع تسلسلا، يبدأ بالبسيط والقديم صعودا إلى المركب والحديث. فقد بدأ بالجمعيات السرية فى المجتمعات البدائية، وتعامل مع جماعة الماو ماو باعتبارها إحدى هذه الجماعات البدائية، برغم أنها جمعية سرية مناهضة للاستعمار الإنجليزى فى القرن العشرين. ويبدو أنه لجأ هنا إلى تصنيف أنثروبولوچى يركز على الأنماط المتزامنة، واستبعد التصنيف التاريخى الذى يركز على الزمان وتعاقبه. ولكن ـ والحق يقال ـ لا تخفى نزعته الأنثروبولوچية هذه أى نزعة عنصرية. فمؤلف هذا الجزء لا يتعامل بأى نوع من أنواع التعالى مع مادته.

ثم تبعها بجماعة الخناقين، ثم العبادات السرية، برغم أن تاريخ الأولى هو القرن الثامن عشر (فى الهند)، بينما ظهرت الثانية (أى الطقوس السرية) فى بُلدان حوض البحر الأبيض المتوسط فى القرون الأربعة أو الخمسة الأخيرة قبل الميلاد. ولأن المحرر يخضع العنصر الجغرافى والتاريخى لمقياس البساطة والتركيب، فإنه لا يدهشنا كثيرا أن يتناول الفصل الخامس جماعتين سريتين هما الحشاشون وفرسان الهيكل.

ويمكن هنا أن نتوقف عند إحدى سمات هذا الكتاب؛ وهى أنه ليس متمركزا حول الرؤية الغربية بأى حال، وإنما يهتم بظاهرة الجمعيات السرية أينما وجدها دون أن ينسب إلى أعضائها أى خصائص «أزلية» يتسم بها الإنسان الشرقى أو الإنسان البدائى دون غيره. والمؤلف دون شك لا يهمل الجوانب التاريخية، ولا جوانب الاختلاف بين جمعية سرية إسلامية شرقية وأخرى مسيحية غربية، ولكن محور الرؤية يظل هو الظاهرة ذاتها وتجلياتها المختلفة.

ويتناول الفصل السادس جمعية The Rosicrusians التى ترجمها الأستاذ إبراهيم بالروزيكروشيين أو الصَّلَوَرْدِيَّة (باعتبار أن أصل الكلمة الإنجليزية هى

كلمتا rose و cross الإنجليزيتين، فقام المترجم بترجمتهما إلى «وردة» و«صليب»، ثم دمغهما وسك المصطلح الجديد). وقد أحسن المترجم صنعا بذلك، ونرجو أن يذيع هذا المصطلح ويكتب له الشيوع. ومن هذا الفصل ندخل العصر الحديث. ولذا نجد أن الفصل الذى يليه (الفصل السابع) يتناول موضوع الماسونية.

وسنجد أن كلتا الحركتين، الصلوردية والماسونية، هما خليط عجيب من العقلانية المادية والإيمان بالعلم من جهة، والإيمان بكتب الصوفية الحلولية مثل القبالاه، من جهة أخرى. وهذه ظاهرة تذكرنا الآن بالعودة إلى الصوفية والتنجيم والپاراسيكولوچى فى بلاد التقدم والتكنولوچيا والعلم، أى بلاد الغرب. لكل هذا فهى جديرة بالدراسة. ولكن ما يهمنا فى هذا المضمار أن الكاتب لم يدخر وسعا فى تسليط الضوء على هاتين الحركتين بحيث أصبحتا موضوعا للفهم، وليس شيئا غامضا محاطا بالطلاسم والأسرار. ولاندرى لِمَ لَمْ يتعرض المؤلف لمسألة علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالماسونية؟ وهو أمرٌ يشغل حيزا كبيرا من العقل العربى (وقد تناولناه بالتفصيل فى كتابنا **اليد الخفية**). لكن يكفيه فخراً أنه حول الماسونية إلى ظاهرة لها جذور تاريخية وسياسية يمكن الإمساك بها.

ويتميز الفصل الثامن بالتنوع، وعنوانه هو: «الجمعيات القومية السرية». وفى هذا الفصل يتناول المؤلف الجمعيات السرية القومية فى أيرلندا وإيطاليا وفرنسا وأخيرا فى روسيا القيصرية. وكلمة «سرية» هنا تفقد كثيرا من بريقها، إذ إن الجمعيات القومية السرية لم تكن «سرية» بنفس المعنى المفهوم الذى كانت جماعات الحشاشين تدعى«سرية»، وإنما هى جمعيات سرية بمعنى أنها «محظورة» لايقبلها النظام القائم.

ولعل الجماعات البلشفية السرية مثل جيد على ذلك. فقد ظلت سرية بمعنى «محظورة» إلى أن استولى البلاشفة على الحكم، وأصبح ثوار الأمس هم حكام اليوم. ومما لا شك فيه أنه ظهرت «جمعيات سرية» تؤيد النظام القيصرى البائد وتحاول إسقاطه.

ولاتختلف الجمعيات السرية الصينية (الفصل التاسع) عن الجمعيات السرية القومية؛ إذ على الرغم من أنها تضرب بجذورها فى تقاليد السرية الصينية فإنها كانت جمعيات تهدف إلى صد الغزو الغربى العسكرى والحضارى.

ويتناول الفصل العاشر ظاهرة لا تزال معنا، وهى ظاهرة المافيا والتى أصبحت مرادفة لكلمة «جريمة منظمة». وبرغم أن عصابات المافيا تضم شتى الأجناس والألوان، فمنها الصينى والأيرلندى، بل واليهودى، فإن أشهرها جميعا هى عصابات الإيطاليين الوافدين من جزيرة صقلية. أما الفصل الحادى عشر والأخير فيتناول عصابات الكوكلوكس كلان العنصرية ويبيِّن تاريخها وأصولها، كرد فعل للغزو الشمالى للجنوب وتدهورها، من جماعة شبه قومية إلى عصابة عنصرية.

وفى ختام الكتاب يقوم محرره باستخلاص التعميمات بخصوص ظاهرة الجمعيات السرية استنادا إلى ما ورد من دراسات وإلى المقولات الكامنة فيها. ومن أهم التعميمات التى يستخلصها الكاتب التعميم التالى :

«لقد بدأنا هذا الكتاب بأن أشرنا إلى أن ثمة حاجة إنسانية أساسية للسرية؛ فبدون القدرة على الاحتفاظ بالأسرار، يعجز الإنسان عن أن ينمى شخصية مميزة. ودون القدرة على احترام أسرار الآخرين فلن يكون الشخص عضوا محترما فى أى مجتمع.

«ومع ذلك، فإن السرية تثير انفعالات قوية، فمعظمنا يشعر ببعض الضغينة حين يصر صديق أو زميل على أن يحجب معلومة معينة عنه، ويكون رد فعلنا غالبا هو الاستهزاء بهذا السر، وكأننا نقنع أنفسنا بأن هذا السر لا يستحق المعرفة».

إن الولوع بالسرية شىء كامن فى النفس البشرية، ومفهوم النفس البشرية هومفهوم يكاد يكون قد اختفى تماما فى الخطاب التحليلى الغربى، لأنه كما يقولون «ملوث بالميتافيزيقا». فهو يتسم بشىء من الثبات، والثبات هو عكس التغير.

وقد قيل لنا، إنه حسب قوانين المادة: الثابت الوحيد هو التغير وحسب. وبما أن

الإنسان مادة، فهو لا يتسم بالثبات ، ومن ثم يكون مفهوم الطبيعة البشرية مفهوما ـ في تصورهم ـ رجعيا يجب التخلي عنه، حتى ندخل عالم الحركة الدائبة والمطلقة. ولكن ما لا يعرفه هؤلاء أن عالم الحركة الدائبة هو عالم معقم تماما من الإنسان، من أفراحه وأتراحه، عالم الذرات المتحركة التي تصطدم بلا إرادة ولا عقل.

ولكن مفهوم الطبيعة البشرية لا يعني بالضرورة رفض التاريخ كما يدعي بعض النقاد. فالطبيعة البشرية رغم ثباتها تعبرعن نفسها من خلال أشكال كثيرة. فيلاحظ محرر الكتاب، على سبيل المثال، أن معظم الجمعيات السرية «تنشأ في فترات انعدام النظام الاجتماعي والصراع العقائدي الأيديولوجي، حين تنهار أساليب الحياة القديمة أو تكون أساليب جديدة مع الحياة آخذة في الظهور». ويضرب المحرر مثلا من تطور الماو ماو («ذلك أن حياة الكيكويو القبلية قد تم إخضاعها لضغوط وتوترات لا تحتمل في محاولاتها التكيف مع التغيرات التي فرضها المبشرون البيض والمزارعون المستوطنون»)، وجمعية فرسان الهيكل(«التي أسست كجهد لخلق نظام من ركام فوضى الحروب الصليبية»)، وتاريخ الماسونية المبكر («جزء من عصر التنوير الأوربي ـ فهي محاولة لإنشاء نظام أخلاقي كوني في عصر سادته النزعة العقلانية والشك الديني») والكوكلس كلان (التي «نشأت عن التوتر الذي حدث عقب الحرب الأهلية»)، والمافيا («التي نشأت عن البناء الاجتماعي الضارب في القدم في جزيرة أقحمتها الجغرافيا والسياسة في أوربا الحديثة»).

وفي وصفه لعضو الجماعة السرية لا يسقط المحرر في أي تعميم سهل، فأعضاء الجماعة السرية ـ حسب تصوره ـ «قد يكونون أناسا يتعلقون بأساليب الحياة القديمة التي حدث انقطاع في مجراها العادي». ولكنهم قد يكونون على العكس من ذلك «أناسا في حالة من التمرد ضد النظام القائم، ويجدون أن السرية ضرورية كغطاء لنشاطهم. ويستمر المحرر في إطلاق التعميمات ، ولكنه لاينسى قط المنحنيات المختلفة للظواهر التي يتناولها ، فتأتي الخاتمة ـ شأنها شأن بقية الدراسات الواردة في

الكتاب ـ لتستخلص التعميمات العامة دون تجاهل التفاصيل الخاصة، وتغوص فى التفاصيل دون أن تغرق فيها.

إن ترجمة الكتاب ـ كما قلت فى بداية هذه المقدمة ـ جاءت فى موعدها. وقد أحسن الأستاذ إبراهيم صنعا بتقديمه هذه الدراسة بأسلوب عربى مفهوم. فبرغم أنها دراسة علمية متخصصة كتبها أساتذة متخصصون، فإنها حاولت أن تصل إلى القراء دون أن تجهدهم. وقد نجح المؤلفون فى ذلك، ونجح المترجم فى نقل هذا «السهل الممتنع» إلى القارئ العربى. وقد التزم السيد المترجم قدر طاقته بالنص الأصلى، ولكنه مع هذا ابتعد عن الحرفية التى كثيرا ما تودى بالمعنى وتزهق روحه.

فجزاه الله خيرا على ما قدم لنا. والله أعلم

د/عبد الوهاب المسيرى

المقـــدمـــة

بقلم: «نورمان ماكنزي»

تلعب السرية دورا أساسيا فى الحياة البشرية ، وهذا ما يعرفه كل طفل أثناء نموه . فهناك دائما أشياء يخفيها الآخرون عنا ، تماما كما نخفى نحن أشياء عن الآخرين . ولن تكون هناك خصوصية بدون درجة ما من السرية . وكذلك بدون مظهر ما من الخصوصية ، سيكون من المستحيل على البشر أن يعيشوا فى المجتمع أو يكونوا شخصيات متمايزة بعضها عن بعض . فسرعان ما يبدأ الطفل الصغير فى الشعور بأنه يعيش فى عالم خاص به ، وأن جسده وسلوكه ومشاعره مختلفة عن والديه وأخوته وأخواته . كما يشعر أن ثمة نواحى فى حياتهم غامضة وخفية بالنسبة له . أى أن السرية شرط لازم لإحساس الفرد بكيانه .

وتعد هذه حقيقة عظيمة الأهمية من حقائق السلوك الإنساني . فالسرية إذن هى إحدى الوسائل التى نحاول بواسطتها أن ننظم شخصياتنا ، وأن نضع القواعد التى تنظم علاقتنا بغيرنا . فإذا نشأنا فى بيئة صحية ومستقرة ، تتوافر لنا فيها فرصة جيدة لكى نتعلم كيف نحقق توازننا بين ما نخفيه وما نكشف عنه . وكذلك نتعلم التسامح إزاء أسرار الآخرين من حولنا .

وثمة أشياء كثيرة يمكن أن تحدث ، وبخاصة أثناء مرحلة الطفولة ، من شأنها أن تفسد هذا التوازن . فقد يحدث ، على سبيل المثال ، أن ننظر إلى جزء من جسدنا على أنه قذر أو مخجل . وقد نجد أن والدينا لديهما أسرار ينبغى علينا ألا نذكرها . ويمكن عندئذ أن تتخذ تلك الأسرار أهمية شاذة ، كما أظهر سيجموند فرويد وغيره من المحللين النفسيين ، لأن هذه الأسرار تُختزَن فى عالم خاص من الوهم والخيال .

ومن بين ما يوصف به الشخص العصابى أن شخصيته مشوشة بمجموعة الأسرار المكبوتة التى لم يعد على وعى بها على مستوى الشعور والتى يضطر إلى إخراجها

فى الحياة اليومية . ويعتقد المحللون النفسيون أن الكثير من الأعراض العصابية يمكن أن تُعزَى إلى مشاعر وخبرات الطفولة السرية ؛ أى إلى اكتشافات بدا أنها تشكل تهديدا لكيان الطفل الضعيف الذى ما يزال فى مرحلة التنشئة .

لذا فإن سيكلوجية السرية تعد أمرا حيويا لفهم العلاقات الإنسانية ، غير أن معرفتنا بهذه السيكلوجية غير كافية بشكل يدعو للأسف . فقد نشير ، على سبيل المثال ، إلى أن الشخص الذى ينخرط أكثر مما يجب فى السلوك التآمرى قد تربّى بشكل يجعله يعطى أهمية كبرى للسرية ويشعر بأن شخصيته سوف تتفكك دون الحماية التى تمنحها له . كما يمكن أن نلاحظ أن شخصا آخر أقل ميلا إلى الانضمام لتنظيمات سرية غير أنه يعتقد أن المؤامرات تحيق به .

فإذا أصبح الناس مهووسين بأفكار كهذه ، وعرف الأطباء النفسيون تاريخهم المرضي ، فقد نستطيع كشف بعض الصلات المتشابكة بين الطريقة التى نشئوا عليها والطريقة التى يتصرفون بناء عليها كأشخاص بالغين .

غير أننا لا نستطيع فى معظم الحالات إلا ملاحظة ما يفعله الناس أمامنا ، ونحاول قصارى جهدنا تخمين السبب الذى يجعلهم يتصرفون على هذا النحو . ويَصْدقُ هذا القول على جميع أشكال السلوك الإنسانى ، غير أنه يكتسب قوة خاصة حين يتعلق بأى نشاط سري . إذ يمكننا الاستماع إلى أحد رجال السياسة وهو يلقى خطابا عاما ، فنعرف قدرا كبيرا عن دوافعه ببساطة وذلك عن طريق ملاحظة ما يقول والطريقة التى يقوله بها . بينما لا يمكننا مشاهدة أحد زعماء الماو ماو وهو يشرف على قسم إلحاق الأعضاء الجدد . وقبل أن نبدأ فى فهم طبيعة سلوكه ومعناه ، سيكون لزاما علينا الدخول فى الكثير من المتاعب لمجرد معرفة بعض الحقائق الأساسية عن هذه الأنشطة . وتشتد هذه الصعوبة حين نقوم بدراسة جماعة قد اختفت الآن ، مثل جماعة الحشاشين وفرسان الهيكل . إذ علينا أن نكتشف حقائق قد تم إخفاؤها عن عمد ، وأن نعتمد على شذرات من المعلومات التى كُشف عنها بالصدفة ، أو عن طريق مشاركين محبطين أو مراقبين مضللين أو نقاد حاقدين ، مع كل ما يستتبعه هذا من غياب الدقة .

ولكن بالرغم من هذه المشكلات ، بل وربما لأن مثل هذه المشكلات تشحذ

اهتمامنا، فإن معظمنا يجد أن السرية تمنحهم قدرا من الصخب، ذلك أن الإخفاء المتعمد للأسرار يفجر داخلنا ينابيع الرغبة فى الكشف عمّاهو سري. فلنأخذ على سبيل المثال حالة الماسونيين الأحرار. إن أى شخص يعيش فى بريطانيا أو الولايات المتحدة يعرف أنه لابد أن يكون هناك بعض الماسونيين من بين معارفه؛ وقد يوجد محفل ماسونى فى وسط المدينة، أو قد يكون من المعروف أن محفلا ماسونيا يجتمع فى ليال محددة فى فندق بعينه. وقد يحضر غير ذلك من حفلات رقص أو عشاء تنظمها محافل ماسونية، أو يسمع عن أنشطتهم الخيرية، إلا أن الماسونيين يعرفون كيف يحفظون سر حرفتهم، ولا يعرف غير الأعضاء سوى القليل من معتقداتهم وطقوسهم.

فما الذى يجذب الإنسان إلى الانضمام لجماعة كهذه؟ من الواضح أن مثل هذه التصرفات لا يمكن إغفالها باعتبارها مجرد حب صبيانى لارتداء الملابس الفخمة كما يفعل بعض الناس. كما لا يمكن النظر إليها فقط باعتبارها وسيلة لضم عصبة من الرجال معا ليساعد بعضهم بعضا فى إتمام الصفقات. قد يكون هذان العنصران موجودين فى الماسونية. ولكنهما، فى حد ذاتهما، لا يقدمان تفسيرا للسبب الذى يجعل الملايين من الرجال فى أوربا والولايات المتحدة ينضمون إلى المحافل الماسونية ويكرسون قدرا كبيرا من الوقت والطاقة والمال للأنشطة الماسونية.

إن مثل هذه المجموعات من الواضح أنها تفى بحاجة إنسانية، إذ إنها تلعب دورا ما فى المجتمع الذى يضمها. وربما نعلم أشياء عن هذا الدور إذا نظرنا إلى ماتقوم به الجمعيات السرية فى مجتمعات تختلف عن مجتمعاتنا اختلافا شديدا.

فالجمعيات السرية شيء أساسى بالنسبة لطريقة الحياة فى الجماعات القَبَلية الموجودة فى كثير من أنحاء العالم، لأنها الوسائل التى يتدرب بها الصبية كى يكونوا رجالا وليكتسبوا القيم ويتعلموا الأدوار التى تتطلبها منهم حياة البالغين. مثل هذه الجمعيات، كما سنرى فى الفصل الأول من هذا الكتاب، قد تكون بالغة التعقيد. وقد تستخدم جميع أنواع الضغط النفسى والعقوبات البدنية للحفاظ على سرية طقوسها. وقد يكون هذا الانضباط الجماعى فى ما يتعلق بالسرية حيويا لكيان القبيلة، تماما كالاحتفاظ بالأسرار الشخصية والكتمان بالنسبة لحياة الفرد.

ويصف هوبرت لو، عالم الأنثروبولوجيا، إحدى هذه الجماعات في غينيا الجديدة فيقول: «إن رجال البوكاوا يحدثون جوا من الغموض للنساء ويرهبونهن طوال فترة تلقين الصبية الجدد تعاليم الجمعية، بما في ذلك ختانهم». فهم يخبرون النساء بأن الشيطان يرغب فى التهام لحم أبنائهن، ولكنهن يستطعن تهدئة المارد بإحضار الكثير من الطعام، وفى هذه الحالة سيلفظ الشيطان الشباب الذين ابتلعهم. وتؤيِّد هذه الخدعة بطرق متعددة. وحسب رواية الرجال، فإن الغول يعض الصبية أو يحدث خدوشا فى أجسادهم، وهوما يفسر الخدوش الناتجة عن الختان. كما يحدث الرجال أصواتا كخوار الثيران يفترض أنها صوت الشيطان. بل إن هؤلاء الشباب يتم إخفاؤهم وتخويفهم بواسطة أصوات وأسلحة، إذ يُحدث الرجال قبيل العملية أصواتا تثير الذعر عن طريق الصياح والخوار والفرقعات، وحين يكتشف المستجدون الحقيقة أخيرا، يُمنَعون تحت التهديد بأفظع العقوبات من أن ينبسوا ببنت شفة لغير الأعضاء.

ويمكن أن تجد العديد من علامات إخفاء السر التى تقوم بها الجمعية السرية فى هذا الجزء، مثل الطقوس المصاحبة لإدخال عضو جديد، وما يشمله ذلك من محنة، وكذلك الأسطورة أو الحكاية التى تدعم مبدأ السرية وفصل الرجال عن النساء.

إن الجمعيات السرية حتى المصغرة منها، مثل جمعيات «الرفاق» و«الأغراب» و«الأيائل» تحتفظ بهذه السمات الأساسية التى سيجدها القارئ فى معظم الجمعيات التى يصفها هذا الكتاب. ولكن الاختلاف يكمن فى طبيعة السر فى حد ذاته وكذلك فى أسباب السرية. فمن الواضح أن هذه الأسباب ستختلف عند جماعة قبَلية مثل البوكاوا عن جماعة صغيرة من الرجال فى إحدى المدن الصغيرة في وسط الغرب الأمريكي. وكذلك سيكون الأمر مختلفا عند النظر إلى جمعيات سرية سياسية، مثل جمعية الكربونارى أو جمعية الأخوة الأيرلندية التى كانت فى حاجة إلى السرية لتضمن السلامة الجسدية لأعضائها. كما سيختلف حين ننظر إلى مجمع ماسونى بلندن أونيويورك.

مثل هذه المقارنة تبين لنا أن هناك أنواعا عديدة من التنظيمات السرية، كما تعزز

مثل هذه المقارنة القول بأن بعض المجتمعات الإنسانية تبدو عرضة أكثر من غيرها لأن تخرج تنظيمات كهذه. فبالرغم من أن الجمعيات السرية كانت موجودة دائما عبر التاريخ المدون، فى أنحاء كثيرة من العالم، فإنها ازدهرت بشدة فى أماكن وأزمنة معينة أكثر من غيرها. لذا نجد لزاما علينا أن نسأل عن السبب في ذلك. ومن المغرى القول، على سبيل المثال، بأن هذه التنظيمات ظاهرة شائعة فى المجتمعات القَبَلية. وهى كذلك بالفعل. ولكن من المهم أيضا أن نلاحظ أن الجمعية السرية لم تلعب دورا كبيرا فى صعود قبيلة لو فى كينيا بقدر ما ينبغى علينا ملاحظة أهميتها بين قبائل الكيكويو.

ولقد كانت الجمعيات السرية قوية عبر العصور فى الصين وبين الجاليات الصينية التى استقرت فى الخارج، إلا أن الشعوب المغولية المستقرة على حدود الصين الشمالية لا يبدو أنها استشعرت الحاجة إلى مثل هذه التنظيمات. ويثير هذا التوزيع غير المتساوى للجمعيات السرية عددا من الأسئلة المهمة التى سنعود إليها لاحقا فى هذا الكتاب لأنها تقدم لنا مفاتيح مهمة تعيننا على فهم الشروط التى تفرخ المؤامرات.

ولكن ينبغى علينا أن نحدد ما نعنيه بالجمعية السرية، فلكل تنظيم سر من نوع ما. أما ما يميز الجمعية، فهو أنها تولى أكبر قدر من الأهمية للسرية وأن طقوسها الرسمية مُصمَّمة بحيث تحمى هذه السرية. ففى حالات جمعيات مثل الحشاشين والسفاحين والماو ماو أو الروزكروشية على سبيل المثال، نحن نتعامل مع نمط خاص جدا من السرية حتى يمكننا القول بأن هذه التنظيمات لم تكن لتوجد أصلاً بدون السرية. إذ قد يدمرها أعداؤها أو تعجز عن القيام بالدور المنوط بها أو تفشل ببساطة فى الاحتفاظ بأعضائها. وتعد الماو ماو مثالا للفئة الأولى، وتعبر الجمعيات القَبَلية فى غرب إفريقيا عن الفئة الثانية، أما الفئة الثالثة فتتمثل فى الماسونيين الأحرار. بل يمكننا الذهاب إلى أبعد من ذلك. فهناك درجات عديدة مختلفة من السرية فى الجمعيات التى ينضم إليها الناس. غير أننا نستطيع أن نميز من بين هذه الجمعيات أربعة أنواع رئيسة، وهى: الجمعية المفتوحة والجمعية المحدودة والجمعية الخاصة والجمعية السرية.

فالجمعية المفتوحة هى التى يمكن أن ينضم إليها أى شخص . وهى لا تخفى أى أسرار عن أعضائها أو غيرهم . والجمعية المحدودة تختار أعضاءها طبقا لقواعد أو أهداف خاصة ، ولكن لا يضيرها أن يعرف غير الأعضاء أى شيء عن أعمالها . أما الجمعية الخاصة ، فهى أكثر استثناء ، ذلك لأن عضويتها قاصرة وشئونها لا تُنشَر عادة ، وقد تظل بعض أنشطتها طى الكتمان . ومن ناحية أخرى ، فإن الجمعية السرية تكون منظمة حول مبدإ السرية والاحتجاب ، وتطبق قيودا صارمة على العضوية ، وغالبا ما تغالى فى إخفاء أنشطتها عن نظر عامة الناس .

غير أننا ينبغى أن نكون حذرين من إقحام جمعيات معينة داخل هذه الفئات . ذلك أننا نعرف أن هناك درجات متوسطة من السرية . ولكن يمكننا قول المزيد عن كل من هذه الأنماط . فعادة ما تكون الجماعات المفتوحة ضعيفة التنظيم ، ولا تكون محددة الأهداف تحديدا جيدا . فقد تزيد قليلا عن كونها مجرد تجمعات من الناس التقوا معا بشكل مؤقت ؛ كأن يكونوا فى إجازة على متن إحدى البواخر على سبيل المثال ، وليس لديهم أي أهداف أو أنشطة مما ينبغى إخفاؤه عن الجميع .

أما الجماعات المحدودة ، فتكون عادة أكثر استقرارا ؛ ومعظم التنظيمات التطوعية تعد من هذا النوع . فهم أناس يتجمعون لجمع المال من أجل عمل خيرى معين أو للاستمتاع بالرياضة أو غيرها من الأنشطة الترفيهية ، أو ليلتقوا بهيئة التدريس فى المدرسة التى يذهب أبناؤهم إليها ، إذ تحكمهم قواعد ومسئوليات وأهداف محددة ، وعادة ما ينشرون ملخصات عن أنشطتهم . ولكن ليس ثمة ضرر يلحق بالتنظيم أو أعضائه إذا ما أعلنت جميع شئونهم .

ويختلف الأمر نوعا ما فى حالة الجمعيات الخاصة ؛ إذ قد تكون لديها أسبابها الوجيهة لعدم تشجيع العلانية . فمثلا قد يرغب بعض رجال الأعمال فى حماية أسرارهم التجارية من المنافسين ؛ وقد لا يرغب حزب سياسى ما فى أن تعرف الصحافة والمعارضون كل شيء عن سياسته أو خطته الانتخابية . وكذلك تكون لدى الحكومة دائما مجموعة من الأنشطة التى تحب أن تحتفظ بها لنفسها . إلا أن هذه تنظيمات عامة ذات أهداف خاصة .

أما فى الجماعات الأخرى ، مثل الأحزاب السياسية غير الشرعية التى تعمل تحت

الأرض أوالجمعيات الإجرامية ، فإن السرية شرط وجود الجماعة وهى تغلّف بقدر المستطاع جميع أنشطتها .

وقد يكون من المفيد بعد ذلك أن ندرس أنواع التنظيمات التى ستتناولها فى هذا الكتاب ، أى تلك التى تتسم بالسرية .

فهناك الجمعيات السرية التى نراها فى الجماعات القَبَلية فى غرب إفريقيا مثل البورو . وثمة فروق طقسية أخرى يسودها الطابع الدينى ، فجماعة السفاحين بالهند تنتمى إلى هذه النظم العسكرية التى قد يكون لديها دوافع دينية وسياسية . كما تتمثل أيضا فى جمعية فرسان الهيكل . وتوجد الجمعيات التآمرية السياسية مثل جمعية الكربونارى الثورية التى ظهرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر والفوضويين والبلاشفة فى روسيا القيصرية وجماعة الفينيين بأيرلندا . وكذلك جماعات أخوة تقوم على ممارسة الطقوس وجماعات شبه صوفية مثل الماسونيين الأحرار والصلورديين ، وهى جماعة تزعم أن لها معرفة بالطبيعة والدين . وهناك الجماعات الإجرامية التى تعتبر المافيا من أبرز أمثلتها .

وحتى هذه القائمة القصيرة تعد كافية لكى تجعلنا ندرك مدى تنوع أهداف الجمعيات السرية ، وكذلك مدى اختلاف أحوال الرجال العديدين الذين وجدوا أن من الضرورى لهم أن ينتموا إلى تلك الجمعيات . ومن هنا يمكننا أن نسأل ، على ضوء معطيات علم النفس الحديث ، عما إذا كانت هناك بعض أنماط الشخصية تنجذب إلى التنظيمات لكونها سرية وحسب ، أكثر من اهتمامها بالأهداف المعلنة لتلك التنظيمات . ولا شك فى أن هناك أنماطا من الشخصية تنجذب إلى أساليب الحياة التآمرية : إذ توجد من الحالات التى غيَّر فيها الأشخاص انتماءهم من تنظيم سرى إلى آخر يتشابه معه من حيث التركيب ويتناقض معه من حيث الغرض . غير أننا نعرف القليل عن أعضاء الجمعيات السرية العاملة فى الوقت الحاضر ، ناهيك عن تلك التى دُفنت تحت غبار الزمن بحيث لا نملك سوى التكهن عند النظر فى دوافعها . وفى أغلب الأحوال سنضطر إلى أن نقصر بحثنا على الأدلة الخارجية ، أى أن ننظر إلى ماكان من الممكن أن يسميه سيجموند فرويد بالظاهر «وليس بالكامن» من سمات مثل تلك الجماعات . فإذا فعلنا ذلك ، فسيكون بمقدورنا على الأقل ، أن نجد طرقا مفيدة لتصنيف ما نعرفه بالفعل .

ويمكننا أن نبدأ بملاحظة، وهى أن جميع التنظيمات السرية ينبغى أن تكون لديها معايير تقبل بموجبها بعض الناس فى عضويتها وتستبعد أناسا آخرين. فعلى سبيل المثال، كانت غالبية الجمعيات السرية التى نعرفها قاصرة على الذكور، أو كانت غالبية أعضائها من الذكور. ويبدو أن المؤامرات السياسية المتطرفة هى الاستثناء الرئيس من هذا التعميم (فهى تسمح بالعضوية للرجال فقط مع أنها غالبا ما تسمح للنساء بلعب بعض الأدوار فى جمعية فرعية). ويصدق هذا بصفة عامة على الجمعيات السرية القبلية التى تتصل أنشطتها اتصالا وثيقا بالطقوس التى ينتقل الصبية بواسطتها إلى مرحلة الرجولة، كما تتصل بالوظائف السياسية والدينية التى تعد حيوية لسعادة القبيلة. وفى هذه الظروف يلعب السن دورا مهما.

ثمة أسباب أخرى لاستبعاد مثل هذه القيود العنصرية، وهى شائعة جدا. فجمعية الكوكلكس كلان مثلا، تحظر عضوية اليهود والمهاجرين والكاثوليك والسود. وكان تنظيم السفاحين قاصرا على أبناء الأعضاء، كما كانت المافيا قاصرة على أشخاص صقليِّى المولد.

ويمكننا أيضا تصنيف الجمعيات السرية حسب ما تقوم به من وظيفة، وذلك بفحص أغراضها المعلنة وما تقوم به بالفعل. ولقد ذكرت هذه الوظائف من قبل. (فقد تكون وطنية) كما هو الحال مع جمعية أورانج فى ألستر أى أيرلندا (وقد تكون عنصرية) مثل الكوكلكس كلان (أو سياسية) مثل الكربونارى والفينيين والبلاشفة (أو عسكرية) مثل فرسان الهيكل (أو تشكيلات عسكرية جديدة) مثل إحدى الجمعيات فى مالطة. كما يمكن أن تكون ببساطة (أخلاقية) مثل الجمعية الحديثة لمكافحة الخمر والكثير من الجمعيات السرية وبخاصة فى الولايات المتحدة حيث تتعدى قليلا كونها جمعيات خيرية أو جمعيات للتأمين، ولا يضيف طابعها السرى وطقوسها سوى بعض البريق إلى أنشطتها العادية. وقد تكون بعض الجمعيات مهتمة بنوع من الانضباط الأخلاقى والروحي، ويمكن فهم كتمانها على هذا الأساس.

وتوجد أيضا فرق من المجرمين تُلزم أعضاءها بشكل أكثر رسمية من العصابات العارضة ؛ ومثل هذا النوع من التقليد الذى يرتبط فيه كل عضو مع رمز بطولته لا

يوجد فقط فى العديد من الدول الأوربية بل يوجد أيضا فى الصين . وهناك كذلك جماعات شكّلت لأسباب مثل بناء الأحجار فى العصور الوسطى أو النقابات المهنية المبكرة فى بريطانيا . (ويجب أن نتذكر شهداء دورست الذين كانوا أعضاء بالنقابات المهنية واتهموا وأبعدوا عا م١٨٣٧ لأنهم كانوا يجعلون الأعضاء الجدد يقسمون يمين الولاء غير المشروع) . وأخيرا يجدر بنا أن نذكر الجمعيات السرية العديدة المختلفة فى المجتمعات القبلية التى يبدو أنها مخزون قيم معترف بها فى حياة القبيلة بأجمعها .

ولسوف ندرس فى نطاق هذا الكتاب الأنماط المختلفة من الجمعيات السرية ، وسنعرف المزيد عن الظروف التى ازدهرت فيها والأدوار التى لعبتها .

ولكن قد يكون من المفيد فى هذه المرحلة أن نلفت الانتباه إلى بعض السمات الأخرى المشتركة بين الكثير منها ، وهى سمات ما زالت باقية حتى فى الجماعات السرية الموجودة فى الأزمنة الحديثة . فمعظمها على سبيل المثال ذو تركيب هرمى يتميز بنظام محكم فى الدرجات التى يتقدم خلالها العضو من مستجد إلى مسئول رسمي . وأحيانا يكون لهذه أسماء رنانة بل سخيفة . فمن بين الجمعيات السرية المعاصرة فى أمريكا مثلا ، نجد أسماء مسئولين مثل المستشار القائد (فرسان بيسياس) شجرة الأرز الرفيعة السامقة (أشجار عالية بلبنان) وذكر الإوز عظيم الولاء (فى جمعية الإوز الأزرق) والشيخ الصنديد(إشارة إلى صناديد الريشة الحديدية) . ويبدو أن هذا النوع من الجماعات تتعامل باستخدام أفعل التفضيل ، وتتعمد إطلاق تسميات موغلة فى القدم ومحكمة .

فهى تعطى أسماء غريبة لشعاراتها وأماكن اجتماعاتها . فكما هو متوقع ، تجتمع جمعية الأخوان النسور فى عش مرتفع وجمعية أشجار الأرز الشاهقة تجتمع فى إحدى الغابات ، وجمعية السود للصيادين والجليليين تجتمع فى هيكل يهودي . ويبدو أنه بمجرد أن تعزل إحدى الجمعيات نفسها عن المجتمع الذى ازدهرت فيه ، فإنها تحاول أن تزيد من تمايزها ببناء بيئة خاصة بها منغلقة على نفسها ومتسقة مع ذاتها .

وثمة طريقة أخرى لجعل الجماعة متماسكة ، وذلك بخلق قصة خاصة عن نشأة

هذه الجماعة . فأحيانا تكون هذه القصص تراثية، وفى أحيان أخرى تكون مختلقة من أجل إعطاء جمعية جديدة حقا فى الانتماء إلى أصول عريقة . غير أنه من الصعب الجزم بأن أعضاء هذه الجمعيات يحملون مثل هذه الحكايات محمل الجد . وكذلك لا نعرف مدى قبول هذه الأساطير باعتبارها جزءا من الخيال الجمعى الذى يؤدى إلى تضامن أعضاء الجماعة . ولقد وصف ألبيرج . ستيفينس أحد مؤرخى الماسونية تسع نظريات عن نشأتها على الأقل . من بين النظريات التى تتحدث عن أصل الماسونية والتى تلقى تأييدا كبيرا مايلى :

١ ـ تلك التى ترجع بها إلى بناة الأحجار فى العصور الوسطى أو إلى الأديرة القديمة أو هيكل الملك سليمان .

٢ ـ وهناك نظرية لا تكتفى بهذا بل تعود بها إلى نوح أو إلى آدم .

٣ ـ وهناك النظرية التى تقول بأن مهد الماسونية يوجد فى كليات البنائين الرومان فى الحقب المسيحية الأولى .

٤ ـ ونظرية أخرى تقول بأن الماسونية جُلبت إلى أوربا مع الصليبيين العائدين .

٥ ـ وثمة من يقول إنها نتاج فرسان الهيكل بعد قمع هذه الجماعة عام ١٣١٢ .

٦ ـ وثمة من يقول بأنها استمرار نسبى للصلورديين .

٧ ـ وآخرون يقولون بأنها نشأت عن الجمعيات السرية التى تشكلت من أتباع آل ستيوارت فى سعيهم لاسترداد عرش إنجلترا .

٨ ـ وهناك من يقول بأنها مستمدة من الأثينيين .

٩ ـ وأخيرا هناك من يقول بأنها مستمدة من القلديين [Culdees] .

وينبغى أن نلاحظ أن معظم هذه الأفكار تجد سندا لها فى جزء أو آخر من طقوس الماسونية الحديثة أو شعاراتها .

بل من الممكن أن نضيف نظرية عاشرة طلع بها أحد دارسى الجمعيات السرية بأمريكا الوسطى منذ حوالى خمسين سنة، وتقول : إن الماسونية تستمد أصلها من قبائل المايا الذين نقلوا طقوسهم وشعائرهم حسب زعمه إلى النيل والفرات منذ حوالى ١٢٠٠٠ سنة، وأسسوا حضارة الشرق الأوسط .

وليست الماسونية هى الجماعة الوحيدة التى تزعم أن لها أصولاً عريقة. فلسوف نرى فى فصل لاحق كيف أن الروزكروشية التى تعى الذاكرة الحية أن أحد رجال الأعمال فى كليفورنيا هو الذى أسسها، وتزعم رغم ذلك أن أعضاءها هم حراس أسرار البشرية المفقودة. كما تزعم جماعة رجال الغابة التى تأسست عام ١٨٨٣، بأمريكا أن الجماعة وُجدت بشكل أو آخر، قبل أن يحلم أحد بالنسر الرومانى أو العجل الذهبى بقرون (وكذلك تتجسد موضوعات مماثلة فى خرافات وطقوس العديد من الجمعيات السرية).

ويبدو أن الجمعيات التى مازالت مزدهرة فى أوربا والولايات المتحدة تستمد مصادرها من الكتاب المقدس. فبناء هيكل الملك سليمان يلعب دورا رئيسا فى الماسونية؛ وكذلك فإن صلب المسيح الذى كان موضوع الاحتفال بترقية أحد أعضاء جماعة الكربونارى إلى الدرجة الثالثة، تعاد تأديته بواسطة الماسونيين الذين يأخذون (درجة القوس الملكي) اليوم.

وتوجد قصة أو أمثولة السامرى الطيب فى أماكن عدة وبخاصة فى جماعة الرفاق الغرباء المستقلة. وكذلك الحال مع قصة داود ويوناتان. ويربط الماكابيون أنفسهم بأسرة الماكابيين التى كانت تعيش فى القرنين الثانى والأول ق. م، بينما تقوم دراما بداية العضوية فى جمعية رجال الغابة القديمة على حكاية روبين هود.

فإذا فحصنا موضوعات من هذا النوع بالتفصيل ونظرنا فى فائدتها لطقوس الجمعيات السرية، فسنرى أنها عادة ما تتوافق مع أنماط عريضة معينة. إذ تعطى أهمية كبرى للعشائر الأصلية فى إلحاق عضو جديد بالجمعية، وهذا أمر متوقع ما دامت هذه العشائر مصممة لتضع حدا فاصلا بين العضو المقبول فى الجمعية وغيره من الناس.

وفى معظم الحالات يلعب العضو الجديد دورا دراميا مشابها لغيره: فهو يُعامل كشخص غريب أو جاسوس أو حاج أو شخص مغترب أو شخص خارج الجماعة ينبغى أن يخضع لاختبارات مختلفة. فغالبا ما يُطلب منه القيام برحلة رمزية يقابل أثناءها تهديدات أو إغراءات. والذين يعرفون أوبرا الناى السحرى لموزار سيكونون

على دراية بالأوامر التى أمر بها الأمير تاميونو وكيف أنه خضع لعملية ضبط بالصمت التام. وكثيرا ماتشمل شعائر العضوية الجديدة من هذا النوع موتا وبعثا رمزيين، ويبدو أن مثل هذا النوع من الشعائر يدل على قبول العضو التام لوضعه الجديد المتغير. فهو بالأحرى إنسان جديد بنظرة جديدة تتشكل شخصيته حسب قيم بيئته الجديدة.

وقد تكون مثل هذه التجربة، التى تعدبطبيعتها غير قابلة للنقل، هى أكثر المراحل حسما للحصول على عضوية أي جمعية. وحين يجرد المرء الجمعيات السرية من طقوسها ورمزيتها بحيث يصل إلى جوهرها الحقيقي، يبدو له أنها حقا تهدف فى النهاية إلى ضمان نوع ما من التحول عن طريق الاستنارة الداخلية.

إن الانتقال إلى مرحلة الرجولة فى مجتمع ما من المجتمعات القبلية، وكذلك السماح بالعضوية فى إحدى الجلسات الغامضة أو اعتناق الأديان أو الدخول فى محفل ماسونى، بل إن مراسم العضوية فى عصابة إجرامية صينية فى هونج كونج - هذه كلها لها جميعا نوعية التجربة الدينية التى تنقل العضو الجديد من عالمه العادى إلى عالم جديد من الزمالة والرفقة.

وتتضح أهمية موضوع البحث أيضا فيما تناوله من التركيز على تكرار هذه الظاهرة فى الكثير من الأساطير والأديان فى أنحاء مختلفة من العالم.

ولقد اعتبر عالم النفس السويسرى كارل جوستاف يونج هذا الموضوع جزءا أساسيا مما أسماه عملية تشكيل الفرد(أى العملية التى ينمو بها الفرد ويتحمل دوره كشخص بالغ). ولكن بالنسبة ليونج يتعدى هذا العملية الدنيوية وهى أن يجد الفرد مكانا له فى المجتمع إذ تصبح ذات صلة بحاجة الإنسان إلى أن يجد معنى لحياته، وبذلك يتصالح مع ما فى الوجود من غموض. كما يذهب يونج إلى أن هذه الحاجة الروحية غالبا ما تجد تعبيرا عنها فى إحساس المرء بأنه يُبعث من جديد. ويمكننا أن نتبين شيئا من هذا فى جميع الأديان. وقد أنفق يونج شطرا من حياته فى تتبع الأنماط الرمزية المعقدة التى تعبر هذه الحاجة الروحية عن نفسها من خلالها؛ مثل الطريقة التى تُستخدم بها مذابح المعابد وكذلك استخدام أشكال مثل النجوم والصليب والدائرة والحَمَل والحية والسمكة؛ وإعداد أزياء وممتلكات خاصة والاعتماد على

الترنيم والصلاة والمواكب والتأمل الصامت. إن جميع هذه السمات يمكن أن توجد فى التنظيمات العامة كما توجد فى التنظيمات الخاصة أيضا.

والسؤال المثير للاهتمام هنا، هو: لماذا يجد بعض الرجال أن المراسم العامة فى أيامهم غير مقبولة مع أنهم قد يقلدون الكثير من هذه المراسم تقليدا حرفيا فى طقوسهم الخاصة (ويشعرون بأنهم لا يحققون ذواتهم إلا من خلال العضوية فى جمعية خاصة استثنائية)؟ والإجابة عن سؤال كهذا ليست سهلة برغم حيويتها لأى فهم لسيكلوجية السرية.

إنه من المفيد أن نضع ذلك نصب أعيننا بينما ندرس الأنماط المختلفة للجمعيات السرية فى هذا الكتاب، إذ من غير الممكن فهم طبيعة العضوية فى الجمعية السرية دون أن نمر نحن أساسا بتجربة دينية. وما لم يتم ذلك، يكون من العسير تفسير أنواع القسَم المحكمة- المرعبة أحيانا- التى تقيد العضو بالسرية. فالكثير من تلك الأيمان يستجلب الموت على الخائن. ومع أن هذه العقوبة ذات قيمة رمزية فى الكثير من الجمعيات السرية، فمن المستلفت للنظر أنها تحتفظ لهذه الصيغة من القسَم بقوتها الملزمة انفعاليا. ولن يقسم العضو الجديد بهذه الأيمان ما لم يشعر بأنها تربطه بعقوبة قوية عميقة بحيث يعتمدتكامل شخصيته بشكل ما على احتفاظه بعضوية كاملة بالجماعة دون أى نقاش.

ربما تبدو الطقوس التى يصفها هذا الكتاب شاذة ومجافية لهذه الفترة التاريخية؛ وقد تبدو معتقدات تلك الجمعيات حمقاء، وممارستها شاذة بل همجية، ولكن لا ينبغى لأحد أن يقلل من شأن قبضتها على أعضائها؛ فهم يفضلون الموت على فصم الروابط التى جمعتهم معا.

الجمعيات السرية البدائية

إى. مايكيل مندلسون

كل فرد إذن هو جمعية سرية (بالنسبة لنفسه)، وتختلف طبيعة ما نحتفظ به سرا باختلاف المجتمعات والثقافات. فقد تُحجب آراء الشخص الدينية ومعتقداته عن الجميع عدا القس أو الشخص الذى يعترف له. وقد يعرف مدير البنك الذى يتعامل معه عميل ما عن أحواله المالية أكثر مما تعرفه زوجة ذلك العميل. بل إن أكثر المجتمعات عريا لديها مفهومها الخاص بها عن الخصوصية. ففى إحدى قبائل بوليفيا يستطيع الشخص فعل أى شىء طالما يوجه وجهه نحو الحائط وطالما لا «يرى» الآخرون ذلك الفعل.

ويجادل عالم الاجتماع الألمانى جورج سيميل بأن فى المجتمعات المتقدمة تميل الأمور الأكثر سرية إلى أن تصبح أقل سرية. أما فى المجتمعات البسيطة، فإن الأمر يصبح على العكس من هذا. فالناس يعيشون فى تجاور شديد بحيث تكون التفاصيل الحميمة لحياة الآخرين الخاصة مألوفة لديهم، فى الوقت الذى قد يكون فيه من الضرورى الاحتفاظ بالأمور العلنية سرية إذا كان لها أن تحتفظ بقوتها وحيويتها.

وقد يعطينا هذا مفتاحا لفهم طبيعة الجمعيات السرية فى الشعوب المتقدمة والشعوب البسيطة كل على حدة. إن المجتمعات البدائية أقل حجما وأقل تعقُّدا، وهذان أمران لهما أهميتهما فى هذه المناقشة.

لقد تحدثنا حتى الآن عما هو سرى بطبيعته (إما لأنه لم يكن مما يتحتم علينا إخفاؤه، وإما لأنه يشكل جزءا من خصوصية الفرد). ونقترب الآن مما هو سرى بمعنى الكلمة وننظر فيما يتم إخفاؤه عن عمد.

إن الناس يحتفظون بأشياء بعينها سرا لأن اكتشافها يعرضهم للخطر جسديا ونفسيا. فالجماعة التى تتآمر على المجتمع الأكبر، على سبيل المثال، ستتحطم إذا ظهرت مؤامراتها فى النور. وهناك أسرار فى عالم السياسة والاقتصاد. . إذ قد يخفى الزعماء السياسيون بعض الأمور عن الشعب ككل. وكذلك لا يستطيع وزير المالية أن يكشف عن أسرار ميزانيته قبل تاريخ محدد. والمتخصِّصون يخفون إنتاجهم ليحصلوا على حقوق الطبع.

ومن الواضح أن هناك سرية السلطة والمكانة، ففى الكثير من الجمعيات السرية (البدائية) تعتبر بعض الأمور سرية حين تكون موضع جدال حاد بحيث يجعلها كذلك. وحين يوجد تنظيم سرى ينضم إليه كل فرد من أفراد القبيلة فى فترة ما من حياته سيكون كل الناس على علم بهذا التنظيم بمرور الوقت. وغالبا ما يقرر الرجال أن السر ينبغى أن يُحجب عن النساء والأطفال، ويتحدثون عن العقاب الذى يتم إنزاله على كل من يُفشى السر وأيضا على كل من يكتشفه. ولكن هل يستطيع المرء أن يعتقد أن النساء لا يعرفن السر مطلقا؟

المهم إذن فى المحل الأول ليس الشىء الذى يُحتفظ به سرا بقدر ما أن هناك سرا ما يتم إيجاده وهو يتعلق بمكانة وامتيازات جماعة سنية أو جنسية داخل المجتمع الأكبر. فالسر فى هذه الحالة إن هو إلا آلية للفصل والإقصاء بين جماعة قائدة وأخرى فرعية فى وقت يظهر فيه المجتمع ككل بحيث لا يبقى سوى النذر اليسير مما يميز الناس. فنحن هنا إذن، إزاء نقطة مهمة ؛ هى أن كثيرا من الجمعيات السرية (البدائية) تقوم على فوارق جنسية وسنية.

وتوجد فى الكثير من التجمعات الإنسانية بعض التنظيمات ذات طبيعة دينية. ونحن هنا أمام موقف تُحجب فيه بعض المعتقدات الخاصة بطبيعة الكون ليس فقط عمّن هم خارج الجمعية بل أيضا عن أعضاء آخرين بالجمعية. فما السبب فى هذا؟

من الواضح أن الكهنة والمسئولين الدينيين ذوو امتيازات وسلطة، والسرية تضيف إلى مكانتهم كما تضيف إلى مكانة رجال السياسة. ومن أشد العناصر إثارة فى طقوس الكثير من الجمعيات السرية البدائية التصريح النهائى للأعضاء الجدد

بأن الآلهة الذين رأوهم يتقافزون في الأكمة هم معلموهم ولكنهم متنكرون. وفى ذلك الوقت عموما، يكون الأعضاء الجدد قد مروا خلال عملية تعليمية تجعلهم يفهمون ضرورة هذا الفعل، بينما كان من الممكن أن يسخروا من ذلك وهم أطفال.

إذن نحن لا نتناول السلطة والمكانة بقدر ما نتناول عملية تعليمية يصل من خلالها البشر تدريجيا إلى معرفة معتقدات مجتمعهم وعاداته. فنحن كلنا ندرك أن هناك أمورا لا يمكننا أن نقدرها إلا حين نبلغ سنا معينة، وأن ثمة جوانب من التجربة يجب أن تنضج بداخلنا لكى تصبح ذات معنى. وإذا صح هذا بالنسبة للأمور الخبيثة فإنه يكون أكثر صدقا بالنسبة إلى المعتقدات الدينية. وتعتبر عملية مسيحية مثل التعميد إحدى المراحل الرسمية فى العملية التعليمية. وتتخذ مثل هذه العملية طابعا رسميا أكثر من ذلك فى الجماعات البدائية كما هو الحال فى مجتمعاتنا. وينطوى معظم عمل الجمعيات السرية (البدائية) على الأخذ بيد كل جيل من خلال خطواته فى معرفة الدين عبر سلسلة من المراسم تُعرف بطقوس الطريق، يؤخذ أثناءها العضو الجديد خارج المجتمع لفترة ثم يعاد إليه شخصا مختلفا تماما.

وكثيرا ما تتخذ هذه العملية شكل موت تمثيلى يتبعه بعث تحت اسم مختلف. فالانضمام، على أى حال، يكون روحيا وماديا فى آن واحد. ويُعد طقس المرور فى مراحل العضوية نموذجا لعملية أخرى تُلخَّص فى العهد الجديد بشكل يبعث على الإعجاب: «الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتى بثمر كثير». يبدو الأمر وكأن الإنسان يجب عليه أن يعمق تجربته عن طريق معاناة عظيمة أحيانا تقترب من الموت، ويتعلم كيف يتخلى عن الكثير من الأشياء التى يتعلق بها فى أى لحظة بعينها قبل أن يستطيع الحصول على انعتاق الاستنارة أو نعمة الخلاص. وكذلك يبدو لأى شخص مر بهذه التجربة أن نتائجها فى النهاية لا يمكن التعبير عنها، الأمر الذى يوحى لنا بأن السر الدينى كثيرا ما يكون سرا ليس لأن أى شخص احتفظ به، ولكن لأنه لا يمكن معرفته دون خوض التجربة.

وقد لخَّص فرانز كافكا هذا الموقف حين قال : « إن الطريق المستقيم الذى يمر فوق جبل ليس معلقا على ارتفاع كبير ولكنه فوق الأرض مباشرة . إذ يبدو أنه مصمَّم بواسطة سيخ يجعل الناس يتعثرون بدلا من أن يعبروا من فوقه» .

ولكن لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة البحتة أن تشمل الكثير من طقوس الجمعيات السرية سواء البدائية أو المتقدمة اختبارات للصبر والجلد والإيلام المتعمد والانضباط بالصمت والبطولة ، كل هذه تكون متبوعة بالكشف التدريجى عن الألغاز المتعلقة بوجود الموت فى جميع الكائنات الحية ، تلك الألغاز تزيل لدغة الموت ويتبعها عودة المريد إلى العالم ككائن تم بعثه من جديد أى أصبح عضوا بالجمعية .

وكثيرا ما يبدو أن الجمعية السرية تأخذ على عاتقها خلق ظروف تهيئ للقليل من الرجال المحظوظين الوصول إلى الحكمة بطريقة طبيعية غير مفتعلة . وللسر قيمة انضباطية حيث لا يمكن الاحتفاظ به دون الانتباه الدائم . فعملية اكتساب العضوية تعلم العضو الجديد الاعتماد على الذات جسديا وروحيا . وقد يكون من شأنها فصم عرى العلاقات المتبادلة فى أوقات الشدة والخطر للحفاظ على التوازن بين التقارب والتباعد ، ذلك التوازن الذى يُعد ضروريا لجميع البشر إذ يكمن تفرُّد العضو الجديد فى هذا الانسحاب من العلاقات مع غيره من الناس وهو ما يحرره من الكثير من القيود التى تكبل الانسان فى المجتمع . قد يكون هذا هو السبب الذى يجعل أولئك الذين بلغوا أرفع درجات العضوية يتمتعون بميزات لا تتاح للأعضاء العاديين بالجمعية ويتصرفون بطريقة معادية للمجتمع نسبيا . وربما كان الزواج المحرم الذى كان يُسمح به للملوك المقدسين فى مصر القديمة امتيازا من هذا النوع .

والجمعية لا تنشأ بل هى عادة تُشيَّد . . والتشييد ينطوى على ضغوط وتضامن بين الأعضاء . كذلك فإن تلك الجمعيات لها وظيفة جماعية من حيث إن أشخاصا مبدعين يجدون إشباعا فى إتقان تشكيل الطقوس والنظم الرمزية ، لذا يوجد الكثير من فن وشعر عدد من الشعوب داخل طقوس الجمعيات السرية .

وقد تكون المعرفة التى توجد فى الجمعيات السرية أعمق من تلك التى توجد لدى القبيلة ككل ، إلا أنها ليست مختلفة اختلافا جذريا . وهكذا يُقبَل تقسيم

المعرفة فى المجتمعات التقليدية كجانب مشروع من جوانب تقسيم العمل. ففى ميادين الفن والعلم ثمة بناء هرمى للقيم الشخصية مغاير للبناء القائم على مجرد أداء الضروريات فحسب. ومن ثم يجد تعويضا له عن الافتقار إلى السلطة فى مجالات الاقتصاد والسياسة.

إن تعريف طبيعة الجمعيات السرية فى المجتمعات المتقدمة أيسر من تعريفها فى المجتمعات البدائية. حيث تشترك مع المجتمع فى الكثير من الوظائف الدينية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية.

وفى وقت مبكر، وضع أحد علماء الأنثروبولوجيا نماذج لما ينبغى أن تكون عليه الجمعية السرية. وربطها بسمات اجتماعية أخرى كالطوطمية والحكم الأبوى والباترياركى، ولكن مثل هذه المناهج تقع فى النهاية تحت وطأة الحالات الاستثنائية. ولا يوجد لدينا سوى القليل من الحقائق التى يمكن التعويل عليها عن الجمعيات السرية (البدائية)، ذلك لأن القليل من علماء الأنثروبولوجيا قد توصلوا للمنهج الوحيد الذى يمكن اتباعه فى البحث، وذلك هو الدخول فى عضوية إحدى الجمعيات. فالدين نفسه موضوع شائك تصعب ملاحظته، ويبدو أن من الأوفق الآن أن نقول إن السرية قد تظهر فى أى عدد من المواقف الاجتماعية نتيجة عدد من الأسباب المختلفة بدلا من محاولة إقحام الواقعية بوضع تعريف شديد الإحكام للجمعيات السرية البدائية.

وإذا كنا فعلا غير قادرين على تمييز أنماط معينة بوضوح، وكذلك غير قادرين على تحديد نوع المجتمع الذى من المحتمل أن يظهر فيه كل نمط من هذه الأنماط، فيمكننا أن نأخذ عددا من الأمثلة موضوعة بشكل متدرج. فإذا اعتبرنا أن المجتمع بأكمله جمعية سرية فى أعلى السلم، واعتبرنا الفرد جمعية سرية فى أسفله، فأين يمكننا أن نجد معظم الأمثلة؟ هل بين جميع الرجال أو بين جميع النساء أو بعض الرجال أو بعض النساء؟ هل بين جميع الشيوخ أو بين جميع الشباب أو بين بعض الشيوخ أو بين بعض الشباب؟ وهل يمكننا بالفعل أن نضرب مثلا بمجتمع بأكمله باعتباره جمعية سرية؟ لقد زعم بعض الكتاب المعاصرين، مثل عالمى الروح الفرنسيين لوى ماويل وجاك بيرجيه، أن البشرية تستطيع الآن بصورة جماعية أن تصل إلى ما يعادل حجج الفلاسفة أو قوة المشعوذ. وربما نتذكر جهود النازيين

التى كانت ترمى إلى أن تعزو طابع الجماعات السرية لشعوب بأكملها وبذلك تجعلها أكثر تميزا كى تستمد مزيدا من السلطة عن طريق تدميرها، كما كان الحال فى المؤامرة اليهودية الوهمية المسماة بروتوكولات حكماء صهيون.

الجمعية السرية المكونة من رجل واحد :

وعدا الأمثلة التى سقناها والمتعلقة بخصوصية الفرد والحصانة، يوجد مسئولون فى هيئات دينية عامة يُعتقد أن لهم سرا ما يمكّنهم من الخدمة كوسطاء بين إله معين وبقية أفراد المجتمع. من بين هؤلاء هناك رجال الدين المشرفون على الآلهة التى تعطى المشورة قبل القيام بأى غزو فى كنائس مرتفعات مايا فى جواتيمالا. وعدا هذا فإن الكنائس تكرس كل جهدها لعبادة القديسين الكاثوليك.

وكما رأينا فى معظم الظروف البدائية، فإن الجمعيات تقع بين هذين النقيضين اللذين يمكن ألا يتعديا الجنس أى التمييز بين الرجل والمرأة والفئات السنية. ولا نكاد نعثر فى المجتمعات البدائية على جمعيات سرية مشكلة لمعارضة النظام القائم أو القيام بانقلاب ضده، بل على العكس من ذلك فإن كل شىء يشير إلى أن الجماعات الفرعية تعمل على تحقيق مجتمع صحى، موحدة بين الرغبات والأفعال التى توجد فى المجتمع عموما.

وعلينا أن نقنع بالتناقض الظاهر فى جماعات معينة تخفى الأمور عن غير الأعضاء، ليس فقط لصالح تلك الجماعات بل وأيضا لصالح غير الأعضاء. ويعد هذا عنصرا أساسيا فى بنية جميع المجتمعات الإنسانية. فالحياة الثرية تتطلب التنوع، غير أن التنوع فى الوقت نفسه لا يمكن أن يُسمح له بأن يتحول إلى فوضى إذا كان للمجتمع ككل أن يستمر فى البقاء.

ولقد قام عالم الاجتماع الفرنسى إميل دوركيم بدراسة الطريقة التى تعمل بموجبها الجمعيات الفرعية داخل المجتمعات البدائية نحو حل هذا التناقض، وذلك بتقسيم العالم والوظائف الاجتماعية بين الجماعات الفرعية وجعل كل جماعة فرعية مسئولة أمام مجتمع عن ذلك الجزء من الكل الذى تملكه. (ففى سيرا ليون

مثلا تعد الجمعيات السرية المختلفة مؤسسات متخصصة تملك أو تُعنى بجوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية وعلى الفرد أن يدفع لها مقابل مساعدته في بعض الأمور المتعلقة بالجانب الذى تملكه هذه الجمعيات).

فى هذه الحالة، من الواضح إذن أن الجمعيات السرية شأنها شأن أى جماعة فرعية تساعد على تشكيل المجتمع ككل. لذا سنجد فى الأمثلة التالية جمعيات سرية ذات وظائف عامة، مثل القيام بتعليم أعضاء المجتمع الأصغر سنا بالإضافة إلى وظائف محددة مثل القيام بعلاج أمراض معينة. ومن بين الجمعيات السرية التى بحثها علماء الأنثروبولوجيا بحثا دقيقا، نجد جمعية البورو وهو اسم لتنظيم يوجد بين جماعات قبلية مختلفة فى ليبيريا وسييراليون وغينيا.

ولنحاول أن ننظر بايجاز إلى السمات المشتركة بين هذه القبائل بدلا من تجزئة تلك السمات على كل قبيلة على حدة. والبورو من ناحية جمعية قَبلية يتعلم فيها المراهقون عادات قبائلهم ومعتقداتها، كما أنها من ناحية أخرى جمعية سرية تتكون من رجال لديهم معرفة أكثر اكتمالا بألغاز الكون كما يتمتعون بسلطة كبيرة داخل مجتمعاتهم. ومازالت البورو تلعب دورا مهما فى الحياة القَبلية برغم تدخُّل المستعمرين والحكومات الليبرالية.

ومن المؤكد أن البورو جمعية قديمة جدا. ويوحى البعض بأن اسم بورس كامبوس الذى يظهر على خرائط العصور الوسطى المبنية على خرائط بطليموس يعنى أكمة البورو. وتظهر أولى الإشارات الموثوق بها فى موضوع البورو فى مصادر أمريكية من أصل إسبانى وبرتغالى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وهناك فرق بين البورو كمؤسسة والبورو كنشاط سرى تحت الآكام. وينشئ الكبار مثل هذه المدارس فى مكان بعيد عن القرية حين يقررون أن هناك عددا كافيا من الصبية ممن هم فى السن المناسبة.

وفى الأزمنة القديمة، كانت المدرسة تستغرق ثلاث أو أربع سنوات، أما اليوم فإن فترة التعليم من الممكن اختصارها إلى بضعة أسابيع. كانوا قديما يعزلون مكانا فى أحد الأحراش به مدخل يحجُب ما يحدث عن النساء والصبية غير الأعضاء. وكانوا يرسلون رجالا مقنَّعين لإحضار الصبية من القرية.

ويُلاحظ هنا بوضوح موضوع الموت والبعث؛ وهو الذى يميز دخول العضوية . وفى بعض الحالات تُربط قربة مملوءة بدم الدجاج بمعدة الصبى ويتصنع الأعضاء التصويب عليه بالسهام بينما هم يدخلونه داخل الحرش. ويعتقد أن العلم الذى يتلقاه الصبى نابع من الأجداد الذين انصهروا (فى عالم الروح)، ويفترض أن تمساح الأرواح ابتلعهم، ويلطخون أنفسهم بالطين ويعتبرون اللون الأبيض لون الأرواح . وتصدُر أصوات خوار وأصوات مصحوبة بموسيقى ترمز إلى أصوات الأرواح، وتشكل الجزء الصوتى من طقوس العضوية حتى يسمعه غير الأعضاء .

وكانت معظم الوجوه المقنَّعة تقوم بدور الأرواح . وكما هو الحال فى معظم مراسم الانضمام إلى العضوية، سرعان ما يعرف المتقدمون الجدد أن الأقنعة ليست أرواحا فى الواقع، وإنما هم بشر مثلهم، ويتم تأكيد ذلك عند نهاية التعلم فى البورو حيث كان الصبية يشاهدون رجلا يرقص واضعا على وجهه قناعا دون أن يغطى جسده بزى ما. وتنفَّذ الرقصة بكل عناية، وفى النهاية تُقدَّم أضحية للقناع للاشارة إلى أن القناع هو المهم وليس من يرتديه.

وعادة ما توضع علامة جسدية للإشارة إلى إتمام العضوية. ففى حالة البورو تتكون هذه العلامة من الختان وإحداث خدش صغير، إلا أنه كان يكتفى بالختان فى القليل من القبائل الأخرى. وكانت الندوب التى يحدثها الكهنة بواسطة سنارة أو شفرة بمثابة العلامات التى تركتها التماسيح الروحانية أثناء عملية التقدم للعضوية . كانت عملية الموت والبعث تتم مضاهاتها بعملية التقيؤ أو طقوس المخاض فى نهاية جلسة البورو، وكان يقال عن الأعضاء الجدد الذين ماتوا أثناء التعلم إنهم ظلوا فى بطن الروح، ولا يمكن إقامة حداد عام على أرواحهم.

وهناك نواح أخرى فى موضوع الموت والبعث كانت تشمل إلى حد ما نوعا من التعميد مثل الغمر بالماء وإطلاق أسماء جديدة ووضع مسئوليات معينة على عاتق الشخص قبل العضوية، وكذلك تَصنُّع عدم التعرف على الأقارب عند الخروج لأول مرة من مدرسة البورو والذهاب إلى القرية .

ويقال إن الانضباط فى مدرسة البورو صارم إن لم نقل قاس، وكان فى بعض

الأحيان مصحوبا بعدد من التضحيات البشرية . . ويقول البعض إنه يبدو أن أضحيات من لحوم البشر كانت تُطلب من العضو المتقدم للترقى إلى مراتب أعلى فى جمعية البورو . (وكانت مخالفات مثل التلصص داخل جمعية البورو من جانب غير الأعضاء وكشف أسرارها أو إظهار الاستهزاء أو محاولة تقليد أصوات الأعضاء يُعاقب مرتكبها بالموت . وكانت تُعرض على الصبية لدى دخولهم صوان عليها أصابع أقدام وأصابع إبهام وأصابع خنصر لمن أساءوا للجمعية . وكذلك كان الصبية يُعاملون بقسوة ويُوقظون فى منتصف الليل ويعاقبون عقابا تعسفيا . وإذا أصيب أى صبى بعدوى نتيجة وضع علامة على جسده فإنه يُقتل تلافيا لانتشار الوباء) .

وأثناء الدراسة بمدرسة البورو يتعلم الصبية الأد ب الشعبى القَبلى والأخلاق والطقوس الدينية وكذلك المهام التى ينبغى أن يعرفها كل قَبلى بالغ . وأيضا يتعلم الصبى فنون الحرب والصيد والزراعة وغير ذلك من المهن المتخصصة .

وكان المجتمع داخل الجمعية محكم التنظيم بضباطه ومحاكمه المصغرة ومجالسه . وبرغم قسوة النظام داخل البورو ، فإن بعض النواحى كانت سارة ، إذ كانت الولائم تقام باستمرار ويقدِّم الطعام أثناءها رجال مقنَّعون اعتادوا أن يذهبوا إلى القرية للتسول أو الاقتراض أو السرقة أو حث آباء الصبية وأمهاتهم وغيرهم من القرويين على إعطائهم الطعام .

ومن هذه الناحية يتضح أن مدرسة البورو مكلفة بالنسبة للمجتمع ؛ والتعليم الذى تقدمه ، بالتالى ، لا يُعد مجانيا بأى معنى من المعانى . وبما أن مدرسة البورو من المفترض أنها تُعدهم للزواج ، فإن برنامجها كان يشمل التربية الجنسية . إذ كان الصبية الذين يُشفَون من عملية الختان يأكلون ما يُقطع من الفتيات أثناء ختانهن . وكانت جمعية النساء هى التى تقدم ذلك . بينما الفتيات يلتهمن ما ينتج عن ختان الصبية . وقد يكون هذا مرتبطا بالاعتقاد الذى وجد بين قبيلتى الدوجون والبمبارا بالسودان القائل بأن : كل طفل يولد وبه روحان ، إحداهما أنثوية والأخرى ذكرية ، وإن إحداهما يجب أن تزال بعملية الختان .

وهكذا يمكن القول بأن مدرسة البورو كانت تقدم ما يمكن أن نطلق عليه

التكوين قبل الجامعى لجميع الرجال فى القبيلة، بينما كانت السندى أى جمعية النساء تقدم تدريبا معادلا للنساء. وكذلك كانت مدرسة البورو تقدم تعليما أعلى وبالتالى متاحة للولوج إلى مكان أكثر رفعة للقلة من حيث إن المسئولين بالجمعية كان يتم انتقاؤهم من بين من تخرّجوا من مدرسة الأكمة هذه.

ويبدو أن المدرسة كانت تنقسم إلى ثلاث طبقات: العوام، أولاد الرؤساء الذين يتحملون مهمات قيادية، والكهنة والصبية الذين ينتمون إلى الجماعة الأخيرة وقد يكونون من بين أبناء الكهنة أو من بين الصبية الذين رأى العرافون أن طباعهم تؤهلهم لمكانة كهذه. أما العرافون، فبما أن لديهم معرفة غيبية فإنهم كانوا ينضمون إلى البورو بعد أن تكون قائمة بالفعل.

وكان الكهنة يتخذون نظاما هرميا، ويُعتقَد أن أرفع الرتب كانت متاحة فقط للأعضاء الوراثيين من بين القليل من العائلات. وتزعم بعض المصادر أنه كان هناك ٩٩ رتبة. وتظل أعلى مستويات الأسرار المذهبية مجهولة بالنسبة لغير الأعضاء، ولكن كلما علا نجم الشخص فى جمعية البورو، امتد نفوذه إلى أبعد من حدود جماعته الاجتماعية، إذ توجد لغة من الإشارات شبيهة ربما بلغة الماسونيين، تضمن أن هذا الشخص سيُستقبل فى جماعات البورو الأخرى إذا ما اختار السفر. أما الكهنة، فهم يدفعون ثمنا غاليا مقابل معرفتهم المتخصصة. إذ يتحملون مسئوليات شخصية عن (أدويتهم) والكائنات التى تعينهم على ممارسة السحر، إذ عليهم إطعامها من الأضاحى ومعاملتها باعتبارها ذات شخصية قائمة بذاتها. ويرمز امتلاك الكهنة لهذه الأدوية إلى تمكُّنهم من قوة سحرية مختلفة، وهو ما كان يؤهلهم للقيام بمهام داخل البورو، كما يؤهلهم لإعطاء المشورة خارج نطاق البورو. وفى بعض الجماعات قد يتمتع الكهنة بارتداء الأقنعة المختلفة؛ وفى جماعات أخرى كان الكهنة ومرتدو الأقنعة فئتين متمايزتين.

وقد أظهرت الأبحاث فى ليبريا وسيراليون ونيجيريا أن جمعية البورو كان لها دور سياسى، فكانت اهتمامات البورو تشمل المجتمع بأكمله بحيث كانت بالفعل بديلا عن أنواع الحكم ذات التنظيم المتقن التى كانت توجد إذا ما اتجهنا نحو الشرق فى غانا مثلا أو فى نيجيريا. وكان هناك مساندة مُتبادلة بين البورو والسلطة

السياسية من حيث إن الشيخ هو راعى البورو فى الشئون الخارجية مع أنه يكون خاضعا لمسئولى البورو داخل المدرسة. فبينما كانت المعارك الأقل شأنا تُفض علنا عن طريق رؤساء العائلات ورؤساء المدن، كانت المعارك الكبرى يتم الحكم فيها عن طريق مجالس تضم كهنة البورو وكبار شيوخ القبائل، وكذلك الشئون الخارجية. وكلما كان الأمر على درجة أعلى من الأهمية، كانت المجالس أكثر سرية.

ويتربع على القمة مجلس كبار السن الذين كانوا يُعفَون من تلبية نداء الحرب، وكان أى احتكاك بهم أو أى إهانة توجه لأحدهم تكاد تبلغ حد الخيانة. وحين كان مثل هؤلاء الرجال يموتون، كان خبر وفاتهم يُحتفظ به سرا، وأحيانا كان يُخفَّف من فقدهم بإيجاد قناع يحل محلهم. وبهذه الطريقة يختفى العظماء الكبار على مراحل حتى يصيروا فى عداد الأجداد مع أنهم حكام البورو الحقيقيون وكذلك حكام مدرسة الأحراش والسَّنَد الحقيقى النهائى لحياة القبيلة وأخلاقها.

وربما كانت مجالسهم السرية هى الوسيلة التى أخفى بها مجتمع ديموقراطى من حيث الجوهر العناصر الأوتوقراطية الضرورية لوجوده، إذ من خلالها يمكن إرجاع المسئولية إلى الأجداد كما تُعزى إليهم آليات بعض الطقوس مثل محن السم التى يقال إن الأجداد هم الذين قرروها وليس أى مسئول سياسى فى المحكمة العلنية.

وفكرة حكم الأجداد لأحفادهم، أى حكم الأموات للأحياء، تُعد سمة شائعة بين الكثير من الجمعيات السرية. وحقيقة الأمر أن كل الجمعيات التى تنحو منحى تقليديا تستمد الأخلاق من الموتى الذين أوجدوا الجماعة وحافظوا عليها. وهكذا فإن البورو ومثيلاتها من المؤسسات فى هذه المنطقة من إفريقيا يمكن أن توصف بأنها (حكام الحضارة) أو (ضابطو الأخلاق). وعلى العكس من المطببين وسحرة الطب والعرافين الذين يعملون لدى أفراد معينين وغالبا ما تكون دوافعهم أنانية، فإن كهنة هذه الجماعات كانوا يعملون أساسا من أجل المجتمع بصفة عامة.

إن البورو، التى تعمل كجماعة لعبادة الأجداد وغيرها من الجمعيات مثل الهوشوى وإنجائى وجمعية السندى التى تقوم بعملها عن طريق استخدام (الأدوية)، كلها تحتكر الحياة الثقافية عن طريق الاشتراك فى الأنشطة التى تهتم

بها . وكذلك يتحكمون فى توقيع العقوبة على من يتعدون على القوانين ، وأخيرا يمنحون العفو (عن المذنبين) . وغالبا ما يشمل هذا العفو منح العضوية فى الجمعية موضع النقاش ، وهو ما يضمن أن معرفة السر لن تنتشر إلى أبعد من ذلك . ومن المستلفت للنظر فى جمعية سندى أنها سمحت لعضواتها بأن يحضرن دورات دراسية فى الصحة العامة الحديثة ورعاية الأمومة .

وبرغم أن جمعية البورو محاطة بشدة بسبل الحياة الحديثة ، فإنها ما زالت تمنع المتقدمين للعضوية بها من أخذ شخص غير إفريقى معهم داخل الأحراش . إذ قد تقبل الجمعية الموت ولكنها ترفض الأخذ بالأساليب الحديثة .

إن أى محاولة لفهم طبيعة دور جمعية البورو فى تنظيم الحياة الاجتماعية ، وهو دور يمتد إلى حد تنظيم المهن المحلية والصناعات ، فى بعض أجزاء من شمال غرب ليبيريا - إن مثل هذا الفهم يبين لنا السبب فى الابتعاد عن العبث بمؤسسات جوهرية كهذه فى الشعوب المتخلفة قدر الإمكان .

ولا توجد فى العالم جمعية يسودها النشاط الطقسى أكثر من جمعية أطفال بويبلو فى أريزونا ونيو مكسيكو . فالسرية تسود أيضا جميع نواحى حياتهم ، مع أن هذا كان رد فعل لتدخل الرجل الأبيض ببعثاته التبشيرية وسياسته . وقد يكون هناك سبب آخر فى السرية السائدة بين جماعة بويبلو ؛ هو أن معظم السحر المتعلق بالحرب وكذلك الطقوس التى كانت موجودة بكثرة فى أمريكا الهندية كانت سرية بالضرورة . ومن بين الأسباب التى كانت تحتم على الهنود الأريزونيين أن يحجبوا غير الأعضاء ، أن كل عضو كان عليه أن يقوم بقدر كبير من التركيز فى الموضوع الذى هم بصدده إذا كان للمراسم أن تنجح ، والجهلاء بالطبع لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك .

وكان الزونو يزعمون أن القوة التى يُخفىَ سرها تزول بالثرثرة (وهو ما يشرح قبل كل شيء الطبيعة الانضباطية لديهم) ، فاللغو والحديث الكثير يؤدى حرفيا ، كما كانوا يعتقدون ، إلى زوال القوة موضع السر من الأفراد وجماعاتهم . لذا كان الحفاظ على هذه القوة على درجة قصوى من الأهمية لأنهم كانوا يعتقدون أن طقوس كهنتهم هى التى تحفظ للمجتمع كيانه ووجوده .

لذا فإن قبائل الهوبى الموجودة بين جماعات البويبلو الغربية يضمون جميع صبية وفتيات القبيلة داخل عبادة الكاسينا. ويقوم الرجال، إلى حد كبير، بإقامة الطقوس. والكاسينا هى عبادة الموتى والأجداد الذين يرسلون ويسقطون الغيث والنماء مقابل أن يراعى الناس الطقوس.

وأهم هؤلاء الكاسينا الذين يظهرون فى القرية كشخوص مقنعة هم أجداد العشائر المختلفة. وتتم مراسم العضوية الجديدة فى غرف تحت الأرض تمثل الأماكن التى خرج منها الأجداد على سطح الأرض. وفى هذه المراسم كما فى غيرها، يكتشف الأعضاء الجدد روح الأجداد ولكنهم يكتشفون أيضا أنهم هم أنفسهم الأجداد: ذلك أن هناك أسطورة تربط الكاسينا بالأبناء المعاصرين. وذلك بالكشف عن أنهم أبناء الرجال والنساء الأول الذين ذهب بهم أحد الفيضانات فى سالف الأزمان.

وبعد أن يمر الشخص من خلال هذه العضوية، هناك أيضا صلة لكل شخص بواحدة من أربع جمعيات هي الووتسيم والتاو (اللتان تهتمان بالخصوبة) وجمعيتا الأهل والكوان (اللتان تهتمان بشئون الحرب). وتتم طقوس العضوية أيضا فى غرف تحت الأرض وتشرف عليها العشائر المختلفة. وبالإضافة إلى الجمعيات السابقة، هناك جمعيات تعنى بالحرب والمطر والمعالجة، ولكنها ذات عضوية أصغر حجما وتقوم بأدوار أقل ومراسم أكثر بساطة.

إن الشواغل الكبرى لجمعيات الهوبى هى استجلاب الغيث والقيام على رعاية المجتمع. كما تتمتع بقدرة إلحاق الاضطراب بالمذنبين والقدرة على علاجهم. وكانت هناك احتفالات موسمية حيث كان كل حفل وحدة فى حد ذاته يؤدى لفائدة المجتمع برمته بواسطة جمعية تتخطى علاقات القرابة والوشائج العشائرية. ولقد حافظت كل عشيرة على هذه المراسم ونقلتها إلى الأجيال التالية عن طريق إعداد مكان الاجتماع والمشرفين الرئيسين والأدوات التى تُؤدَّى بواسطتها الطقوس. بينما كانت عشائر أخرى تقدم مشرفين آخرين وتقوم بأجزاء من الطقوس.

وكلما تحركنا بعيدا عن قبائل الهوبى نحو شرق البويبلو، تصبح العشائر أقل

أهمية، وتصبح الطقوس أكثر بساطة، كما يخف التحكم المركزى. وتتم العضوية فى الجمعية عن طريق العلاج وذلك بجعل الأعضاء يقسمون قسم الولاء أثناء المرض بدلا من الاعتماد على القرابة كسبب أول للحصول على العضوية. ويتخذ العلاج من الأمراض أسبقية على استنزال المطر، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن الشرق الذى تُروَى أراضيه من الينابيع أقل اعتمادا على سقوط المطر من الغرب. وكذلك توجد قبائل من الهنود الأمريكيين الذين يركزون اهتمامهم على العلاج، مثل قبائل البحيرات. أما أساطيرهم فهى تظهر اهتماما بالحرث والخصوبة بينما تركز مراسم العضوية الجديدة على أن الأحياء هم موتى المستقبل، وأن الموتى هم الأحياء السابقون ومن ثم تكمن الحكمة فى اعتياد المرء على فكرة موته.

وتوجد فى حياة الهنود الأمريكيين انقسامات طقسية إلى جماعات تمثل أفكارا مثل الحرب والسلام والصيف والشتاء والسماء والأرض. إذ كثيرا ما يجد المرء فيها تفاعلا قويا بين الموتى والأحياء والأرواح والبشر بحيث إن الأجداد الموتى يكونون مُمثَّلين على الأرض فى الحياة الاجتماعية تمثيلا فعليا. فعند قبائل ساحل الشمال الغربى من المحيط الهادى، يتم تناول فصل الشتاء بمسرحيات يتم ترتيبها على مسلسلات هرمية كل منها تخص بيت رقص بعينه (جمعية سرية) حيث يقابل المتقدم للعضوية روح حارسه تختطفه وتبعده عن القرية لبعض الوقت ثم تلقنه الأسرار وتعيده إلى القرية. وعند عودته يكون واقعا بشدة تحت تأثير الروح بحيث يكون فى حالة من الجنون. (وفى أرفع درجات جمعية الشامان، كثيرا ما أدت هذه الحالات إلى أكل لحوم البشر بشكل طقسى). ثم يُجرَى لطالب العضوية (تفريغ من الروح) فى طقس يركز على جانب الموت والبعث فى حفل العضوية. وفى أثناء ذلك يُظهر العضو القدرات التى مُنحت له، كبعض الحيل التى تعتمد على خفة اليد واستحضار إحدى الأرواح.

وتعتبر قبيلة الكواكويتل هذه من أمهر القبائل فى مجال المؤثرات المسرحية، إذ كانوا يرتدون فى العرض أقنعة متغيرة ذات أجزاء متحركة كما كانوا يستخدمون أنفاقا وأبوابا سرية وعرائس وأصواتا تتكلم دون أن تُرى. وكانت الرقصات وراثية بحيث يقابل العضو الجديد أرواحا من غير البشر. وكانت عضوية هذه الجمعية محدودة، بمعنى أن روح كل واحد من الأجداد يُسمح لها بممثل واحد. أما أقارب

العضو الأصغر سنا، فكانوا (يؤسرون) بواسطة أرواح أقل شأنا من نفس الجمعية. ويكتسب الحق فى الرقص من شيوخ القبائل المجاورين عن طريق مهر الزواج أو من خلال الاستيلاء على الأزياء الخاصة بالرقص فى الحرب.

ومن السهل أن نرى هنا أنه لا يمكن الوصول إلى وصف للجمعيات السرية دون الرجوع إلى الحياة الاجتماعية للجماعة ككل.

لقد نشأ عدد كبير من التنظيمات السرية فى أجزاء العالم الأقل تطورا فى القرن أو القرنين الأخيرين تحت ضغط الاستعمار والحداثة. ويجد المرء فى هذه الجمعيات أن العناصر التقليدية قد أعيد تشكيلها كى تلائم مثيرات جديدة. ومن بين هذه الجمعيات جمعية الماو ماو، وهى موضوع دراستنا فى الفصل التالى.

إن الغاء مهنة السحرة فى إفريقيا ترك فراغا تم ملؤه بعبادات شبه سرية جديدة مضادة للسحر تؤدى نفس الغرض. كما نشأت عبادات مضادة للبيض قائمة على وحى أرواح الأقدمين من الهنود الأمريكيين فى أواخر القرن التاسع عشر بين هنود السهول على شكل أديان رقصة الأشباح المرعبة، وكانت مرتبطة بانتفاضة ١٨٩٠-١.

ونشأت جمعيات سرية فى ماليزيا من أبناء البلاد لتشرح السبب فى أن النظام الأبوى فى عالمى السياسة والروح، لم يَنتُج عنه نظام مكافئ له فى الاقتصاد أى البضائع والسلع الحديثة التى يضع الرجل لها قيمة عالية جدا بحيث يحجبها عن الأهالى.

ولقد كشفت الأبحاث فى بورما عن عبادات غريبة قائمة على تحريفات للأفكار الشعبية البوذية الخاصة بملوك مسيحيين ورجال كبوذا سوف يأتون فى المستقبل. وهؤلاء البوذوات كانوا معروفين بين المتمردين فى الأزمنة الكلاسيكية القديمة. ويوجد الآن فى هذه الجمعيات عنصر قوى معاد للبريطانيين. وتمثل معظم هذه التنظيمات السرية أو شبه السرية جماعات معادية للسلطة داخل المجتمع أكثر من كونها تمثل جماعات تعمل معا إلى جانب السلطات غير الدينية لفائدة المجتمع برمته.

ويجب النظر إلى هذه التنظيمات فى سياق النزعة القومية الناشئة، باعتبارها نوعا من القوة السياسية التى مازالت فى طور التكوين برغم أننا لا يمكننا إغفال العنصر التقليدى فى تكوين تلك التنظيمات.

لقد فضلنا دراسة فكرة السرية عموما، وتوضيح أن السرية تُستخدم فى المجتمعات البسيطة التقليدية أساسا كوسيلة للنظام من أجل اكتساب الحكمة، بدلا من وضع قائمة بالجمعيات السرية البدائية. ويصدق هذا على معظم الجمعيات القَبلية التى تركز على معرفة شيوخ القبيلة، تلك المعرفة التى يورثها الأجداد ويتم الحفاظ عليها من خلال الموتى الذين سيلحق بهم كل فرد مهما كان. ويمكن أن تكون السرية أيضا أداة لسلطة تضمن خلالها الجماعة أنها هى الجماعة الحاكمة وأنها ستظل كذلك. (يصح هذا القول أيضا فى مجال الفنون والحرف، حيث تكون هناك ضرورة لاتباع طريقة ما لضمان الالتحاق بهذه الفنون والحرف وكذلك لضمان حسن الأداء).

وفى حالة الحكومات التى ليس لديها جمعيات سرية حيث يُعطَى كل الرجال نفس التلقين، يمكننا النظر إلى الجمعيات السرية ليس باعتبارها ناشئة عن عملية التلقين القَبَلية بقدر ماهى ممثلة لذلك التخصص الذى يتم تلقينه وتعليمه، وبخاصة فى الحالات التى يجب فيها الحفاظ على مجال التخصص من المنافسين.

ولقد حاولنا أن نبين فى هذا الفصل أن مفهوم الجمعيات السرية (بمعناه المعروف) لا يمكن أن يستمر. كما حاولنا تحطيم المفهوم القائل بأن البدائية مكرسة للطقوس الهمجية. وتكمن الحقيقة فى النظر إلى الإنسان البدائى على أنه شخص مشابه جدا لنا من خلال الحياة على نطاق وفى بيئة أكثر تحديدا من بيئتنا، كما أنه يتمتع بقدر أقل من التحرر من الضغوط التى يمارسها عليه أقرانه فى كل جانب من جوانب حياته.

الماو ماو

چون هامرتون

فى سبتمبر من عام ١٩٤٨ تلقت حكومة المستعمرة البريطانية فى كينيا أول تقرير رسمى عن قيام حركة جديدة(بين أفراد قبيلة الكيكويو القوية) التى يبلغ عدد أفرادها مليون وربع المليون نسمة. وكانت هذه الحركة هى الماو ماو. وهى بؤرة احتجاج الكيكويو ضد وجود المستوطنين المزارعين البيض على أرضهم.

وبين عامى ١٩٥٢-١٩٥٧ تمكنت الماو ماو من تكبيد الحكومة الكينية والبريطانية ما يزيد على ١٥٤٠٠٠ دولار لإقامة ١١ كتيبة مدفعية، وما يزيد على ٢١٠٠٠ من رجال الشرطة. ومع ذلك ظلت سريتها طى الكتمان إلى درجة أنه حتى عام ١٩٥٠ لم تتمكن الشرطة من الحصول على أى دليل تقريبا على العديد من مراسم التلقين التى كانت تتم.

وفى الخمسينيات ، كانت هذه المراسم السرية تُلزم العضو الجديد بأن يقوم بقتل أى معارض للماو ماو ابتداء من المزارعين الأوربيين إلى أبيه أو أمه بمجرد تلقّى الأمر بذلك. ولم تكن الماو ماو مؤسسات قبلية برغم احتوائها على بعض العناصر التقليدية، ذلك أن ظهور الماو ماو كجمعية سرية تضم نحو ١٢٠٠٠ عضو متشدد قد سبقه انهيار دام فترة طويلة لحياة الكيكويو التقليدية تحت وطأة النفوذ الأوربى. فبينما كان المزارعون البيض، بمساعدة الحكومة، يفرضون على الكيكويو نظاما غريبا لحيازة الأراضى، كان المبشرون يفرضون عليهم مسيحية محملة بما يربو على ١٨٠٠ عام من الإضافات الأوربية. إذ أسرعوا فى السير فى الخطوات الرامية إلى إزالة القبلية باستنكار المدارس القبلية التقليدية التى يتعلم فيها الصبية والفتيات مسئولياتهم نحو القبيلة.

وترجع أسطورة أصل قبيلة الكيكويو إلى امرأة تُدعى مومبى وزوجها جيكويو اللذين كانا يعيشان فى منطقة فورتهول منذ نحو سبعمائة أو ثمانمائة سنة.

ولقد منح نجاى إله القبيلة مومبى تسعة أبناء تُسمَّى بأسمائهم عشائر الكيكويو التسع. وبمقدم القرن التاسع عشر، توسعت القبيلة جنوبا عبر نهر تشينيا إلى ما يُعرف الآن بمنطقة كيامبو كما توسعت شمالا إلى سفح جبل كينيا.

وكانت الغابات الواقعة جنوبى نهر تشينيا ملكا لقبيلة وانديروبو، وهى قبيلة أصغر حجما كانت تعيش على الصيد وجمع بذور النباتات. وكانت كل عائلة من هذه القبيلة تستحوذ على منطقة كبيرة، تبلغ أحيانا ما يصل إلى ٤٠ ميلا مربعا ملكا خاصا بها. وبرغم أن الكيكويو كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يستولوا على هذه الأراضى عن طريق الغزو، فإن هذا كان من شأنه الإساءة إلى معتقداتهم الدينية والأعراف القانونية، لذا كان على عضو الكيكويو الذى يرغب فى الحصول على قطعة من الأرض أن يدفع لعائلة الوانديروبو الماعز والأغنام وغير ذلك من السلع مقابل الأرض. وقبل عقد الصفقة، كان عضو الكيكويو يقترح إقامة مراسم (التبنى المتبادل)، وهذه المراسم كانت تنظم ممارسته الدينية التى تشكل جزءا من مفاوضاته، التى لا تُعد صحيحة ما لم يكن كلا الطرفين المتفاوضين كيكويو أو مُتبنّى من جانب الكيكويو.

ويصبح الكيكويو الذى يشترى أرضا بهذه الطريقة مؤسسا لعشيرة فرعية؛ وهى وحدة اجتماعية تضم نسله من الذكور وكذلك نسل إخوته والذكور من أبناء عمه أو خاله من الدرجة الأولى. وكان كل عضو من العشيرة الفرعية يُمنح نصيبا من إقطاعية تلك العشيرة الفرعية ويصبح من رعايا مؤسس العشيرة أو من خَلَفه. ويخضع له فى كل ما يخص العشيرة من أمور.

وفى أواخر القرن التاسع عشر، كان الكيكويو قد انتشروا فى مناطق النيرى والمورانجا (فورت هول) وكيامبو، التى كانت بأكملها مسكونة للكيكويو من مؤسسى العشائر الفرعية ومستأجريهم.

وحسب ماجاء فى كتاب د. ل. س. ب. ليكى الذى يرجع إليه الفضل فى هذه المعلومات، لا يكاد يوجد أى شك فى أنه لو كان الاستيطان الأوربى فى كينيا قد

بدأ فى ذلك الوقت بالذات بدلا من الوقت المتأخر الذى تم فيه، لما استولى المزارعون الأوربيون إلا على القليل من الأراضى فى كيامبو أو ليمورو أو كابيتى لأن الأراضى كانت عامرة بالسكان من أهل البلاد، وبالتالى لم تكن أى حكومة لتجرؤ على نزع ملكية تلك الأراضى من مالكيها من أجل خاطر المزارعين الأوربيين.

ولسوء الحظ، فقد دهمت البلاد سلسلة من الكوارث: مثل وباء الجدرى ومرات متعددة من الجفاف تلتها مجاعات ثم هجمات شرسة من الجراد، فمات نتيجة لذلك ما بين عشرين وخمسين فى المائة من السكان. وأصيبت كيامبو بالذات إصابة شديدة. لذا فإن معظم الكيكويو الذين اشتروا أراضى هناك حديثا ظلوا على قيد الحياة فقط لأنهم عادوا إلى جيرى وفورت هول. ولم يمثل هذا الانسحاب، بالنسبة للكيكويو، أى تخلٍّ عن حقهم فى الملكية. ولكن مع مطلع عام ١٩٠٢ تحول الكثير من مزارع الكيكويو المزدهرة إلى أحراش. وفى تلك السنة وصل خط حديد كينيا وأوغندا (الذى بدأ عام ١٨٩٦) إلى أراضى الكيكويو فاتحا أراضى زراعية غنية استقر عليها المزارعون الأوائل من بريطانيا أثناء السنوات الخمس التالية معتقدين أنها أرض بكر.

وفى بعض الحالات، حيث وُجد بعض أعضاء القبائل الفرعية أو بعض المستأجرين من الكيكويو، كان المزارع المستوطن يدفع ثمنا لهذه الأرض معتقدا بأنه قد قام بالشراء عن رضا. ولكن هذا الشراء كان، فى الواقع، مغايرا لقانون الكيكويو وعاداتهم التى تحتِّم، كما رأينا، وجوب الرجوع إلى زعيم العشيرة فى أى أمر يخص العشيرة ككل، وأن التعامل مع الخارجين عن العشيرة يجب أن تسبقه مراسم التبنى المتبادل. إذن من وجهة نظر الكيكويو تُعد جميع الحقوق التى اكتسبها البيض فى أراضى الكيكويو غير سليمة قانونا. بينما افترضت الحكومة البريطانية، من ناحية أخرى، أنها بإعلانها الحماية على شرقى إفريقيا عام ١٨٩٥ تكون قد اكتسبت حقوق السيادة على جميع الأراضى.

وكما يقول ليكى: «لقد كان معظم البريطانيين بل من الممكن أن نقول إن جميع البريطانيين كانوا يعتقدون أنه لا توجد ملكية زراعية بين قبائل البانتو».

ولم يخطر ببال أحد أن هناك ملكية خاصة للأراضى فى أى جزء من إفريقيا، هذا عدا أن تكون مشتراة بالفعل، واعتُبرت جميع الأراضى غير المزروعة أراضى مملوكة للتاج (باستثناء بعض المناطق التى تم تجنيبها كأراض احتياطية للسكان الأصليين).

وخُصِّص قسم من الأراضى فى منطقة كيامبو للمستوطنين الأوربيين المزارعين. أما من بقى من الكيكويو فقد خُيِّروا بين البقاء فى العمل لدى المزارعين البيض أو الذهاب إلى أى مكان آخر. وكان الأوربيون من ناحية، يعرضون على كل حالة ثمنا إما على سبيل الشراء وإما من قبيل التعويض عن الإزعاج. وكان ذلك سوء فهم حقيقيا ربما ارتكبه الأوربيون بسبب ثقة الاستعمار المفرطة. ففى ذلك الوقت لم يعرف البريطانيون أى شىء عن قوانين الكيكويو وعاداتهم، كما لم تكن لديهم أدنى فكرة عن مدى تنظيم حياة الكيكويو القَبلية.

كان الأطباء الذين يلعبون دور الطبيب والعراف والساحر فى آن واحد من أرفع الأعضاء شأنا بين الكيكويو، وقد تَخصَّص بعضهم فى العلاج بالأعشاب وتخصَّص بعضهم فى السحر الوقائى أى الأحجبة وآخرون تخصصوا فى علاج الأمراض عن طريق المراسم التطهيرية. وكانت عضوية الجماعة قاصرة تقليديا على الرجال الذين مروا بفترة طويلة من التدريب وهو ما أكسبهم شهرة عريضة بالحكمة.

وبما أن الأطباء كانوا سدنة قوانين الكيكويو وعاداتها الأقوياء، فقد كانوا يشخصون المرض العقلى والعضوى منها باعتبارها ناتجة عن التعدى على أحد المحرمات أو التابو. فإذا مس أحد أعضاء الكيكويو مثلا مادة تُعد نجسة تحتم عليه أن يذهب إلى الطبيب للتطهر من ذنبه عن طريق حفل يشمل التضحية بأحد الحيوانات. وكان الأطباء الذين يعملون علنا لصالح القبيلة ككل، يستخدمون السحر الوقائى لدرء خطر التعاويذ المرعبة للسحر الأسود الذى كان بعض السحرة يمارسونه سرا لصالح بعض الأفراد.

وكان هناك اعتقاد بأن هؤلاء السحرة لديهم القدرة على القتل عن طريق السحر، وكان أداء القسم من العلامات المميزة للحياة القَبلية، ليس فقط فى عقد

الأحلاف بل أيضا فى البت فى القضايا القانونية حين لا يتمكن مجلس الكبراء من الوصول فيها إلى حكم مرض . ولم يكن بإمكان أحد أن يستخف بهذه الأيمان لأن الموت يلحق بمن كان يحنث بالقسم بقوة السحر أو بأحد أفراد عائلة هذا الشخص . وتختلف هذه الأيمان عن تلك التى يؤديها الماو ماو من حيث إنها كانت تُؤدَّى طواعية وبموافقة بقية العائلة فى وضح النهار بحضور مجموعة من الشهود . وكان مثل هذه الأيمان التى تقوم بها الماو ماو بالقوة وسرا هى سلاح أولئك الذين يمارسون السحر الأسود . وكانت بقية أفراد المجتمع تخشى هذه الأيمان لأنها خرق للعادات والمحرمات القبلية ، إذ ساد الاعتقاد بأنها تؤدى إلى النجاسة الروحية التى لا يمكن التخلص منها إلا عن طريق الطبيب .

ولم يتمتع أحد سوى الطبيب بالأهمية الكبرى المتمثلة فى تطهير الموقعين المنفصلين اللذين يُلقَّن فيهما جميع أولاد وفتيات القبيلة قواعد الانتقال إلى سن البلوغ كى «يبدءوا حياتهم كبالغين» .

ولا يعتبر أى فرد من الكيكويو عضوا كاملا فى القبيلة حتى تتم عملية تلقينه . وتسبق مراسم التلقين فترة طويلة من الإعداد يعلم أثناءها كبار القبيلة المتقدمين الجدد قوانين الكيكويو وعاداتها . وكانت الطقوس نفسها تبدأ بإقامة الولائم والرقص وسكب البيرة كقربان وتصل إلى ذروتها بعملية الختان ، وهى (العملية الخارجية المرئية الدالة على الرشد) .

ومن بين أكثر ملامح مراسم البلوغ صرامة ، عبور الطالب الجديد للعضوية من خلال قوس من أعواد قصب السكر والأوراق ، مما يرمز إلى بعثه الجديد . أما مراسم تلقين الفتيات ، فتكون بإجراء سباق نحو شجرة مقدسة ، والفتاة التى تفوز فى هذا السباق تكون أوفر حظا كعروس . وبما أن عدد النساء كان يفوق عدد الرجال ، فإن الفتيات اللائى كن يخفقن فى الحصول على أزواج كن يُشجَّعن على أن تصبح كل منهن زوجة ثانية أو ثالثة فى العائلات المتعددة الزوجات . وكان الرجل يتزوج ثانية بناء على طلب الزوجة الأولى . وكان لكل زوجة كوخ خاص بها ، كما للزوج كوخه الخاص به الذى يستخدمه فى التسلية ولا يسمح لأى زوجة بالنوم فيه .

بيد أن ما أثار حيرة الكيكويو أن المبشرين الذين أقاموا مراكز ومدارس فى تجوتو

وكاتيبى وسينت أوستن فى التسعينيات من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم يبدوا أى معارضة لختان الرجل ولكنهم كانوا يفزعون من ختان الفتيات أى قطع جزء من المهبل. بل إنهم قد منعوا من اعتنقوا المسيحية من إجراء هذه العملية للفتيات، أو أن يسمحوا لبناتهم بتقبل هذه العملية. كما كانوا يعظون بأن تعدد الزوجات لا يتمشى مع تعاليم المسيحية، وأن الممارسات القبلية كالقَسم والتطهر إن هى إلا أضحيات وثنية ينبغى على كل مسيحى أن يتجنبها.

وبما أن الكثير من هذه المراسم كانت تُعد غير صحيحة ما لم يحضرها جميع الذكور فى العائلة، فقد شعر الآباء بالبغض نحو رغبة أبنائهم فى الالتحاق بالمدارس التبشيرية.

وكان الأبناء الذين أقدموا على ذلك، يُحرمون من الملكية. وكثير من شباب الكيكويو قد أصبحوا تلاميذ فى مدارس الإرساليات التبشيرية بل ومسيحيين صادقين فى نهاية القرن. ولكن بعد ذلك، كانت مميزات التعليم يدفع الشباب ثمنا لها مجرد تقدير لفظى للمسيحية، إذ نشأ أثناء الحرب العالمية الأولى جيل جديد أراد أن يدمج المعارف الأوربية بالتراث الإفريقى.

ولم تكن لدى هذا الجيل، الذى يتحرك بقلق بين مناطق الحفاظ على التراث الإفريقى والمدن الناشئة، سوى فكرة مشوشة عن كل من المعتقدات والممارسات الدينية لدى الكيكويو والمسيحيين. وفى الوقت نفسه، فإن عمليات التلقين التى كانت تربط دائما بين أبناء الكيكويو وقبيلتهم تم تقليصها تدريجيا بحيث اقتصرت على أداء طقوس الختان على عَجَل.

فى البداية بحث أبناء الكيكويو هؤلاء الذين اقتُلعوا من جذورهم عن مخرج اقتصادى، أى نوع الوظائف التى تساعد على تطورهم التعليمى وتجلب لهم الأمن المادى. غير أن بحثهم هذا كان بغير جدوى، فمن ذهب منهم إلى نيروبى، لم يستطع الحصول على ما يكفى لشراء السكن من أجل الاستقرار.

فكان الشاب المتعلم من أبناء الكيكويو شخصا ينتقل بقلق بين المدن والأماكن التى حافظت على أصولها، حيث كان عليه أن يحتفظ لنفسه بمكان يمكنه التقاعد فيه. وبعد أن فشل فى الحصول على الإشباع الاقتصادى، أخذ يبحث عن

الإصلاح. ومما زاد من الشعور بالظلم بسبب مستوى المعيشة الذى كان ينعم به الدخلاء الأوربيون على أرضه الشعور بأن هذا الوضع قد صُمِّم بحيث يموت هذا الشاب من الكيكويو.

وربما كان أشد الأمور إثارة للغضب الحكومة الكينية المدنية، فقد كانت تتكون من مسئولين على درجة من المسئولية، ويتمتعون بأفضل النوايا، إذ كانوا على استعداد للوقوف للدفاع عن المطالب الإفريقية ضد مطالب المستوطنين، ولكنهم كانوا أيضا عازمين على محاربة معارك الإفريقيين نيابة عنهم، بدلا من تدريبهم على أن يحاربوا معاركهم بأنفسهم.

وفى عام ١٩٢٣ وردا على أعمال شغب قام بها المستوطنون الأوربيون والهنود من أجل المطالبة بتمثيل أكبر لمصالحهم فى المجلس التشريعى، قررت الحكومة البريطانية أن مصالح أهل البلاد من الإفريقيين يجب أن تحتل المحل الأول، وإذا تعارضت تلك المصالح مع مصالح المهاجرين (من الأوربيين والآسيويين) فإن مصالح الإفريقيين هى التى يجب أن تتغلب. فأُعطى عشرة آلاف أوربى ١١ مقعدا، وأُعطى ما يزيد على ٢٣٠٠٠ هندى خمس مقاعد، أما الجالية العربية فقد أُعطيت مقعدا واحدا. ومثّل الإفريقيين عضو واحد (لم يكن إفريقيا حتى عام ١٩٤٤).

وكانت هناك أغلبية ساحقة من الموظفين المدنيين الأوربيين الذين يضعون مصالح أهالى البلاد من الإفريقيين فى المقام الأول، غير أن الوطنيين الإفريقيين لم يكونوا ليصدِّقوا مثل هذا الوضع.

ولقد عمَّقت الخدمة فى الجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الأولى الشُّقَّة بين الجيل الجديد والجيل القديم من الكينيين الإفريقيين من حيث الثقافة والتعليم والبيئة.

وحاول الكثير من الكيكويو العودة إلى كيامبو بعد الحرب مباشرة، فاكتشفوا لأول مرة أن أراضيهم قد استولى عليها الأوربيون.

وفى عام ١٩٢٢، بدأت جمعية الكيكويو بنواة من العسكريين السابقين وطلبة المدارس التبشيرية السابقين، وكان النداء الذى يجمع أعضاءها هو نفس نداء الماو

ماو فى المستقبل وهو (استرداد أرض الكيكويو الضائعة) . وراق هذا المنبر للكيكويو من جميع المشارب ؛ ليس فقط للذين كانوا يعملون خدما فى مزارع الأوربيين التى كانت فى السابق ملكا لهم ، ولكن أيضا للذين لم يفقدوا أى أرض ولكنهم كانوا يتعاطفون مع الأعداد المتزايدة من الكيكويو الذين أصبحوا بلا ملكية زراعية .

لقد تم تشكيل جمعية الكيكويو مباشرة بعد القبض على هارى ثوكو ، الذى كان رئيس جمعية شباب الكيكويو التى لم تدم طويلا ، وهى الجمعية التى قادت حملة احتجاجات ضد تهديد الحكومة بتخفيض أجور العمال الإفريقيين . وفى عام ١٩٢٢ ، قام أتباعه بمظاهرة قتلت أثناءها الشرطة الاستعمارية بعضا من أبناء الكيكويو بالرصاص . فقوَّت هذه الحادثة كره الكيكويو للحكومة . وحين اقتنعت جمعية الكيكويو المركزية بأن أهدافها لن تتحقق عن طريق مناشدة المجلس التشريعى أو برفع القضايا ، واصلت أنشطتها تحت الأرض .

وفى عام ١٩٢٨ ، أصبح جومو كينياتا أمينا عاما لجمعية الكيكويو المركزية ، وأمكن إقناعه فيما بعد بأن يدير الماو ماو . وبناء على اقتراحه ، أرسلته الجمعية فى عام ١٩٢٩ إلى إنجلترا لكى يقوم بتقديم شكوى لوزير المستعمرات مبينا فيها الشكاوى المتعلقة ومطلبا بتمثيل إفريقى فى المجلس التشريعى . ولم ينجح كينياتا فى مسعاه . غير أنه عاد إلى إنجلترا نيابة عن الجمعية لتطول زيارته هذه المرة ١٦ سنة .

ولد جومو كينياتا أو جونستون كاماو فى منطقة الكيامبو عام ١٨٨٩ أو نحو ذلك . ودرس فى إحدى المدارس التبشيرية التابعة للكنيسة الإسكتلندية ، ثم عمل موظفا كتابيا ومراجعا فى نيروبى . ودخل مضمار السياسة حين انضم إلى جمعية شباب الكيكويو مع هارى ثوكو . وحين كان فى إنجلترا التحق بالحزب الشيوعى ، وعدة جمعيات معادية للاستعمار ، ثم حصل على دبلوم فى الأنثروبولوجيا ، وتزوج فتاة إنجليزية هى إدنا جريس كلارك .

وأثناء غياب كينياتا فى إنجلترا أدى إصرار بعض الجمعيات التبشيرية على عدم ختان فتيات الكيكويو إلى إنشاء كنيستين إفريقيتين مستقلتين ، هما كنيسة الكيكويو الأرثوذكسية الإفريقية عام ١٩٣٧ ، والكنيسة الخماسينية المستقلة عام ١٩٣٨ .

وكانت هاتان الكنيستان تعظان المسيحيين على الطريقة الإفريقية، فتزاوج بين تعاليم الكتاب المقدس والعادات الإفريقية. وواجهتا الحجج التى كان التبشيريون يسوقونها بنصوص مثل قول القديس بولس : «لأن اليهودى فى الظاهر ليس هو يهوديا ولا الختان الذى فى الظاهر فى اللحم ختانا».

وسرعان ما أنشأت هاتان الكنيستان المستقلتان مدارس لتتفوق على المدارس التبشيرية وغيرها. وحتى تتمكنا من منع التفتيش على أنشطتهما، فقد رفضتا أى منح أو مساعدات حكومية. وكان التاريخ يدرَّس فيها من وجهة نظر وطنية إفريقية بحتة.

وفى سنة ١٩٥٣، أغلقت ١٣٦ مدرسة من تلك المدارس على أساس أنها تنشر دعاية الماو ماو وتُستخدم لإقامة حفلات حلف اليمين. وأُنشئت كلية للمعلمين فى كينيا بجيثانجورى لتدريب معلمى المدارس الجديدة بين الكيكويو وغيرها من قبائل شرقى إفريقيا وذلك فى عام ١٩٤٠ .

وحظرت الحكومة جمعية الكيكويو المركزية على أساس أنها ارتكبت جريمة الخيانة بإقامتها علاقات مع العملاء الإيطاليين فى إثيوبيا، ولكن بعد ذلك بأربع سنوات أسس إليود ماثيو الذى كان قد رُشِّح توا عضوا بالمجلس التشريعى حزبا سياسيا آخر هو الاتحاد الكينى الإفريقى، وتبنى هذا الحزب نفس أهداف جمعية الكيكويو المركزية، وانخرط فى صفوف هذا الحزب جميع الأعضاء القدامى فى جمعية الكيكويو، بالإضافة إلى عدد من الشباب الذين كانت لديهم مثاليات أو شكاوى أو كليهما معا.

ثم عاد كينياتا إلى كينيا عام ١٩٤٦ وأصبح ناظر كلية المعلمين فى جيثانجورى، غير أنه حين قدم نفسه للمحافظ سير فيليب ميتشل وعرض خدماته فى المجلس التشريعى، اقترح سير فيليب عليه أن يجدد تعرفه على الموقف فى كينيا بقضاء فترة من الخدمة فى الحكم المحلى وذلك قبل أن يدخل حلبة العمل القومى.

فبدأ كينياتا يجند الأعضاء بنشاط لحزب الاتحاد الكينى الذى أصبح رئيسا له فى العام التالى. ومن الطبيعى أن تصبح كلية المعلمين مكانا لتدريب أعضاء حزب الاتحاد الكينى وللدعاية له. ولم يكن الحزب تحت رئاسة كينياتا ممثلا لجميع الآراء

حتى بين أبناء الكيكويو، إذ اعتقد البعض أن خير وسيلة لخدمة مصالحهم هى استخدام مسئولى الحكومة كدرع يحميهم من المستوطنين الذين كانوا فى ذلك الوقت يطالبون بالاستقلال مع وجود سيادة أوربية.

وكان الكينيون المؤمنون بالمسيحية على تقاليد الإرساليات التبشيرية، وكذلك أولئك الذين يحافظون على النمط القبلى، كلاهما لا يثقان فى حزب كينياتا. بل أكثر من ذلك، أنه برغم أن أقرب قبيلة وهى الكيكويو كانت تشكّل خمس السكان الإفريقيين، فإن القبائل الأخرى لم تكن تثق بها لاشتهار أعضائها بالمهارة والقدرة على التعلم. ولولا هذه الريبة لتمكنت الحكومة من تخفيف حدة مشكلة الأراضى عن طريق توطين بعض الكيكويو الذين لا يملكون أرضا فى أراضى القبائل الأخرى الأقل كثافة من الناحية الزراعية.

وظل هدف استرداد الأرض الضائعة الهدف الرئيس لحزب الاتحاد الكينى، إلا أنه أضيفت أهداف أخرى مثل مقاومة التزحيف، فلقد تسبب إصرار الحكومة على التزحيف والحرث بجرارات فى إثارة حنق العمال فى مناطق الكيكويو، لأنهم لم يكونوا يقدرون أهمية الحفاظ على التربة. وأصبحت مقاومة طريقة التزحيف أحد أهداف الماو ماو. أما كينياتا فكان على وعى تام بأهمية الحفاظ على التربة، إلا أنه فى عام ١٩٤٩ لم يقم بالتنديد بسياسة الماو ماو علنا، وأنكر أنه هو نفسه قد حاول إيقاف التزحيف فى منطقة فورت هول، وعزا ذلك إلى مجموعة الأربعين (وهى مجموعة كانت تدعو للاشتراك فى الماو ماو، وكانت مضادة للحكومة وأخذت اسمها من الجيل الذى بلغ سن الرشد عام ١٩٤٠).

وربما لم تكن لدى كينياتا فى ذلك الوقت، السلطة الكافية التى تمكنه من أن يلعب دور السياسى المحنك، ولم يكن بإمكانه أن يظل على رأس أتباعه ما لم يسر فى الاتجاهات التى رسموها. وهكذا اعترفت مجموعة الأربعين بكينياتا زعيما بشرط ألا يستنكر ما كانوا يقولون أو يفعلون، مع أنه خرج ليؤيد التزحيف فى أكتوبر عام ١٩٥٠، فى أحد الاجتماعات فى مسقط رأسه حين طُلب منه التنديد بالماو ماو، وكل ما استطاع فعله هو تأكيد أن الماو ماو والاتحاد الكينى تنظيمان منفصلان. وهذا صحيح برغم أن المسح التاريخى لأصول الماو ماو ونموها عام ١٩٦٠ يقرر أنه فى البداية كانت الدعاية للماو ماو وإجراء عملية القسم لها وظيفة

أفرع المناطق التابعة لحزب الاتحاد الكينى تحت إشراف الكيكويو، وأن الكثيرين من أعضاء الحزب الكينى أقسموا القسم بعلم كينياتا. بذا يمكننا استنتاج أن كينياتا لم يكن زعيما للماو ماو بل كانت الماو ماو هى التى تُسيِّره.

وفشلت أول محاولة لمحاكمة تنظيم حَلف اليمين فى مارس عام ١٩٤٨ بسبب خطأ من رجال الدين. وفى ذلك الوقت، سُمعت كلمة الماو ماو للمرة الأولى، وهى كلمة عديمة المعنى مأخوذة من كلمة «أوما أوما» بمعنى «أخرى أخرى». وكانت تُطلَق على سبيل التحذير لدى اقتراب الشرطة. ثم اتخذتها الحركة بعد ذلك، لوصف القسم الأول للعضو.

وقد أقسم جوزيف موانج كاريوكى قسمه الأول فى ديسمبر عام ١٩٥٣، وهذا الرجل هو مؤلف كتاب(انحدار الماو ماو) ويستطيع القارئ أن يحكم بنفسه إذا ماكان هذا القسم يشبه تماما قسم الماسونية أم لا.

فى إحدى الأمسيات، طلب أحد أصدقاء كاريوكى ممن كانوا يدرسون فى إحدى المدارس الخاصة أن يحضر إلى منزله لتناول كوب من الشاى. وحين حل الظلام خرجا للتنزه، وبعد أن سارا حوالى ٣٠٠ ياردة فى ممر ضيق يؤدى إلى الحقول، رأى كاريوكى بعض الرجال والنساء يجلسون فى حقول الذُّرَة على يساره، كما رأى على يمينه قوسا ارتفاعه سبعة أقدام، مصنوعا من ساقى شجرتى موز مربوطتين من أعلى ومتصلتين بسيقان الفول. وكان ذلك عينة دقيقة تقريبا للقوس الذى يُستعمل فى مراسم التلقين القَبلية التقليدية. وعندها أدرك كاريوكى أنه برغم أن الدعوة ليست مفتوحة فإنه سيحلف اليمين، وطُلب منه أن يلحق بثلاثة رجال آخرين كان يعرفهم جميعا. وطُلب منهم أن يخلعوا أحذيتهم وساعاتهم أو أى أشياء معدنية معهم. وشرح صديق كاريوكى للآخرين أن كاريوكى طالب نشط فى تجنيد الأعضاء لحزب الاتحاد الكينى. لذا فهو يصلح لقَسم الوحدة (نديمو إيثاتو). فمروا من خلال القوس سبع مرات فى صف واحد، ثم اصطفوا أمام المشرف على أداء القسم بينياثى وهوكيكويو يبلغ تقريبا الأربعين من العمر، ويرتدى ملابس أوربية..

أخذ بينياثى رئة معزة فى يده اليمنى وأمسك فى يده اليسرى قطعة أخرى من لحم الماعز وكانوا ينحنون بينما يدور على رءوسهم باللحم سبع مرات، وهو يعد

تبلغة الكيكويو ويعطى الرئتين لكل بدوره، وأمرهم بقضمها. ثم كان عليهم أن يرددوا هذا القسم وراءه ببطء :

« أقول الحق وأقسم أمام الله وأمام هذه الحركة، حركة الوحدة، الوحدة التى عرضت للاختبار، الحركة التى سُخر منها باسم الماو ماو، بأنى سأتقدم لأقاتل من أجل الأرض، الأرض التى زرعناها، الأرض التى اغتصبها الأوربيون، وإذا لم أفعل ذلك فليقتلنى هذا القسم وليقتلنى هذا اللحم. أقول الحق بأنى سأعمل مع قوى حركة الوحدة وسأساعدها فى كل ما تطلب منى وسأدفع اثنين وستين شلنا وخمسين سنتا وكبشا للحركة، وإذا لم يتوافر ذلك لدى الآن، فسأقوم بدفعه فى المستقبل، وإذا لم أفعل ذلك فليقتلنى هذا القسم فلتقتلنى هذه السبعة وليقتلنى هذا اللحم ».

وقام بينياثى بالمسح على جبهة كل منهم بدم المعزة ليذكرهم أنهم الآن يقاتلون من أجل أرضهم وينبغى ألا يبيعوا بلدهم.

ثم قام بينياثى بعمل ثلاثة خدوش فى الرسغ الأيسر لكل عضو جديد، وهو يمسك بلحم الماعز بحيث يسقط عليه الدم البشرى. وأخيرا كان يعطى كل عضو جديد قطعة اللحم التى يقضمها (وهذا هو أحد معالم مراسم القسم) وهو يقول: إن أكل اللحم ودم كل منكم مسكوب عليه يبين أنكم متحدون معا ومتحدون معنا. ثم كان كل مرشح يدفع رسوم الإدلاء بالقسم وينضم إلى الآخرين فى حقول الذُّرَة، وفى بعض مراسم حلف اليمين كانت تُرسم علامة الصليب (باسم سيدنا يسوع المسيح).

وكتب كاريوكى قائلا : «كانت مشاعرى أثناء الحفل، مزيجا من الخوف والحبور. وبعد ذلك، حين كنت فى حقول الذُّرَة، شعرت بالسمو وبروح جديدة من القوة والحيوية. وبدت لى حياتى السابقة بلا معنى، بل إن تعليمى الذى كنت مزهوا به بدا لى تافها إلى جانب هذه القوة الرائعة الرهيبة التى مُنحت لى. فقد وُلدت من جديد وشعرت مرة أخرى بسنوح الفرصة والشعور بالمغامرة اللذين شعرت بهما فى اليوم الأول الذى بدأت فيه أمى تعليمى القراءة والكتابة. وكان

الثلاثة الآخرون صامتين جميعا . كان من الواضح أنهم يمرون بنفس البعث الروحى الذى كنت أمر أنا به ».

وقد أُبلغ كاريوكى والأعضاء الجدد الآخرون ألايناموا مع امرأة لمدة سبعة أيام، وأُمروا بأن يبقوا عضويتهم سرا . . وإذا أرادوا أن يعرفوا من شخص ما أين أدلى بالقسم فعليهم أن يسألوه : أين تم ختانك؟ فيجيب : لقد تم ذلك فى كيرمانيا .

ولقد تبع ذلك عدد من مراسم القسم، وقيل إن كلاً منها يمثل التزاما معينا . كان القسم الأول غير ضار نسبيا . إذ كان الالتزام الوحيد هودفع نقود لصندوق التنظيم . أما مراسم القسم التى كان يرتجلها زعماء الغابة مجانا، فكانت أكثرها وحشية . ففى أحد الأيمان المعروفة وهوقسم الباتونى أو العصبة الذى يطلب من العضو أن يقتل نفسه، كان على كاريوكى أن يقفز تماما أمام بينياثى . ويقول كاريوكى : إنه أخبرنى أن آخذ صدر المعزة وفيه الجلد كى أضع قضيبى داخل ثقب فيه وأن أمسك ببقيته فى يدى اليسرى أمامى . وكانت هناك سبعة أيمان تعاقب بنفس اللعنة فى ليلة الخيانة .

١ - إذا طُلب منى أن أقتل من أجل ترابنا، إذا طُلب منى أن أسفك دمى من أجله، فسأطيع دون أن أستسلم أبدا .
٢ - لن أخون بلادى أبدا كما لن أشى بأى عضو فى هذه الحركة للأعداء، سواء كان العدو أوربيا أو إفريقيا .
٣ - إذا طُلب منى أثناء الليل أن أحرق مخزن أحد الأوربيين، وهو عدونا، فسأتقدم دون وجل، ولن أستسلم أبدا .
٤ - إذا طُلب منى أن أتقدم لقتال العدو وقتله فسأذهب لفعل ذلك حتى إذا كان هذا هو أبى أو أمى أو أخى أو أختى .
٥ - إذا حضر إلى أعضاء الحركة نهارا أو ليلا وطلبوا منى إخفاءهم فسأفعل ذلك وأساعدهم .
٦ - لن أغتصب امرأة رجل آخر ولن أسير أبدا مع العاهرات ولن أسرق شيئا يخص شخصا فى الحركة، وكذلك لن أشعر بالكره لأى عضو بسبب تصرفاته .
٧ - لن أبيع بلادى قط مقابل المال أو أى شىء آخر، وسألتزم حتى مماتى بالوعود

التى قطعتها هذا اليوم ولن أفشى أسرارنا لأعدائنا ولا لأى شخص لا ينتمى للحركة، وإذا تعديت على أى من التعهدات التى قطعتها هكذا بكامل وعيى فسأوافق على أى جزاء تقرر الحركة توقيعه، وإن لم أفعل ذلك فسيقتلنى هذا القسم.

ويجادل ف. د. كورنفيلد فى كتابه (المسح الرسمى للماو ماو) قائلا بأنه مع مطلع عام ١٩٥٢ لم يكن الاتحاد الكينى أكثر من مجرد غطاء للماو ماو. إذ كانت الماو ماو تعمل من خلال الجهاز الذى كان يتمتع بتطوير جيد مرورا بلجنته المركزية فى نيروبى إلى جماعات المناطق نزولا إلى خلاياه المحلية. وأطلقت الحكومة على هذا التنظيم اسم الجناح السلبى لحركة الماو ماو التى ترسل الأوامر أو المؤن إلى النشطاء أو مقاتلى الغابات الذين كانت توجد أجهزتهم الرئيسة (جيوش تحرير الأرض) فى أقاليم جبل كينيا.

وهذه الأجهزة التى أمكن التعرف عليها عام ١٩٦٠ لم يمكن اكتشافها فى أوائل أيام الماو ماو. والسبب الرسمى الذى أُعطى لتبرير هذا الفشل هو أن قوات المخابرات كانت أصغر كثيرا من أن تقدم تقييما صحيحا. ولكن يظل من المحتمل أن الحوادث المعزولة كإضراب هنا ومسيرة احتجاج هناك واجتماع فى مكان آخر لم يتم ربطها بعضها ببعض فى البداية إلا بحسبانها أعراضا لقلاقل الكيكويو أو باعتبارها دليلا على نمو القومية الإفريقية.

وكانت الأهداف التى سجلها د. ليكى فى كتابه (هزيمة الماو ماو) سبعة هى :

١ - استرداد الأرض الضائعة.
٢ - الحصول على الحكم الذاتى.
٣ - تدمير المسيحية.
٤ - إعادة العادات القديمة.
٥ - طرد جميع الأجانب.
٦ - إلغاء قانون حفظ التربة.
٧ - زيادة التعليم العلمانى.

وكان الهدفان الأولان يروقان لأعضاء منظمة وطنية مثل الاتحاد الكينى الذى

يبدو أنه لم يكن يحقق تقدما كبيرا عن طريق الوسائل السرية. أما الأهداف الأخرى فيبدو أنها وُضعت ببساطة لجذب أكبر عدد ممكن للحركة وضمان العواطف القَبلية من أجل بعث إفريقيا.

ومع أن كينياتا قد أصبح رمز الحركة للمسيح المنتظر إلا أن الدور الذى اختاره هو كان دور موسى، وهو أن يتجنب الصلب ويقود أتباعه الأكثر تعقلا إلى أرض الميعاد. وكانت رسوم العضوية تعنى أن يجد صناديد الماو ماو نقودا يعيشون بها، إذ إن الكثيرمنهم كان بلا عمل. إلا أن نظام دفع النقود هذا كان قد بدأ فى الانهيار قبل إعلان حالة الطوارئ فى ٢١ من أكتوبر عام ١٩٥٢. وأصبح من غير الممكن مفاتحة المرشحين للعضوية علنا. وإذا لم يقبل المرشح أن يحلف القسم بارادته كان لابد من إجباره على ذلك. مثل حالة المرأة الكاثوليكية من الكيكويو التى قُيدت فى الكوخ الذى يتم فيه حلف القسم. وحين رفضت أن تدلى بالقسم جردت من ملابسها وجلدت وأُخبرت بأنها ستقتل وسيشرب قاتلوها دمها. وحين ظلت على رفضها جُلدت مرة أخرى وتم تعليقها بحبل حتى فقدت الوعى. وعندما عاد إليها الوعى، ضغطوا على شفتيها بزجاجة مملوءة بالدم وأُجبرت على أن تكمل القسم.

وكان الكثير من الكيكويو يظلون مكبلين بهذا القسم برغم أنهم أُكرهوا عليه، ولكن هذه المرأة أبلغت الشرطة. غير أن بعض أبناء الكيكويو الأقل ثباتا على عقيدتهم تم إدخالهم حركة الماو ماو ضد إرادتهم. فكانوا ممزقين بين الخوف من الشر من ناحية، والرغبة فى أن يحيوا حياة هادئة من ناحية أخرى.

لقد كان هدف الماو ماو توحيد الكيكويو ضد الأجانب الدخلاء، ولكنها بدأت فى تفريقهم. إذ نشأت نوبة من الحرق المتعمد. ففى نيروبى أغلق الماو ماو الأكواخ على الموالين للأوربيين من أسر الكيكويو وأشعلت فيهم النار. غير أنه لم تقع خسائر فى الأرواح. وحدث ذلك فى أواخر يناير وأوائل فبراير عام ١٩٥٢. وفى ليلة ٦ من فبراير، فقدت مزرعتان أوربيتان فى نانيوكى محاصيل تقدر بحوالى ٣٦٤٠ دولارا عن طريق الحرق المتعمد. وكان لأعمال الحرق هذه، مغزى مزدوج، فبالنسبة للماو ماو كان معناها فشلهم فى ضمان التزام الكيكويو بالحركة

بواسطة الطرق السلمية . أما بالنسبة للحكومة ، فكان معناها إمكانية القيام بخطوات أكثر نشاطا ضد ما كان فى السابق مجرد تهديد ناتج عن جلسات القسم السرية .

وبدأت الحكومة فى إبريل حملة للتشجيع على التبرؤ من القسم لإعتاق أعضاء الماو ماو منه ، فعقد أطباء القبائل مراسم تطهير ، إذ كان هؤلاء الأطباء مستعدين لتطهير أولئك الذين تعدوا على المحرمات القديمة وذلك عن طريق أخذهم لقسم الماو ماو . وهذه الحملة التى كان مقدرا لها أن تستمر أثناء حالة الطوارئ، بدأت فى نيرى حيث قرر الأطباء القَبليون أن يستخدموا قَسم الكلبِ وهو قسم غليظ كان قد استُعمل آخر مرة منذ أربعين سنة فى مواجهة حالة من تفجُّر السحر الأسود .

وفى مراسم لاحقة لإزالة أثر القسم فى كيامبو وفورت هول ، استخدموا حجر جيثاثى ، وكان رد الماو ماو مزيدا من الارتداد إلى السحر الأسود . فكانوا يذبحون حيوانا قرب مركز التخلص من القسم فى الليلة السابقة على إجراء المراسم مع تهديد باستنزال الموت على كل الذين يحضرون هذه المراسم أو يساعدون الحكومة .

وظلت عضوية الماو ماو تتزايد . و فى نفس الوقت تقريبا تلقى الكيكويو الموالون للحكومة ورؤساؤهم خطابات تهديد ، وبدأت أولى عمليات الاغتيال . ففى ١٥ من مايو عام ١٩٥٢ عُثر على جثتى رجلين من الكيكويو مقتولين رميا بالرصاص فى نهر كيرشو بالقرب من نيروبى . وكان أحدهما قد أبلغ عن الماو ماو منذ عدة أسابيع . وقُدِّم ستة أشخاص للمحاكمة بسبب هذه الجرائم . أما الرجل الذى أبلغ عن وجود الجثتين ، فقد وجد هو نفسه مغتالا فيما بعد ، وأصبحت الجريمة السياسية لغة هذا العصر .

وأدرك كينياتا مقدار الخطورة الذى يعيش فى ظله : « لو تمكن أعداؤنا من القبض على جومو كينياتا فسأموت إذا لم أتبعه حيث يكون » . وأصبح تحريره هو قَسم الماو ماو فى يونيه . ولكن لو لم يُعتقل ويُسجن فى مكان آمن بعيدا عن وحشية هؤلاء الناس فلقد كان على يقين بأنه لم يكن أبدا ليتسنى له أن يبرز باعتباره نور كينيا ، إذ كان يلعب لعبة خطرة لم يكن له أن يفوز بها مالم تضعه الحكومة فى مستشفى الأمراض العقلية بينما تصارع هى ضد العنف الذى لم يفعل شيئا لتهدئته . وفى

مارس عام ١٩٥٢ نقل عن سير فيليب ميتشل قوله : إن الشعور السياسى العام فى كينيا أفضل مما عرفه لعدة سنوات .

وفى ٢١ من يونيه تخلى عن سلطته كحاكم . وفى غضون الشهور الثلاثة التى مرت قبل أن يتولى الموقف حاكم جديد، رفض الحاكم بالنيابة نداءات المجلس التشريعى من أجل استصدار تشريع للطوارئ، وذلك فى بيان قال فيه : «أنا أنفى نفيا قاطعا وجود حالة طوارئ» . ومع ذلك فقد وجد ٥٩ من الإفريقيين الموالين للحكومة مقتولين خلال الأشهر الستة السابقة .

إذن كان لا بد من تقدير الصعوبات التى كانت تواجه الحكومة ، ولم يكن من الممكن إعطاء سلطات لقمع الأعمال الانقلابية ، ومنها تلك التى يقوم بها الاتحاد الكينى وما يرتبط به من تنظيمات دون إعلان حالة طوارئ . وإذا أُعلنت فيجب أن يكون باديا للعيان أنها لم تُعلن نتيجة ضغط الأوربيين فحسب ، بل بناء على سياسة الحكومة وبناء على طلب الموالين من الكيكويو من أجل حمايتهم .

وكان سير فيليب والحاكم بالنيابة على استعداد لأن يستجلبا على نفسيهما الاتهام بالتراخى لأنهما كانا يعلمان مدى الخطورة التى يمكن أن يسببها إعلان حالة الطوارئ . ولو أنهما كانا قد استطاعا فى الشهور السابقة إقناع كينياتا بالتنديد بالماو ماو ، تنديدا صريحا ، لكان فى إمكانهما اتخاذ إجراءات ضد الماو ماو دون المخاطرة بدفع المزيد من مؤيدى الاتحاد الكينى إلى الانضمام إلى المتطرفين .

وكان الجميع يعرفون أن الموقف سوف يتغير بوصول الحاكم الجديد سير إيفيلين بيرينج ، ولكن فرق القسم للماو ماو التى تستخدم السيارات كانت تندفع خارج نيروبى إلى أماكن القبائل للإسراع فى إتمام العضوية الإجبارية للأهالى . وسرت شائعات بوجود تجمعات للقَسم تبلغ ٨٠٠ فى وقت واحد . وخلال عشرة أيام ، فى منتصف سبتمبر ، قُتل ١٤ من الكيكويو للاشتباه بأنهم مخبرون لدى الحكومة ، وفى ليلة ٢٥ من سبتمبر أشعلت ثلاث عصابات تتكون كل منها من خمسة عشر من الرجال الأقوياء النار فى المبانى الموجودة فى خمسة مزارع فى تيماو وبين نايوكى ونيرو ، فقتلوا أو شوهوا ١٢٠ رأسا من الماشية تقدر قيمتها بحوالى ٥٢٠٠ دولار وجرحوا ٢٦ رأسا من الماشية كما قتلوا ٢٢٠ رأسا من الأغنام ثم جرحوا ١٤٠ . أما

الدواجن فلم تُقتل على الفور، بل بُقرت بطونها أو مُثِّل بها. وكان سير إيفيلين قد وصل إلى نيروبى فى ٢٩ من سبتمبر عام ١٩٥٢.

وبعد ذلك بعشرة أيام، أى بعد أن قام سير إيفيلين بيرينج بجولة سريعة فى المناطق المصابة حيث اغتيل أحد رؤساء القبائل فى وضح النهار وعلى قارعة الطريق، (أبرق الحاكم الجديد إلى لندن موصيا بإعلان حالة طوارئ فى أسرع وقت ممكن. وأمكن اتخاذ إجراءات احتياطية) فمعظم الأعمال الإجرامية تُخطَّط وتُنفذ بتعليمات من نيروبى. وكانت تنقل عن طريق مدينتين صغيرتين على حافتين متوازيتين لفورت هول. حدث بالأولى العديد من جرائم الماو ماو. أما الثانية فلم يقع بها أى من هذه الجرائم. وبالأولى خدمة أتوبيس، أما الثانية فليس بها مثل هذه الخدمة.

إذن فنحن إزاء حركة ثورية منظمة، وإذا لم يكن بالإمكان إيقافها، فسيحدث انهيار إدارى يتبعه سفك للدماء يصل إلى حد الحرب الأهلية.

لذا ففى ٢١من أكتوبر عام١٩٥٢، أعلن الحاكم حالة الطوارئ، إلا أن العملية كانت قد بدأت فى ليلة ١٢ من حاملات الجنود التابعة للسلاح الجوى الملكى محضرين تعزيزا يتكون من جنود مسلحين من منطقة القناة، وتبع هذا القبض على ٨٤ من الماو ماو المشتبه فيهم ومنهم جومو كينياتا الذى حُددت له محاكمة فى يناير عام ١٩٥٣. وفى اليوم الثانى لبدء حالة الطوارئ مُزق الزعيم القَبلى نديرى إربا حين أمر بذلك تجمع لإلقاء القسم، كان معه اثنان من رجال الشرطة القبليين.

وبعد ذلك بعدة أيام قُتل إيريك برونر وهو مزارع أوربى مسن مع اثنين من خدم منزله. ولم يكن هناك سبب واضح لقتل شخص مثل برونر أو قتل ضابط بحرى آخر مسن متقاعد يقطن منطقة شلالات تومسون.

إذن كان المقصود من الهجمات العشوائية غير المنطقية ترويع المستوطنين الأوربيين. وشهد يوم ٢٦ من نوفمبر مقتل رئيس مدينة نيروبى توم مبوتيلى وهو من قبيلة لوو ونائب رئيس سابق للاتحاد الكينى كان قد ندد بالماو ماو، وجرت محاولتان لاغتياله عام ١٩٥٠ وكان من المعروف أنه سيدلى بشهادته أمام النيابة فى محاكمة كينياتا.

وسواء فى أماكن القبائل الإفريقية أو المزارع الأوربية، عُينت حراسة لم تكن مسلحة سوى بأسلحة الأهالى، لكن الشرطة الإفريقية القَبلية هى فقط التى كانت تقوم بتلك الحراسة. وعند منتصف يناير عام ١٩٥٣ ارتفع عدد هؤلاء الحرس من ٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ رجل، ونتيجة ذلك قتل رجال الماو ماو ٣٥ شخصا إفريقيا فى مدى الأسبوعين الأولين من يناير. وبرغم أن عدد القتلى من الأوربيين كان أقل أثناء فترة حالة الطوارئ، إذ قُتل ٣٢ شخصا فقط، فإن أعمال القتل هذه كانت على درجة عالية من القسوة والوحشية (مثل ذبح ميكل روك البالغ من العمر ست سنوات) بحيث أثارت هذه الأعمال داخل نفوس الأوربيين كراهية باردة كان من الصعب فى بعض الأحيان السيطرة عليها، تماما مثل كراهية الماو ماو للأوربيين.

ولكن، ومنذ البداية، كان الكفاح أساسا بين أفراد الكيكويو الذين أقسموا على تحقيق الاستقلال عن طريق القوة، وأولئك الذين لم يروا أن الاستقلال يجب الفوز به على حساب القانون والنظام.

وليس من المؤكد ما إذا كانت حالة الطوارئ قد أُعلنت تحسبا لانتفاضة مسلحة مخططة لوقت سيأتى لاحقا. غير أن الأمر المؤكد هو أن أيا من الجانبين لم تكن لديه أى إستراتيجية واضحة فى المراحل الأولى. فقد كان هناك حشد للقوات الحكومية من الخارج ومن الداخل، كتعبئة الشرطة، والحرس الداخلى والمخابرات. ولكن بدلا من وجود منطقة قتال محددة، كانت هناك سلسلة من الحوادث المنعزلة وتفرق لقوات الحكومة فى مواقع دفاعية.

وفى هذا الموقف، فإن غالبية الكيكويو الذين كانوا ينشدون حياة هادئة، وجدوا أنه من الكياسة التعاون مع كلا الجانبين. فحين كان الحرس يطلب خندقا دفاعيا، كانوا يقومون بحفره، وكذلك حين كان الماو ماو يريدون الطعام، كانوا يقدمونه لهم. غير أنه فى ليلة ٢٦ من مارس عام ١٩٥٣، وقعت حادثتان كانتا بدء مرحلة جديدة. ففى حوالى التاسعة والنصف ليلا هاجم ثمانون من رجال الماو ماو يركبون شاحنة قسم الشرطة بنايفاشا فى أحد الوديان، وقتلوا حارس برج المراقبة وأحد الموظفين، كما استولوا على ٥١ قطعة سلاح أوتوماتيكية وتسعة وعشرين مسدسا وما استطاعوا حمله من ذخيرة دون أن يصابوا بأى أذى.

وبعد ذلك بنصف ساعة، وفى لارى على بعد ٣٠ ميلا، هاجمت قوة تتكون من حوالى ألف من الرجال الأشداء أسر الرجال الذين يعملون فى الحرس الداخلى، فربطت الأكواخ بالحبال حتى لا يمكن فتح الأبواب، ثم غُمرت بالجازولين وأُشعلت فيها النار. أما من هربوا من الأكواخ، فكانت أجسادهم ممزقة. وقُتل الزعيم لوكا الذى كان يعارض الماو ماو ومُثِّل بجثته مع زوجاته الثمانى. ورأت إحداهن جسده وهو ينشطر إلى نصفين قبل أن يُلقى به فى وجهها. ورأت إحدى النساء اللاتى هربن، بعد قطع ذراعيها من المفصل طفلها ورأسه تُقطع ويشرب مهاجموها من دمه. وكان باستطاعتها إعطاء أسماء خمسين شخصا تعرفت عليهم باعتبارهم من جيرانها ومن رجال المنطقة. وقُتل فى مذبحة لارى ٥٤ شخصا كان ثلثاهم من النساء والأطفال، ونجا ٣١ شخصا غير أنهم ظلوا مشوهين مدى الحياة. وأُحرقت مائتان من الأكواخ، وشوهت ١٠٠٠ رأس من الماشية، وكان هناك عدد كبير من الأشلاء يمثل الموتى الذين لم يمكن التعرف عليهم.

وأقنعت الغارة التى شنها الماو ماو على نايفاشا السلطات بأن الماو ماو أشد قوة مما كانوا يظنون، وأحدثت مذبحة لارى صدمة عنيفة للعالم المتحضر كما حدث حين قام النازيون بإزالة ليديس. ولو أن الماو ماو كانوا قد خططوا لذلك عن عمد، لم يكن لهم أن يحققوا نصرا مزدوجا أكبر من ذلك يؤدى إلى هزيمتهم النهائية على نحو أكثر تأكيدا مما حدث.

فبالرغم من أن كاريوكى، أثناء اعتقاله، حاول التملص من الذنب فيما يتعلق بمذبحة لارى، إلا أن اعتذاره لم يكن قائما على أساس وأصبح أبناء الكيكويو منذ ذلك الوقت فصاعدا على استعداد لضم الصفوف من أجل هزيمة الماو ماو. غير أن هذا الأمر يستغرق وقتا.

وفى إبريل، اتهم كينياتا مع خمسة من شركائه بإدارة الماو ماو. وقال رئيس الشرطة: «إن كينياتا هو العقل المدبر وراء خطة لطرد الأوربيين من كينيا»، فحكم عليه بالسجن لمدة سبع سنوات مع الأشغال الشاقة.

أما الفترة التالية، فكانت ضرورية للتدرج الشعبى، غير أنها لم تكن مؤثرة. ففى يونية، استدعى جنرال سير إيرسكين ليتولى منصب رئيس الأركان فى شرقى

إفريقيا من أجل تنسيق أنشطة الشرطة والعسكريين والسلطات المدنية. أما حرس الكيكويو الداخلى، فقد زودوا ببعض الأسلحة النارية لتحل محل الخناجر والسكاكين. وقد أضيف إلى المجندين الأوربيين الذين كان عددهم ٤٢٠ ـ من جالية أوربية قوية يبلغ عددها ٤٥٠٠٠ نسمة ـ كتيبة مكونة من ٧٠٠٠ من الآسيويين الذين بلغ عددهم ١٥٠٠٠٠ معظمهم من الهنود. وكان الأوربيون متعصبين حتى الآن ضد تجنيد الآسيويين.

وأثناء ذلك حدثت هجرة ملحوظة من الكيكويو. إذ خرج عدد كبير من المزارع الأوربية : بعضهم طردتهم الحكومة من المناطق التى كان يسيطر عليها الماو ماو، وبعضهم طردهم المزارعون الذين كانوا يتوجسون منهم خيفة، وآخرون كانوا متلهفين على تحاشى نظام تحقيق الشخصية الجديد الأكثر صرامة والذى فرض على الكيكويو الذين كانوا خارج مناطق القبائل.

واضطرت مناطق القبائل المكتظة أصلا إلى استيعاب هؤلاء الذين بلغ عددهم ٦٠٠٠٠ وافد جديد. ونتيجة الاستقبال الكئيب الذى ووجهوا به، ذهب الكثيرون منهم ليكونوا إضافة للماو ماو فى غابات جبل كينيا. ولقد شعر ديدان كيماثى وغيره من (جنرالات) الغابات بأن هؤلاء الحثالة التى لم يدعها أحد قد صاروا مصدر إحراج. فكان بعضهم متعصبين، واعتقد بعضهم أن كينياتا الذى ظل يدعو ضد الالتزام بالماو ماو لأكثر من عام قد حقق الفوز. وآخرون كانوا فزعين من زيادة سيطرة الشرطة وكذلك العسكريين على مناطق القبائل. بينما شعر آخرون بأنهم، حتى إذا أُجبروا على أداء القسم، متورطون مع الماو ماو.

ولقد أظهرت العمليات العسكرية فى الغابات عام ١٩٥٣ نتائج محدودة. وهو ما دفع الحكومة إلى أن تقرر شن هجوم على الجناح السلبى فى نيروبى عام ١٩٥٤. ولكنها لكى تقوم بهجوم كهذا، ربما يكون من الضرورى سحب معظم القوات من خط الجبهة.

وتقرر أن تتم هذه العملية (عملية السندان) فى ٢٤ من إبريل، وهى عبارة عن فرض العزل الجماعى على ١٦٠٠٠٠ من سكان المدينة من الكيكويو. ولكن قبل ذلك، وفى أثناء مناوشات روتينية على جبل كينيا، تم اعتقال سجين مهم هو وارهيو إيتوت.

ففى عام ١٩٤٢، حين كان إيتوت فى سن العشرين، انضم إلى مسدسات الملك الإفريقية ورقى إلى رتبة ملازم فى الباسيفيكى. وحين ترك الخدمة العسكرية أصبح رجل إطفاء فى سكة حديد شرقى إفريقيا. وفى عام ١٩٥١، أُكره على أن يقسم قسم الماو ماو، ولكنه قام ببعض الواجبات التى كلفه بها الاتحاد الكينى طواعية وذلك سواء فى الاجتماعات العامة أو حين كان ينفذ مهام خاصة. وعلى ذلك، رقى نفسه إلى رتبة (جنرال صين).

وحتى هذه اللحظة، لم تكن هناك مخابرات بين الحكومة والماو ماو. ثم تحدث أيان هندرسون الأوربى المولود فى كينيا، والذى كان يبلغ من العمر سبعا وعشرين سنة، وكان يعمل مفتشا بالشرطة ـ تحدث مع إيتوت لمدة ثلاثة أيام. ولما كان هندرسون قد ولد وتربى بين الكيكويو، فقد كان يعلم دخائل ما يدور فى عقولهم. فتمكن من إقناع إيتوت بالعودة لترتيب استسلام حوالى ٥٠٠٠ من رجال الماو ماو على جبل كينيا. إلا أن العملية فشلت نتيجة سلسلة من الأخطاء. ذلك أن زعماء الماو ماو كان يخالجهم الشك فى أن مفاوضات الاستسلام المقترحة إن هى إلا فخ منصوب لهم فى آخر موعد فى الغابة كان محددا له العاشر من إبريل. وتم التخلى عن المحاولة، وتحولت القوات المنتظرة إلى عملية السندان فى نيروبى.

وفى الأسبوعين الأولين من العملية، عُزل كل قطاع من المدينة على حدة وتم استعراض سكانه الإفريقيين. وساعد الأعضاء السابقون فى الماو ماو على تحديد شركائهم. وكان هؤلاء الأعضاء السابقون مُلثمين. فالأشخاص الذين كانت أوراقهم غير صحيحة، أو أولئك الذين لم يتمكنوا من إبداء شرح مقنع لوجودهم فى نيروبى، تم نقلهم باللوريات إلى أحد معسكرات الاستقبال فى لاتنانجا لإجراء المزيد من الاستجواب.

وفى ٨ من مايو، كان قد تم فرز ٣٠٠٠ من الإفريقيين، وأرسل ١٦٥٣ منهم إلى معسكرات الاعتقال. أما وارهيو فوضع فى نفس المعتقل الذى وضع فيه كينياتا الذى حاول تدريبه حتى يكون حارسه الشخصى. (ويشير الملازم إيتوتو إلى أن هذا الهدف لم يتحقق، وهو الآن ملازم فى الجيش الكينى).

وخلال بقية العام، تم الاحتفاظ بكتيبة فى نيروبى بشكل دائم، كما قامت فرق

مخابرات بغارات فى المناطق التى اعتقد أن الماو ماو مازال لهم وجود فيها . وفى نهاية العام ، كان عدد معتقلى الماو ماو قد بلغ ٧٧٠٠ معتقلا . وبتدمير الجناح السلبى فى نيروبى ، تمكنت هذه القوات من أن تقطع التموين عن مقاتلى الغابات . ثم وجهت الحكومة انتباهها إلى الماو ماو فى جبل كينيا ، الذين قد أصبحوا معزولين فى ذلك الحين .

وفى عام ١٩٥٥ ، نظمت الحكومة عملية أخرى فى الأبردير لدفع الماو ماو للخروج من مخابئهم . وهذه العملية لم تسفر إلا عن القبض على ١٦١ شخصا . وتبعتها عملية أخرى فى مارس ، لكنها لم تنجح إلا فى القبض على ٢٧٧ شخصا . وكانت هذه العمليات شديدة التكلفة وعديمة الفائدة ، إذ اشتملت على قصف بالقنابل نتج عنه جرح عدد من الفيلة والخراتيت والجاموس أكثر مما أصابت من البشر . كما أدى الحصار الذى فُرض على أماكن القبائل إلى انخفاض مستوى الماو ماو إلى حد أدنى من الإنسانية لم يسبق له مثيل فى العصر الحديث .

غير أن حل مشكلة الطوارئ جاء عن طريق الكيكويو أنفسهم وليس عن طريق الأوربيين إذ ألحقت خمس فرق تتكون كل منها من عشرة من أعضاء الماو ماو بالشرطة فى نيرى . واستطاعت هذه الفرق خلال ثلاثة أشهر اكتشاف أو قتل ٢٤ من ٢٥ من كبار زعماء الماو ماو . ومن بين من بقوا على قيد الحياة ، كان ديدان كيماثى أكثرهم قوة إلى حد بعيد . كما كان كيماثى أشد الضحايا إثارة للعطف وهو مخلوق الحركة العظيم ، وهى الحركة التى دفعت بكينياتا إلى السلطة . فلقد كان كيماثى شخصية سيكوباتية مليئا بأوهام العظمة والوساوس القهرية على نحو أسوأ ، بحيث كان يمكن لسويتنيوس أن يقوم بتسجيل حياته . غير أن كاريوكى اعتبره أعظم أبطال كينيا جميعا بل هو روبين هود الأسطورة الكينية الحديثة .

ولد كيماثى ابنا غير شرعى فى موقع تيتو عام ١٩٢٠ . وحين كان صغيرا منحته جدته بركاتها وهى على فراش الموت . فصار يظن أن هذه البركات كانت وعدا من الإلهة نجاى بأنه سيصبح زعيما على جميع قبائل الكيكويو . وكان طالبا نجيبا حيث تلقى تعليمه فى كل من المدارس التبشيرية والمدارس المستقلة . ولما كان لا يشعر بأى عرفان للجميل ، فقد سرق الرجل المسن الذى أنفق على تعليمه . وبعد أن طرده

رد ذلك بأن جعل الماو ماو يقتلونه. ولم يكن يقيم فى أى مكان لفترة طويلة. وباعتباره شخصا غير منضبط ولا يؤمن بالمبادئ، فقد نال نوعا من الإعجاب لعنفه وتمكنه من تحاشى العقوبة.

وانجذب إلى الاتحاد الكينى، وبينما كان يقوم بدور العضلات فى الاجتماعات الجماهيرية أخذ يستوعب مذاهب الاتحاد المتصلبة. وبعد أن أقسم قسم الماو ماو مرتين بالإضافة إلى كونه أمين فرع الاتحاد الكينى أخذ أهداف الماو ماو بشكل بالغ الجدية، واكتشف غابات الأبردير لتكون موقعا لعملياته فى المستقبل. وكذلك قام بتنظيم عمليات حلف اليمين الجماعية التى مزق فيها شيخ القبيلة نديرى حتى الموت. وبعد قتله قبض على كيماثى وأودع السجن. غير أن أحد الحراس كان ينتمى للماو ماو، فاشترى كيماثى حريته منه مقابل دراجته. ثم فر إلى غابات الأبردير ومعه كتابه المقدس الذى كان مكتوبا بلغة الكيكويو. وكشف هذا الكتاب المقدس عن رسالته الإلهية: فقد كانت رسالات إبراهيم وموسى والمسيح والإلهة نجاى هى رسالته المختارة. وقد جلب عليه هذا الاقتناع الزعامة على الماو ماو فى الأبردير. وكانت رهبتهم الدينية منه هى التى جعلتهم يتماسكون حين فقد كيماثى عقله.

فى المراحل الأولى، كانت لديه خطة واضحة للتنظيم، إذ جعل رجاله ينضمون إلى التشكيلات العسكرية فى خطوط الجيش البريطانى، وكان الهدف النهائى هو الاستيلاء على المزارع الأوربية. كذلك كان لديه مجلسان رئيسان. كانت مهمة الأول وضع السياسة وتعيين القاضى، أما الثانى، فكانت مهمته تدريب الكوادر على حرب الغابات لفصم كل الصلات مع الحضارة. وكان نصيب جميع من رفضوا التعاون هو القتل أيا كان لونهم.

أما الجناح السلبى فى نيروبى، فقد كان مفيدا من حيث تزويده لهم بالمؤن. غير أن كيماثى أفصح عن وضعه حين أعلن عن نفسه أثناء أحد المراسم بالأدغال (رئيس الوزراء سير ددان كيماثى المعين من لدن الله، وقائد الإمبراطورية الإفريقية).

ولم يكن كيماثى شجاعا، كما لم يكن زاهدا. وبما أنه كان يستحوذ على أفضل

الأشياء كحق من حقوقه، فقد أصبح فريسة لما يمكن أن نطلق عليه مرض القيصر. وعندما ظهر زعماء يمكنهم تحدى موقعه، خفض رتبتهم وأرسلهم إلى مواقع بعيدة. وإذا احتجوا أو عادوا كانوا يُخنقون ويتركون للضباع.

لذا تفتت جيش كيماثى لتحرير الأرض إلى جماعات اعترف بعضها بسيادته عليها، بينما استمرت جماعات أخرى فى الكفاح من أجل البقاء وحدها.

وأصبحت الماو ماو بالنسبة لمقاتلى الغابات هؤلاء، طريقة حيوانية للمعيشة، إذ انخفضت المؤن التى كانت تأتى من الجناح السلبى، ثم تلاشت. وكان على الغابة أن تقدم كل شىء. فصنعوا شباكا من السلك أخذوها من حطام الطائرات لنصب فخاخ للحيوانات من أجل الغذاء والكساء. وكانوا يجمعون الفواكه البرية، والبذور والعسل. وكذلك كانوا يجدلون شعورهم ليسهل عليهم التخلص من القمل، فصاروا ينظرون إلى حياتهم الماضية كشىء موغل فى القدم بل ومريع. وكانت الحقيقة الوحيدة بالنسبة لهم هى الكفاح من أجل البقاء.

ويروى هندرسون فى قصته الكلاسيكية (اصطياد كيماثى)، كيف أنه كسب بالتدريج ود المقاتلين جماعات وأفرادا، ثم أعادهم إلى الغابة ليحضروا رفاقهم السابقين أو يقتلوهم. وبعد بحث دام ست سنوات وجد هندرسون ورجاله كيماثى وجروه على حافة الغابة وقبضوا عليه فى ٢٢ من أكتوبر عام ١٩٥٦ وفى الأشهر الخمسة التالية قدم كيماثى للمحاكمة وحكم عليه بالموت، ثم تم إعدامه.

كان إلقاء القبض على كيماثى الذى حدث بعد إعلان حالة الطوارئ بأربع سنوات، يعتبر علامة على نهاية تنظيم الماو ماو المتشدد. وبصفة إجمالية، قُتل ١٠٥٢٧ من الماو ماو، قتل منهم حراس الكيكويو المحليون والشرطة القبلية ٤٦٨٢.

ومع مقدم يناير عام١٩٦٢ حين أعلن الحاكم الجديد سير باتريك رينيزو رسميا نهاية حالة الطوارئ، بدا أن الماو ماو لا يشكلون سوى بضع مجموعات فى الغابات. ومع أن الماو ماو قد تقلصت إلى حد كبير، إلا أنها بقيت من الناحية الاسمية.

وكان يقود الماو ماو رجال ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم وطنيين يناضلون من أجل الحرية، وأبوا أن يخففوا قبضتهم على صفوف الجماعة إلى أن يتحقق هدفهم.

وفى أواخر عام ١٩٦٠ سمع المستوطنون الأوربيون شائعات عن وجود مراسم قَسَم سرية يقوم بتنظيمها أعضاء الاتحاد الوطنى الكينى الجديد، وهو الحزب السياسى الذى كان مُقيَّضا له أن يعيد جومو كينياتا إلى السلطة مرة أخرى.

وفى الفترة السابقة على استقلال كينيا مباشرة، قام رجال مثل المشير مواريباما بتدريب أعضاء جدد فى الغابات، وجمعوا الأسلحة والذخائر وترقبوا فرصة لطرد هؤلاء المستوطنين الأوربيين الذين بقوا رغم ذلك. مع أن هذا الرجل كان يقود ما لا يزيد على ٦٠٠ من الأتباع قاموا بإرهاب منطقة ميرو.

وحين نالت كينيا الاستقلال عام ١٩٦٣، عين جومو كينياتا رئيسا للوزراء. أما الرجال الذين كانوا معروفين بولائهم للماو ماو، فقد فازوا بمقاعد فى الجمعية الوطنية الكينية الجديدة. وفى السادس من نوفمبر أُعلن عفو عام عن الذين كانوا ما زالوا مختبئين فى الغابات، إلا أن الاستجابة لهذا العفو كانت ضئيلة بحيث كان يتحتم مد فترة العفو. أما الجماعات التى تركت الغابات، فقد تسلمت وثائق العفو وعادت بعد ذلك مباشرة إلى الغابات.

وفى ١٦ من ديسمبر، وبالاتفاق مع الحكومة، قاد العديد من جنرالات الماو ماو فلول جيوشهم خارج الغابة للاستسلام، واستمعوا إلى خطاب قال فيه كينياتا إنه يتمنى لهم أن يستقروا فى سلام على أراض خصصتها الحكومة لهم.

وبرغم أن مئات الماو ماو استسلموا، فإن اضطرار كينياتا لأن يعلن عفوا آخر عام ١٩٦٤ يشير إلى فشل مشروع عودة الماو ماو إلى المجتمع أو تأهيلهم. ففى تيماو حيث خصصت ٤٥ قطعة أرض، لم يتسلم المزرعة الممنوحة سوى شخص واحد. وربما يوحى هذا الدليل بأن الماو ماو ستظل وسيلة حماية فى القرى النائية، وستبقى كجماعة معادية للحكومة داخل الحياة السياسية الكينية.

القتلة

ديفيد أنان

بعد وقت قصير من استيلاء لورد كونواليس على سيرينجاباتام، عاصمة ميزور، في عام ١٧٨٨، خضع العديد من الممالك المجاورة في جنوبي الهند للسيطرة البريطانية.

وكان هذا هو الوقت الذى بدأ فيه الجنود والإداريون البريطانيون يكتشفون أن عصابات من الخناقين ملئوا طرق جنوبى الهند فى موسم الترحال فى الشتاء، وتم القبض على حوالى مائة من أولئك القتلة بالقرب من بانجالور. غير أنه بدا أنهم أيضا يعملون فى الشمال. ففى عام ١٨١٠ عُثر على جثث ٣٠ من المسافرين وقد شوهت طبقا للطقوس فى آبار تقع بين نهرى الجانج والجومنا.

ولفترة طويلة قُتل المسافرون فى شبه القارة الشاسعة. ذلك لأن السلطة كانت ضعيفة، فكانت عصابات اللصوص تترصد القرويين أو أهل المدن الذين يبلغ بهم الحمق حدا يجعلهم يتجولون خارج مناطقهم.

ولم يكن هناك ما يدل على أن هذه الجرائم مرتبطة بعضها ببعض، إلى أن تمكن ريتشارد شيروود وهو جراح فى قلعة القديس جورج فى مادراس عام ١٨١٦ من أن يجد مخبرين من بين أولئك القتلة الطقسيين الذين كانوا يبثون الرعب فى طرق الهند. ويرجع الفضل فى التحقيق فى شأن هذه الطائفة وقمعها بمرور الوقت لما كتبه عنها. ونادرا ما يكون لمقال أكاديمى مثل هذا الأثر فى العمل السياسى.

ووضع د. شيروود عنوانا لمقاله عن القتلة الذين يسمون الفانسيجار: أعضاء الفانسيجار أو الخناقون، وهذا الاسم مشتق من كلمة فانسى باللغة الهندوستانية ومعناها الشَّرَك.

أما إذا اتجهنا أكثر نحو الأجزاء الشمالية من الهند فسنجد أن هؤلاء القتلة يُسمون السفاحين ولكن بمعنى المخادعين. وغالبا ما كان الحكام المحليون يحمون هذه الطائفة إذ كانت تقتسم معهم المنهوبات التى كانت تستولى عليها من المسافرين القتلى.

وكان أعضاء الطائفة يعيشون كفلاحين عاديين. ولم يقدم هؤلاء القتلة قط على مهاجمة الأوربيين خوفا من القصاص، وكانوا يقومون بعملياتهم على مسافة لا تقل عن مائة ميل من منازلهم ضد غيرهم من المسافرين على الطريق.

ولم يقم أعضاء الفانسيجار بالسرقة قط دن أن تكون مصحوبة بالقتل، وكان دأبهم هو الخنق أولا ثم استعمال المسدس ضد ضحاياهم.

وكان من مبادئهم ألا يسمحوا لأحد بأن ينجو من أى جماعة يقومون بمهاجمتها مهما كان عدد أفرادها كبيرا حتى لا يتركوا شهودا على فظائعهم. وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو وجود صبية صغار السن فكان هؤلاء لا يقتلون؛ ويقوم الفانسيجار بتبنيهم، وحين يبلغون السن المنشودة يتم إلحاقهم بالجماعة وتعليمهم أسرارها الرهيبة.

وحسب ما يقول شيروود كانوا يعملون على شكل عصابات تتراوح بين ١٠ إلى ٥٠ رجلا. وكانت استخباراتهم الاستطلاعية ممتازة، إذ كانو يرسلون أولا أشخاصا قادرين على الخداع للبحث عن المسافرين الأثرياء وينالون ثقتهم، ثم بعد ذلك يلحق بهم القسم الرئيس من الفانسيجار الذين يقومون بالقتل خنقا. فكانوا يحولون دون هرب المسافرين أو الضحايا عن طريق إحاطتهم من الأمام والخلف.

وكان من المعروف أنه لا بد من وجود عضوين من الفانسيجار لقتل رجل واحد، وكان من الشائع أن يشترك ثلاثة أشخاص. وأثناء السفر، كان أحد الفانسيجار يضع قطعة من القماش حول رقبة الشخص المراد قتله، ويظل ممسكا بأحد الأطراف بينما يمسك بالطرف الآخر شريك له. ثم يُضيق الخناق على الرقبة من الأمام بإحدى الآلات، ويضغط عضوا العصابة على الضحية إلى الأمام وفى نفس الوقت يمسك المجرم الثالث المستعد بقدمى الضحية ثم يلقى به على الأرض فلا يستطيع أن يبدى أى مقاومة وهو فى هذا الوضع.

عند ذلك يقوم الرجل القابض على قدمى الضحية البائسة بركله فى أجزاء الجسد الحساسة فسرعان ما يموت. وكان سلاح القتلة هو منديل يلفونه حول خصرهم. وفى حالة ظهور مسافرين آخرين قبل دفن الجثة، تقوم العصابة بالولولة عليها وكأن واحدا منهم قد مات.

وكانوا غالبا ما يقيمون الولائم أو يضربون المخيمات على قبر ضحاياهم لإزالة أى آثار تدل على أن الأرض قد حفرت حديثا. وكانت جثث الضحايا تمزق لمنع التعرف على أصحابها، وكذلك لإرضاء متطلبات طقوس عبادتهم. فكانوا يفصلون القدمين عن الجسد، ويشوهون الوجه ويشقون الجسد ويفرغونه من أحشائه لمنع تحلله، وكذلك لمنع انتفاخه لأن الثعالب قد تتعرف على مكان الجثة المنتفخة وتخرجها.

وكان لكل عصابة من الفانسيجار جزار طقسى خاص بها، بالإضافة إلى تماثيل أو صور للحية والثعبان وشعارات الجريمة وهى الشرك والسكين والمعول (ويقال إن المعول له قدر كبير من القداسة بحيث يفترض أنه يطير من تلقاء نفسه إلى يد مستخدمه).

وكانت الزهور تنثر، وتُقدم الفاكهة والكعك للإلهة. ثم يقطعون رأس أحد الأغنام ويضعون فى مكانه مصباحا مشتعلا ويضعون القدم اليمنى الأمامية فى الفم قبل أن تبدأ الضراعة للإلهة كى تكشف لهم ما إذا كانت تقر الحملة التى يفكرون فى القيام بها. وتعتبر موافقتها قد أُعلنت إذا لوحظت حركات مرتعشة أو تشنجية أثناء الضراعة فى الفم أو فتحات الأنف بينما يُصب بعض السائل على هذين الجزأين.

ويروى التراث الدينى لهذه الطائفة أنه فى الأيام الذهبية للأساطير ساعدت الإلهة كالى أتباعها بالتهام أجساد ضحاياهم الميتة. وفى احدى المرات، نظر أحد أعضاء الطائفة الجدد إلى الوراء فرأى الإلهة وهى تقوم بأكل إحدى الجثث، فرفضت أن تبتلعها على سبيل العقوبة. إلا أنها كانت تحب مريديها حبا جعلها تستمتع بمنحهم إحدى أسنانها لتُستعمل كمعول، كما منحتهم طرف السارى - وهو رداء هندى - ليُستعمل فى عملية الخنق. ومنحتهم ضلعا ليُستعمل كسكين. ثم

أمرت أتباعها بأن يقوموا فى المستقبل بتمزيق فريستهم ثم يقوموا بدفنها. كما أمرتهم بأن يحبذوا اللونين الأصفر والأبيض، حتى فى عمل الشَّرك الذى يستخدمونه فى عملية الخنق.

وكان الفانسيجار شديدى التعلق بالخرافات أثناء القيام بحملاتهم، ويعتقدون أن من علامات حسن الطالع وجود حية تتحفز لغراب على إحدى الأشجار على الجانب الأيمن من الطريق، أو أحد طيور الحجل يصيح على الجانب الأيمن من الطريق أيضا، وكذلك منظر النمر. أما علامات سوء الطالع بالنسبة لهم، فكانت منظر الأرنب البرى أو ثعبان يعبر الطريق أو غراب ينعق فوق ظهر أحد الحيوانات أو بومة صغيرة جالسة أو حمار ينهق أو صوت ابن آوى وحيد أو كلب يهز رأسه.

وكانت كالى امرأة تحمى حرفا معينة، لذا فإن أتباعها يميلون إلى عدم الاعتداء على النساء أو الصياغ، أو الحدادين، أو النحاسين، أو النجارين، أو الحجارين. كما يتركون أيضا الغسالين والفخرانية وحثالة الناس والمهرجين وصناع الأحذية والمصابين بالجذام والعميان والمشوهين، أو أى رجل يجر بقرة أو أنثى ماعز. فكانت الكثير من المجموعات تتمتع بالحماية على الطريق لاحتوائها على أناس من هذه الفئات، ذلك أن هؤلاء القتلة الطقسيين كان ينبغى عليهم أن يقتلوا الجميع أو لا يقتلوا أحدا تلافيا لترك أى شهود.

ولكن بعد ذلك انحدر مستوى الطائفة، فهبطت إلى القتل بدون تمييز طمعا فى النقود. أما فى البداية، فكان أعضاء طائفة السفاحين يدققون بشدة من أجل مراعاة محرماتهم. فمن تراثهم، أن إحدى العصابات قتلت امرأة ولم تقم لتلك العصابة قائمة بعد ذلك أبدا وتم القضاء عليها فى النهاية.

وكان للفانسيجار- شأنهم شأن أى جمعية سرية تتسم بالكفاءة- مفردات من الإشارات السرية، كما كانت لهم لغة خاصة بهم. ووصف د. شيروود بعض النذر الموجودة على الطريق بأنها تشير إلى أن هناك ضحية قد تم إعدادها. كما أشار إلى الطريق الذى يسلكه الكشافون، فكان المسح على الذقن بظهر اليد من منطقة الحنجرة إلى الخارج معناه أن الحذر ضرورى. أما وضع اليد مفتوحة على الفم ثم سحبها برفق إلى أسفل فكان يعنى أنه لم يعد هناك داع للقلق.

كما كانت هناك ألفاظ خاصة للمعول والسكين، وعبارة (ماهى كثينى) كان معناها اكنس المكان، وهذا معناه تأكد من عدم وجود أحد فى مكان قريب. وكانت عبارة (أحضروا الخشب لإشعال النار) معناها اتخذوا مواقعكم. أما معنى (كلوا هذا التنبول) ـ (وهو نبات متسلق) ـ فهو اقتلوه. أما عبارة (اعتنوا بالقشة) فكان معناها اعتنوا بالجثة أى ادفنوها وكونوا على حذر. و(سلالة بهوانى) كانت تعنى (هل أنتم أيضا من الفانسيجار؟).

وكان الزواج من داخل الجماعة من العوامل التى ساعدت على سرية الفانسيجار. إذ إن العائلات الهندية تحتفظ فى قراها بالكثير لنفسها، لذا فإن زوجات أعضاء الفانسيجار كن على يقين من أن أى إفشاء لأسرار رجالهن معناه فناؤهن جميعا.

وكان دخول هذه الجماعة الدينية حقا موروثا مع أنه أيضا كان من المعتاد ضم الأطفال الأسرى إلى الطائفة. وكان يسمح للصبية الذين يبلغون من العمر عشر سنوات أو أكثر بأن يصحبوا عصابات القتل فى رفقة أحد أقاربهم باعتباره معلما، وكان هذا بدوره يجبر الصبى على أن يطيعه طاعة مطلقة، ويحمل عنه لوازمه وطعامه. وكان يعلم الصبى ببطء كى يفهم لغز كالى وأن يلزم الصمت فى حضور الأغراب. (يُلقن الصبى أن مصلحته الشخصية تتعارض مع مصلحة المجتمع بصفة عامة، كما تُقدم لهؤلاء الصبية فكرة حرمان إنسان من الحياة وكأنها فى بساطة قتل دجاجة أو إحدى الأغنام).

ويسمح للصبية فى البداية أن يشاهدوا جرائم القتل عن بُعد، ولكنهم سرعان ما يشاركون فى العمليات باعتبارهم كشافة. وبمرور الوقت حين يبلغون الثامنة عشرة من العمر يصبحون هم أنفسهم قتلة. وكان هؤلاء القتلة الشباب يستخدمون أنواعا من المخدرات ليجعلوا أعصابهم من القوة بحيث يصبحون قادرين على القيام بمهاجمة الناس. أمامعظم الفانسيجار الأكبر سنا فلم يكونوا يستخدمون أى مخدرات للقيام بمهامهم.

وحين بلغت الطائفة ذروة نشاطها قُتل عشرات الآلاف من المسافرين سنويا، إذ يقدر أحد المصادر ضحاياهم عبر تلك السنين بمليون قتيل. فقد اعترف أحد

السفاحين أثناء محاكمته بأنه شاهد وحده عددا ضخما من عمليات القتل الطقسية حتى اضطر إلى أن (يتوقف عن العد حين بلغ العدد الألف). ولقد أثار الفانسيجار درجة عالية من الإرهاب بحيث أمكنهم الاستمرار فى القيام بعملياتهم لبضعة قرون دون أن يواجهوا قدرا كبيرا من القصاص، ذلك أن أحدا لم يجرؤ على الإبلاغ عنهم. إلا أن السلطات الهندية كانت حينما تلقى القبض على بعض العصابات من هؤلاء السفاحين كانت تعلق كل فرد على الحائط مقيدا فى أحدالأعمدة أو تقطع يديه وأنفه.

والأمر الذى أحدث أكبر صدمة لدى د. شيروود هو أن هذه العصابات كانت تقتل الناس دون ذنب:

«إن مايشكل أكثر المعالم شذوذا فى شخصية هؤلاء القتلة هو استهانتهم الشديدة بالحياة الإنسانية، فهم نادرا ما يحتجون حتى بظرف مخفف مثل إغراء قوة المال. فهم لا يعرفون رحمة أو ندما، ولا يوجد ما يمنعهم من ارتكاب جرائم القتل مثل التوسل من أجل المسافر تعيس الحظ، كما لا يشعرون بوخز الضمير الذى عادة ما يحسه الناس عاجلا أو آجلا بعد اقتراف الخطيئة. ومن الملحوظ أن طائفة الفانسيجار يُفاجئون حين يُسألون عن هذا الموضوع، ويبدون عدم مبالاة ممزوجة بدرجة من الدهشة لأنهم يعدون هذا عملهم الذى يتمشى مع ما يمليه القدر الذى كُتب عليهم اتباعه. وهذه القدرية أدت بهم إلى مقارنة أنفسهم بالنمور؛ لأنهم زعموا أنه كما أن النمر يحقق ترتيب الطبيعة عن طريق افتراس غيره من الحيوانات، كذلك هم يفعلون ما أملاه عليهم القدر بافتراس غيرهم من البشر، فقدر كل امرئ مكتوب على جبينه؛ وما خدمُ كالى إلا أدوات فى يد إلهة وليسوا سببا فى موت الناس».

وبهذا انتهى ما سجله د. شيروود عن الفانسيجار الذين عُرفوا منذ ذلك الوقت وحتى الآن بالسفاحين وهو الاسم الذى أطلقه عليهم أهل الشمال. وكان أول من قرأ ما كتبه شيروود هو ويليام سليمان وهو ضابط شاب فى جيش البنغال. وكان هذا الضابط يهتم اهتماما كبيرا بشئون أهل البلاد، كما كان قد تعلَّم أربعا من لغات الهند، فأصبح سليمان منهمكا فى مشكلة السفاحين، وهو ما دفعه إلى تقديم طلب للالتحاق بالخدمة المدنية عام ١٨١٨.

وما أن أُسند إليه الإشراف على منطقة كاملة فى وادى نربودا عام ١٨٢٢ حتى بدأ فى بحث أنشطة السفاحين داخل حدود منطقته. وخلق ما كشف عنه هناك جوا من الإثارة لأنها أوحت بأن تنظيم السفاحين يشمل الأمة بأسرها، ونتيجة لذلك سُمح لسليمان بأن يقوم بأبحاثه فى منطقة أكثر اتساعا عام ١٨٢٦. وفى عام ١٨٣٠ قام الحاكم العام لورد ويليام بنتك بتعيينه رسميا للقيام بمهمة قمع السفاحين فى كل أنحاء وسط الهند. وواجه سليمان موقفا ذا صعوبة من نوع خاص، إذ كان من المستحيل تمييز السفاحين عن غيرهم من العصابات التى تقطع الطريق؛ فالقرويون يقومون بحمايتهم بسبب الخوف، كما كان الحكام المحليون يحمونهم لأن السفاحين كانوا يقدمون لهم الرِّشا.

وبما أنه كان من النادر العثور على جثث الموتى، فلم يكن بإمكان أحد أن يعرف ما إذا كان الأقارب الغائبون قدهربوا أو أكلتهم الوحوش أو ماتوا موتا طبيعيا أو سقطوا فى يد جيوش الأمراء المحليين الذين كانوا يحثون على سلب الأغنام من الناس جماعات وأفرادا.

ولم تكن هناك شرطة خارج نطاق الممتلكات البريطانية فى الهند، لذا كان على سليمان أن يشكل قواته الخاصة، كما كان عليه أيضا استصدار إذن للمحاكم المحلية كى تقوم بالمحاكمة فى الجرائم التى ارتكبت فى مناطق أخرى نظرا لاتساع نشاط السفاحين على نطاق كبير. وتمكن سليمان - وقد تعلم لغة السفاحين من البحث الذى أعده شيروود- أن يقيم شبكة من المخبرين بينهم. وكذلك وضع خريطة بالمواقع المعتادة التى يرتكبون فيها جرائمهم، ودرس عاداتهم، كما وضع سجلا لطرق اختيارهم لضحاياهم وطرق التخلص منها. وكان يرسل مساعديه المسلحين فى أثر السفاحين حيثما وجدهم، برغم احتجاجات بعض الحكام المحليين والإداريين البريطانيين فى بعض الولايات المجاورة.

وبما أن سليمان قام بدراسة السفاحين دراسة شيرلوك هولمز للموريارتى، فقد أصبح بذلك مؤرخ هذه الطائفة. وحسب ما يقول سليمان، فإن السفاحين قد يكونون فرسانا فارسيين من إحدى القبائل الرعوية، وهم رجال القبائل الذين وصفهم هيرودوت بأنهم كانوا يقاتلون بخنجر واحد ووسيلة خنق مصنوعة من الجلد الملوى.

أما السفاحون أنفسهم، فهم يتفاخرون بأن الأعمال التى وُجدت فى القرن الثامن فى كهوف ألورا أظهرت السفاحين وهم يقومون بأعمال القتل الطَّقْسيّة. وشهد أحد قادة السفاحين قائلا: «يمكنك أن تشاهد فى أحد الأماكن رجَالا يقومون بالخنق، وفى مكان آخر يدفنون الجثث، وفى مكان ثالث تراهم يحملونها إلى القبور. إذ لا توجد عملية من عمليات السفاحين ليست معروضة فى كهوف ألورا».

ويروى أحد المؤرخين الفرس عن ١٠٠٠ من السفاحين تم أسرهم فى دلهى عام ١٢٩٠، وأفرج عنهم بقرار خاطئ من قرارات العفو ليواصلوا إرهابهم للبنغال.

وفى القرن السادس عشر قام الإمبراطور أكبر بأسر ٥٠٠٠ آخرين بينما الرحالة الفرنسى تفينو يحكى عن« أخبث لصوص فى العالم يقومون بخنق المسافرين على الطريق من دلهى إلى أجرا فى الثمانينيات من القرن السادس عشر».

أما السفاحون، فكانوا يفسرون منشأهم على أساس التراث الهندوسى القائل بأن شيطانا كان يلتهم البشرية كلما خلق إنسان. وكان ذلك الشيطان من الضخامة بحيث إن البحر لم يستطع أن يغطى جسده كله بل كان يغمره حتى الوسط فقط. ثم جاءت كالى لإنقاذ البشرية فقطعت الشيطان بحيث يغرق، ولكن شيطانا آخر كان يظهر من كل قطرة دم نزفها هذا الشيطان. وعندما أقدمت على قتل تلك الشياطين خرج شيطان من كل قطرة دم نزفتها هذه الشياطين. ولكن بينما يقول الهندوس المحافظون بأن كالى حلت مشكلة تكاثر الشياطين بأن لعقت الدم من جروحهم، يزعم السفاحون بأن كالى شعرت بالكلل فصنعت رجلين من العرق الذى خرج من ذراعيها. وأعطت لهذين السفاحين الأصليين منديلين وطلبت منهما أن يقتلا جميع الشياطين دون سفك قطرة دم واحدة. فقام السفاحان بما طلبت وعرضا إعادة المنديلين. إلا أن كالى جعلتهما يحتفظان بهما على سبيل الذكرى وكذلك لتقدم لهما طريقة مقدسة ومربحة ليتعيشا منها هما ومن يأتى من بعدهما. فلم يكن مسموحا للرجلين بخنق البشر كما خنقا الشياطين فقط، بل أُمرا بأن يفعلا ذلك.

ولم يكن بإمكان السفاح الذى يُولد بين أبناء هذه المهنة أن يتنصل من واجبه وهو

القتل بناء على تعاليم دينه . ونشأ نوع ما من التفاهم بين سليمان والسفاحين ، إذ كان سليمان يشعر شعورا جارفا بحقيقة الأداة الإلهية والقدر تماما كما يشعر السفاحون . إذ قال أحد المؤرخين المشهورين بالكتابة عن السفاحين معلقا : إن إحدى إجابات السفاحين على سليمان ربما جاءت على لسان أحد قدامى العبرانيين وهو يدافع عن سجله فى الغزو وفكرة الشعب المختار .

ذلك أن ذلك السفاح قال فى رده على سليمان : منذ بدأ النذير يصير موضوعا مفضلا ، ونحن نعتبر المسافرين ضحايا ألقتهم الإلهة فى أيدينا كى يُقتلوا ، وما نحن إلا مجرد أداة فى يدها للقضاء عليهم : وإذا لم نفعل ذلك ، فلن تحمينا أبدا مرة أخرى وسنهوى نحن وعائلاتنا فى البؤس والعوز .

وكان السفاحون يعتقدون أن كالى لم تعد تحميهم من البريطانيين لأنهم ارتكبوا جرائم قتل تعدوا فيها على الفئات المحرمة . فلقد اعترف السفاح نازير لسليمان قائلا :

لكم سمعت أبى وغيره من كبار الحكماء يقولون ، حين كنا نقتل أناسا ونتعدى بقتلهم ما وضعوه لنا من قواعد : نوقن بأننا يوما ما سوف نعاقب على ذلك ؛ وأن الحكام الأوربيين سيكونون الأداة التى ستستخدم لتعذيبنا بسبب عدم احترامنا للعلامات المعروفة وإهمالنا للأصول التى وُضعت لإرشادنا . ذلك أن قتل المسافرين ليس خطأ وإنما قتل المسافرين المعدمين بطريقة خاطئة يعد أمرا مهلكا .

ولكن سليمان أضاف إضافات ضخمة لما سجله د. شيرووود عن أسرار السفاحين ومراسمهم وكشف النقاب عن أنهم يمثلون عبادة دينية ويشعرون بالانتماء نحو بعضهم بعضا ونحو إلهتهم . وكذلك كشف عن ولائهم لطريقة حياتهم ، ذلك الولاء الذى ندر أن نجد مثيله فى تاريخ الجمعيات السرية . إذ كان رمز المعول بالنسبة للسفاحين يشبه فى أهميته رمز الصليب لدى فرسان الهيكل . فُيقدس فى حفل محكم الطقوس بأن يمرر داخل النار سبع مرات . ويستخدم ضمانا للوفاء بالقسم تماما كالصليب . ومن يشهد زورا كان يُعد له موت مريع بالوقوف على كتفيه لمدة ستة أيام . وإذا سقط المعول من يدى حامله من أفراد

العصابة، كان موته أو حل العصابة خلال عام أمرا محققا(ألسنا نعبده؟ هذا ماقاله أحد السفاحين عن المعول) - (هل يسمع أحد صوته عند حفر قبر سوى أحد السفاحين؟ وهل يستطيع أى إنسان أن يقسم قسما كاذبا على معول؟).

لقد كتب سليمان وصفا تفصيليا لوليمة جيبونجى الطقسية التى كانت تتم بعد كل عملية قتل، وأحيانا كانت تتم فوق قبر الضحية. وكان السكر يحل محل التناول فى المسيحية رمزا للجسد والروح. فكان يوضع فوق بطانية أو ملاءة تُفرش على أرض نظيفة. وبالقرب منها يوضع المعول المقدس وقطعة من الفضة كقربان، ويجلس زعيم العصابة على قطعة القماش، ويولى وجهه نحو الغرب، ويتحلق حوله عدد متساو من أبرز الخناقين. أما بقية السفاحين من الدرجات الدنيا، فيجلسون على الأرض حول قطعة القماش.

وكان زعيم السفاحين يرش بعضا من هذا السكر فى ثقب من الأرض ويصلى قائلا: أيتها الإلهة العظيمة كما أنك ضمنت اثنين وستين روبية لجورا نيج وكودك بانوارى فى وقت شدتهما، كذلك نحن نصلى لك كى تلبى رغباتنا. فمثل هذه الصلوات من أجل الكسب ندر أن يتمتم بها حتى المقامرون. يردد السفاحون الآخرون هذه الصلاة بينما يسكب الزعيم بعض الماء المقدس على الحفرة والمعول ويضع بعض السكر على أيدى السفاحين الجالسين على البطانية. ثم تعطى إشارة الخنق الرمزى ويأخذ السفاحون فى أكل السكر من أيديهم فى صمت جليل. ثم توزع بقية السكر على السفاحين الجالسين حولهم، ولا يأكله سوى أولئك الذين ارتكبوا فعلا جريمة قتل؛ وأى سكر يسقط على الأرض كان يدفن فى هذه الحفرة. أما إذا أكل عضو جديد من السكر عن طريق الصدفة فكان يُجبر على الخروج ويقوم بعملية خنق فى الحال. ونظرا لحاجتهم للسرية، كانوا يحملون دائما معهم ستائر ليقيموا خيمة يمكن أن يؤدوا فيها حفل إتمام القتل.

لقد تحدَّث فرنجهيا عن الأثر غير العادى الذى كانت تحدثه هذه المراسم قائلا:

«أحيانا نشعر جميعا بالشفقة، لكن ما نتناوله كان يغير طبائعنا فهو جدير بأن يغير طبيعة حصان، ولو جرب أى إنسان هذه الخمر مرة واحدة يصير سفاحا حتى لو حذق كل المهن وامتلك ثروة العالم بأسره. فلم أكن قط فى حاجة للطعام،

فعائلة أمي كانت واسعة الثراء، وكان أقاربها يحتلون مناصب رفيعة. بل أنا نفسى كنت أحتل منصبا رفيعا، وكنت محبوبا حيثما حللت، بحيث كنت واثقا من الصعود والترقى، غير أنى كنت أشعر بالبؤس حين كنت أغيب عن عصابتى، وكنت أضطر إلى أن أعود مرة أخرى إلى السفاحين. لقد جعلنى أبى أتذوق ذلك الخمر القاتل حين كنت صبيا. وإذا قدر لى أن أعيش ألف سنة لما استطعت أن أتبع حرفة أخرى».

وصرح سليمان بأنه لم يعثر بين السفاحين على «أى مظهر من مظاهر القسوة الطائشة ؛ أى إيقاع ألم غير ضرورى أكثر من حرمان الشخص من حياته سواء كان هذا الألم جسديا أو نفسيا. ويعد قتل النساء خرقا لقواعدهم وهو ما يعزون إليه نجاحنا فى التصدى لهم، ولكن لم يُعرف عن سفاح أنه وجَّه إهانة للمرأة التى يراد قتلها بالفعل أو بالقول، ولا تجرؤ جماعة على قتل امرأة يُشتبه فى أن أحد أعضاء العصابة تربطه بها صلة إجرامية».

فالسفاحون يكرسون أنفسهم للقتل من أجل كالى ؛ ولكنهم خارج مهنتهم ما هم إلا أعمدة لأخلاق الأسرة. فلقد أثنى أحد مساعدى سليمان على السفاح مكين لودى بحق قائلا :

إنه من خيرة من عرفت من الرجال، ويمكن الوثوق به «فى أى علاقة من علاقات الحياة اللهم إلا العلاقة بين سفاح أخذ العهد وأحد المسافرين يحمل شيئا جديرا بالاستيلاء عليه. فجميعهم ينظرون إلى المسافرين كما ينظر الرياضى إلى أرنب أو أى طائر للصيد، ويتذكرون أفضل ملاعبهم ويتحادثون عنها بحبور كلما كان ذلك ممكنا».

وكانت المعلومات التى جمعها سليمان من مخبريه من السفاحين الذين يدعون الموافقين من الصحة بحيث مكنته من التنبؤ بحركة عصاباتهم فى موسم القتل الشتوى.

ولقد قامت الحكومة البريطانية فى الهند بطبع الجداول التى وضعها عن أنساب عائلات السفاحين وكذلك خرائط جرائمهم. وأثناء ذلك، قام مساعدوه الأوربيون من سباهيين وقوات جيش ومسلحين غير نظاميين بحصر عصابات السفاحين الذين بدأ زهوهم بإنجازاتهم فى الماضى يعمل ضدهم.

ذلك أن السفاحين كانوا دائما يزهون بكونهم بارعين فى الخداع، وقادرين على إخفاء هويتهم الحقيقية عن أى مسافر؛ وصاروا الآن يتساقطون كالحمام داخل شباك سليمان، فقد كان السفاحون رجالا يوحون بالثقة كى يفوزوا بصداقة ضحاياهم المرتقبين حتى سقطوا هم أنفسهم ضحية إفراطهم فى الثقة مع مرور الوقت. فنما حجم عصابات السفاحين فى وقت سليمان وبخاصة فى شمالى الهند. وأصبحوا يتنقلون فى جماعات تتكون من عشرين أو أربعين عضوا، بل استطاعوا بسرعة أن ينضموا فى عصابات من ١٥٠ فردا، وهى مجموعة تكفى لقتل ٣٠ مسافرا مرة واحدة.

كما أن الطمع أخرج مزيدا من السفاحين فى الطرق، فأخذوا يقتلون دون تمييز من أجل الكسب، ويبيعون الأطفال من البنات للعاهرات تاركين وراءهم أكثر مما ينبغى من الشهود الأحياء وكذلك الكثير من الجثث دون دفن. وحين قُبض على فرنجهيا نفسه فى يناير عام ١٨٣١م كان عائدا لتوه من حملة حضر خلالها مقتل ١٠٠ رجل وخمسة من النساء.

ومع ذلك فإن سليمان قدم لفرنجهيا من التأييد ما مكَّنه من الحصول على العفو برغم تردد الإدارة البريطانية فى ترك قاتل على هذا القدر من البشاعة، وقد قدَّم فرنجهيا مقابل ذلك معلومات قيمة.

إن مثابرة السفاحين التى لا تصدَّق مسجلة تسجيلا جيدا فى مجلدات من الأدلة التى جمعها سليمان ضدهم، فلقد تعقب السفاحون أميرا مسلما لعدة أيام، وكان الأمير يمتطى صهوة جواد ويحمل معه مسدسين وقوسا وجعبة مليئة بالسهام. وتقدم السفاحون وهم يتخذون مظهر حجاج من الهندوس، واقتربوا باعتبارهم أصدقاء يبغون حمايته، إلا أنه كان يشك فى الأغراب ولم يرغب فى أن تكون له أى صلة بهم. وفى اليوم التالى، استطاع الأمير اللحاق بجماعة أخرى من الحجاج، وكانوا سفاحين فطلبوا صحبته وحمايته ولكنه رفض مرة أخرى.

أما فى اليوم التالى، فتمكنت فرقة السفاحين من إقامة علاقة مع خدم الأمير، ومنهم ساقيه وعامل النظافة لديه. وتوسل هؤلاء إلى سيدهم أن يصحب هؤلاء المحترمين المقدسين. إلا أن الأمير رفض للمرة الثالثة. وفى اليوم الرابع وفى مكان منعزل التقى الأمير جماعة من السباهيين (أى الهنود المجندين فى الجيش الإنجليزى)

المسلمين يبكون بجانب جماعة ميتة، ولم يكن هؤلاء فى حقيقة الأمر سوى عصابة أخرى من السفاحين ومعهم ضحية كانوا قد قتلوها توا، وقالوا إن رفيقهم قد توفى وهم يجهلون كيف يصلون على روحه لعدم حفظهم لآيات القرآن. ولم يكن بإمكان الأمير أن يتردد فى أداء المراسم الأخيرة على جسد أخ فى الإسلام. فنزل من على جواده ونزع سلاحه من أجل أداءصلاة الجنازة وتوضأ حسب الشعائر، وتهيأ كى يبدأ الصلاة. وفى هذه اللحظة قام السفاحون بخنقه هووخدمه ودفنوهم فى قبور أعدت سلفا لهذه المناسبة.

ولقد ساعد سليمان فى انقضاضه على السفاحين المحاكم التى شكلها فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر.

وبرغم أن الكثيرين من السفاحين حُكم عليهم بالإعدام أو السجن، فإن أولئك الذين اعتبروا موافقين، أى ساعدوا سليمان، تلقَّوا عفوا عنهم، وقام سليمان بإنشاء مدارس لتعليم أبنائهم حرفة أخرى، فوجد الآباء هذه الفكرة مهينة لهم، إلا أنهم فى نهاية الأمر التحقوا هم أنفسهم بهذه المدارس ليتعلموا أعمال البناء بالطوب اللبن والنسيج.

وأصبحت سجاجيدهم من الشهرة بحيث إن الملكة فيكتوريا التى قضى عملاؤها على السفاحين باعتبارهم تهديدا للسلام البريطانى، أمرت بجلب بساط لقلعة ويندسور. لذا فإن سفاحى سليمان حولوا مواهبهم من إعداد شراك الخنق إلى مهنة نسج البسط، فأنتجوا بساطا يزن طنين ويبلغ طوله ثمانين قدما وعرضه أربعين قدما من أجل مليكتهم الجديدة كى تمشى عليه.

ولقد احتفظ مسافرو تلك الفترة بتفاصيل عملية شنق السفاحين. فكتبت السيدة فانى باركس -(وهى من أصدقاء سليمان، وكانت قد قامت بزيارة أحد معابد كالى الذى كان يتردد عليه السفاحون) - عن إعدام ٢٥ شخصا عام ١٨١٣، فقالت : من الصعب العثور فى أى بلد على مجموعة من الرجال يواجهون الموت بهذا القدر من اللامبالاة كما فعل هؤلاء الأشرار. ولو أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل قضية أفضل لأثاروا تعاطفا عاليا، ولكن ماحدث، هو شعور بالفزع من مجرد فكرة أن أناسا أغرقوا أيديهم فى الدماء يلقون المنون بهذا القدر من عدم الاكتراث.

وأعتقد أنهم طلبوا مسبقا أن يُسمح لهم بأن يثبتوا الحبل حول رقابهم بأيديهم ؛ ومن المؤكد أن كل فرد منهم قفز إلى عالم الأبد بمجرد أن وضع العقدة حول رقبته ؛ ومن المؤكد أيضا أن أولئك الذين بدئ بهم أولا قاموا باختيار الحبال التى شنقوا بها أنفسهم ولم يختاروا الحبال التى كانت تروق لهم .

وقد ظل أحدهم معلقا لمدة ثلاث ثوان، ثم رفع يديه وأنزل قبعته فوق وجهه . ولقد جذبت هذه الشجاعة فى مواجهة الموت القناصل البريطانيين ، فلم يستطيعوا أن يشعروا بالكره نحو السفاحين ، بل شعروا أنهم كانوا يواجهون خصوما جديرين بالاحترام وإن كانوا مضلَّلين . إذ أحبوا فيهم إحساسهم بالشرف ، لذلك رفضوا أن يقتلهم قتلة عاديون .

وفى الحقيقة ، فإن العدالة البريطانية اختارت الفئات التى يتم القصاص منها بنفس العناية التى كان يتبعها السفاحون الصالحون . فمن بين ٣٦٨٩ سفاحا تمت محاكمتهم قبل عام ١٨٤٠ لم يمت شنقا سوى ٤٦٦ ، أما معظم من بقوا فقد نقلوا أو أودعوا السجن مدى الحياة ، بينما صدر عفو عن ٥٦ باعتبارهم متعاونين .

وفى السنوات الثمانى التالية تمت محاكمة ٦٥١ آخرين ، بعدها انتهت عبادة السفاحين باستثناء حالات منعزلة . وربما كانت جماعة السفاحين تمثل نوعا من العبادة الصارمة فى أيامها الأولى قبل مقدم البريطانيين ، ولكن عندما كُشف أمرها كانت قد أصبحت شكلا متدهورا من أشكال الجمعيات السرية ؛ فلم يعد بالإمكان التمييز بين أعمال القتل والسلب التى كانوا يقومون بها من أجل الدين ، وبين اقتراف هذه الأعمال من أجل الجريمة فحسب .

ومن أكثر الأمور استلفاتا للنظر ، أن السفاحين لم يلعبوا دورا من أدوار المقاومة ضد البريطانيين على الإطلاق . ذلك أن توفيقهم (!) تخطَّى الخلافات بين الديانتين الهندوسية والإسلامية ، وسمح لهم بتقبل أى شكل من أشكال السلطة السياسية ، طالما كان فى إمكانهم ممارسة حرفتهم ، فلم يمسوا أوربيا قط ، خوفا من أن يُفتَضح أمرهم ومن ثم لم يُعاقبوا ، ذلك أن دافع السرية لديهم كان أقوى من دافع الربح ، إذ من المعروف أن الأوربيين كانوا يحملون معهم الكثير من المال أثناء رحلاتهم .

ويمكننا القول بأنه إذا كان للسفاحين أى تأثير سياسى ، فإن ذلك التأثير كان

سلبيا، إذ أدى إلى تفريق الأمة، بحيث استطاع البريطانيون بسهولة أن يطبقوا مذهبهم (فرق تسد) بسبب الفوضى والاضطراب اللذين وجدوهما سائدين فى الهند، كما استطاعوا استخدام قوات إحدى الولايات لإيقاع الهزيمة بولاية أخرى. ولقد ساعد السفاحون على تفاقم الشعور العام بانعدام الأمن والإرهاب فى شبه القارة الهندية على نحو جعل الفلاحين يرحبون بالبريطانيين باعتبارهم ضمانهم الوحيد لتحقيق العدالة.

ومن ثم، كان تمكن سليمان ومساعديه من القضاء على السفاحين دليلا دامغا على صحة ذلك الإحساس من جانب الفلاحين. إذ رأى القرويون لأول مرة فى تاريخ الهند إمكانية السفر فى أمان، تحت حماية قوات وشرطة ليست مرتشية، ذلك أنه فى مجتمع تسوده الطائفية فإن إضافة طائفة أخرى فاتحة لم تكن على درجة كبيرة من الأهمية. أما الأمر الذى كانت له درجة كبيرة من الأهمية، فهو إنشاء حكومة مركزية قوية يمكنها أن تضع حدا للظلم وأعمال القتل التى يقوم بها الحكام المحليون وعصابات قطاع الطرق.

وأصبح السفاحون معروفين أكثر مما ينبغى بالنسبة لجمعية سرية، إذ طغى غرورهم على حصافتهم، فلقد كانت شهادتهم أمام سليمان مفعمة بالزهو بحرفتهم، إلا أنه مما يبعث على الدهشة أن المتعاونين من السفاحين كانوا هم أيضا تملؤهم الخيلاء بسبب خدمتهم لشركة الهند الشرقية العظيمة، تقريبا مثلما كانوا يعتزون بخدمة كالى.

فى الأيام الخوالى كما قال أحد السفاحين المتعاونين : «كان الشخص الذى يشى بالجماعة يقتله شركاؤه أو يقوم ديفى كالى بقتله. وكانت هذه الحوادث نادرة منعزلة؛ أما الآن فنحن لا نخشى شيئا، لأن عددنا صار كبيرا وأصبحنا نخدم الحكومة». لقد حاز سليمان ثقة السفاحين إلى حد ملحوظ حتى إنهم كانوا يعتقدون بأنه يدين بنجاحه ضدهم لتأييد كالى له، ولم يمل السفاحون من تكرار مقولة إنهم لو راعوا قواعدهم ونذرهم لما أمكن اختراقهم إلى أبد الآبدين. «فلكم وبخنا غير أننا لم نتعظ» حسب قول أحد السفاحين. « ونحن نستحق ما حاق بنا».

فكان السفاحون على اقتناع تام بأن قتل النساء أو أناس من مهن محظورة

وتجاهلهم للنذر لا محالة يؤدى بهم إلى الدمار. لقد أقروا فى الواقع بأن القتل خارج الطرق المقبولة يُعد جريمة. وكما صرح أحد السفاحين: «لم تنج أسرة من جراء جريمة قتل»، أى أنها تباد تماما. فالسفاح الذى يقتل بهذه الطريقة يفقد ما لديه من أبناء، ولا يرزق بغيرهم أبدا. لذا فإن السفاحين كانوا يتمنون الموت لأنفسهم. ذلك أن قدريتهم وديانتهم تسمحان لهم بأن ينفسوا عن حافز القتل والانتحار، وهو ما لا يسمح به لغيرهم من المتحضرين إلا فى حالة الحرب. وحين انحدر وضع السفاحين، أصبحوا تقريبا يرغبون فى أن يتم قمعهم، كما تفعل الكثير من الجمعيات السرية حين تشعر بالأفول.

فالكوكلكس كلان، على سبيل المثال، فى شكلها الثالث والأكثر تدهورا، كانت تشعر بالذنب بسبب صورتها الملطخة كما تشعر بالحيرة أمام جواسيس الحكومة، تماما كما كان يشعر السفاحون أثناء تدهورهم. غير أن الكلان كانت دائما نوعا من حركات المقاومة الجنوبية ضد شمالى الولايات المتحدة وضد الزنوج، بينما لم تكن هناك بين السفاحين والقومية الهندية أى صلة سوى فى الفترة الأخيرة. فجون ماسترز الذى استخدم حركة السفاحين موضوعا لروايته «المخادعون»، كتب رسالة مهمة ذكر فيها وقوع حوادث قام بها السفاحون لمدة عشر سنوات فى منطقة جواليور بعد أن كانت الهند قد نالت استقلالها.

فكان هناك ما هو أكثر من مجرد الخطف، فكانت تقع أعمال قتل عديدة بقصد السرقة أو بدون هذا القصد فى نفس الوقت. وكانت هناك شخصية واحدة من نوع روبين هود من الواضح أن القرويين يساعدونه، جزئيا بسبب الخوف وجزئيا بسبب زعمه أو من ينوبون عنه بأنه سفاح من نوع حديث يعتقد أن من اللطيف أن يكون المرء وطنيا هنديا بمزج القتل مع السرقة.

ومع تصاعد الروح القومية فى الهند، اضطرت عصابات قطاع الطرق إلى أن تستخدم السفاحين كمبرر لجرائمها، إلا أنه وكما يشير ماسترز، فإن المواصلات الحديثة تحول دون بعث السفاحين من جديد، إذ كان يلزم لازدهار السفاحين أن يقوم الناس برحلات تدوم ستة أشهر عبر أراض تعمها الكوليرا وثعابين الكوبرا

والأنهار شديدة الفيضان وعصابات قطاع الطرق العاديين بحيث حين لا يعود المسافرون، لا يقلق أحد لمدة عامين، ثم يصبح الوقت متأخرا للبدء فى البحث عنهم، ويُلقى اللوم مرة أخرى على ثعابين الكوبرا.

فلم يكن للسفاحين أن يوجدوا فى الهند إلا فى جو من الفوضى والجهل، لذا فإن البريطانيين قد تغلبوا عليهم بالسكك الحديدية والبرق أكثر من المشانق التى استخدموها ضدهم، فلا توجد أمة صناعية حديثة تسمح بأى تهديد يتعرض له المسافرون على خطوط مواصلاتها.

ومن ثم، فإن السفاحين المحدثين الأكفاء مثل المافيا الأمريكية وجماعة كوزا نوسترا (هدفنا) يجدون أنه من الأربح لهم السيطرة على خطوط الاتصال بدلا من تدميرها. ففى نهاية الأمر، من الأيسر لهم سرقة أحد المسافرين بجعله يدفع ثمنا باهظا مقابل الخدمات التى يحتاج إليها عن أن تخنقه من أجل حافظة نقوده. ذلك أنه من الممكن خنق الشخص مرة واحدة بينما يمكن أن تجعله يدفع إتاوة بقية حياته.

الطقوس السرية

تينيان سمارت

إن عالم البحر المتوسط القديم كان مليئا بأنواع العبادات الدينية، ومن أبرزها (الطقوس السرية) مثل تلك التى توجد فى أيلوسيس وعبادة إيزيس وعبادة ميثرا.

وكانت تلك العبادات السرية وسيلة للتعبير عن حاجة الفرد إلى عقيدة شخصية وممسرحة يمكنها أن تعطيه وعدا بالخلود كما أنها إشباع لهذه الحاجة.

وكان نمط التجربة الدينية بطقوسها يضيف بُعدا إضافيا للعبادات الرسمية للدولة، كما كانت تضيف للورع العادى الذى يشعر به المجتمع الزراعى نحو الأضرحة؛ وهى أيضا تعكس النزعة الكونية والتمدن الذى جعل ممارسات تقليدية دينية كهذه أقل معنى.

فلقد كان أرسطو على حق حين قال إن مغزى الاشتراك فى طقوس سرية لا يكمن فى تعلم شىء ما بل فى مكابدة تجربة التغيير. وليس هذا التغيير مسألة رقى روحى أو نشوة فحسب بل كان يُفهم باعتباره بعثا جديدا، وكان يتم من خلال أداء مسرحية سرية طقسية يقوم فيها العضو الجديد بدور المشارك والمشاهد. وهكذا فإن فكرة القيام بأداء تمثيلية مقدسة فكرة مركزية فى العبادات القائمة على الطقوس السرية.

كذلك فإن السرية التى تحيط ببعض هذه العبادات كانت فى الأساس انعكاسا لطبيعتها الدينية وطريقتها فى إدخال الأعضاء الجدد. وربما شعر أعضاء هذه الجماعات الطقسية بأن السرية تمنحهم طريقة تجعلهم استثنائيين ومختلفين، إلا أن تلك العبادات لم تكن فى الأساس جمعيات سرية بمعنى تكتمها على تفصيلات

مراسمها، هذا إذا كانت كذلك على الإطلاق، إذ توجد كمية مدهشة من المعلومات المتاحة أمام المؤرخ.

وعلى أى حال، يجدر بنا قبل أن ننظر فى تاريخ هذه العبادات، أن نأخذ فى الحسبان تغيرات المعنى التى طرأت على كلمة (سرية). فالكلمة الإغريقية «مستيريون» تشير إلى طقس يؤدّى فى حضور الأعضاء الجدد فقط، وكان للشكل اللاتينى للكلمة نفس المعنى، غير أن شيشرون استخدم الكلمة أيضا بمعنى متسع.

أما معنى السر فى العهد الجديد وجمعه(طقوس سرية)، فإنه يشير تماما إلى أفعال الإله الكشفية، برغم أننا يمكننا أن نميز بدايات العملية التى صارت بها الكلمة تعنى الشىء غير القابل للفهم العقلى. وهذا التغيير هو الذى يعطى الانطباع الخاطئ بأن الطقوس السرية هى حقائق غامضة لم نسبر غورها بعد، وعليه فإن عبادات الطقوس السرية تنطوى أساسا على مذاهب سرية، ولكنها فى الواقع، كانت معنية بتمثيل المسرحيات المقدسة وعرض الأشياء المقدسة أيضا. والسبب الذى جعل هذه الطقوس غريبة يكمُن فى القاعدة المتبعة فى حفظ تلك الطقوس للمبتدئين. وهكذا فإن أى خرق لقاعدة السرية كان معناه أساسا القيام بأى فعل من شأنه أن يجعل أداء هذه الطقوس السرية أمرا مباحا.

وينبغى لأى دراسة لتاريخ هذه العبادات أن تبدأ بفهم الاحتياجات التى كانت تقوم بإشباعها. ففى اليونان، فى القرن السادس ق. م كانت الديانة الرسمية متعددة من حيث مظاهرها، إذ إن حياة الدولة المدنية كانت متشابكة ومتداخلة مع سلسلة كاملة من الاحتفالات الدينية، والوظائف الرسمية(مثل استقبال السفارات الأجنبية) التى يتصادف وقوعها مع أيام الأعياد المقدسة. وكانت العبادات المحلية جزءا مهما من الحياة فى المدن والريف. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الأعياد الهيلينية (مثل الألعاب الأوليمبية) كما كانت المؤسسات الهيلينية(مثل عراف معبد دلفى) تساعد على تفريخ الإحساس بالتضامن الثقافى بين المدن الدول. كما قامت كتابات هوميروس بوظيفة مشابهة.

ومع ذلك، فإن الحاجة إلى ديانة شخصية تعنى بالأمل فى الاتحاد مع الآلهة

وكذلك الأمل فى الحياة الأبدية لم يتم إشباعها تماما عن طريق المرعيات التقليدية المعقدة التى كانت موجودة. فكانت على الأقل، تجد إشباعا لها عن طريق انتشار عبادة ديونيسيوس والأورفية، وكذلك عن طريق تطور المراسم الأيلوزية حتى تعدت أصلها الأول كعيد زراعى محلى.

إن الأساطير الكامنة فى الطقوس السرية فى أيلوسيس تتعلق بديمتر (أم الحنطة)، وتجد أول صيغة أدبية عبرت عنها فى الترنيمة التى كتبها هوميروس لديمتر، التى قد يرجع عهدها إلى الجزء الأخيرمن القرن السابع ق. م.

وتصف الأسطورة كيف أن هاديس أغرى ابنة ديمتر برسيفون(أو كورو) وجعلها تذهب إلى مملكته تحت الأرض. وكان الأمر جد خطير، بحيث يستدعى تدخل زيوس. غير أنه كانت هناك قاعدة مؤداها أن أى شخص يأكل شيئا هناك لا يمكنه العودة مرة أخرى من العالم السفلى. وبما أن هاديس قد احتال على برسيفون فجعلها تتناول بعض بذور الرمان(رمز الزواج) لم يكن بإمكان زيوس أن يطلب عودتها إلى الأرض دون قيد أوشرط.

فبدلا من ذلك، وعن طريق الوصول إلى حل وسط، سُمح لبرسيفون أن تحيا على الأرض ثمانية أشهر من العام، ولكن كان عليها أن تعيش مع زوجها المتجهم فى العالم السفلى الأشهر الأربعة المتبقية.

وتعبر هذه الأسطورة عن التداخل والتزاوج بين الطقوس الزراعية والانشغال بالحياة بعد الموت، إذ يستطيع المبتدئ أن يُولد من جديد شأنه شأن عذراء الحنطة التى تخرج نبتا من تحت الأرض فى الربيع كى تعلن عن عودتها من هاديس. ومما دعم هذا الاهتمام، دمج ديونيسيوس فى الأسطورة الأيلوزية وطقوسها، إذ إن ديونيسيوس كان إلها للخضرة وإلها للخمر فى آن واحد، فأصبح بذلك بؤرة الاهتمام لعبادة تؤمن بالنشوة(وخلده يوروبيديس فى إحدى تراجيدياته) وحاول أحد المؤمنين به أن يتوحد معه. ومن هنا كان مغزى الاحتفالات الأيلوزية التى كانت فى الأصل زراعية، إذ أمكن مصاحبتها بمعنى من التطابق مع إله دائم الموت والعودة للحياة مرة أخرى.

وكانت الطقوس الرئيسة أو السرية تحدث فى الخريف، وتشمل موكبا للمبتدئين

من أثينا يتبعه أداء طقوس بدء العضوية، وكانت تستمر عدة أيام. وتشتمل على مهرجان مقدس وتصل ذروتها بعرض للأشياء المقدسة فى تلك العبادة فى لهيب مثير من الضوء داخل قاعة بدء العضوية وهى البناء الرئيس فى مجمع المبانى المقدسة.

أما الطقوس السرية الأقل أهمية، وكانت تعقد أصلا فى فبراير، فتعد مقدمة ضرورية للطقوس السرية الأكثر أهمية. إلا أنه مع تنامى أثر هذه العبادة، التى جذبت مبتدئين محتملين من مناطق أكثر اتساعا، أصبحت الطقوس السرية الأقل أهمية تعقد مرتين فى العام، لتعطى فرصة لأولئك الذين لم يتمكنوا من الحضور فى فبراير أن يتأهلوا من أجل احتفالات سبتمبر.

وأصبح ميل أيلوسيس إلى جذب أناس من خارج حدود المدينة الدولة الأثينية واضحا بالفعل قبل الحروب الفارسية، وبقدوم القرن الخامس ق. م صارت المدينة مركزا معترفا به للحجيج للعالم الهيلينى بأكمله. وزاد عدد المؤمنين بهذه العبادة بدخول اليونان منطقة نفوذ الرومان، ومن ذلك أباطرة رومان فى زمن متأخر، إذ كتب سيسرو وهو أحد أعضاء هذه العبادة قائلا: لا أجد من بين الهبات العديدة الممتازة التى قدمتها أثينا للإنسانية ما هو أفضل من تلك الطقوس السرية التى انتشلتنا من الوحشية إلى المدنية.

وبرغم أن الطقوس فى أيلوسيس لم تنقل أى مذاهب، كما لم تنقل أى رسالة ميتافيزيقية أو أخلاقية أو اجتماعية خاصة، فإنها قد أعادت للفرد فى حياته اليومية شعورا بالسكينة واليقين فى مواجهة الموت.

ومع ذلك، فإن دخول العضوية لم يخلق مجتمعا مستقلا بذاته منعزلا عن الآخرين، إذ لم تكن هناك (كنيسة) أيلوزية. ويرجع ذلك جزئيا إلى أن الجانب الأصلى من الاحتفالات كان مفهوما، فقط باعتباره محليا وزراعيا.

أما الأورفية، أو عبادة أورفيوس التى ازدهرت فى القرن السادس ق. م، فكان لها لاهوت أكثر تطورا، كما كان لها كتاباتها المقدسة الخاصة بها. وهذه الحركة تدين أيضا بشىء لعبادة ديونيسيوس، التى تغلغلت فى شبه الجزيرة الإغريقية ابتداء من فريجيا وثراس. وكان هناك تباين ملحوظ بين الزهد الأورفى والعربدة التى

يمارسها الناس فى معابد الأخوة أو الأخوات فى عبادة ديونيسيوس فى الأزمنة المبكرة .

ومع ذلك ، فإن الأورفية استفادت استفادة مهمة من الأساطير الديونيسية ، وأعطتها تفسيرا مذهبيا قويا ، مع إضفاء طابع الاعتدال على العنف والحماسة الزائدة فى تلك العبادة .

وحسب القصة الرئيسة ، كان زيوس قد كتب على ابنه زاجريوس (وهو الذى يتطابق مع ديونيسيوس) أن يكون حاكم العالم . إلا أن خطة زيوس واجهت معارضة من الآلهة العملاقة (ويبدو أن هذا انعكاس للمنافسة بين أشكال الدين الأوليمبية والأشكال المبكرة) . ونجحت الآلهة العملاقة فى ذبح الطفل زاجريوس ، وهمت بأكله . فحرقهم زيوس بنصال البرق التى كانت لديه لما شعر به من حزن وغضب . ومن رماد العمالقة كانت المادة التى تشكَّل منها البشر . إلا أن زاجريوس لم يمت للأبد ، ذلك أن الإلهة أثينا أنقذت قلبه من بين الرماد . وبعد أن ابتلعه زيوس عاد زاجريوس كابن لسيميلى ، وهى إلهة أرضية .

وهذه الحكاية التى تبدو للوهلة الأولى عديمة المغزى ، كان لها مغزى مزدوج لدى الأورفيين :

فهى أولا تعنى أن الجنس البشرى يحتوى على عناصر الخير والشر ، أى شر العمالقة ولحم زاجريوس الإلهى ، الذى كانت جزئيات منه بالطبع توجد فى رماد العمالقة .

وهى ثانيا تعنى أن زاجريوس الإلهى قد بعث فى نهاية الأمر . وبالتالى فإن العضو يمكنه عن طريق التوحد معه أن يمر هو أيضا بتجربة البعث ، وأن يدخل فى حياة أعلى . وكان الجانب الأول من الأسطورة هو أهم جوانب اللاهوت الأورفى ، إذ اعتبر الجسد عائقا يحول بيننا وبين الحياة الروحية ، ومن هنا جاء الشعار الشهير «ساما سيما» ، أى «الجسد هو القبر» .

لذا كان الانضمام إلى درب أورفيوس يضع المؤمن المخلص على طريق التحرر ، وليس لروحه الخالدة أن تتحرر إلا من خلال ممارسة الطقوس واتباع حياة

الزهد، ومن ذلك الامتناع عن تناول اللحوم. ثم حدث توسّع فى هذه الفكرة، فصارت أسلوب حياة، لا مجرد دراما طقسية فحسب.

وعلى أى حال، فإن الأورفية لم تصبح قط طائفة ضمن الديانة الإغريقية، بل كانت حركة لم تستقر حدودها مطلقا، ذلك أن الولاء للمذاهب الأورفية كان من الممكن مضاهاته مع ما يجب مراعاته فى الأديان الأخرى. ولم يكن انتشارها نتيجة جهد أى تنظيم مركزى، إلا جمعيات لعبادة أورفيوس نشأت هنا وهناك، فى أنحاء العالم الناطق باليونانية. وبقدر ما يتعلق الأمر بأى ولاء مركزى، فإن ذلك الولاء كان لأورفيوس كشخصية أسطورية ولتراثه من الكتابات المقدسة.

وتكمن أهمية أورفيوس جزئيا فى أنه كان يمثل بديلا عن الأبطال المعبودين الذين كانوا يسبغون طابع الصحة والصدق على العبادات المحلية والرسمية فى الديانة التقليدية فى المدينة الدولة. فكانت هذه الوظيفة التى قام بها أورفيوس مهمة لأن الأورفية شأنها شأن الطقوس السرية الأيلوزية لم تقصر عضويتها على إقليم بعينه، إلا أنها تختلف عن تلك الطقوس السرية فى أنها لم تتركز حول ضريح مقدس بالتحديد. ذلك أن شخصية أورفيوس كانت تقدم بؤرة أسطورية لحركة ليس لها بؤرة جغرافية.

ولقد اتخذت تفصيلات الأسطورة الأورفية شكلا رمزيا لأنها كانت تملك لاهوتا متطورا وهدفا واضحا محدداً هو : «السمو بالروح إلى مرتبة إلهية عن طريق اكتساب حياة أبدية، والهرب من دورة التناسخ». ومن هنا فقد استخدم أفلاطون إدراك الناس بأن تلك تتجاوزهم فى مرماها على سبيل المثال، فى كتابه فيدو حين تحدث عن الأسطورة المتأثرة بأورفيوس التى تصف مستقبل الحياة. إلا أن إضفاء هذا الطابع الرمزى لم يكن بالقطع تعبيراً عن (معرفة سرية) مقصورة على المبتدئين وحسب.

وإذا ما أردنا دراسة هذا التطور ينبغى علينا أن ندرس الفيثاغورسية، إذ كان هناك تداخل ملحوظ بين الأورفية وتعاليم فيثاغورس الذى ذاع صيته حوالى عام ٥٣٠ ق.م. وكانت جمعيته أقرب كثيرا إلى طبيعة الجمعية السرية التى تلتزم بمذاهب معينة غريبة. ويمكننا أن نسمع صدى لإضفاء الطابع الفكرى على قبول

العضوية فى الكلمات التى يقال إن أفلاطون قد كتبها على مدخل الأكاديمية حيث قال :

من لم يكن مهندسا فلا يدخل علينا. بالنسبة لفيثاغورس يوجد مغزى مقدس للحياة العقلية. إذ كان معلما فى المرحلة الانتقالية بين عالمين، وليس من المستبعد أنه غادر مسقط رأسه ساموس، ربما للهرب من الطاغية بوليكراتيز، وأسس أخوة أو جماعة فى العالم الجديد فى جنوب إيطاليا فى كروتون.

والأهم من ذلك، أنه كان مزيجا من المراقب المهيب والفيلسوف المتأمل، إذ وضع الرياضيات موضع العمل باعتبارها عنصرا فى فلسفته الميتافيزيقية، وكذلك باعتبارها نشاطا يتبعه أعضاء الطائفة الدينية التى جمعها حوله. إلا أن الأمر الأكثر حيوية من ذلك، هو أن فيثاغورس أدرك قواعد الزهد ومحرمات الطعام الموروثة جزئيا عن الأورفية كعون يمكّن المرء من إدراك المعرفة العليا إدراكا تاما.

ولقد عبر عن هذه المعرفة فى منهجه الميتافيزيقى. فالزهد عنده إعداد لفهم الواقع، وهذا يدل على أن التساؤل العقلى بالنسبة له لم يكن مجرد علم وحسب، ولكنه كان طريقا للخلاص، وبالتالى فإن أسرار الجماعة الفيثاغورسية تختلف من حيث طابعها عن الطقوس السرية الأيلوزية، ففى هذه الحالة تصبح المذاهب أمرا أساسيا فى الكشف الذى يتوقع المبتدئ أن يتلقاه وهومطالب بالاحتفاظ بهذه المبادئ باعتبارها أمورا سرية.

وهكذا نرى أن أثر الطقوس السرية فى اليونان يعود جزئيا إلى أن المراسم الرسمية أو الزراعية المحلية أو الديانة الأوليمبية لم تكن مهيأة تهيئة تامة لتفى بالحاجة إلى عقيدة شخصية ممسرحة. ويمكن الخروج بملحوظة مشابهة فيما يتعلق بالديانة الرومانية رغم أن روح الديانة الرومانية القديمة كانت أكثر تجهما وقتامة من تلك التى كانت موجودة فى التعددية الإغريقية. كما أنها كانت عرضة لتحدى أشكال العقيدة الماجنة والشخصية، بالتحديد لأنها كانت مقيدة بنفس الطريقة بعبادات زراعية ومنزلية من ناحية، كما كانت من ناحية أخرى مكبلة بصفقات رسمية مع الآلهة.

وصارت صفقات رسمية كهذه أكثر أهمية لروما، بينما كانت بسبب تقلبات

عديدة منشغلة بفرض حكمها على إيطاليا بل وتمده ليشمل قرطاج واليونان، ذلك أن تأييد الآلهة والجهاز الديني بأكمله بدا جوهريا بما أن روما سارت في طريق يتطلب النجاح العسكري والسياسي، فاكتسبت هذه الطقوس مغزى مجتمعيا.

إلا أنه في زمن تزايدت فيه النزعة العالمية الكونية كانت هذه الطقوس في حاجة إلى أن تستكمل بأشكال ديناميكية تبعث على الوجد في الحياة الدينية، كما أن توسُّع الإمبراطورية الرومانية أدى إلى تغيُّر في طابع سكان المدينة. إذ عندما صارت روما تضم عددا كبيرا من المهاجرين، لم يكن من الممكن بسهولة أن تحتفظ بالعبادات التقليدية والرسمية بأي معنى بالنسبة لسكان المدينة. ومن أوائل العلامات التي تدل على أثر العبادات الوجدية، تلك الموجة من الممارسات الديونيسيوسية التي اكتسحت إيطاليا في أوائل القرن الثاني ق.م. إلا أنها قد تم قمعها عام ١٨٦ .م.، لما اكتنفها من إفراط.

ولما كانت روما قد تزايد فيها اختلاط الأجناس، فقد أصبحت مركزا لإدخال عبادات شرقية متنوعة، وبخاصة الفريجية والعبادة المسماة بالأم العظيمة وكانت تعبيرا عن عامل ديني قوي في الشرق الأوسط القديم، وكذلك إيزيس. ذلك أن عبادة الإلهة الأم تحت أسماء متنوعة كعشتار وعشتروت وايزيس، وريا، التي ترتبط بطقوس الخصوبة، يجعلها تحمل وعدا ببعث الفرد وخلاصه تماما كأيلوسيس.

أما عبادة سيبيل فكانت مرتبطة بجبل أيدا في آسيا الصغرى. وأُدخلت هذه العبادة إلى روما عام ٢٠٥ ق.م. حين كان هانيبال مايزال على التراب الإيطالي، بسبب عراف سيبيلي قال إن العدو الأجنبي تُمكن هزيمته بمساعدة الأم الأبدية. وثمة جزء من الحكاية التي تحيط بسيبيل يتعلق بالإله كاستيس، فخصيه لنفسه وموته وبعثه أصبحت رمزا للخلاص الذي ينتظر العضو الذي يتطابق معه في الوجد الطقسي.

إن الطبيعة العنيفة الدموية التي يمارسها كهنة مخصيون، لم تتوافق توافقا سهلا مع الديانة الرومانيةالتي تتسم بالنظافة. إلا أنه برغم المعارضة، فقد تمكنت عبادة سيبيل من أن تشق طريقها وتتمتع بحياة طويلة في روما. فلقد استطاع أحد

المدافعين عن الوثنية أن يضفى أهمية روحية على طقوس سيبيل باعتبارها تعبيرا مجازيا عن حياة النفس الإنسانية وذلك فى وقت متأخر، أى فى القرن الرابع الميلادى (حين حدث إحياء للوثنية بفضل جهود الإمبراطور يوليان المرتد). وكانت العبادة تشتمل على طقوس ثور (التوروبوليوم الذى كان أيضا أحد معالم عبادة ميثرا). وهناك عبادة أخرى شبيهة بعبادة سيبيل هى عبادة (ما)، وكانت تتطابق مع بيلونا إلهةالحرب الرومانية.

ودخلت الإلهة ما إلى روما عن طريق سولا فى حوالى عام ٨٥ ق.م. وربما أخذ طقس الثور فى سيبيل من ما - بيلونا. إلا أن من أهم أشكال العبادات المتنوعة التى دخلت روما من الشرق، طقوس إيزيس السرية وميثرا، وكانت عبادة إيزيس المرتبطة بأوزيريس أو الإله موفّق العقائد المتعارضة سيرابيس، نتاج تفاعل بين الديانة المصرية القديمة والديانة الهيلينية.

ومع أن عبادة إيزيس كانت تطورا لصلوات وأساطير تضرب بجذورها فى أعماق ماضى مصر، إلا أنها كانت تزعم أن لها صلة أكبر من تلك التى تكون للعبادة المحلية أو القومية. . فمصر القديمة كانت لها طقوسها السرية بمعنى وجود طقوس مقدسة درامية وكانت تضم أسطورة أوزيريس، وهو إله يموت ثم ينهض من الأموات، فصار معنيا بمصائر البشر فى حياة قادمة.

وحسب ما ترويه الأسطورة، فإن ست أخا أوزيريس قام بقتله، وست هذا هو أحد آلهة الطقس. ثم وضع جسد أوزيريس فى تابوت ألقاه فى مياه النيل. وحسب ما تروى مرحلة أخرى من الأسطورة، فإن ست عثر على التابوت بعد ذلك، ونجح فى تشويه جسد أوزيريس وتفريق أشلائه. وبعد زمن قامت إيزيس -زوجته الحزينة- بتجميع الأجزاء المختلفة، ثم عاد أوزيريس إلى الحياة عن طريق حورس ابنهما. وتتصل فكرة إلقاء أوزيريس فى النيل بأنه متطابق أيضا مع النيل الذى تعد مياهه المانحة للحياة هى سبب الخصوبة.

وكان أوزيريس يُعد قاضى الموتى (وشأنه شأن العديد من الآلهة كانت له صلة تربطه بإله الشمس حسب ما تقول الأساطير) الذى لعب دورا مهما فى الأساطير المصرية الأكثر قدما.

إن الجانب الزراعى لأوزيريس جعل طقوسه السرية جزءا أساسيا داخل النسيج الاجتماعى فى مصر، وتدثر الفرعون بذلك النسيج الاجتماعى، فهو لم يكن ملكا فحسب بل كان ظلا للألوهية على الأرض، فمن خلاله فقط يتاح للمجتمع والزراعة أن يزدهرا، إذ كان هو الوسيط بين النظام الكونى والمملكة الأرضية التى يحكمها.

وكان بعث أوزيريس، كما عبرت عنه الطقوس الدرامية وأكدته، رمزا لاستمرار التلاحم الاجتماعى، والخصوبة الزراعية؛ فكان الفرعون نفسه يعد سليلا لحورس وتجسيدا له، وبوصفه هذا، يمكنه إعادة تمثيل استرجاع الإله الميت.

إن العناية بخلود الفرعون، التى تم التعبير عنها فى عدد متتال من الأهرام المدهشة المبهرة، لها فى حد ذاتها مغزى اجتماعى، مع أن ممارسة التحنيط انتشرت ببطء خارج نطاق العائلة المالكة(باعتبارها عملية مكلفة). ولقد أعطى هذا التحول التدريجى نحو الديمقراطية فى الطقوس الجنائزية، أوزيريس صلة أكبر بالأفراد كإله للعالم السفلى.

وينعكس هذا فى كتاب الموتى المصرى، فهو مرشد للفرد فى ا لحساب الذى ينتظره كما أنه مرشد للحياة الأخرى التى تنتظره أيضا. لقد أخرجت لنا أعمال الدارسين المحدثين فهما مبهرا لتعقيدات الأساطير المصرية القديمة وكذلك الطقوس، ومع ذلك فإن الكثير من التفاصيل عن الديانة وطقوس الجنازة ما تزال يكتنفها الغموض، وتمت محاولات عدة وبخاصة بين الروزيكروشيين لإضفاء مغزى سرى مستتر سحرى على الطقوس السرية المصرية وكذلك الأهرام وبخاصة الهرم الأكبر.

فعلى سبيل المثال، تجادل إحدى الجماعات مستخدمة التخمينات القائمة على علم العدد (معتمدين على أبعاد القاعات الداخلية وكذلك على معالم أخرى فى الهرم الأكبر)، إذ حاولوا القول بأن بناة الأهرام كانت لديهم معرفة مستترة وتنبؤية بتاريخ الإنسانية. ومثل هذه التخمينات مرتبطة بالاعتقاد بأن المصريين القدماء لديهم معرفة بالحقائق العميقة، إلا أن الكنيسة المسيحية أضاعتها أو قضت عليها كما سنرى فى فصل لاحق.

ولا شك فى أن قدم تلك الآثار الصامتة وطبيعتها الغامضة فى الصحراء المصرية يعطيان مصداقية لأفكار كهذه، وبخاصة حين يكون هناك معنى ما من معانى التمرد على المحافظة المسيحية. ولا يسمح أنصار هذه الأفكار بأى مناقشة عقلانية عموما لتخميناتهم. ذلك أنهم يشكون فى أن المؤرخين العلميين يقومون بمحاولة متحيزة لطمس الحقائق إذا كانت غريبة.

ومن الأمور التى كانت تتعارض مع خلفية الأساطير المصرية القديمة القول بأن بطليموس الأول الذى حكم مصر من عام ٣٢٣ حتى عام ٢٨٣ وأسس الأسرة التى حكمت مصر بعد وفاة الإسكندر الأكبر، هو الذى ضم عبادة سيرابيس إلى الديانة المصرية، إذ نجح فى إقامة معابد لهذه العبادة فى ممفيس والإسكندرية. وكان سيرابيس رمزا مركبا، أى كان مزيجا من أوزيريس وعجل أبيس المقدس، كما كان يحوى بعض الملامح الإغريقية. وليس هناك شك فى أن بطليموس كان يأمل فى أن عبادة سيرابيس بالإضافة إلى أشياء أخرى ستكون وسيلة لتقوية التضامن بين رعاياه المصريين والإغريق.

وأيا كان الأمر، فقد كانت هذه العبادة عاملا ساعد على انتشار عبادة إيزيس انتشارا أوسع فى العالمين الهيلينى والرومانى، إلا أن ماحدث هو أن آلهة المصريين لم يكن مقدرا لها أن تنعم بوجود سهل فى روما نفسها. إذ كانت هناك محاولات تحدث من آن لآخر فى الجزء الأخير من القرن الأول من الميلاد، وفى حكم تيبيريوس لقمع هذه العبادات. ففى عام ١٩ على سبيل المثال، تم صلب كهنة إيزيس بعد فضيحة جنسية يعتقد أنهم تورطوا فيها. ومع ذلك، لم ينكر أحد نموهذا الشكل من أشكال التقوى، بل إن الإمبراطور كاليجولا ذهب إلى حد إقامة معبد لإيزيس فى ساحة الشهداء، وبلغ هذا تقريبا حد التعدى على الأراضى المقدسة التى تخص آلهة المدينة القدماء. ويرجع السبب فى العداء الذى أظهرته السلطات الرومانية الأكثر محافظة إلى الحظوة التى نالتها إيزيس وطقوسها السرية، بالإضافة إلى الخوف من ا لأجانب. وفى هذا المكان كما فى غيره من الأماكن، حدثت اتهامات متكررة بالمجون بين أتباع إيزيس.

ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أن عبادة إيزيس كانت ذات مغزى روحى

عميق ظهر فيما كتبه لوشيوس أبليوس فى كتاب «التحولات» أو «الأتان الذهبية» (فى القرن الثانى الميلادى). وتشير هذه الحكاية، وهى تتراوح بين السيرة الذاتية والحكاية المجازية، إلى الكيفية التى حرر بها أبليوس نفسه من الجانب السفلى الحيوانى الممثل فى الأتان التى تحول اليها بطريقة سحرية. وعن طريق الطقوس السرية يموت موتا نسبيا، ثم يرى (الشمس فى منتصف الليل)، ثم يجلس على العرش مع إيزيس، وهنا يتكرر موضوع ديانات الطقوس السرية الشائعة، أى بعث الفرد وتأليهه.

ومن الأمور المهمة أيضا فيما سجله أبليوس، الطبيعة التوفيقية الجوهرية فى عبادة إيزيس، فهى تتطابق مع سيريز أو ديميتر، ومع فينوس أو مينيرفا أو بيلونا أو غيرهم، فهى جميعا تلك الإلاهات رغم أن اسمها الحقيقى يظل إيزيس.

ويهذه الطريقة يمكن لهذه العبادة أن تزعم لنفسها كل الولاء والإيمان اللذين ينصبان على جميع الإلاهات الأمهات فى عالم البحر المتوسط؛ ويمكنها كذلك ادعاء أنها تحوى جوهر جميع ديانات الطقوس السرية.

وبذلك تحولت إيزيس عن طريق هذه النزعة التوفيقية إلى رمز كونى، رغم أن بركاتها لا يمكن أن يتذوقها تذوقا تاما إلا من تعهد بالولاء لها. ولا يخالجنا أى شك فى أن عبادة إيزيس مع ما يصاحبها من ممارسات فى الزهد أمكنها أن تكون وسيلة صادقة لاعتناق دين ما والاستناد فى ذلك إلى ما سجله أبليوس و إلى غير ذلك من المعلومات المتاحة أمامنا.

وينبغى على من يؤمن بهذه العبادة، كى يعد نفسه للطقوس المعقدة المستمرة، أن يحجم تماما عن الجماع والخمر والخبز واللحم، وتُحلق رأسه رمزا لنبذ الحياة. وكان هذا الشخص يعتقد أنه مُنح البركة والقوة كى يحيا حياة النقاء والفرح بحسبانه أحد عابدى هذه الإلهة. ويمكننا أن نرى هنا نفس التنويعة التى لاحظناها فى الطقوس السرية الأيلوزية مرة أخرى، فالهدف هو التغير التناولى لدى المؤمن وليس غرس عقيدة ما.

ولم يكن من الممكن إفشاء أسرار إيزيس للمدنسين لأنها تكمن فى صميم تجربة دخول الجماعة. ولا يوجد بتلك الأسرار أى مذهب اللهم إلا انطواؤها على اعتقاد فى البعث والخلاص.

ومن الملامح المميزة لعبادات الطقوس السرية فى الإمبراطورية الرومانية أنها، باستثناء عبادة أيلوسيس، ترجع إلى أصول شرقية. أما الطقوس السرية الرئيسة أى عبادة ميثرا فقد نشأت فى إيران فى صورتها النهائية. فميثرا أو ميثراس كان فى الأصل إله شمس إيرانيا، إلا أن إصلاحات زرادشت، التى تولدت عنها الديانة الزرادشتية كانت تنطوى على خسوف الشرك السابق مؤقتا. وكان من نصيب ميثرا الأفول مثل غيره من الآلهة. إلا أن الأساطير القديمة تم تكييفها وإعادة إدخالها أثناء عملية تطوير الزرادشتية. وهكذا أصبح ميثرا يعد عين أحورا مازدا، أى الكائن الأعلى. ومن الممكن إدراك هذا المفهوم مادامت الشمس ترحل فوق الأرض وتبدو كأنها تنظر من عليائها إلى أفعال البشر.

وحين ظهرت الديانة الميثرية كعبادة منفصلة، أصبح ميثرا السيد الأعلى، وهكذا كان يُعتبر حسب التعاليم الزرادشتية رمز الخير وممثله، وهو منهمك فى صراع مع قوى الشر والتحلل (ومقدَّر له أن ينتصر فى النهاية). وركزت ديانة ميثرا تركيزا كبيرا على التغير أى الطقس التناولى فى عبادة ميثرا، وقد كانت فى هذا مختلفة عن الزرادشتية المبكرة - لكنها كانت مثلها مثل عبادات الطقوس السرية الأخرى.

وساد اعتقاد بأن التضحية بثور هى إحدى أدوات ميثرا الرئيسة فى انتصاره على الشر. وكان هذا الثور الأولى هو أنموذج جميع الأشياء الحية، بما فى ذلك الحياة النباتية. ، وكانت الدراما السماوية التى تتناول تضحية ميثرا يعاد تمثيلها على الأرض فى مراسم تشبه تلك التى وجدت فى عبادات سيبيل وما - بيلونا، بل وربما تمت استعارتها منها.

وهكذا نلاحظ مرة أخرى أن الطقوس السرية تتأصل جذورها فى طقس زراعى خصب. فبينما يموت الثور المقدس يُفترض أنه يخرج الحب والكروم وغير ذلك من الأشياء الحية. وكان هذا كله ينعكس فى مراسم بداية العضوية. إذ يعمَّد المبتدئ

فى دم الثور المحتضر، ويشترك فى وجبة مقدسة من الخبز والنبيذ. وتتجاوب هذه المأدبة الإلهية مع المأدبة التى أقامها ميثرا احتفالا بتضحيته بالثور.

أما صلوات الديانة الميثرية فكانت بالغة التعقيد، لسنا على يقين من كل تفاصيلها، إذ كانت هناك سبع درجات للعضوية تؤدى بالبشر فى النهاية إلى أعلى مراتب الحياة السماوية.

ومازالت تفاصيل هذه الدرجات غامضة، إلا أن بالإمكان استنتاج أنها كانت تنطوى على أعمال تدل على الإقدام والتحمل، وكل درجة من هذه الدرجات السبع تقابل إحدى المناطق التى يُعتقد أن ميثرا صعد من خلالها كى يصل إلى السماء.

لقد تمت استعارة هذه الفكرة من الاعتقاد الذى كان سائدا فى التنجيم والقائل بأن الروح يتعين عليها أن تمر من خلال مدارات الكواكب السبعة فى طريقها إلى السماء؛ إذ كانت النجوم تعد أرواحا خالدة. ومع ذلك، لم يتم التطابق بين المبتدئ والإله، ذلك أن الثور مانح الحياة هو الذى مات وليس ميثرا، وبموته تتحرر القوى التى تئول إلى الخلود - وبهذا المعنى، تختلف حكاية ميثرا عن أوزيريس وغيره من الآلهة التى تموت.

لقد تم وضع نظام دخول العضوية المحكم فى الميثرية، بحيث يتلاءم تلاؤما جيدا مع الوسط الذى تمكنت فيه تلك العبادة من جذب أكثر معتنقيها أى الجيش الرومانى. فكل مرحلة كانت تسمى ولاء (ساكرا منتوم) وهو أمر له مغزاه، فهو اصطلاح كان يستخدم أساسا بمعنى قسم الولاء الذى يؤديه الجنود عند دخولهم الكتيبة. بل وأكثر من ذلك، فإن الأخلاق التى تبذرها الميثرية تتطابق مع الفضائل التى يُتوقَّع أن يتحلى بها الجنود. فإحساس الرجال بالتضامن مع ميثرا فى صراعه السامى ضد قوى الشر كان يقوى من إخلاصهم فى المعارك التى يخوضونها ضد أعداء الإمبراطورية. وكان يقينهم من الخلود يبعث فيهم الشجاعة. إن مذاق الاستقامة الزرادشتى، وصلاحها فى ارتباطها بديانات الطقوس السرية قوّى من الفضائل الرومانية القديمة التي صار عليها الآن أن تكون قسمة فى جيش مختلط عرقيا وثقافيا أشد الاختلاط.

ويرجع ما تتصف به عبادة ميثرا من ذكورة ونزعة عسكرية إلى هذا الجانب بالذات . وإذا كان للنساء أن يلعبن دورا فى هذه العقيدة فقد كان دورا ثانويا . ومما يشهد على انتشار هذه العبادة انتشارا واسعا تلك الأضرحة الميثرية التى تم اكتشافها فى منطقة غطت مساحة تمتد من سوريا إلى حدود إسكوتلندة، وقد لاقت تشجيعا كبيرا من الأباطرة حتى إن بعضهم اتخذوا لقب ميثرا أو (الشمس التى لا تُقهر)، فصار ميثرا بشكل ما مطابقا للإمبراطور .

ولا شك فى أن هذه الصيغة الجديدة من عبادة الإمبراطور تم تشكيلها كى تدعم ولاء الجنود العديدين الذين كانوا ينتمون إلى جماعات عبادة ميثرا .

وربما يتضح من هذا المسح لعبادات الطقوس السرية الرئيسة فى عالم البحر المتوسط القديم، أنها جميعا تشترك فى ملامح بعينها :

أولا ، أنها جميعها لها أساس فى طقوس الحياة النباتية والخصوبة؛ ففيها يولّد الإله الميت أو الإلهة الميتة الحياة من خلال الموت . إلا أنه فى هذه الطقوس لم يعد أحد ينظر إلى هذه المراسم على ضوء وظيفتها الزراعية الأصلية، وليس هذا أمرا مدهشا طالما أنها انتشرت بين شعوب ليست بالضرورة مرتبطة بالأرض . وفى حالة روما، كانت شعوبا مدنية تماما . أما الجانب المتعلق بالخصوبة، فيفسر عدم اللياقة الخارجية التى توجد فى الكثير من الممارسات الطقسية، كخصاء أتيس وشجرة الصنوبر التى حملها لترمز له فى المواكب، والأضحيات الدامية، كل هذه أمور كان لها موطن طبيعى فى السحر الذى يرتبط بالخصوبة . ولولا أن تلك الأساطير والطقوس كانت تتخذ شكلا مجازيا لما كان لها أن تكتسب معنى شخصيا لدى سكان الحضر وسكان المدن الكبرى الراقية مثل أبليوس .

ونتيجة ذلك، اكتسبت الحصافة والسرية اللتان كانتا معادلا ضروريا لمفهوم الدخول المقدس لعضوية جمعية سرية ـ اكتسبتا بعدا جديدا : فالعضو وحده هو الذى يستطيع فهم المعنى الروحى الباطن للطقوس فهما تاما، ولكن هذا نفسه يعكس جانبا عميقا من جوانب الطقوس السرية كنا قد أشرنا إليه قبل ذلك، وهو أن ما يهم هو التجربة التى يمر بها العضو الجديد وليس المعرفة الغريبة التى يحصل عليها .

وثمة ملمح ثان مهم فى الطقوس السرية، هو أنها لم تكن فى عضويتها قاصرة على أى جماعة محلية أو قومية بعينها. وبهذا المعنى، كانت تلك الطقوس السرية عالمية، مع أن هذه الكونية كانت محدودة فى عبادة ميثرا بسبب تأكيدها على الفضائل الذكرية. ومما يدل على هذا الميل نحو العالمية، تلك النزعة التوفيقية وخصوصا فى طقوس إيزيس السرية. وعلى أى حال فإن آلهة هذه العبادات لم تكن تميل إلى استبعاد أحد، فكان أبوليوس يستطيع أن يشارك فى طقوس دينية أخرى غير طقوس أوزيريس، حتى لو لم يكن فى ذلك المعنى الشخصى العميق بالنسبة له.

ويرجع اضمحلال الطقوس السرية جزئيا إلى أثر المسيحية المتنامى. ففى المسيحية سمات جعلتها تستوعب ما فى التعاليم الإغريقية الرومانية، وهذا هو جزئيا السبب فى جاذبيتها. فالتناول مأدبة مقدسة بدت مشابهة لما وجدوه فى عبادة ميثرا. وكان للتعميد مغزى قوى جعله إحياء لفكرة البعث فى الطقوس السرية. وبالمثل، كان المسيح إلها ميتا ثم حيًّا، رغم أنه فى هذه الحالة ليس هناك مضمون خاص بالخصوبة كما هو الحال بالنسبة لأوزيريس أو ديونيسيوس.

كذلك، فإن المحتوى الأخلاقى للعقيدة المسيحية جذب أولئك الذين وجدوا فى الطقوس السرية ماهو أكثر من مجرد مراسم طقسية مثل أبوليوس.

وفى الوقت نفسه، استطاعت المسيحية أثناء اختراقها العالم الإغريقى الرومانى أن تستفيد من الأفلاطونية وبذلك زاوجت بين الفلسفة والعقيدة الشخصية بشكل لم تستطع الطقوس السرية فعله. فقدمت نظرة شاملة للعالم، كما قدمت طقوسا، ومنعها إلهها الغيور من أن تقع فى حبائل الكثرة المتكاثرة من الأساطير التى كانت معاصرة لظهورها، «وهو ما لم يرق دائما للنخبة رفيعة الثقافة».

ومع ذلك، فمن المفيد أن نتعمق أكثر من ذلك فى اكتشاف أوجه الشبه بين المسيحية المبكرة والطقوس السرية. ومما يدعم الانطباع بوجود التشابه أن الكتمان والسرية بدآ يحيطان بالتناول. وربما يرجع هذا التطور إلى منتصف القرن الثانى الميلادى تقريبا، مع أن البعض يجادل بأنه قبل ذلك بكثير، أى قبل الوقت الذى

كُتب فيه إنجيل القديس يوحنا (نحو نهاية القرن الأول). فما حدث هو أن إنجيل يوحنا لا يشمل ذكرا للمسيح كقربان، كما نجده فى الأناجيل الأخرى وفى رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورينثيا.

وقد يشير هذا إلى أن كاتب الإنجيل لم يشأ أن يضم موضوع القربان فى وثيقة من المتوقع أن توزع على نطاق واسع.

وعموما، فإن ممارسة السرية فى هذا الأمر يشهد عليها تيرتوليان(١٦٠-٢٣٠ ميلادية) والقديس يوحنا كريسوستوم(٣٤٥-٤٠٧ ميلادية) وكذلك القديس أوغسطين(٣٥٤-٤٣٠ ميلادية)؛ إذ يعلن تيرتوليان أن ماهو مقدس ينبغى ألا يُلقى للكلاب، وأن العادة جرت فى كل أنحاء العالم، بالنسبة لدخول دين معين، حفظ المقدس فى مكانة رفيعة وتوخى الحذر من أن تكون رؤيته على الشيوع. وهذه مقارنة واعية مع عبادات الطقوس السرية.

وكانت السرية التى تحيط بالقربان تنطوى على استبعاد رجال التعليم الدينى، أى أولئك الذين يعدون للحصول على العضوية الكاملة فى الجماعة من الاحتفال، إذ كان يُسمح لهم بمكان فى مبنى الكنيسة أثناء الجزء الأول من القداس، ولكنهم كانوا يُطردون مع بداية تناول القربان بالمعنى الحقيقى. وهكذا، فإنهم لم يكن لهم الاطلاع على المعنى التام للمسيحية أو التعبير المركزى عنها إلا بعد أن يتخرجوا عن طريق اشتراكهم فى أول تناول لهم فى عيد القيامة. وقد يكون نمو مثل هذا الكتمان المقدس مدينا بشىء ما لعمليات الاضطهاد المتقطعة التى نزلت بالكنيسة فى أوائل عهدها؛ إذ إنه لا شك فى وجود رغبة فى استبعاد أى مخبرين معادين فقط.

ولكن من ناحية أخرى، ساعدت السرية نفسها على انتشار شائعات عنيفة حول الطقوس المسيحية، ومن ذلك الاتهام بأن التضحية بالأطفال وأكل لحوم البشر كانت من ملامح القربان.

ومع أن كلمات السيد المسيح «هذا جسدى هذا دمى» أمكنها أن تولد تفسيرا حرفيا للقربان بين من هم خارج الجماعة المؤمنة، إلا أنه برغم وجود سرية تحيط بالقربان حماية لجلاله، فإن قدرا قليلا من السرية أحاط بالتعاليم. ذلك أن أحاديث

القديس يوحنا فى أثينا على تل أريوباجوس، لم تكن فقط نموذجا للوعظ العام الذى تغلغلت به المسيحية داخل المعابد اليهودية ، وكذلك العالم الإغريقى الرومانى، ولكنها كانت كذلك محاولة للبحث داخل الثقافة الوثنية عن أساس دينى وفكرى يمكن أن تنبنى عليه التعاليم الجوهرية للوحى المسيحى .

ومن الصحيح القول بأنه كان هناك البعض مثل تيرتوليان ممن قاوموا هذه المحاولة على أساس أن الفلسفة الإغريقية وغيرها من الأفكار قد تشوه الرسالة المسيحية بدلا من أن تدعمها، إذ سأل قائلا : « ما علاقة أثينا بأورشليم؟ »، إلا أن هذا العمل الرئيس الذى بلغ أوجه فى أعمال القديس أوغسطين كان يتجه إلى تكييف المذاهب الوثنية مع المسيحية .

وهكذا استطاعت المسيحية أن تقدم علنا نظرة مترابطة ومتجانسة للعالم . فكما رأينا لم تكن الطقوس السرية تعاليم سرية بقدر ماكانت احتفالات طقسية سرية . ومع أن المسيحية قد تكون سايرت هذه الفكرة من آن إلى آخر إلا أنها كانت مفتوحة للتعاليم والوعظ .

إن التحكم الذى مارسته الكنيسة المسيحية على أعضائها والتجانس النسبى فى الاعتقاد اللذين سادا بين جماعات المؤمنين المتناثرين عبر الإمبراطورية ، قد كبحا جماح تطور الانتقائية الدينية التى كانت تميز عالم الطقوس السرية ، وكان هذا يتمشى مع معاداة الوثنية ووجود قسمات خاصة فى اليهودية التى نشأت منها الأديان الجديدة .

من ناحية أخرى ، فإن الطقوس السرية كانت تفتقر إلى التماسك الاجتماعى ، إذ كان بإمكان الشخص الواحد أن يكون عضوا فى أكثر من جماعة . وفوق هذا ، بل ونتيجة لهذا الموقف ، كانت الطقوس السرية تفى بحاجة من هم أكثر يسرا . فمن كان فى استطاعتهم دفع المصروفات ، كان بإمكانهم الالتحاق بالعضوية ، وكانت مصروفات دخول عضوية إيزيس ، مثلا شديدة الارتفاع .

أما المسيحية ، فعلى النقيض من ذلك ، استوعبت الناس من الطبقات الدنيا بما فى ذلك العبيد . وعلى الرغم من أن أعضاء من الطبقات العليا قدانضموا للعقيدة

منذ وقت مبكر ، فإن نجاحها الكبير كان بين الصناع والطبقات الدنيا بصفة عامة . ذلك أن المسيحية تمتعت بميزتين واضحتين : أولا ، أنها (بالمعنى الحرفى) غير مكلفة ، و ثانيا أنها لم تكن تقوم على التمييز الاجتماعى .

ومن المسلم به أن عبادة ميثرا فى إمكانها أن تزعم لنفسها الميزة الأولى ، وهى التى كانت قاصرة على مهنة معينة تضم أناسا من مراتب مختلفة ، غير أنها راقت لتلك الجماعة بالذات ، ولهذا لا يمكن أن تكون كلية من الناحية الاجتماعية . وفوق ذلك ، لم تكن متكيفة مع المعتقدات الميتافيزيقية للصفوة الفكرية والدينية .

ومع أن المسيحية لم تستبعد أحدا على أساس اجتماعى ، إلا أنها كانت تقوم على أساس التمييز الدينى . ذلك أن التراث اليهودى قد جعلها معادية لعبادة الأفراد بما فى ذلك عبادة الإمبراطور . وكانت تلك المقاومة لعبادة الدولة قضية متفجرة ، ونتج عن ذلك أن اشتهر المسيحيون بأنهم انقلابيون . إذ كانوا يصنفون على أنهم (أثنى) أى ملاحدة بالمعنى الحرفى ، ولكن الترجمة الأفضل لهذه الكلمة هى الإلهيون . ذلك أن رفضهم للديانة المحيطة بهم وميلهم إلى هداية الناس إلى الدين الجديد جعلا غيرهم ينظرون إليهم باعتبارهم يشكلون خطرا اجتماعيا بل وعلى أنهم ثوريون .

فمن وجهة نظر أولئك الذين هم خارج الكنيسة ، جعل هذا الوضع المسيحية أشبه بالجمعية السرية التى تشكل تهديدا للنظام القائم . ومع أن المسيحية تختلف عن الطقوس السرية ، إلا أنها استطاعت أن تستفيد من الهموم التى كانت تتناولها تلك الطقوس السرية . . . تلك الهموم التى أعطت الطقوس سبب حياتها . إذ استطاعت أن تعظ بالخلود وبإله يقوم من الأموات ، وبتجدد الحياة عن طريق التعميد وطقوس سرية خاصة بالقربان . وبذلك كانت متوافقة مع مشاعر الشعوب فى العالم الإغريقى الرومانى الذى ذهبت إليه . كما أن الاضطهاد أعطاها شعورا قويا بالتضامن .

فمن ناحية ، قدمت مبادئها وإنكارها للشرك حلا للنخبة . كذلك كان لاعتقادها بحياة أخرى ولأثر التناول جاذبية عاطفية قوية . وربما كانت الجوانب السرية

الاستثنائية فى المسيحية أمورا مصاحبة لتطورها، لأنها لم تعتبر نفسها مجرد طائفة لإدخال الأعضاء، ولا مجرد منتدى دينى. بل إن هذه الجوانب السرية أخذت فى الاختلاف مع السماح بممارسة هذه العقيدة تحت حكم قسطنطين وبعده. فبقدوم ذلك الوقت، ضمنت تجانسها ببناء موحد منحها ميزة تفوقت بها على منافسيها، رغم أنها تعرضت للخطر بسبب حركات مثل الآرية(التى تم استنكارها باعتبارها هرطقة).

ومما يشرح جزئيا نجاح المسيحية، أنها كانت شبيهة للعبادات السرية دون أن تكون بالفعل واحدة من تلك العبادات. فاختلافها عن العبادات السرية وميلها إلى الاستثناء، وكذلك اهتماماتها المذهبية، وأيضا ما تتسم به من تضامن اجتماعى، كلها أمور تعيننا على فهم طبيعة تلك العبادات السرية وأن نتحاشى التفكير فيها بمنطق الدين كما نعرفه اليوم.

الحشاشون وفرسان الهيكل
ديڤيد أنان

لقد روت الحكايات منذ العصور الوسطى تاريخ الحشاشين، وهى جمعية سرية بدأت فى فارس فى القرن الحادى عشر كطائفة دينية.

ومن أوائل القصص التى وصلت أوربا عن هذه الطائفة، تلك التى جاءت مع ماركو بولو، الذى سافر خلال بلاد فارس فى طريقه إلى الصين عام ١٢٧٣ . فيقول بولو: قام شيخ الحشاشين بزراعة حديقة جميلة بين الجبال، وكانت جميع الفاكهة المعروفة تنبت فى تلك الحديقة، إذ كانت تروى بجداول من الخمر واللبن والعسل، وبها قصور من ذهب مثل الجنة التى بشر بها النبى محمد - (ﷺ) - وقد أقيمت تلك الحديقة أنموذجا لها، إذ كان بها قصور من ذهب، وحوريات وراقصات وموسيقيون ومغنون ولم يُسمح برؤيتها إلا لمن سيصبحون حشاشين.

فكان الشباب الذين يدربون على استعمال السلاح فى فناء الشيخ يُخدَّرون، ويؤخذون إلى الحديقة الخفية ويبدءون العضوية بالاستمتاع بمباهجها، حيث يعيشون هناك فى ترف لبضعة أيام، وهم مقتنعون بأن زعيمهم قد نقلهم إلى الجنة. وحين يعودون مرة أخرى إلى بلاطه، يكونون على أتم استعداد للمخاطرة بأى شىء بما فى ذلك حياتهم لكى يعودوا ثانية.

ويستنتج بولو قائلا: «قد ذهبوا بعيدا»، وفعلو كل ما أمروا به. وهذا هو ما حدث، إذ إن أحدا لم يستطع الإفلات إذا أراد شيخ الجبل له أن يموت.

وتصدق هذه القصة الرومانسية فى جانب واحد من جوانبها، إذ يوجد قدر قليل من الشك فى أن الحشاشين كانوا يتعاطون المخدرات لأن اسمهم مشتق من كلمة حشيش. أما حكاية الحديقة الجنة، فمن الممكن أن تكون قد استمدت أصلها من

الهلوسات التى يحدثها المخدر، إلا أن الحكاية قد خلقت بالفعل جنة عدن من الوادى الخصيب القريب من كبار الحشاشين. وقد يكون هناك خلط بين هذا التراث وبين حكاية الملك شداد الذى حاول محاكاة جنة الله، وذلك ببناء جنة خاصة به.

لقد برز الحشاشون كأسنان التنين فى الشقوق التى بدأت تظهر فى جسد الخلافة العربية. إذ إن الطوائف الشيعية قد تمردت ضد الأغلبية السنية. وتبنوا نظاما اجتماعيا صارما مبنيا على الطاعة العمياء لشيوخهم - الملوك، أى الأئمة، وهم نسل - (السيدة) - فاطمة بنت محمد - (ﷺ) - المباشرين أو الروحيين.

وكان الشيعة يؤمنون باقتراب العهد الألفى السعيد حين يعود أحد الأئمة السابقين إلى الأرض باعتباره المهدى، ويقيم حكم العدل. ومما ساعد الشيعة على البقاء فى وجه اضطهاد السنة لهم أنهم كانوا يتبعون نظاما منضبطا للسرية بالإضافة إلى اعتقادهم فى قيمة المعاناة من أجل الدين. وكان مثالهم الذى يلهب مشاعرهم هو استشهاد الحسين، ابن على الأصغر، الذى قتل حين كان يحاول أن يسترد حقه فى الخلافة بحكم المولد.

وفى القرن الثامن، بعد وفاة الإمام السادس جعفر الصادق، انفرط عقد الطوائف الشيعية نفسها. فغالبيتهم التى تسمى «الاثنا عشرية»، كانت تؤيد خلافة ابنه موسى على الشيعة ونسله من بعده، معتقدين بأن العهد السعيد سيأتى مع عودة الإمام الثانى عشر من هذا البيت.. أما الإسماعيلية أو السبعية، فكانوا يؤيدون تولية إسماعيل أخى موسى الأكبر؛ إذ يقول بأن ابنه محمدا الذى اختفت آثاره عام ٧٧٠ الميلادية هو الإمام السابع والأخير، وأن العهد السعيد سيأتى مع عودته إلى الأرض باعتباره المهدى.

وسافر الدعاة الإسماعيلية إلى بقية أنحاء العالم العربى يعظون بهذا المذهب الانقلابى، ولقدحققوا فى تونس قدرا كبيرا من النجاح جعلهم يتمكنون من إنشاء خلافة منافسة هناك سنة ٩٩٩ ميلادية، عرفت بالخلافة الفاطمية، ذلك لأن خليفتهم عبيد الله زعم أنه ينتسب مباشرة إلى فاطمة من خلال النبى إسماعيل وبذلك يكون هو المهدى.

وبينما كانت الخلافة الفاطمية توسع حدودها فى القرن العاشر لتشمل صقلية

ومصر والقاهرة وشمالى إفريقيا، كان ظل الإسماعيلية فى مكان آخر ليس سوى جمعية سرية تعمل على الانقلاب على الخلفاء السنة فى بغداد.

واستمر الدعاة الذين تدربوا فى مجمع الإسماعيلية الأكبر بالقاهرة فى السفر، يعظون بمذهب يتعارض مع معظم المعتقدات الإسلامية المحافظة التقليدية. إذ قالوا بأن الشريعة الإسلامية والكتاب المقدس يحتويان على معنى باطنى لا يعرفه سوى الأئمة. وقالوا بوجود سبعة أنبياء فقط هم : آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح ومحمد وإسماعيل. ويوضع الأنبياء فى ترتيب الخليقة فى مستوى العقل الكلى، لا يعلو عليهم إلا الله. وبعد الرسل يأتى (صحابة الرسول) فعلىّ (على مستوى النفس الكلية). أما الأئمة السبعة فهم (على مستوى المادة الأولية) والداعية الأكبر أو المعلم الأكبر (فى مرتبة الفضاء) والداعية فى (مرتبة الزمن). أما الإنسان فيوضع فى آخر هذا الترتيب السباعى للخليقة. ومع أن الله لا تمكن معرفته، إلا أن الإنسان الذى يعمل ويرتقى من خلال هذه الدرجات حتى يصل إلى العقل الكلى سينكشف أمامه جانب جديد من العلم فى كل مستوى.

ولما كانت هذه الآراء تُعد هرطقة، فقد كان على كل عضو من أعضاء الطائفة الإسماعيلية أن يخفى معتقداته طبقا لنظام الشيعة فى الكتمان، وعليه أن يتوافق مظهريا مع دين الدولة.

ويوجد عادة فى كتابات الإسماعيليين ذكر لشخص متجول مشتعل الحماسة حتى الجنون، يسعى للوصول إلى الحقيقة من خلال التجربة والمعاناة إلى أن يقبله الإمام فى النهاية ضمن المؤمنين بتلك العقيدة، ويكشف هذا الإمام المعنى الحقيقى للشريعة الإسلامية وكذلك القرآن. ويصف حسن الصباح، وهو مؤسس طائفة الحشاشين وأول إمام أكبر لها، هذا السعى وراء الحقيقة فى مذكراته.

ينحدر حسن من أسرة «اثنا عشرية» شيعية من غربى فارس. وحسب ماتروى قصة إسماعيلية شهيرة، كان حسن فى المدرسة مع الشاعر عمر الخيام والسياسى السنى الكبير نظام الملك، الذى صار فيما بعد أو ل ضحايا الحشاشين. ورغم عدم دقة هذه القصة من الناحية التاريخية، فإن تحول أصدقاء الدراسة الثلاثة إلى متمرد

وشاعر وسياسى، يُعد رمزا مفيدا يعيننا على فهم الفرص وكذلك المنافسات التى كانت مشتعلة فى ذلك الزمان.

إذ يخبرنا حسن بنفسه أنه فى شبابه بحث بحماسة عن أسرار العلم والدين، ويكتب عن تحوله إلى الطائفة الإسماعيلية بعد فترة من الشك الروحى قائلا: « وفى خضم هذا، ظهر مرض قاس وخطير، إذ أراد الله أن يصبح لحمى وعظامى شيئا مختلفا»، (أى أن الله بدل لحمه بلحم أفضل كما بدل دمه بدم أفضل منه). وبعد أن تطهر حسن وأعيد بعثه روحيا، ذهب إلى القاهرة عام ١٠٨٧ ليطلب من الخليفة الفاطمى الثامن أن يسمح له بنشر كتاب الإسماعيلية المقدس فى فارس(التى كانت حينئذ خاضعة للأتراك السلاجقة). وافق الخليفة على طلبه، شريطة أن يؤيد حسن مطالبة الابن الأكبر للخليفة نزار بأن يكون الخليفة الفاطمى التاسع.

وهكذا ولدت طائفة النزاريين أو الحشاشين. وتروى لنا الحكايات عن رحلاته المبكرة للتبشير بالانقلاب، وعن إطلاق سراحه من السجن بسبب الرعب الذى سببه انهيار برج مرتفع كان يقع بالقرب من زنزانته. كما تروى لنا الحكايات أنه أخمد عاصفة كانت تهب فى البحر بالكلمات التالية: « لقد وعد ربنا أن لا يقع بى شر».

وفى واقع الأمر، فقد تجول حسن فى ربوع إيران واختار قلعة الموت مركزا إستراتيجيا له، إذ كانت ترتفع ارتفاعا شاهقا فى الجبال الشمالية. وقبل ظهور المدفعية لم تكن القلاع المشيدة على الصخور لتسقط اللهم إلا إذا تعرضت للجوع أو العطش أو المرض أو إذا حدث بها انقلاب. وسرعان ما طردت حامية الموت قائدها السنى نتيجة للرشوة. إذ سقط ضحية لحيلة ديدو القديمة الخاصة بجلد البقرة، فوعد بأن يعطى «حسن »من الأرض ما يغطيه جلد بقرة، ثم اضطر إلى أن يترك له القلعة بأكملها حين أحاطها حسن بسياج من جلد البقر المقطوع على هيئة شرائط.

إن «حسن» الذى كان يسعى إلى السلطة الروحية من خلال السلطة السياسية غير دور عضو الطائفة الإسماعيلية إلى دور أحد الحشاشين. وفى الوقت نفسه، أجرى تعديلا على مراتب العضوية. ويرجع الوصف الوحيد لتلك المراتب وكذلك (الطقوس السرية) التى تكشف للأعضاء إلى القرن التاسع عشر حين كتبه الباحثون

الأوربيون الذين رأوا التسلسل الهرمى نفسه عند الإسماعيلية باعتباره مجرد نظام لغسيل المخ . وحسب كتاباتهم ، فإن التعاليم التى تُعطى فى كل مستوى كانت تناقض أى شىء أُعطى من قبل .

إن أبطن أسرار الحشاشين هو أن السماء والأرض هما شىء واحد، وأن جميع الأفعال لا أهمية لها، كما أنه ليس ثمة خير أو شر سوى فضيلة طاعة الإمام. فنحن لا ندرى شيئا عن أسرار الحشاشين لأن الكتب التى تشمل مذاهبهم وطقوسهم قد حرقت عام ١٢٥٦ مع مكتبتهم فى القلعة .

إلا أننا نعرف أن «حسن» قد أكد المذهب الشيعى القائل بطاعة الإمام، غير أننا لا نعرف التغيرات التى أحدثها فى البناء الهرمى عند الإسماعيلية . ويقول التراث الفارسى إن الداعية أو المعلم الأكبر يقع فى منزلة أقل من حسن، ثم يأتى كبار الدعاة يليهم الدعاة العاديون ثم الرفاق وبعدهم يأتى اللصقاء ثم الفدائية وهم الذين كانوا يقومون بأعمال القتل .

وكان حسن زعيما ثوريا ومتآمرا مثاليا من حيث زهده وتركيز كل جهده فى غرض واحد، إذ يقال إنه كان دائم الاعتكاف فى منزله فى القلعة لمدة تزيد على ثلاثين سنة ، ولم يخرج سوى مرتين كما لم يظهر إلا مرتين على سطح منزله . ومما زاد من قوته عدم تمكن الناس من رؤيته .

لقد قوى دفاعات القلعة وقام من مكان عزلته، بتطهير صفوف أتباعه (بما فى ذلك إعدام اثنين من أبنائه) . واستمر فى إستراتيجيته القاضية بالاستيلاء على قلاع فوق التلال ليجعلها مراكز لإحداث الانقلابات المحلية، ورفع من سلطته بحيث بلغت حد الطغيان على حياة الناس وأرواحهم، وكانت إرادة الحسن هى إرادة إمامه ، أى الخليفة ، وبالتالى هى إرادة الله .

وبعد وفاة الخليفة سنة ١٠٩٤ ، وفشل نزار فى أن يخلفه ، انسلخ حسن عن الفاطميين فى مصر، ونصَّب نفسه أميرا مستقلا، واستطاع احتلال نقط قوية ، وأدخل الرعب فى قلوب السنيين والفرس والأتراك على حد سواء عن طريق الفوز بالحاميات واغتيال الحكام المحليين. وكما هى العادة فإن مؤامرة القلة المصممة لم تكد تلقى معارضة من الكثرة الخائفة .

وتأسيا بالنبى محمد -(ﷺ)- نفسه الذى هاجر إلى المدينة لتجميع الأنصار ثم العودة لفتح مكة ثم جميع بلاد العرب بعد ذلك، كان حسن يأمل أيضا أن يستولى على الخلافة فى بغداد. وبفضل سلطته وكذلك بفضل استخدام المخدرات، استطاع حسن تدريب أجهزة جعل أعضاءها من النزاريين المعتادين على الطاعة العمياء بحيث كانوا يرحبون بالموت أثناء قيامهم بمحاولات الاغتيال، مثلهم مثل الملاحين الانتحاريين اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية. وكانوا يفضلون الخنجر سلاحا لهم، والفناء أو المسجد كمكان للإعدام؛ إذ كانوا يحتقرون استخدام السم والدسائس الخلفية لأن قانونهم كان قانون الجنود وليس قانون الحريم القتلة.

وتروى الحكايات عن أم أحد الفدائيين التى شعرت بالنشوة حين علمت أن ابنها قد مات أثناء محاولة اغتيال أحد الحكام، ثم ارتدت ملابس الحداد حين عاد إليها حيا. ونُسجت حكايات مماثلة حول فدائيين آخرين مخلصين، طعنوا أنفسهم وهشموا جماجمهم مخرجين ما بداخلها ملقين به على الصخر تحت الحصون إثباتا لطاعتهم لأمر الشيخ، إذ كان الحشاشون يعملون من داخل حصونهم توقيا للموت شأنهم شأن المافيا فى الأزمنة اللاحقة.

وساعدت وسائلهم الفتية على الإقلال من شأن الإمبراطورية السلجوقية، وزادت من تفكك العالم العربى الذى كان مفككا أصلا. فذهب الاشتباه كل مذهب، وصار القتل طريقة عادية يحكم بها الأمراء.

وهكذا، فإن الصليبيين القادمين إلى الأراضى المقدسة، لم يجدوا سوى عدو متفرق أعمل فيه الحشاشون الفوضى. وكان حسن فى الواقع قد نشر الطائفة حتى بلغت سوريا حيث أوقع أمير حمص ميتا سنة ١١٠٢ وهو فى طريقه لقتال الصليبيين. وربما كان حسن راغبا فى معاونة المسيحيين الغزاة، إلا أنه لم يساعد الصليبيين على تحصين أنفسهم فى المشرق. وجلب الحشاشون القصاص على الإسماعيليين فى الأقاليم السنية بسبب نجاحهم فى إرهاب الحكام الأقوياء.

وثأر السلاطين السلاجقة والسكان المحليون السنة بأن أزالوا الكثير من مواطن الإسماعيلية فى المشرق وفارس. ومع ذلك ظل الحشاشون أقوياء بعد عام ١١٠٥ فى القلاع المحلية، إلا أنهم لم يعودوا يمثّلون تهديدا عسكريا ذا خطر. ومات

حسن الصباح سنة ١١٢٤ واستمر خليفتاه المباشران فى اتباع سياسته، غير أن الشيخ الرابع حسن الثانى (١١٦٢-١١٦٦) زعم أنه المهتدى، الذى وضع مجيئه نهاية لنظام السرية الشيعى. وخرج عن الدين ليؤسس لنفسه دينا خاصا، وأفشى الأسرار للجميع. وبذا ابتعد النزاريون الأكثر محافظة عنه، فوعظ بالتحرر من حرفية الفقه الإسلامى، وبخاصة تحريم شرب الخمر وأكل الخنزير.

وقال إن أعداء الحشاشين قد اختاروا الموت المحقق بسبب اختيارهم البقاء خارج العقيدة الجديدة، حتى وإن ظلت أجسادهم تمشى وتتحدث. وحين رفض حسن الثانى أن يمنح العفو عن أحد زعماء السنة قال: « بما أنه لم يختر حين كانت الفرصة متاحة أمامه، فهو الآن غير موجود كى تعاد إليه الحياة». وشعر أتباع حسن الثانى أنه أكثر جرأة مما ينبغى؛ إذ كان يريد إحداث ثورة روحية بالإضافة للثورة السياسية، فقتله زوج أخته.

أما الحشاشون الفرس، فبرغم أنهم ظلوا مستقلين سياسيا، فإنهم عادوا إلى عقيدة أكثر محافظة، بل اتبعوا بالفعل نظرة سنية للشريعة الإسلامية. وأصبح فرع الحشاشين السوريين تحت قيادة رشيد الدين سنان الواسع الحيلة(١١٦٢-١١٩٢) مستقلين عن الشيخ الفارسى وبدءوا يمارسون القتل من أجل المال وليس من أجل السيطرة السياسية أو الدينية.

وأصبح سنان بطلا سوريا محليا، بترتيب أموره مع القوى المحيطة أو إرهابها لكى يحفظ لأتباعه استقلالهم. وذاعت شهرته بصفة خاصة بسبب الحيل التى حاكها ضد صلاح الدين والصليبيين.

وكان الصليبيون قد احتلوا بالفعل قلاعًا عظيمة فى جنوبى سوريا، فوافق سنان خوفا من هجوم السنة، على أن يدفع جزية سنوية قدرها ألفى قطعة من الذهب لفرسان الهيكل كى يتحاشى الوقوع بينهم وبين السنة فى الشمال. وحين استولى صلاح الدين على السلطة فى حلب، أرسل سنان الذى كان الخوف يملؤه، حشاشيه مرتين للقضاء على ذلك التهديد القوى، إلا أنهم فشلوا، فقام صلاح الدين بتخريب أقاليم الإسماعيلية.

وتروى الحكايات أن صلاح الدين أوقف اضطهاد الإسماعيلية لأنه استيقظ ذات

يوم فوجد خنجرا مسموما بجانب وسادته، وضعه الحشاشون فى ذلك المكان على سبيل التحذير. والأمر الأكثر احتمالا هو أن سنان وصلاح الدين قد قررا عدم تبديد قواهما فى قتال بعضهم بعضا، ولكن بدلا من ذلك يتحدان مؤقتا على الأقل ضد الصليبيين. ويقينا وجد صلاح الدين المساعدة عام ١١٩٢ حين هجم مجرمان، ربما أرسلهما سنان، على كنراد المونتفيراتى أمير صيدا وملك القدس.

وحسب ما كتبه أحد كتاب التاريخ فى القرن الثانى عشر، توجه إليه شابان يرتديان ملابس خفيفة ولا يرتديان عباءات وكل منهما يحمل خنجرا. وفى قفزة واحدة ضرباه وأسقطاه على الأرض وطعنه كل منهما بنصله. إن الشريرين اللذين خاناه بهذا التعقل كانا من رجال الحشاشين. إذ إن سنان تلقى رشوة كى يرسل القتلة، إما من صلاح الدين (طبقا للمصادر العربية) وإما من ريتشارد قلب الأسد (طبقا للمصادر الفرنسية).

وانتشر الخوف من الحشاشين حتى إن كلا من ريتشارد وفيليب أوغسطس الفرنسى اتهما بعد ذلك بانتقاء شباب وتدريبهم ليقتل كل منهما الآخر. إن شهرة الحشاشين تزايدت وتكاثرت حتى إنه لم يستطع كاتب أوربى أن يتركهم دون أن يكتب عنهم بمزيج من التاريخ والرومانسية والمغامرة، فحسب ماسجله جوانفيل فى القرن الثالث عشر، قاوم لويس التاسع العديد من محاولات اغتياله التى قام بها الحشاشون.

وفى عام ١٢٥٠ يتلقى زيارة من ثلاثة من مبعوثى الحشاشين يزعمون أنهم يتلقون جزية من إمبراطور ألمانيا وملك المجر وسلطان بابل لأن كل هؤلاء كما قال كبير المبعوثين «يدركون أنهم لا يستطيعون أن يبقوا على قيد الحياة أكثر مما يشاء لهم سيدى». فيجيب لويس بتهديد الشيخ الذى يقرر عندئذ أن يتحالف مع ملك فرنسا ويعيره خاتما وقميصا رمزا للأخوة مع أنه مازال يظهر فى الشوارع يصحبه حامل معول يصيح أمامه قائلا: «انحنوا جميعا لمن يملك موت الملوك بين يديه». وهكذا فإن التقوى عند جوانفيل تتحالف مع الجريمة السياسية، ذلك أن كلا الملكين يهتم بنفس الأشياء، ألا وهى امتلاك القلاع فى الشرق الأدنى وذبح أعدائهما.

وبهذه الطريقة دخل الحشاشون الأساطير، حتى إن أى هجوم على أى حاكم

كان يعزى إليهم، وأصبحت كلمة حشاشين من مفردات اللغتين الإنجليزية والفرنسية وكانت تعنى «مغتالون».

وحتى عام ١٢٧١، وبعد أن دمر المغول الحشاشين الفارسيين والسوريين، عزيت إليهم محاولة قتل الأمير إدوارد فى عكا. وكان الحشاشون موضع خوف وكره فى العالمين العربى والأوربى فى آن واحد، برغم أنهم لم يفعلوا أكثر من منهجة الإغتيال الذى كان سائدا حينذاك، إلا أنهم لم يكن لديهم مجال كبير للاختيار، فهم كأقلية صغيرة لم يكن أمامهم سوى الهجوم على نطاق كبير.

ولم يبد الحشاشون سوى مقاومة ضئيلة فى وجه تقدم المغول فى منتصف القرن الثالث عشر، شأنهم فى ذلك شأن بقية العالم العربى فى الشرق. وبرغم أن فروعا من هذه الطائفة وصلت إلى الهند، فإن مواردها قد تناثرت وتراخى الانضباط الذى كان يميزها، ذلك أن الخوف الذى بثه الحشاشون لم يكن ليُذكر بجانب الرعب الذى أحدثه المغول لتحطيم الروح المعنوية لدى عدوهم.

غير أن قائد المغول هولاكو الذى أجرى أنهارا من الدم وبنى أهراما من الجماجم وأحال الحدائق إلى صحراوات، أخذ هجومه يفشل على نحو سخيف أمام أسوار الموت وغيرها من قلاع الحشاشين. أما الإرهابيون الحشاشون، فكانوا أكثر ذعرا، فقرروا التحدث مع حفيد جانكيز خان بدلا من مقاومته، وهو القائد الذى هُزم أمام المماليك المصريين ولم يعرف قط كيف ينظم حصارا جيدا.

واستسلمت قلاع الحشاشين وأُفرغت واحدة تلو الأخرى، برغم أنها كانت من القوة بحيث إنها كادت تهزم جهود الأعداء لتحطيمها؛ وكانت مخازن الماء والطعام الموجودة بها كبيرة بحيث إن هولاكو نفسه قد أدهشه حسن طالعه الذى جعله يستولى على معقل كهذا دون قتال.

وبمجرد أن استولى المغول على هذه القلعة، ذبحوا الإسماعيلية الفرس، بينما أنقص السلطان بيبرس عدد الحشاشين السوريين وحول المغول إلى مجرد قتلة بالأجر فى البلاط المصرى. ومع أن الحشاشين تحطموا كقوة سياسية فى ذلك الوقت، تاركين السيطرة للسنة فى العالم الإسلامى المتقلص، إلا أن من حاكوهم من المسيحيين بقوا أكثر من ذلك بعدة عقود.

وهناك قدر ضئيل من الشك فى أن هوج دى بيان البرغندى الفارس الذى أسس جماعة الهيكل سنة ١١١٨ بالاشتراك مع ثمانية فرسان آخرين (وجنود المسيح الفقراء الزملاء)، قد شكّل تنظيمه على غرار تنظيم الحشاشين، مع أن كلاً من التنظيمين كان يعرف الآخر قبل عام ١١٨٨ حين كتبت قاعدة فرسان الهيكل.

إن تقسيم حراس تحت قياة المعلم الأكبر إلى مقدمين كبراء ثم فرسان ثم أفندية وأخوة عاديين يتبع اتباعا وثيقا البناء الهرمى عند الحشاشين، بل إن الألوان التى كان الفرسان يرتدونها، أى صلبان حمراء على أرضية بيضاء كانت هى نفسها التى كان يرتديها الرفقاء الحشاشون الذين كانوا يرتدون قبعات حمراء وأحزمة وأردية بيضاء.

ويزعم البعض أن فرسان الهيكل اتخذوا فقط الألوان من (البراءة والدم والولاء الخالص والقتل) لأن الفرسان المنافسين الإسبتاريين كانوا يرتدون اللون الأسود. ومهما كان الأمر فإن وظيفة فرسان الهيكل كانت نسبيا هى وظيفة الحشاشين، أى أن يعملوا كقوة مستقلة فى جانب عقيدتهم الدينية.

وبحلول سنة ١١٥٢، حين قتل الحشاشون كونت طرابلس، أجبر فرسان الهيكل الفرع السورى على دفع جزية سنوية لهم. ويزعم ويليام الصيدى أنه فى وقت لاحق من نفس القرن عرض سنان أن يجعل حشاشيه يعتنقون المسيحية إذا توقف فرسان الهيكل عن جباية الجزية السنوية؛ ولكن نظرا لجشع فرسان الهيكل للمال قتلوا مبعوث الحشاشين، وبذا حالوا دون هذا التحول المهم للمسيحية.

ومهما بدا من خيال فى هذه القصة، فقد يكون لها أساس من الواقع، لأنها تشير إلى فترة حسن الثانى الذى قد تكون إصلاحاته فى قلعة الموت قد أبعدت عنه سنان وحفزته على القيام بمفاتحات من نوع ما مع المسيحيين.

ذلك أنه منذ البداية جذب فرسان الهيكل قسما كبيرا من الفرسان تحت لوائهم لأنهم أقسموا أن يعيشوا حياة الفقر والطاعة والعفة. وكانوا يستهدفون بصفة خاصة الفرسان الذين كفرتهم الكنيسة والذين لم يكن لديهم مايخسرونه.

وبشكل ما استخدموا الانضباط والحرب لتطهير خطايا(الأوغاد وغير الأتقياء

واللصوص ومن ارتكبوا ما يدنس المقدسات الدينية والذين شهدوا شهادة زور والزناة) الذين قال عنهم القديس برنار من كليفو إنهم يتقاطرون إلى الأراضى المقدسة .

لقدكان القديس برنار هو الذى وافق على منهجهم فى إنقاذ الضائعين حتى إنه كتب رسالة لامعة وحضر هوج المجلس الكنسى ، وهكذا وجد فريق من القديسين يتكون من الخاطئين السابقين - جيش للخلاص يحمل جنوده فى يدهم سيوفا ذات نصل عريض(ولا تراهم مصفقين شعورهم قط) ، وكتب عنهم القديس برنار مفضلا إياهم على الفرسان الأغنياء فقال : « نادرا ما يغتسلون ولحاهم كثة يفوح منهم العرق ويغطيهم الغبار وبهم بقع من أثر اللجام وشدة الحرارة» .

ففى عصر كان ملك فرنسا لا يغير ملابسه سوى ثلاث مرات فى العام ، كان فرسان الهيكل يعتزون بأن عباءاتهم كانت تظل على أكتافهم حتى تتعفن فتتهرأ أو تمزقها سيوف الأعداء . بل كانوا ينامون وهم يرتدون ملابسهم فى عنابر مضاءة . فعموما كان من السهل تحمل القمل والقذارة أكثر من تحمل قميص مصنوع من الشعر أو حزام من المسامير .

وكان أول قسم يقسمه هوج دى بيان وفرسانه هو ببساطة حماية طرق الحجاج الذاهبين إلى القدس وغيرها من الأماكن المقدسة .

غير أن ملوك الصليبيين فى القدس إذ أدركوا أن الفرسان قد يكونون جيشا نظاميا مستعدا دائما يمكنه أن يصد هجمات المسلمين المفاجئة ، شجعوهم على الاشتراك فى الحملات العسكرية . وبرغم أن فرسان الهيكل كانوا مستقلين عن سلطة الملوك ولا يدينون بالولاء سوى للبابافإنهم سرعان ما أصبحوا لا غنى عنهم فى الدفاع عن مكاسب الصليبيين فى المشرق .

ففى الحرب الصليبية (١١٤٦-١١٥٠) ، حين مزق المسلمون فرسان أوربا ، حال فرسان الهيكل دون وقوع كارثة تامة . وأعلن سكرتير لويس السابع أن انضباطهم وطاعتهم لزعيمهم الأكبر كان مصدر إلهام للجيش كله ، «إذ أعطى الفقراء والأغنياء جميعهم كلمتهم بألا يفروا من الميدان وأنهم سيطيعون السيد فى كل شىء أيا كان من ينصب عليهم» .

وفى وقت لاحق أثناء الحملة، اعترف لويس بأنه اعتمد على عون فرسان الهيكل، وكتب إلى أوربا: «ماكان لنا أن نتصور كيف كان بإمكاننا البقاء ولو لحظة واحدة فى هذه البلاد دون عونهم ومساعدتهم، إذ كانت متاحة منذ اليوم الأول لوصولنا حتى كتابة هذه الرسالة».

لقد كانت العصور الوسطى زمن عطاء سخى للأمور الدينية، إذ كان الصليبيون العائدون يوصون بالكثير من الإقطاعيات فى إنجلترا وإسبانيا وفرنسا لفرسان الهيكل امتنانا لهم على إنقاذ حياتهم، أو من جانب المسيحيين الذين كانوا يعتقدون أن طريقهم إلى السماء دافع عنه حراس طريق القدس.

«جنود المسيح الفقراء» سرعان ما أصبحوا أغنياء، وأصبحوا هم يشكلون أكبر خطر على أنفسهم إذ صاروا مؤسسة مرابين مستقلة يحسدها الآخرون. وبسبب ما أقسموا عليه باتباع الأمانة والحصانة التى أسبغها عليهم البابا من أن يحاكموا أمام القضاء المدنى، صاروا رجال المصارف فى المشرق، وفيما بعد قاموا بهذا الدور فى بلاط حكام أوربا، إذ قبل لويس السابع قرضا كبيرا مع ملاحظة وجوب السداد فى أسرع وقت وإلا سيحل العار على بيته ويتم تدميره. بل إن المسلمين أنفسهم اقترضوا أموالا من فرسان الهيكل فى حالة إذا ما أجبرتهم ظروف الحرب على التحالف مع المسيحيين. وبرغم أن الربا كان محرما بالنسبة للمسيحيين فى العصور الوسطى، فإن فرسان الهيكل كانوا يضيفون زيادة إلى الأموال التى يتعاملون بها أوينقلونها، فكان المدين يسدد مبلغا أكبر من دينه وصارت كنيسة باريس مركزا لسوق المال فى العالم.

وكان فرسان الهيكل شأنهم شأن معظم الطوائف الدينية لهم مراسمهم الخاصة بدخول العضوية، وكذلك لديهم نظمهم المسماة «قاعدة الهيكل»، وكان من شأن هذه أن تقدم المفتاح الذى أدى لدمارهم مع أن فرسان الهيكل لم يكن لهم أن يوجدوا كفئة عسكرية ذات كفاءة تعتز بنفسها دون وجود مراسم خاصة تميزهم عن غيرهم من الجماعات من أمثال الهوسيتاليين والفرسان التيوتونيين.

كانت شروط التقليد سرية، إذ تعقد فى جنح الظلام فى المنزل المحاط بالحراسة، كما كانت القاعدة سرية من حيث إنها كانت تعرف معرفة تامة فقط بالنسبة لكبار

مسئولى الهيكل، فنحن لا نعرفها إلا من النسخ التى تتوقف عند حد وصف بناء الجماعة وواجبات كل درجة ومراسمها.

إلا أنه بسبب هذه السرية، وكذلك لأن المخطوط الأصلى للقاعدة لم يقدر له البقاء، ظل مناوئو فرسان الهيكل يتساءلون عن حقيقة وجود قاعدة سرية منفصلة توافق على الزندقة والمجون الجنسى.

وآخر من اضطهدوا فرسان الهيكل اتهموهم بإجبار الأعضاء الجدد على أن يبصقوا على الصليب وأن يصيروا لواطيين. وواقع الأمر أن الشىء الأكثر احتمالا هو أن فرسان الهيكل كانوا يجعلون العضو الجديد يرتعش أمام الصليب، وأمام فرسان الجماعة بدلا من أن يجعلوه يزدرى العقيدة.

وهناك سجل غير متحيز عن طقوس العضوية عندهم يقدم لنا هذه التفاصيل: يسأل زعيم الهيكل الفرسان المجتمعين - وهم ثلاثة - عما إذا كان هناك مانع من السماح لعضو جديد بأن ينضم إلى الجماعة؛ ويعرض على طالب العضوية مشاق المنزل الكبير، ووصايا الإحسان الموجودة. كما كان يسأل عما إذا كانت له زوجة أو كانت عليه أى ديون أو إذا ما كان مصابا بمرض خفى أو تعهدات أخرى أوزعيم آخر.

وإذا أجاب الطالب الجديد عن هذه الأسئلة بشكل مرض، كان يركع أمام الزعيم الذى يجيب بأن الكثير مطلوب منه؛ وأن خيل الفرسان الجميلة وزيهم إن هى إلا مظهر خارجى لحياتهم، فأنت لا تعرف الوصايا القاسية الكامنة بالداخل، لأنه شىء صعب عليك وأنت سيد نفسك أن تجعل نفسك عبدا لآخر، ذلك أنك بالكاد ستفعل ماتريد؛ فإذا شئت أن تكون على هذا الجانب من البحر، فسترسل إلى الجانب الآخر؛ أو إذا أردت أن تكون على هذا الجانب من الأرض سترسل إلى أرض طرابلس أو أنطاكيا أو أرمينيا، أو ربما يُرسل بك إلى أبوليا أو صقلية أو لومباردى أو فرنسا أو برجاندى أو إنجلترا أو غير ذلك من الأنحاء الكثيرة التى لنا فيها دور وممتلكات. وإذا أردت النوم فستظل مستيقظا؛ أو إن شئت فى بعض الأحيان أن تظل يقظا فستؤمر بأن تذهب لتستريح فى فراشك.

ثم يحذر الطالب بعد ذلك بألا يدخل هذه الجماعة من أجل ميزة له، بل عليه أن

يتخلى عن خطايا الدنيا لخدمة سيدنا، ويكون فقيرا وأن يندم حتى ينقذ روحه. فيقسم على أن يطيع سيد الهيكل فى كل شىء، وأن يعيش حياته دون أن تكون له ممتلكات خاصة وأن يتبع عادات الدار، ويساعد فى فتح الأراضى المقدسة، وأن يبقى فى الجماعة بقية حياته فى حال الضعف وفى حال القوة وفى السراء والضراء، وألا يسمح بأن يسرق أحد ممتلكات من مسيحى.

وحين يقسم طالب العضوية بالله وبالعذراء مريم بأن يراعى هذه القواعد جميعها يقبله السيد فى الجماعة واضعا العباءة عليه وواعدا إياه بالخبز والماء ورداء الفقراء والكثير من المعاناة والكد. ثم يرتل حارس الكنيسة أحد المزامير ويردد الفرسان صلوات الرب. عندها لا يخالج الطالب أى ظل من الشك وقد مر بمراسم من هذا النوع، فى أنه قد ارتبط بجماعة تتطلب منه الطاعة التامة بقية حياته.

إن جوى دى بروفانس، أحد رهبان القرن الثانى عشر، والذى انضم إلى العديد من الجمعيات المقدسة، ندد بالزمان الذى عاش فيه على أنه شرير وقذر، و شهد بنزاهة فرسان الهيكل وأطرى عليهم باعتبارهم أفضل من جميع الجمعيات الدينية، فلقد أعجب بجماعة الفرسان ولكنه رفض الانضمام إليهم عملا بالقول المشهور: من الأفضل أن يعيش المرء جبانا على أن يموت، إذ قال: أعرف جيدا أن جمعية فرسان الهيكل بديعة وممتازة ونقية، غير أن بقاء المرء فى صحة جيدة ببعده عن الحرب.

إلا أن أولئك الذين نشئوا منذ ميلادهم كى يكونوا فرسانا وليس لديهم أى أمل فى أن يتزوجوا أو أن يرثوا أراضى خاصة بهم، قد يفضلون أن يرتقوا ويصبحوا قادة إحدى قلاع الفرسان فى المشرق على أن يقيموا أودهم على إحسان أحد الإقطاعيين فى أوربا.

وكان البلاء الحسن فى المعركة والنظام يعنيان الترقى فى الجماعة، ونادرا ما كانت تعطى أهمية للرتبة الإقطاعية فى انتخاب زعيم الفرسان الأكبر، وبرغم أن تزايد السلطة والثروة لدى الجماعة أخذ يجذب المزيد من الرجال الأكثر طموحا وطمعا كى يحاولوا الوصول إلى الزعامة.

كان الزعماء الثلاثة الأول زعماء جيدين لديهم قدرة تنظيمية

ودبلوماسية، وكانوا فوق ذلك كله رجال عقيدة شعارهم هو: «ليس من أجلنا بل من أجل اسمك امنح المجد أيها الرب». غير أنه أثناء حصار عسقلان سنة ١١٥٣ أمر الزعيم الأكبر الرابع برنار دى تريمالاى رجاله بصد حلفائهم المسيحيين حتى يفوز فرسان الهيكل بكل الفضل فى احتلال المدينة.

أما زعيمهم الأكبر السابع فيليب دى ميلى الذى كان فى وقت من الأوقات أحد كبار البارونات الإقطاعيين، فبدأ ينغمس فى الدسائس التى حدثت أثناء الاضطرابات السياسية التى أدت إلى تفكك القدس.

وسار على نهجه الزعيم الثامن أودو دى سان أمان (١١٧٠-١١٧٩). وقال ويليام الصورى إن أنفه قد زكمته رائحة الغضب، كما أنه لايخشى الله ولا يحترم أى إنسان، فخرج على معاهدة ملك القدس التى أبرمها مع صلاح الدين التى نصت على ألا تُبنى أى قلاع على الحدود؛ وكان عذره أن فرسان الهيكل باعتبارهم مستقلين لا يمكن أن يتقيدوا بأى معاهدة. وسرعان ما سقطت القلعة التى بناها فى يد صلاح الدين، وذُبحت حامية فرسان الهيكل. أما أودو فقد مات فى السجن سنة ١١٨٠ رافضا أن يُفتدى بفدية معلنا فقره بفخر: «لايملك فارس الهيكل أن يقدم فدية سوى حزامه وسيفه». وسرعان ما توفى خلفه المسن.

وفى عام ١١٨٤ تم انتخاب زعيم أصغر سنا وأكثر طموحا هو جيرار دى ريدفور. وقُدِّر لهذا الشخص أن يقوم بدور كبير فى تدمير مملكة القدس، ذلك أنه أثناء المعركة التى نشبت حول الخلافة بعد وفاة الملك الصليبى بولدوين الخامس سنة ١١٨٦، أعطى تأييد الفرسان لجى دى ليزنيان الذى لم يكن محبوبا، وتوَّجه ملكا على القدس بدلا من الوصى على العرش ريمون الثالث ملك طرابلس الذى كان الإسبتاريون يساندونه.

واستغل صلاح الدين الانقسامات بين الصليبيين، حيث قام رينالد دى شاتيون الغادر أمير أنطاكية بخرق معاهدة السلام التى كان صلاح الدين قد عقدها مع الصليبيين، وبالتواطؤ مع ريمون سار صلاح الدين إلى القدس وفتحها عام ١١٨٧. وحاول ريدفورت بمساعدة ١٥٠ فارسا أن يوقف جيشا قوامه ٧٠٠٠ من

المسلمين خارج الناصرة، ثم ذبح فرسان الهيكل. أما ريدفورت نفسه، فقد فر إلى الناصرة مع ثلاثة فقط من رجاله.

وعندما رأى ريمون المملكة الصليبية فى حالة من الدمار التام، تخلى عن صلاح الدين وتحالف مع جى دى ليزنيان ورفقائه المسيحيين. وزود فرسان الهيكل جى دى ليزنيان بالنقود كى يعد جيشا يواجه به الفاتح صلاح الدين. وبرغم أن ريمون كان يريد أن يشن حملة بغرض إبطاء الزحف فإن ريدفورت استطاع إقناع ليزنيان المتذبذب بأن يأخذ بزمام المبادأة بالهجوم ضد المسلمين.

وفى حر يوليو القائظ، ترك الصليبيون مؤنهم من الماء وتقدموا عبر الصحراء لمهاجمة صلاح الدين الذى كان قد فرغ توا من الاستيلاء على طبرية، فتوقف عند حلول الليل عند تل حطين. فأحاط بهم جيش المسلمين. وحين طلع النهار دفعوا بالصليبيين إلى أعلى المنحدر. ولما شعر الصليبيون بشدة العطش حاولوا مرة تلو الأخرى الوصول إلى مياه بحيرة طبرية.

واستطاع ريمون وفرسانه الإفلات من الشرك؛ غير أن بقية الصليبيين إما ذبحوا وإما أسروا وسويت خيمة ليزنيان القرمزية بالأرض. ولم يدع صلاح الدين من تبقى من فرسان الهيكل والإسبتاريين، فقد قاتلوه قتالا مريرا لمدة طويلة من الزمن، وهو ما جعله يأمر بقطع رءوسهم جميعا عدا ريدفورت.

أما هذا، فقد كان عدوانيا حين كان طليقا، لكنه حين أسر كان جبانا، إذ فقد أعصابه مثله مثل آخر شيوخ الحشاشين الذى سلم قلاعه للمغول، فأمر حاميات الفرسان الباقية فى الحصون بأن تستسلم لصلاح الدين؛ ووقعت القدس فى يد المسلمين فى أكتوبر عام ١١٨٧.

وبعد ذلك بمائة عام، حين كانت الجماعة خاضعة للمحاكمة، قال أحد المسئولين من فرسان الهيكل: إن ريدفورت الشرير هو الذى أدخل عادة البصق على الصليب بين طقوس دخول عضوية الجماعة ثمنا لإطلاق صلاح الدين سراحه. وسواء صح هذا أم لا، فإن دور ريدفورت فى جلب الدمار على مملكة القدس يعد عملا مكافئا لتدنيس عقيدته.

ولم تقم أبدا قائمة لفرسان الهيكل بعد حكم ريدفورت المدمر. وبرغم أنهم أثروا وازدادت سلطتهم مرة أخرى حتى فى المشرق، فإنهم فقدوا الصيت الذى كانوا يتمتعون به باعتبارهم يتميزون بالإيمان الدينى النقى، إذ أصبحوا ساسة العقيدة المسيحية، وأكثر استعدادا لأن يوطدوا صلتهم مع الحكام المسلمين ويتبعوا عاداتهم من أجل مصالحهم، بدلا من أن يهاجموا بالسيف كل ما يدل على الإسلام.

وإذا مزجنا بين هذه السياسة وتكلُّمهم اللغة العربية، خلافا للجماعات المسيحية الأخرى، وكانوا يطلقون لحاهم على الطريقة الإسلامية - كل هذه الأمور كانت ذات فائدة لمن أراد الحط من قدرهم، فلم ينس معارضو فرسان الهيكل لهم أن دارهم الأولى كانت مسجدا، بنى على موقع هيكل سليمان فى القدس.

ولقد سمح لمبعوث مسلم زائر أن يؤدى الصلاة لله هناك، موليا وجهه شطر مكة، برغم أن المسجد كان قد تحول إلى كنيسة مسيحية. وكثيرا ما أشاد فرسان الهيكل أنفسهم بأن العذراء مريم التى كرسوا أنفسهم لخدمتها لها مكانتها فى القرآن. كما كانوا على دراية بمذاهب المشرق الغريبة؛ كنظامهم فى الصلاة والصيام، وعذاب النار الذى يوعد به المذنبون، وأن ذلك كان كافيا لإقناع المسلمين. كما كانوا يعلمون أنهم يستطيعون أن يحتفظوا بمكانهم فى المشرق فقط إذا كان لهم حلفاء من العرب، وإذا ظل العالم العربى متفرقا.

وبعد ريدفورت، استطاعت سلسلة من زعماء فرسان الهيكل أن يستعيدوا بحذر أكثر بعضا من مكانتهم فى الأراضى المقدسة، فلعبوا دورهم فى حصار عكا الكبير. وحين تم الاستيلاء على المدينة سنة ١١٩١، أقاموا فيها مقرهم الرئيس. وكذلك ساندوا ريتشارد قلب الأسد فى الحرب الصليبية الثالثة سنة (١١٩١-١١٩٢). وحين فشل ريتشارد فى الاستيلاء على القدس، انزلق خارجا من الأراضى المقدسة متنكرا فى هيئة أحد فرسان الهيكل وركب سفينة تابعة للجامعة. وكانت قلعتهم قلعة الحاج بالقرب من عكا، والتى تطل على البحر من كل الجوانب ماعدا الشرق. وكانت هذه القلعة نقطة الانطلاق للحرب الصليبية الخامسة

(١٢١٨-١٢٢١)، وكان نجاحها فى البداية فى حصار دمياط فى مصر بفضل فرسان الهيكل بشكل رئيس .

لقد قدم كل من فرسان الهيكل والإسبتاريين فى عمل تلو الآخر مايعد صلب المقاومة المسيحية فى الحروب الصليبية ، لأن هاتين الجمعيتين وحدهما كانتا تملكان الخبرة المطلوبة لضرب العرب على أرضهم .

إلا أن صعود نجم الفرسان مرة أخرى أثر تأثيرا ما فى عقول زعمائهم، فصاروا أكثر عناية بسلطتهم المستقلة من عنايتهم بوحدة المسيحيين .

ففى عام ١٢٢٨ ، رفضوا مساعدة فريدريك الحادى عشر الذى حرم من الكنيسة فى حربه الصليبية ، ولكن كان لديهم سبب وجيه لهذا الرفض ، إذ إن فريدريك كان أكثر استعدادا منهم للتعامل مع المسلمين . وكذلك هاجموا الإسبتاريين الذين أرادوا عقد سلام مع سلطان مصر ، وحين صادر فردريك الثانى ممتلكاته فى أبوليا قاموا هم بإخراج فرسانه التيوتونيين من عكا .

وفى عام ١٢٣٢ ، بدءوا مفاوضات مع سلطانى دمشق والكرك لكى يستعيدوا سيطرتهم على مدينة القدس . وما إن حل عام ١٢٤٤ حتى كانوا قد استردوا معظم الأماكن المقدسة عن طريق الدبلوماسية بدلا من الهجوم المباشر ، وكتب زعيمهم قائلا : بعد صمت دام ستا وخمسين عاما ؛ سيحتفل مرة أخرى بالطقوس السرية الإلهية فى المدينة المقدسة .

وعلى أى حال ، ففى العام نفسه أنزل المغول كارثة بالمدينة الصليبية التى كانت أخذة فى العودة إلى الحياة ، وتحطم أمل المسيحيين فى أن يقضى جانكيز خان على المسلمين عن طريق التحالف معهم حين نزح الأتراك الخوارزميون الهمج أمام المغول فهدموا قلعة الفرسان الجديدة فى صفد وهاجموا المدينة المقدسة .

فقاد بيبرس الذى سيصبح سلطانا على مصر الخوارزميين والمصريين ضد فرسان الهيكل وحلفائهم فى غزة ، وسحقهم بعيدا . فهلك زعيمهم الأكبر ومعه ٣٠٠ من فرسانه ، وانتهت هذه المرحلة كما انتهت المرحلة الأولى ، أى بالقضاء العسكرى وخسارة القدس .

وبدأ جهد فرسان الهيكل الثالث والأخير فى عام ١٢٤٨ مع الحروب الصليبية التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا، الذى سمى فيما بعد القديس لويس. وكانت عكا ما تزال قاعدة العمليات الصليبية وحين تقدم لويس نحو مصر تم الاستيلاء على دمياط مرة أخرى بناء على نصيحة فرسان الهيكل، وانتهت المعركة بالهزيمة فى موقعة المنصورة فى عام ١٢٥٠.

أما لويس الذى رفض فى بداية الأمر التفاوض مع الحكام العرب من أجل إقامة الأحلاف، فقد هزمته بمرور الوقت المستنقعات فى مصر، وكذلك الطاعون، ولم تستطع كل الشجاعة الفردية لدى الفرسان أن تجلب له النجاح.

وعموما عول لويس بشدة على تمويل فرسان الهيكل ليحث على ترشيح أمورى دى لا روش، وهو من خدمه المخلصين، كى يكون زعيم الهيكل فى فرنسا. وفى عام ١٢٦٣، كتب البابا نفسه إلى زعيم الجماعة الأكبر يحثه على قبول مرشح لويس قائلا: إذا فكرت فى العناية التى يدافع بها ملك فرنسا عن جمعيتكم وحقوقها والحماية التى يحيطلكم بها، وكم يقدركم أنتم وأتباعكم، فستستجيبون على الفور لطلبه، وبخاصة أن موافقتكم ستلقى فى المستقبل ما يكافئها. وإذا كان ملك فرنسا فى حاجة إلى فرسان الهيكل كمموليين ومحاربين صليبيين، فكذلك كان الفرسان فى حاجة إلى ملك فرنسا لحمايتهم ضد المنافسين الحاقدين.

وطالما التقت مصالح الطرفين، ظل الهيكل فى أمان بمن بداخله من الصرافين. فإن فرسان الهيكل فقدوا ما بقى من قلاعهم فى المشرق، إذ وقعوا بين المغول من ناحية والمصريين تحت قيادة بيبرس من ناحية أخرى، ففقدوا حصونهم الواحد تلو الآخر.

ولم تعد تأتى من أوربا مساعدة فعالة، واعتبرت المملكة القدس قد ضاعت بعد فشل هذا العدد من الحروب الصليبية؛ وأخذت تستخدم الفرسان فى معاركها الداخلية. بل إن البابا نفسه أراد تعبئة صليبيين من المشرق لاستخدامهم ضد الألمان.

وقال أولفر وهو أحد فرسان الهيكل من التروبادور: « هالك ذلك الذى يريد أن يقاتلهم مقاتلة الأتراك مادام يسوع المسيح لم يعد يقاتلهم، فلقد فتحوا البلاد

وسيفتحون غيرها من فرنسية وفارسية وتتارية، وهذا يثقل على. فهم يعلمون أنهم سوف يحيقون بنا المذلة فى كل يوم، لأن الله نام».

وسقطت طرابلس عام ١٢٩١، وهاجمت الجيوش المصرية عكا. وبعد حصار يائس وحد أخيرا اللوردات الفرانكيين وفرسان الجماعات الدينية، سقطت عكا حين هدم المسلمون أسوارها عن طريق البرج اللعين، وسقط آخر حصون فرسان الهيكل وسويت المدينة بالأرض. أما سكانها فإما ذبحوا وإما بيعوا كعبيد؛ حيث كانت الفتاة الصغيرة تباع فى أسواق دمشق بدراخمة.

وهرب فرسان الهيكل إلى قبرص خاسرين بذلك آخر قلاعهم فى عام ١٣٠٣، وفقدوا بذلك وظيفتهم كشرطة طرق الأراضى المقدسة، إذ لم تعد هناك أراض مقدسة ليقوموا بدور الدفاع عنها. ولم يدخل أى جيش مسيحى آخر القدس حتى عام ١٩١٧، وحين وضعت أكاليل النصر فوق قبور فرسان الهيكل فى لندن.

ومع ذلك لم توضع نهاية لفرسان الهيكل بهزيمتهم على يد العرب، إذ كان لا يزال هناك ٢٠٠٠٠ عضو، كما كانت لديهم ثروات من ممتلكاتهم فى أوربا. وكانوا يريدون أن يستخدموا قبرص كقاعدة يعيدون منها فتح الأراضى المقدسة. ومع أن فيليب الرابع ملك فرنسا كان قد بدأ فى القضاء على سلطة الهيكل المستقلة فى فرنسا، فإنه تحول إلى الاقتراض بكثرة من تلك الجماعة مقابل إسباغ حمايته عليها.

وفى عام ١٣٠٣ حين قطع فيليب علاقاته مع البابا بونيفيس الثامن، وقع معاهدة تحالف رسمية مع فرسان هيكل فرنسا وجعلهم مسئولين عن أموال الدولة؛ وفى عام ١٣٠٥ حين هاجمته الدهماء لجأ إلى الهيكل. ومع ذلك كان على فيليب أن يدمر الهيكل لسبب واحد فقط، ألا وهو ثروة الهيكل. فأحيانا يتسامح الحكم مع وجود ثروة فى يد آخرين إذا كان فى إمكانه استغلالها، أما الثروة مع الاستقلال فشىء لا يغتفر.

وسنحت الفرصة لفيليب فى عام ١٣٠٥، إذ حضر إليه عضو سابق فى فرسان الهيكل وهو إيسكيو دى فلوريان معبرا عن استنكار شنيع للجماعة. كما انتخب بابا

جديد هو كليمنت الخامس ؛ وكان كليمنت رجلا مريضا كما كان فى جيب فرنسا . فبناء على طلب فيليب ، طلب كليمنت من كبير زعماء الهيكل جاك دى مولى ، أن ينظر فى أمر خطط للشروع فى حرب صليبية . وكذلك فى دمج فرسان الهيكل والإسبتاريين تحت قيادة أحد أمراء فرنسا ، وهو مشروع قديم كان من شأنه أن يقصر نشاط فرسان الهيكل على الشرق ، كما يحرمهم من ممتلكاتهم فى أوربا .

وحين رفض دى مولى الاقتراح ، استغل فيليب الإشاعة الرائجة بالإضافة إلى سرية طقوس فرسان الهيكل من أجل القضاء على الجماعة ، كذلك خفض قيمة العملة وطرد الصرافين اليهود واللومبارديين ؛ إذ كان عليه أن يجد إوزة ذهبية أخرى ينتف ريشها .

وبعد أن كلف ١٢ جاسوسا ليدخلوا الجماعة ويكتشفوا أسرارها الغريبة ، ندد فيليب بفرسان الهيكل أمام محكمة التفتيش بتهمة الهرطقة . وفى ١٣ من أكتوبر سنة ١٣٠٧ قبض فيليب على مولى فجأة ومعه كل الفرسان الموجودين فى فرنسا . وقليل هم الفرسان الذين استطاعوا الصمود أمام بشاعة التعذيب الذى مارسه ضدهم رجال فيليب ؛ فاعترف معظمهم كما فعل جاك دى مولى بما أراد رجال التعذيب منهم الاعتراف به :

نعم كان فرسان الهيكل شاذين جنسيا ، وكانوا يُجبرون على تقبيل فم وسرة واست من يقومون بإدخالهم فى العضوية . نعم كان طالبو العضوية الجدد يُحملون على البصق على الصليب . نعم كان فرسان الهيكل يوقرون الشيطان بافومت ، الذى كان جمجمة من المجوهرات ، أو تمثالا خشبيا لفالوس . وكذلك عبدوا الشيطان على هيئة قطة فى حضور عذراوات شابات ، وإناث الشياطين .

فمات ستة وثلاثون من فرسان الهيكل فى باريس تحت وطأة التعذيب فى بضعة أيام من بداية اعتقالهم ، ومن بقوا كانوا يعترفون بأخلاط من الخيالات الجنسية والشيطانية التى سادت عصرهم .

وعلاوة على كل ذلك ، فقد استغل فرسان الهيكل كبش فداء على خسارة الأراضى المقدسة ؛ إذ اتهموا بأنهم باعوا للمسلمين ماقاتلوا من أجل الحفاظ عليه .

وأيا كان فحش وسخف معظم الاتهامات التى وجهت للفرسان، إلا أنهم كانوا عرضة لهجوم الدولة العلمانية بسبب ما اتصفوا به من تكبر واستقلال وسرية.

وقد يكون الشذوذ الجنسى والبصق على الصليب أمورا وجدت فى بعض الهياكل، لكن الفرسان على وجه العموم، قاسوا ماقاسوه لأن ملوك أوربا أرادوا أن يضفوا الحكم المركزى على دولهم، إذ كانت مملكة القدس وفرسان الهيكل هما ضحية الملوك الثوريين الذين وجهوا اهتمامهم إلى دولهم بدلا من توحيد البلاد المسيحية.

وقد كان للفرسان إقطاعيات فى كل أنحاء العالم، ولهم فى أوربا وحدها دخل يبلغ حوالى ٩٠ مليون دولار سنويا. وحين أمر البابا ملوك أوربا فى نوفمبر عام ١٣٠٧ بإلقاء القبض على كل فارس فى أراضيهم، اغتنم الجميع الفرصة لنهب تلك الثروة فيما عدا دنيس ملك البرتغال.

وبرغم أن أمتعة فرسان الهيكل آلت إلى الإسبتاريين، فإن القليل منها هو ما تسرب من يد الملوك؛ وكان الإسبتاريون حريصين على رفض ممتلكات كهذه بما أن ذلك قد يدخلهم فى صراع مع القوة الزمنية.

أما جاك مولى الذى حطم طائفته بأن أمرها بالاستسلام وأن تدلى بالاعترافات، شأنه شأن ريدفورت وشيخ الحشاشين، فقد انتهى به الأمر بأن تراجع عن اعترافاته وأنكر كل ما نسب من شر إلى جماعته. ففى عام ١٣١٤ حين أخرج إلى مقصلة أمام نوتردام كى يتلقى الحكم عليه، أعلن قائلا: أعترف بأننى مذنب حقا بأكبر وأشنع خطيئة، ولكن هذا العار هو أنى قد كذبت. لقد كذبت حين سلمت بكل تلك الاتهامات المقززة التى نسبت إلى جماعتى. إنى أعلن بل ينبغى أن أعلن أن الجماعة بريئة، وأن قداستها ونقاءها لم يدنسا أبدا. وفى حقيقة الأمر لقد شهدت بغير ذلك، ولكنى فعلت ذلك خوفا من عمليات تعذيب رهيبة.

وفى اليوم التالى حرق حيا، وبذا انتهى فرسان الهيكل، ضحايا جشع الملوك وضحية تكبرهم وثرائهم.

والغريب فى الأمر أن الحشاشين ما زالوا باقين حتى اليوم فى الهند كجزء من الطائفة الإسماعيلية، ورئيسها الروحى هو أغا خان. أما فرسان الهيكل، فقد كان مصيرهم هو مصير الجمعيات السرية التى يبدو أن قوتها تشكل تهديدا للدولة.

وكما كتب شاعر من شعراء القرن الرابع عشر متسائلا: إن الأخوة سادة الهيكل الذين كانوا جيدى التموين ويملكون أكداسا من الذهب والفضة، أين هم؟ وكيف انتهوا؟ لقد كانت لهم فى وقت من الأوقات قوة لا يجسر أحد على منازعتهم إياها، ولم يكن هناك من هو فى جسارتهم، إذ اشتروا إلى الأبد ولم يبيعوا أبدا..

حتى بيعوا لإشباع جشع الملوك الذين تتجسد فيهم سيادة الدولة ووحدتها.

الرُّوزيكروشيـون* أو الصَّلِيوَرْدِيُّون

مرڤين جونز

فى أغسطس عام ١٦٢٣ ، ظهر عدد من اللافتات الغريبة فى شوارع باريس تقول : «نحن ، مندوبى كلية الأخوة الرئيسة للصليب الوردى ، نقيم مرئيين وغير مرئيين فى هذه المدينة ببركة العلى ، الذى تتجه إليه قلوب العادلين . ونحن نبين ونعلم دون كتب أو أقنعة كيف تتكلم لغات جميع البلاد حيثما نشاء كى نخرج أخواننا فى البشرية من خطإ الموت» .

وحسب رواية معاصرة ، جاءت أول استجابة لهذا الإعلان من محام كان مثقلا بالديون ، فأراد أن يتعلم كيف يجعل نفسه خفيا عن دائنيه . ونجح فى العثور على الصلورديين الغامضين ، الذين وافقوا على تعليمه أسرارهم . غير أنهم أسكروه وأطعموه مسبقا ، بشكل جيد حتى إنهم حين أدخلوه عن طريق تغطيسه فى النهر غرق . وبرغم أنه من الواضح أن هذه القصة ساخرة بشكل متعمد ، فإنها تشير إلى بعض الجدل والغموض الذى يلف تاريخ الصلورديين المبكر .

واسم شهرتهم (الأخفياء) . وهذا الاسم يشير إلى مراوغتهم بقدر ما يشير إلى ما يزعمون لأنفسهم من قوى خارقة للطبيعة . وتعطينا لفظة الروزيكروشيين (الصلوردية) نفسها فكرة أكبر عن الصعوبة المصاحبة لأى دراسة فعلية لهذه الجماعة . ويُفترض عموما أنها مشتقة من الكلمة اللاتينية روزا بمعنى وردة وكلمة كركس بمعنى الصليب ، ومن المؤكد أن الوردة والصليب كانا دائما رمزى الجمعيات الصلوردية .

---

* الروزيكروشيون : هذه لفظة منحوتة من لفظين هما الصليب الوردى ، لذا يقترح المترجم نحت لفظة الصلورديون تسهيلا للتناول ، علما بأن الروزيكروشيين وردت فى مقدمة الكتاب بلفظها الأجنبى المنحوت (المترجم) .

ويظهر نفس الرمزين على الخاتم الذى استعمله مارتين لوثر وعلى أسلحة الكاهن اللوثرى يوهانى أندريا، الذى - كما سنرى - قد يكون أو لا يكون منشئ الصلوردية. وقد ترجع أهمية الصليب والوردة الملطخة بدم المسيح إلى كونهما إجابة عن جميع الأسئلة، فإن الصليب قد لا يكون صليبا مسيحيا على الإطلاق، إذ توجد كل من الوردة والصليب بأعداد ومعان فى رموز القبالاه اليهودية.

وبالنسبة للكيميائيين كان الصليب يشير إلى العناصر الأربعة. أما بالنسبة للهندوس، فكان رمزا للخليقة. أما بالنسبة لبعض كتاب العصور الوسطى، فكان رمزا للضوء. وهناك علاقة بين الوردة والشمس، وهى العنصر المركزى فى العبادة الزرادشتية كما أنها رمز البعث عند المصريين. وكذلك لها علاقة بلكشمى إلهة الحب والخليقة عند الهندوس. كما كان هناك احتفال ديونيسى يسمى الروزاليا.

والطقوس السرية فى أيليوسيس كانت مرتبطة بدونيسيوس. وفى حكايات الورد فى القرن الثالث عشر، قد ترمز الوردة إلى التنوير وهو مايذكرنا بارتباط التروبادور ببقايا إحدى الديانات السابقة على المسيحية المقنعة. والوردة هى فى الواقع رمز للسرية، وبهذا المعنى استخدمها كيوبيد لتغطية العشق المحرم. كذلك فإن تعبير تحت الوردة، مشتق من الوردة التى تعلق فوق المائدة التى يجتمع حولها المجلس فى أواخر العصور الوسطى لإظهار أن جميع الحاضرين قد أقسموا على مراعاة السرية.

وتنبئنا أكبر الجمعيات الصلوردية وأكثرها نشاطا أن الوردة فى وسط الصليب تمثل (الجسد الطبيعى للإنسان بذراعين ممدودين نحو الشمس فى الشرق، وهى التى تصف الضوء الأكبر).

وكأن هذا ليس به ما يكفى من بلبلة. فبالإضافة إلى هذا تُوجد مدرسة فكرية أخرى تُرجع مقطع الوردة فى هذه اللفظة ليس إلى الورد على الإطلاق، ولكن إلى كلمة روس ومعناها باللاتينية الندى (وهو مايعتبره الكيميائيون مادة تحلل قوية). ولكن لم نفعل سوى نبش الموضوع سطحيا؛ فلقد ناقشه أ. أ. ويت منذ ٢٧ سنة فى كتابه المسمى جمعية أخوة الصليب الوردى.

وإذا كان لنا أن نصف الصلوردية بالمعانى المألوفة بين المؤرخين، فثمة نهج واحد

متاح أمامنا، هو أن نأخذ وثيقتها التى لا تنافس - وهى نشرة جمعية الصليب الوردى الممتازة التى نشرت فى ألمانيا عام ١٦١٤ - كنقطة انطلاق؛ لفحصها على ضوء المناخ الفكرى والاجتماعى السائد فى ذلك الزمان والمكان. وأخيرا علينا تتبع السجل المعلن للصلوردية مهما شابه من ظلال وانقطاع، حتى وقتنا الحاضر.

فلقد كانت ألمانيا فى بداية القرن السابع عشر مسرحا للشك والبلبلة، إذ لم تؤد صراعات الحقبة السابقة أو الكفاح الذى حدث أثناءها إلى وحدة البلاد أو تولى حكومة جيدة، كما لم تؤد إلى تحسن كبير فى أحوال الناس، فتهددت البلاد تهديدات سرعان ما أصبحت حقائق فيما شهدته البلاد من بؤس وفوضى أثناء حرب الثلاثين عاما بعد أن كانت فريسة لتنافس الأمراء الصغار الأنانيين والجيران الأقوياء.

وكان لدى البروتستانت بصفة خاصة سبب يحمل على الاكتئاب. فبدلا من أن تنهار الكنيسة الكاثوليكية كما كانوا يأملون، شنت حربا مضادة للإصلاح واستعادت قدرا كبيرا مما فقدته من أرض. فكان المفكرون يبحثون عن أداة فكرية وروحية أكثر عمقا وقوة من المُثُل التى ورثوها عن مارتين لوثر.

وكانوا يعتقدون فى وجود حكمة خفية فى مكان ما. وكانت كما فهموها مشوبة بشك غامض جزئيا وتصوفيا علميا إلى حد ما. والهدف الذى سعوا إليه هو سبر أغوار أسرار (أو ما سمى بلغة العصر ألغاز) العالم الطبيعى، وحتى يحصلوا على درجة جديدة من القوة للسيطرة عليها.

ولتحقيق هذا الهدف، فإن أى مفتاح يستحق التتبع، سواء جاءت الأفكار من حضارات الماضى العظيمة، أو من ثقافة الشرق، أو من العقول المتأملة التى رفض معاصروها جهودها الرائدة. وطبيعى، مع حالة المنهج العلمى الذى لم يكن قد تطور بعد، أن يصبح التمييز بين الحقيقة والخيال ومجرد الشعوذة عسيرا إلى حد كبير.

فالكيمياء، على سبيل المثال، كان من الممكن أن تكون عملية ترمز إلى التطور الروحى، أو مجرد حيلة سحرية فاشلة ذات غرض عادى هو جعل الذهب معدنا رخيصا. غير أن بعض أفكار الكيميائيين أظهرت ومضات من النظر الثاقب من

عجب أنها غطت على المفاهيم الحديثة فى بنية الطبيعة وعلى الكيمياء المبنية على تحليل العناصر التى ثبتت صحتها بعد ذلك بقرون عن طريق العلم .

أما مجال الإحساس عن بعد أو التلبثى والإدراك الذى يفوق الحواس الخمس أى الحاسة السادسة ، فيعد أمرا حديثا متوازيا مع التقدم فى الكيمياء . ففى هذا المجال لا يمكننا أن نكون على يقين أين ينتهى التفكير المبنى على التمنى وأين يبدأ البحث عن نظام أخر للواقع .

ومن بين جميع الحضارات العظيمة التى رجع إليها دارسو تلك الفترة ، كانت الحضارة المصرية القديمة بالذات أكثر ما بعث فى قلوبهم الرهبة ، إذ يقول التراث إن الطقوس السرية المصرية كانت مفتاحا لمعرفة كاملة للكون ، وللإنسان ، وإن هذه المعرفة حُفظت فى عدد من الكتب ، تسمى الكتابات الهيرميزية لأنها عزيت إلى نبى مصرى تروى عنه الحكايات أن اسمه هيرميز تريميجيستوس (أى هيرميز مثلث العظمات) ويتطابق مع توت إله الحكمة عند المصريين .

وتنقسم الكتب الهيرميزية إلى مجموعتين : هناك من ناحية كتب تتناول التنجيم والكيمياء والسحر ، ومن ناحية أخرى ، هناك كتب هى عبارة عن محاورات تصف تجدد الروح عن طريق رحلة إلى أعلى من خلال المدارات العليا .

وطُبعت الكتب الهيرميزية أول مرة فى القرن الخامس عشر ، وكان لها تأثير فى مفكرى عصر النهضة ، إذ قبلها الجميع على أنها حقيقية حتى أوائل القرن السابع عشر حين ثبت أنها كتبت بالفعل فى وقت متأخر أى فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين ، بواسطة مجموعة متتالية من الإغريق المجهولين الذين كانوا فى مصر .

وعلى الرغم من أن تأكيدهم للنشوة والاستنارة بدا مؤكدا لصلتهم بعبادة الطقوس السرية المصرية ، فإن ما عكسوه بالفعل هو الغنوصية التى كانت جديدة نسبيا (مشتقة من الكلمة اليونانية غنوسيس أى المعرفة) ، والتى ازدهرت فى أوائل الحقبة المسيحية ، وكانت ممتزجة مع مدارس فكرية إغريقية مثل الأفلاطونية والأفلاطونية الجديدة .

إن أول الكتب الهيرميزية التى تم توزيعها كانت كتبا تتناول حكمة الله وقدرته

وتتناول قصة غنوصية عن الخليقة لعب فيها هيرميز تريميجيستوس دور موسى مصرى وكذلك الإسكليبيوس، أو الكلمة التى عزت للمصريين إحياء السحر.

وكان العامل المهم الثانى فى ذلك الإحياء، وكذلك المناخ الذى تولدت عنه الصلوردية، هو دراسة إسبانيا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.

إن كلمة قبالاه هى كلمة عبرية تعنى التراث المتوارث؛ ويُفترض أن فلسفتها قد تم توارثها شفاهة من موسى نفسه. ويقال إنها كانت موجودة فى أسفار الأنبياء فى العهد القديم؛ وتم شرحها فى مرتبة يتسيراه أو كتاب الخليقة(الذى ربما أُلِّف بين ٣٠٠ و ٦٠٠ ميلادية). وفى نص يسمى الزوهر أو اللمعان، (وزع أول مرة فى القرن الثالث عشر فى إسبانيا) ترى القبالاه الله على أنه النور اللانهائى، الذى نبعت منه كل الخليقة من خلال عشرة مراتب متعاقبة تسمى السفيروت.

والسفيروت نفسها تمثل صفات الله: وهى أولا السمو ثم الحكمة ثم الذكاء والحب والقدرة والرحمةوالأبدية والجلال والثبات والمجد. وبرغم أن الخطيئة فصلت الإنسان عن السفيروت، فإن ما بها من صفات إلهية ما تزال تعمل عملها داخله ويمكنها من خلالها أن يعود إلى مصدر النور.

ويقول طلبة القبالاه إن هذا من الممكن تحقيقه عن طريق منهج للتأمل فى اسم الله وفى الاثنين والعشرين حرفا التى تتكون منها الأبجدية العبرية. ولقد أثاروا عداء الحاخامات المحافظين بسبب ادعاءهم امتلاك المعرفة، وكذلك بسبب تركيزهم على الكشف والنشوة.

وفى أوائل العصور الوسطى كان القباليون هم الذين يدرسون الأسرار. أما فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فقد تبنى القبالاه أشخاص من الأغيار أى غير اليهود من أصحاب النفوذ، وشرحها كورنيليوس أجربا فى ألمانيا (كنظام للسحر العملى)، ووصفها بيكو ديلا ميراندولا فى إيطاليا (على أنها خبرة صوفية)، وكذلك وجد غيرهما من أصحاب النزعة الإنسانية فى عصر النهضة الكثير من نقاط الالتقاء بين القبالاه والكتابات الهيرميزية التى كانت قد تُرجمت حديثا.

إذ إن السحر القبالى ضم السحر الهيرميزى فى رأيهم، وإن الفلسفتين لا تتعارضان مطلقا مع المسيحية بل يثبتون صحتها. ومن ثم رأوا فيهما الوعد بتجديد التقوى والأخلاق، كما رأوا أيضا إصلاحا عاما للبشرية.

وكان لهذه الصيغة من التركيبة الدينية التى تُعد جوهرية فى تطور الصلوردية نفوذ واسع يبعث على الدهشة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

أما فى القرن السابع عشر حين عفا الزمن على الكتابات الهرميزية، فقد ذوى أثرها هى الأخرى، فإن التراث القبالى الهيرميزى تلكأ قليلا. كما تبين المؤرخة فرنسيس ييتس فى كتابها (سيوردانو برونو والتراث الهيرميزى)، أنها أصبحت نشاطا سريا وكذلك الهم الخاص لجماعات الأقلية وهم جماعات سرية مثل جماعتى الصلورديين والماسونيين اللتين حفظتاها وطورتاها.

إن النظرة الهيرميزية القبالية للكون، وعلى الأخص الإيمان بقوة الإنسان التى تمكنه من إخضاع وتحريك القوى الطبيعية من المراتب العليا، تُلاحظ بقوة فى أعمال الكيميائى الطبيب السويسرى بارا سيلسوس(١٤٩٣-١٥٤١). وهو يعد همزة وصل بين عصر النهضة والفترة الأولى من الصلوردية. ولم تعرف طموحاته الفكرية حدودا. فحين وُلد كان اسمه ثيوفر إستوس بومباست فون هومنهيم، إلا أنه تخير لنفسه اسما يبين تفوقه على سيلسوس، وهو من الأفلاطونيين الجدد حدث إحياء لأفكاره وتمتعت بنفوذ كبير.

وكانت فكرته المحورية هى أنه من الممكن الوصول إلى فهم جديد للطبيعة بمطابقة (الخواص الحيوية) للصخور والنباتات، وألح على أن هذه الخواص تقدم علاجا أفضل للأمراض من تلك التى يقدمها جالن وغيره من الحجج المقبولة على نطاق واسع فى الطب.

وسواء كان عن طريق الحظ أو الحدس، فقد توصل إلى عدد من العلاجات غير المتوقعة أثناء مدة عمله كطبيب بمدينة بيزل، وأخذ يكتب ويحاضر بلا توقف، إذ كان متحمسا للكتابات الهيرميزية والقبالاه على حد سواء. وكما يذكر واحد ممن كتبوا عن حياته العملية: «ثمة مشكلة تواجه أى شخص يحاول التوفيق بين جهله

وملحوظاته الخاطئة، ونفوذه غير المبرر السخيف ونظرياته، وبين تملكه للمنهج ونظرياته الرفيعة السامية عن المجال الحقيقى للطب وأقواله الواضحة».

ويمكن قول نفس هذه الكلمات عن وثيقة الصلوردية الأولى، أخوة التراث عام ١٦١٤. لقد كانت هذه الوثيقة هى التى أعلنت أولا عن وجود جماعة صلوردية، ودعت (علماء أوربا وعظماءها) الذين كانت موجهة إليهم أن يعلنوا تعاطفهم أمام الجميع؛ وأكدت لهم أنهم إذا فعلوا ذلك ستتصل بهم جمعية الأخوة. كما وعد القراء أنهم إذا هجروا معلميهم المزيفين (البابا وجالن وأرسطو) وانضموا إلى الجماعة سيصلون إلى معرفة أعمق بالطبيعة وسيكون لهم نصيب فى جلب إصلاح عام للعالم.

وبرغم أن كتّاب الوثيقة قد وعدوا أتباعهم بذهب أكثر مما تخرج جزر الهند لملك إسبانيا، فإنهم نددوا بصناعة الكيميائيين للذهب (باعتباره عملا غير إلهى وملعونا)، وهو ما يتضمن أن الثروات التى يقدرونها هم هى ثروات روحية، وليست مادية.

وروى الجزء الرئيس من كتاب التراث حياة وموت الصليب الوردى، وهو شخصية أسطورية وصف على أنه مؤسس الجماعة. وطبقا لروايته ولد الصليب الوردى عام ١٣٤٨ لعائلة نبيلة كانت تمر بظروف صعبة، وحين بلغ الرابعة من عمره وضع فى أحد الأديرة. وحين كان مايزال فى نعومة أظفاره خرج مع أحد الرهبان فى حج إلى القدس؛ إلا أن الراهب مات فى قبرص، وبقى الصليب الوردى فى دمشق، حيث صار شهيرا بفضل مهارته فى الطب. ثم ذهب إلى دمكار، (وهى مدينة يقال إنها موجودة فى بلاد العرب، ولكن يبدو أنها مدينة أسطورية) وهى وطن الحكماء الذين انكشفت لهم الطبيعة.

أما الحكماء الذين كانوا فى انتظاره، فعلموه اللغة العربية والطبيعة والرياضيات وعرفوه بكتاب م الذى احتوى على أسرار الكون، وقام هو بترجمته إلى اللغة اللاتينية. وبعد أن درس الزراعة وعلم الحيوان فى مصر والقبالاه والسحر فى فاس، أصبح معدا لكى يعلم علماء أوربا (كيف يرتبون كل دراساتهم على هذه الأسس المتينة السليمة). ولما لم يعش حياة طيبة فى إسبانيا عاد إلى ألمانيا، وبدأ

العمل فى تأليف كتاب يتضمن (كل مايمكن أن يرغب فيه أو يتمناه إنسان)، وساعده فى هذا العمل سبعة رهبان من الدير الذى تربى فيه . وحين أكملوا كتابهم، قرر الثمانية أن يكونوا جمعية الصليب الوردى وأن يعيشوا فى بلاد مختلفة، يؤثرون فيها على العلماء . وقبل أن يتفرقوا، قرروا ألا يقوموا بأى عمل سوى علاج المرضى، دون تقاضى أجر؛ وألا يتميزوا بزى معين خاص، وأن يجتمعوا سنويا فى ألمانيا ؛وأن يرشح كل منهم خلفه قبل أن يموت؛ وأن يتخذوا الحرفين (ص) و(و) خاتما لهم؛ وأن يحتفظوا بجمعيتهم سرا لمدة ١٠٠ سنة .

وكذلك أعلن التراث أن الصليب الوردى توفى عام ١٤٨٤ (وكان عمره مائة وستة من السنين)ودفن فى قبر خفى . وبعد أن اكتشف مؤلفو التراث القبر، فى عام ١٦٠٤ كان يقعد خلف باب خفى عليه عبارة«سأنفتح بعد ١٢٠ سنة» .

وبالداخل كان هناك قبر ذو سبعة جوانب مضاءة بجرم غامض يتلألأ مقام على السطح، وفى الوسط كان هناك مذبح وجدوا تحته جسد الصليب الوردى(سليما دون تحلل) . واشتمل القبر أيضا على مجموعة من المرايا تعكس فضائل مختلفة وصحيفة عليها عنوان كتاب ت ، ووصف بأنه كنزنا الأعظم بعد الإنجيل، وقاموس(لا يعرف عنه شىء غير ذلك) جمعه بارسيلوس .

ولم يعط كتاب التراث أى تلميح عن مكان القبر، وانتهى بلغز كما بدأ بلغز، بتأكيد أن الفلاسفة الحقيقيين سيرون السماء مفتوحة والملائكة يصعدون ويهبطون، وستُكتب أسماؤهم فى كتاب الحياة . ولم يعط المؤلفون ما يدل على هوياتهم، سوى تأكيد أنهم لوثريون .

ولكن المفكرين استقبلوا كتاب التراث بشىء يشبه الإثارة التى قد تصحب نشر بيان سياسى ثورى اليوم . بالرغم من كل هذا وبالرغم من رمزيته الغامضة، فإنه لم يُقرأ فى ألمانيا فحسب، ولكن أيضا فى غيرها من البلاد الأوربية، وخلال ثلاث سنوات طُبعت منه تسع طبعات مختلفة بالإضافة إلى عدة ترجمات إلى اللاتينية والهولندية .

وتلا التراث كتابان آخران، هما اعترافات الأخوة فى الصليب الوردى(١٦١٥) وكتاب الزواج الكيميائى للصلورديين المسيحيين (١٦١٦) . وأعطى كتاب

الاعترافات مزيدا من التفاصيل المتعلقة بدخول الجماعة، مؤكدا أنها مفتوحة أمام الرجال من كل الطبقات الاجتماعية، وأن هدفها الوحيد هو نشدان الحكمة الحقيقية، ومضيفا (على سبيل جذب الاهتمام) أن الجمعية تملك ذهبا وفضة أكثر مما يملكه العالم بأسره.

أما كتاب الزواج الكيميائى، فهو كتاب أكثر مدعاة للحيرة، فهو قصة مجازية محكمة يتزوج فيها ملك وملكة أسطوريان، بقدر كبير من المراسم الغريبة الكئيبة. يبدأ الكتاب بولادة الصليب الوردى من (سجن الجهالة) ورحلته إلى الزواج الذى يظهر فيه (بعد الكثير من المحن) كضيف شرف.

ويشير عنوان الكتاب إلى أن رمزيته هى الكيمياء؛ ويوحى النص بأن هذه الكيمياء ليست الكيمياء التى تحيل المعادن الوضيعة إلى ذهب، ولكن المقصود هو تجديد النفس. ومع ذلك يعتبر بعض الدارسين أن الكتاب عمل خيالى بحت يرجع إلى تاريخ مبكر أكثر من ذلك، ولا علاقة له بالصلورديين.

ويرى آخرون أنه سخرية مدمرة صُمم كى يبالغ وبذلك ينزع المصداقية عن التصوف الصلوردى، إلا أنه من جانب واحد هو جانب التأليف، يعرف عن الزواج الكيميائى أكثر مما يعرف عن كتاب التراث أو كتاب الاعتراف، إذ إن الكتاب من تأليف يوهان فلنتين أندريا اللوثرى(١٥٨٦-١٦٥٤) كما كشف هو نفسه فى سيرته الذاتية.

فلقد ألم أندريا بجماع الفكر فى عصره وهو شاب حيث درس الفلك والرياضيات والبصريات والفلسفة في توبنجن، وأثناء ذلك انجذب إلى أشكال رؤيوية دينية تحديا للشماس اللوثرى فى عام ١٦١٤، وكان فى الثامنة والعشرين من عمره؛ ويبدو أنه ظل متمسكا بقوة بلوثريته بقية حياته.

وثمة اعتبارات ثلاث هى التى جعلت المؤرخين يميلون إلى اعتبار أندريا هو مؤلف التراث ومؤسس الصلوردية. فمن المؤكد أنه كتب كتاب الزواج الكيميائى، وفى السنوات التالية حتى عام ١٦١٤ كان مدافعا متحمسا عن خطط مختلفة غير محافظة من أجل الاتحاد المسيحى ومنها خطة على شكل جمهورية مثالية تسمى مدينة الشمس.

وكما يبين المؤرخ الفرنسي بول أرنولد في كتابه التاريخي الحديث عن الصلوردية، فلقد كانت دائرة أصدقاء أندريا في توبنجن مهتمة بعمق بالهيرميزية، والقبالاه والتصوف المسيحي.

ومن المحتمل أن كتاب التراث كتب بشكل مشترك بواسطة أعضاء هذه الدائرة، وعلى رأسهم أندريا، وويلهلم ونس الذى لعب دورا نشطا فى الاتحاد المسيحى، وعالم اللغتين العبرية واليونانية كريستوف بيسولد(الذى أصبح كاثوليكيا فيما بعد). والاعتراض الوحيد الظاهر على هذه الحجة هو أنه فى الكتب التى ألفها أندريا بعد ذلك كلوثرى محافظ وجه هجمات متكررة على الصلورديين.

ولكن كما يشير أرنولد، فإن جميع هجمات أندريا على الصلورديين كانت تتسم بالحذر. ففى كتابه برج بابل (١٦١٩) كتب يقول عنهم: «يوجد شيء مفيد فى كل كتاباتهم». كما كتب فى وصيته عام ١٦٣٤، «مع أنى أترك الآن جمعية الأخوة نفسها، إلا أننى لن أترك قط الأخوة المسيحية الحقيقية، التى تفوح منها رائحة الوردة تحت الصليب وهى منفصلة تماما عن قذارة هذا القرن».

إن احتمال أن يكون كتاب التراث من تأليف عدة عقول له أهميته فى الرد على السؤال الذى ينبغى بحثه، وهو ليس: من الذى ألف كتاب التراث؟ بقدر ماهو: هل أُسست جمعية الصلورديين فى الحقيقة عام ١٦١٤؟

هناك أربعة احتمالات: قديكون هذا التنظيم ليس له وجود حين ظهر الكتاب، وأنه كان محاولة لإنشاء مثل هذه الجماعة. وقد تكون هذه المحاولة قد مثلت مشروعا خطيرا، حلما يفتقر إلى الخطة التنظيمية، أو (فى أقل القليل) نكتة فكرية.

أو أن المرء لا يصدق إلا مايود الصلورديون لنا أن نصدقه، وهو أن قصة الصليب الوردى قصة مجازية تصف إعادة اكتشاف الحكمة وأن ظهور الجماعة عام ١٦١٤ من إحدى فتراتها المرسومة للنشاط الصامت أو سريتها يفترض أنها تظهر كل ١٠٨ سنوات.

وثمة نظرية ثالثة هى أن الجماعة قد تكون فى الواقع فى حيز الوجود لبعض

السنوات، وأن التراث قُصد به زيادة نفوذها، إذ توجد سجلات عن طائفة بروتستانتية متطرفة تسمى ميليشيا الصليب الإنجيلى، أسسها عالم ألمانى اسمه سيمون ستوديون عام ١٦٨٥.

ويعد كتاب ستوديون كتابا صوفيا يستخدم رموزا من الوردة والصليب، ولكن معظم الدارسين لا يعتبرونه بصفة أساسية أو بالضرورة صلورديا. وهكذا لم يتبق أمامنا سوى احتمال أن أندريا وأصدقاءه، وقد تطابقوا مع الصليب الوردى ورهبانه الأربعة مجازيا، كونوا الجماعة حوالى عام ١٦١٤، حين نشروا التراث بيانا لها.

وحاول الكثيرون الانضمام إلى الجماعة عن طريق كتابة ونشر إجابات متعاطفة، وهى الطريقة التى أوحى بها كتاب التراث. وتشمل مكتبة جوتينجين مجموعة من هذه الخطابات المفتوحة، ولكن دون أن يظهر اتصال أبعد من ذلك من جانب الجماعة أكثر من النشرات الملحقة، مثل الاعتراف (إذا اعتبرناه من بينها) والزواج الكيميائى.

وبقدر مانعلم، فإن جميع الأعضاء المحتملين قد أصيبوا بخيبة الأمل. فلقد حاول ديكارت الذى كان يعيش فى فرانكفورت عام ١٦١٩ أن يتصل بالجماعة دون جدوى، ثم قرر أن الجماعة ليس لها وجود.

وفى نهاية القرن، كتب الفيلسوف وعالم الرياضيات الألمانى الشهير جوتفريد فون ليبنيتز: « أشك فى أن جمعية أخوة الصليب الوردى ما هى إلا محض خيال». وربما لم توجد الجماعة قط. وربما سمح لبعض المتقدمين بالانضمام فى سرية لم تُفش قط؛ إلا أننا لا نملك أى دليل على ذلك. أو ربما لا يوجد دليل جدير بالاهتمام، رغم أن عددا من الخطابات المكتوبة تبدأ بأن يقدم الكاتب نفسه باعتباره خبيرا فى الكيمياء أو القبالاه.

وربما رفض المؤسسون مقدمى طلب العضوية من أولئك الذين أظهروا أنهم مهتمون بصناعة الذهب فقط، ولم يقدروا طموحاتهم الأكثر سموا. ولكن هناك احتمالا كبيرا بأن المجموعة المؤسسة سرعان ما تفرقت، بعودة أندريا إلى المذهب اللوثرى الاعتيادى وبيسولد إلى الكنيسة الكاثوليكية.

ولا نصاب بالدهشة فى هذا الفراغ إذا اكتسبت كلمة الصلورديين معنى المجوس الأعم والأكثر غموضا، كما لا يدهشنا أن الكلمة صارت مرادفا للشعوذة، أو الأنبياء المزيفين أو بشكل أوضح المدلسين، فتقدمت جماعة من الناس وزعموا أنهم الصلورديون الحقيقيون. ولم يبرز معظم هؤلاء شخصياتهم، ولكنهم شرحوا الأسباب التى أدت إلى وجوب أن تظل الجماعة سرية ويصعب الاتصال بها، وطلبوا تقديم الطلبات على الطريقة المكتوبة فى التراث. وشكا أحد طالبى العضوية الألمان وهو لودفيكوس أورفيوس، من أنه دفع عام (١٦٢٢) ١٠٠٠ دولار هولندى لممثل مزعوم للجماعة، الذى طرده حينئذ دون أن يفشى سرا ذا بال.

وبعد ذلك بقرن روى فولتير كيف أن دوق بويون عانى من خدعة مماثلة. وعلى مستوى أكثر خطورة من ذلك، شهد العقد التالى على عام ١٦١٤ نقاشا عاما حادا، بصفة رئيسة فى ألمانيا انعكس فى عشرات النشرات التى ما تزال موجودة فى المكتبات، ولا شك فى أن هناك الكثير من هذه النشرات التى لم يُكتب لها البقاء.

وسواء وُجدت الجماعة كتنظيم، أو لم توجد، فإن آمالها ووعودها ظلت الشغل الشاغل للمفكرين فى ذلك العصر. فبينما هاجمهم البعض باعتبارهم هراطقة خطرين، أو نظروا إلى ما قالوه كهراء واهم، احتفى بهم البعض كتأكيد للبعث الروحى، فى حين رحب بهم آخرون بحذر.

فعلى سبيل المثال، نصح عالم الطبيعة الطبيب الألمانى أندرياس ليباو الصلورديين بأن يركزوا جهودهم على تحسن الأفراد أخلاقيا وأن يتخلوا عن فكرة إصلاح العالم. ومازال الكثير من عناصر النزاع غامضة ومتناقضة مع نفسها.

وتعد حالة أيرينيوس أجنوستوس حالة نموذجية تدل على الغموض الذى يلف الجماعة. فلقد زعم أنه كان عضوا بها وأن كتابه خلاصة جمعية أخوة الصليب الوردى(١٦١٩)، نشر بتفويض من الجماعة، إلا أنه فى هذا الكتاب ندد بجميع الصلورديين الآخرين باعتبارهم سحرة ومشعوذين وعملاء لليسوعيين.

إن أشد دفاع له وزنه عن هذه الجماعة الغامضة جاء فى كتاب عام ١٦١٨ ألفه الطبيب الفيلسوف الألمانى ميكل مير(١٥٦٨-١٦٢٢)، إذتحدث عن الجماعة قائلا إنها خليفة سلسلة من المجموعات السرية منها كلية للمجوس فى فارس وكلية للبراهمة فى الهند.

وأصر على أنه يجب الحكم عليها عن طريق رجالها المهرة القليلين وليس عن طريق طلبتها الفاشلين أو الأدعياء الذين أحاطوا بها حتما. وأعلن أن خبراءها الحقيقيين هم الذين كانوا يملكون حكمة تتكون من العلم التام بالدين والطب والسحر الطبيعى؛ وكمال جميع الفنون؛ والكيمياء والتشريح وفكرة عن الكون بأكمله كما شرح فى كتاب م الذى كتبه الصليب الوردى.

وحين توفر لهم هذا امتلكوا سر ثلاثة أنواع من العلاج: للجسد والنفس والروح. وكان أعلى الأسرار هو سر تلك الفضيلة التى لا تُصدَّق والتى تؤكد أن التقوى والعدالة والصدق تسود فى شخصياتهم، وأنهم تخلصوا من الرذائل المعاكسة لتلك الفضائل.

ومع ذلك، هناك الكثير من الأمور التى لم يناقشها ميير، وعلى الأخص المحتوى الحقيقى لطب الصلورديين وفنونهم وديانتهم وما إلى ذلك. إلا أن كتابه هو أقرب ما يمكننا الحصول عليه لكشف المعتقدات الصلوردية المبكرة، كما يعد مرشدا لفهم هذه المسألة. ولكن حتى هذا لا يمكن اعتباره حجة فى هذا الموضوع، لأن ميير نفسه لم يكن عضوا فى هذه الجماعة، كما صارح قراءه بتلك الحقيقة بأمانة.

أما فى إنجلترا فإن أبرز المدافعين عن الصلوردية هو روبرت فلد (١٥٧٤-١٦٣٧)، إذ أعلن فى كتاباته الأولى عن نفسه تلميذا للصلوردية، ولكنه ألمح إلى أنه لا توجد جماعة بمعنى وجود تنظيم، وأن اكتساب الحكمة الجوهرية كان المؤهل الوحيد. وكتب قائلا: «أؤكد أن كل لاهوتى صوفى بالكنيسة هو أخ حقيقى للصليب الوردى».

وكان فلد من دارسى الكتابات الهيرميزية، والقبالاه المتعلقة بالكيمياء، ودرس نظريات بارسيلوس الطبية، إذ درس الكيمياء بمعناها الرمزى. وكما يقول ويت عنه إنه فى كتاباته يرى تعارضا بين الكنز السماوى والذهب كمعدن ذلك الذى كان يسعى إليه الكيميائيون العظماء والمزيفون على حد سواء.

ولقد أصبح على علم بالأفكار الصلوردية، إما أثناء أسفاره وإما فى ألمانيا أو أثناء زيارة قام بها ميير إلى إنجلترا، أو كليهما.

وكتب عدة أعمال دفاعا عن الصلورديين، منها كتاب يسمى دفاع قوى عن أخوة الصليب الوردى الذين أصابهم وحل الشك والعار، ولكنهم تطهروا بمياه الصدق عام ١٦١٦ . فبالنسبة لفلد كانت الحكمة الصلوردية تعنى فى المحل الأول منهجا جديدا للفلسفة الطبيعية مستمدا جزئيا من بارسيلوس ومستمدا جزئيا من ملاحظة الطبيعة والنجوم.

وكان يؤمن بأن الكون المرئى ملىء بالشخوص الصوفية ؛ وأن بإمكان راغبى الحكمة الحقيقية أن يتعرفوا عليها ويصلوا إلى معرفة تامة بكل الأشياء فى السماء والأرض. إن قوة الفهم كما يراها فلد تمنحها روح الله لأشخاص مختارين لما بهم من نقاء فى القلب ، لا يعرفه الناس العاديون، ويملكون ثروات سماوية، غير أنهم فقراء فى أعين الناس. ويختتم كلامه قائلا : «إن هبات الروح هى النبوءة والمعجزات والألسن والقدرة على العلاج».

إلا أن الجماعة كانت قد فقدت مصداقيتها فى وطنها ألمانيا. فكما يقول أرنولد بايجاز : «كان الصليب الوردى مثار ضحك». ويلاحظ ويت أنه بمقدم عام ١٦٣٠ كان الموضوع قد انتهى تماما.

ثم تمر فترة فراغ مدتها مائة سنة تقريبا فى تاريخ الصلوردية. ويصف الصلورديون المحدثون هذه الفترة بأنها فترة أخرى من النشاط الصامت لم تقبل أثناءها عضوية أحد سوى أحفاد الأعضاء النشيطين كما يزعمون رغم عدم وجود دليل على ذلك الوصف.

وأيا كان الأمر، فإن الفترة التالية للصلوردية حدثت فى القرن الثامن عشر، فشهدت تلك الفترة أحكام الطقوس والقسم ومراتب العضوية. ونُشرت مجموعتان مفصلتان من القواعد، واحدة فى عام ١٧١٠، أما الأخرى فنشرت عام ١٧٧٧ فى ألمانيا، كما وجدت الجماعة فى فرنسا وإنجلترا حيث أثرت فى تطور الماسونية ؛ وكذلك وجدت فى روسيا حتى قمعتها كاترين العظيمة.

إن أنشطة هذه الجماعة وأهدافها كما ذكرت المصادر المعاصرة كانت مسألة خرافات ومراسم، لا تحمل سوى أثر ضئيل من المُثُل التى كانت مصدر إلهام البيانات الصلوردية المبكرة. فأثناء تلك الفترة بدأ علماء الأرواح يختلقون أدلة على

عراقة الصلوردية المنظمة، وهو ميل بلغ أقصى مداه أثناء القرن التاسع عشر وما زال واضحا الآن.

ففى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، نشأ دافع قوى لدراسة الموضوعات الغريبة من مصدرين. ففى فرنسا مهدت كتابات القس كونستان الذى اشتهر باسم أليفاس ليفى الأرض لنشر ما يسمى بالجمعيات الصلوردية تحت زعامة المركيز ستانيسلاس دى جيتا وجوزيف بيلدان غريب الأطوار. وتدعم نفوذ كتاب ليفى المسمى مذهب وطقوس المجوسى الأعلى (١٨١٦) فى العالم الناطق بالإنجليزية بنشر مدام بلافاتسكى «إيزيس بلا حجاب والمذهب السرى»، بعد تأسيس الجمعية الثيوسوفية أو جمعية محبى الحكمة عام ١٨٧٥.

ويمكن شرح جاذبية حركة محبة الله والجمعيات الصلوردية فى تلك الفترة جزئيا عن طريق ما قاموا به من مزج قوى للمتناقضات الكامنة فى تعاليمهما. فبينما رفضوا الإلحاد، كانوا أيضا معادين للكنيسة، وبذلك قدموا قناة للتطلعات الدينية لأناس شعروا بالسخط حيال تعاليم الكنيسة المحافظة، وكذلك احتجوا على المادية الصماء التى يتسم بها العالم الحديث، ومع ذلك فقد بذلوا جهدا جهيدا لكى يستخدموا هم أنفسهم لغة علمية. فهم حملوا لجيل هزته حقائق النشوء الطبيعى الأمل فى نشوء روحى وهو أمل لم تقدمه فى السابق سوى أقليات صغيرة فى الغرب.

وكانت أولى الجمعيات الصلوردية الحديثة الجمعية الصلوردية التى أنشئت فى أنجليا عام ١٨٦٥. وكانت هذه الجمعية وليدة الماسونية، حيث اقتصرت عضويتها على زعماء الماسونية؛ وكان هدفها المقرر هو تقديم الدعم والتشجيع المتبادلين فى فهم مسائل الحياة الكبرى، واجتلاء أسرار الطبيعة؛ لتيسير دراسة المنهج الفلسفى المبنى على القبالاه وعلى مذاهب هيرميز تريسميجيستوس.

كما كان الأعضاء معنيين بدراسة الأدوية واستخدامها وصناعتها على الأسس القديمة. وكذلك قاموا بتعليم وممارسة الآثار العلاجية للضوء الملون، وقاموا بتنمية عمليات عقلية يُعتقد أنها تؤدى إلى استنارة الروح وتزيد قوة حواس الإنسان وبخاصة فى اتجاه الشفافية والشفافية السمعية.

ومن بين زعماء الجمعية، كان هناك طبيب القلب بلندن وين ويسكوت، الذى أصبح مجوسها الأعلى الثالث فى عام ١٨٩١، وكذلك أمين المتحف مكجريجر ماذرز الذى كان أحد مترجمى الزوهار. وفى عام ١٨٨٧ وقعت فى يد ويسكوت مجموعة من الأوراق تحتوى على تعليمات وطقوس سحرية ومذاهب قبالية. ولمتابعة هذه الدراسات، افتتح معبد إيزيس، وأسس جمعية جديدة، هى الجماعة الهيرميزية للفجر الذهبى. ولم تكن هناك علاقة بين الفجر الذهبى والماسونية، وكانت مفتوحة لقبول الرجال والنساء. بل كانت لها صلات وبعض التداخل فى العضوية مع جمعية حكمة الله. فلقد اعتمدت مدام بلافاتسكى فى الواقع على نفس مصادر الحكمة القديمة كما فعل الصلوردیون، بينما اعتقدت السيدة آنى بيسانت، تلميذتها، بأن فرانسيس بيكون وكونت سان جيرمان إن هما إلا تجسيدان للصليب الوردى المسيحى.

وكانت نقطة الخلاف هى دراسة السحر الذى يعارضه الثيوسوفيون. وتمتعت جمعية الفجر الذهبى بجاذبية قوية فى أوساط الفنانين والشعراء وبخاصة الأيرلنديون منهم؛ فمن بين أعضائها، كان هناك الشاعر و. ب. ييتس (الذى طردته الجمعية الثيوسوفية بسبب ممارسته السحر) وجورج رسل والوطنى الأيرلندى مود جون وكذلك المخرجة المسرحية آنى هورنيمان والكاتب الروائى أولجرنون بلاكوود. أما من قام بتوثيق الصلة بين هذه الجمعية والأيرلنديين، فهو ماذرز الذى كان شديد الحماسة للتراث الكلتى.

وتُعد القبالاه أساس تعليم الفجر الذهبى. وكان على العضو الجديد أن يمر بدرجات الزيلسور أو التفكير ثم النظرية والعمل والفلسفة إلى مرتبة ولوج الباب التى تعده لتلقى النور. وبعد ذلك تأتى مرتبة المهارة الصغرى، التى تنعقد فيها الصلة بين المرشح لعضوية الجمعية والعبقرى المسئول عنه. وهذه الطريقة لدخول العضوية التى كانت تتم فى غرفة سباعية الجوانب على غرار قبر الصليب الوردى الأسطورى هى التى يكتمل فيها تدريب الجماعة من الخارج. أما الماهر فكان يتقدم إلى الجماعة الداخلية، وإلى سلسلة من الألقاب التى تثير الرعب. وكان على الأعضاء أن يقسموا الكثير من الأيمان على اتباع السرية، غير أن فكرة ما عن المراسم السحرية والتجارب التى كانت تؤدى داخل المعبد قد تسربت إلى العامة.

ففى عام ١٨٩٧ ، اضطر د. ويسكوت إلى الاستقالة لأن أنشطة كتلك اعتبرت منافية لمنصبه كطبيب. وعندئذ عين ماذرز نفسه مجوسا أعلى للجماعة ، إذعانا (كما زعم) لتعليمات تلقاها من رؤسائه السريين وهم ثلاثة ، ظهروا له فى غابة بولونيا ، وأثار حفيظة الأعضاء الآخرين ، بطلبه قسما موقعا بالولاء وطرد أولئك الذين لم يذعنوا بطريقة متهورة إلى حد ما ، إذ إن إحدى هؤلاء ، وهى الآنسة هورنيمان التى كانت توفر له دخلا لم تنج من تصرفاته .

وثار صراع آخر حول عضو محتمل يسمى أليستر كرولى ، الذى سيصبح فيما بعد سيئ السيرة إذ جعل نفسه بافومت أو الوحش العظيم . لقد قدم ماذرز كرولى للجماعة وسرعان ما رقاه إلى مرتبة الماهر الأصغر وهى مرتبة رفيعة رغم معارضة الأعضاء الآخرين .

وبعد نزاع آخر ، صوتت الجماعة وطردت ماذرز ، الذى التجأ إلى باريس واقتص منهم بأن أرسل أليستر كرولى إلى لندن لتولى المعبد ، وهو ما أدى إلى شقاق علنى ، ثم تلا ذلك نزاع بين ماذرز وكرولى الذى انهمك فى حرب سحرية ، فاستعان ماذرز بخدمات إحدى الساحرات لتدمير ربيبه السابق ؛ ولكن كرولى يروى بنشوة أنه مزقها بما تشيعه من شر .

لقد انهمكت الجماعة فى سنواتها الأولى فى الدراسة الفلسفية الجادة بالإضافة إلى ممارسة السحر ، غير أن الإسراف فى السحر هو الذى أصبحت له السيادة ، كما أن المنازعات أضعفت الجماعة . ومما عجل بانهيارها محاكمة السيدة روز هوروس ، عام ١٩٠١ ، وهى من اكتشافات ماذرز التى أدينت بممارسة أنشطة غير أخلاقية ووضعت فى السجن لمدة سبع سنوات ، فترك المفكرون الجماعة واحدا تلو الآخر ؛ أما ييتس فقد ظل عضوا حتى عام ١٩٠٩ .

وأثناء ذلك ، شكل ليفى جماعة صلوردية أخرى ، وهو شخصية محل توقير لدى الفجر الذهبى ، كما كان له نفوذ قوى على ماذرز أثناء الفترة التى قضاها فى باريس . وهى الجماعة القبالية للصليب الوردى التى تأسست عام ١٨٨٩ .

وكانت الجمعية مقامة خصيصا للتمرد على الماسونية ، التى فقدت من وجهة نظرها كل معنى روحى وفلسفى ، وسيطر عليها الأنجلوسكسون البروتستانت .

وبغض النظر عن أصولها اللوثرية، أدخلت الجمعيات الصلوردية منذ فترة طويلة الكاثوليك كأعضاء، كما تبين قواعد عام ١٧١٠ .

أما الآن، فإن ليفى وأصدقاءه قد أكدوا ضرورة أن تكون الجماعات قاصرة على الكاثوليك. وعلى أى حال، فإن تاريخ الجماعة الفرنسية سار على نهج الجماعة البريطانية نفسه. ذلك أن دراسة الهيرميزية والقبالية قد غرقت فى خضم المنافسات الشخصية والفضائح العامة، ثم حدث انشقاق إلى جماعتين متنافستين، وعمليات طرد أمر بها جوزيف بالادان أحد الأعضاء المؤسسين، ومن الواضح أنه المقابل الفرنسى لماذرز.

ويسجل أن شطرا من الجماعة كان ما يزال فى حيز الوجود عند اندلاع الحرب العالمية الثانية. وانتقلت الصلوردية إلى أمريكا عموما من هذا الفرع المتبقى من الشجرة القديمة. (أو يستطيع المرء أن يقول بعثت، لأن الجماعات الصلوردية كانت معروفة هناك منذ القرن الثامن عشر). ذلك أن د. سبنسر لويس، وهو من رجال الإعلانات فى نيويورك ومن المنظمين البارزين، انضم إلى جماعة بلادان فى باريس عام ١٩٠٩ .

وفى عام ١٩١٥ أسس جماعة فى الولايات المتحدة، وهى الجماعة الصوفية للصليب الوردى، التى تدعى اليوم لنفسها الحق فى أن تطلق على نفسها التنظيم الصلوردى الحقيقى المعتمد. ويقع مقرها الرئيس ومعبدها فى سان خوزى كاليفورنيا فى مجموعة واسعة من المبانى تشتمل على متحف شرقى مصرى وقاعة فنون، وجامعة للصليب الوردى، ومتحف للعلوم، ومتحف نباتات ومكتبة أبحاث.

وتم التخلى عن فكرة الاقتصار على عضوية صغيرة منتقاة، إذ إن أمروك - وهو اسم الجمعية - بها ٦٠٠٠٠ عضو فى أمريكا وحدها، بالإضافة إلى أقسام فى فرنسا وبريطانيا وألمانيا وسويسرا وإفريقيا.

ويلاحظ على مطبوعاتها الضحالة المميزة للعديد من الأجهزة الأمريكية التى كرست نفسها لتحسين الذات، وبذلك قامت بتبسيط أنواع الدين والفلسفة. فهى

سرية فقط، بمعنى أنها ليست عرضة للنظر فى أمرها أو نقدها، حيث لا يتمكن غير الأعضاء من ذلك.

وتدعو «أمروك» الناس إلى عضويتها عن طريق الإعلان فى الصحف، وأولئك الذين يردون على إعلاناتها يتسلمون نشرة تمهيدية يقصد بها (حسب ألفاظ ملحوظاتها النهائية) التوزيع الحريص الحصيف فقط بين من يبدو أنهم جديرون بدخول الجماعة. وليس المنشور معروضا للبيع فى أكشاك الكتب أو المكتبات لأنه فى الواقع مصمم ليصل إلى يد من عبروا عن اهتمامهم، وأخذوا بزمام المبادرة. ونبرته حميمة وشخصية، وهو لا يخاطب المتعلمين أو العظماء، ولكنه موجه للإنسان الذى لديه (كما يقترح المنشور) ساعة أو ساعتان أسبوعيا يكرسها للصلوردية.

ويوعد القارئ بأن تتاح له فرصة تشكيل حياته، ويدعى لكى يكون عضوا طالبا عن طريق دفع مصروفات لمكتبه الإقليمى. كما يؤكد له أن التعاليم فى متناول أى شخص قادر على قراءة صحيفته اليومية وفهمها. وشتان بين هذا وبين الحكمة النادرة التى تحدث عنها كتاب التراث.

وليس هدف هذه التعاليم إصلاح العالم بقدر ما هو جعل المرء يقوم بوظيفته بكفاءة فى العالم كما هو. ويشهد أحد وكلاء البيع فى إحدى النشرات بأن تطبيق مبادئ الصلوردية قد مكنه من أن يتخلص من كلمة لا فى عبارة «لا أستطيع». وينبغى على المتقدمين لطلب العضوية أن يعلنوا إيمانهم بكائن أعلى أو عقل، إلا أنهم ليسوا فى حاجة لأن يعلنوا أنهم مسيحيون. وهم يشجعون على حضور اجتماع المجمع، ولكن من الممكن أن يقصروا جهودهم على فهم الدروس فهما خاصا، يمكنهم من خلالها أن يتقدموا على درجات من مبتدئ إلى ماهر.

إن طقس المرتبة الأولى مشابه جدا، كما يمكن للمرء أن يتوقع بالنظر إلى مصدره فى القرنين الثامن والتاسع عشر، للدرجة الثالثة أو درجة البناء الأكبر فى الماسونية. وتشمل الدروس نفسها ألغاز الزمان والمكان؛ والوعى الإنسانى وطبيعة المادة واكتمال الجسد الطبيعى وأثر الضوء واللون والصوت فى العقل والجسد، وكذلك

الفلسفات القديمة، وتنمية الإرادة والانفعالات والغرائز الإنسانية وظواهر الحدس.

ومن الواضح أن هذه الموضوعات مرتبطة باهتمام الجمعيات الصلوردية فى القرن التاسع عشر، إلا أن من الأصعب علينا كشف علاقاتها بالأفكار الكامنة وراء البيانات الصلوردية الأصلية ما لم تكن هذه العلاقات كامنة فى المزج المتناقض بين السحر والصوفية، ذلك المزج الذى يميز الصلوردية. فالكيمياء على سبيل المثال، تفهم بمعناها الرمزى كأنموذج لتطور الروح؛ ومع ذلك ففى يونية عام ١٦١٩ قدم د. سبنسر لويس عرضا للكيمياء العملية فى نيويورك (حسب التقارير الصلوردية) وحول قطعة من الزنك إلى ذهب، بعد ١٦ دقيقة ركز أثناءها تركيزا عقليا شديدا.

وكما رأينا، فإن انقطاع تسلسل تاريخ الصلوردية لا يعنى شيئا بالنسبة للصلورديين، لأنهم يتعلمون أن فترات الانقطاع أمر حتمى، وقد يجادل الصلوردى على نحو أكثر إقناعا، قائلا إن التاريخ الحقيقى ليس تاريخ مؤسسة وإنما تاريخ نسق معرفى.

أما المراقب الخارجى، فيجد أن التاريخ الصلوردى غامض ومتقطع، ويصعب تحديد مكانه فى تطور الفكر والفعل الإنسانى. ولم تكن جاذبيتها كبيرة؛ إذ لم تجتذب أيا من عقول ذلك الوقت البارزة سوى مرتين: فى أصلها المفترض فى ألمانيا. وحين انضم ييتس وجماعته من الأصدقاء إلى الفجر الذهبى كان أثر هذه الجماعة فى الأحداث السياسية والاجتماعية أكثر ضآلة، ولم يكد العالم يتأثر بوجودها ناهيك عن أن يكون قد حدث به أى إصلاح. ويظل السؤال مطروحا للمناقشة حول ما إذا كان طلبتها قد حصلوا على المزيد من المعرفة أو الهراء، وعند مقارنتها بغيرها من الجمعيات السرية يمكننا القول على الأقل إن جماعة الصليب الوردى لم تسبب أى ضرر.

الماسونيـــة
مرڤين چونز

ظهرت الماسونية كمؤسسة للمرة الأولى فى القرن السابع عشر فى إنجلترا، وحازت نفوذا واسعا يبعث على الدهشة فى أوربا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكذلك فى الولايات المتحدة، وأصبحت تركيبتها أنموذجا للعديد من المجموعات السرية.

وبرغم أن الماسونية لم تكن بأى حال من الأحوال أقدم جمعيات الأخوة الطقسية، فإنها أصبحت المثال الكلاسيكى، أى الشائع التقليدى، لهذا النوع من الجمعيات، (ومازالت كذلك)، وتعتبر بصفة عامة استمرارا لروابط بناة الأحجار الإنجليز فى العصور الوسطى.

وسننظر فيما بعد فى هذا الفصل فى الأدلة التى يمكن أن تساق تأييدا لهذا الرأى. غير أن أول وأهم ما يمكن أن نلاحظه عن الماسونية ليس هو ادعاءها العراقة (وهو ادعاء شائع بين المجموعات السرية) بقدر ما هو جاذبيتها الضخمة اليوم. ففى مائة السنة الماضية، ومع التطور السريع فى التكنولوچيا وذيوع النزعة العقلانية العلمية، اختفى الكثير من جماعات الأخوة الطقسية من المجتمع الغربى. ومع ذلك، فإن الماسونية على كل ما فيها من أسطورة وطقوس مازالت مزدهرة؛ إذ يوجد قرابة ٧٥٠٠٠٠ ماسونى فى بريطانيا، وما يربو على ٤٠٠٠٠٠٠ فى الولايات المتحدة، ومايزيد على مليون آخر فى بقية أنحاء العالم.

وهذا يحتم علينا أن نسأل عن الملامح الموجودة فى هذه الجماعة بالذات، تلك الملامح التى مكنتها من أن تبقى وأن تحافظ على قوة جذبها. وللإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن ننظر فى طبيعة الأسرار التى تزعم الماسونية امتلاكها، غير أنه ينبغى

أولا أن نقرر إلى أى حد تظل الماسونية سرية، آخذين بعين الاعتبار أن جاذبيتها الجماهيرية قد تعتمد إلى حد كبير على السرية نفسها. إذا مافهمنا الماسونية على أنها علم سرى فسنجد أنها تشترك فى الكثير من سمات الجمعية السرية؛ فلها قسم بالسرية يفرض الموت على الخائن، وكلمات سر وإشارات وطقوس تروى تاريخا سريا لأصولها، كما تشمل محنة تمثيلية للموت والبعث.

غير أنه بينما تثير سريتها فضول معظم من هم خارجها، إلا أن طريقتها فى اجتذاب الأعضاء الجدد يجوز أنها تردع الأشخاص الذين لا يدفعهم إليها سوى حب الاستطلاع. فليس بمقدور أى شخص أن يصبح ماسونيا مالم يؤيده ماسونيان فى الجماعة بالفعل.

ومع ذلك، فإن الماسونيين مُلزمون بألا يكشفوا عن عضويتهم للغرباء، أو يحاولوا إقناع أحد بأن يصبح ماسونيا. بل حتى حين يجد الماسونى المتطلع للعضوية من يؤيده، وحتى إذا قدم طلبه للعضوية قد يضطر إلى الانتظار عدة أشهر قبل أن يتصل به أحد المحافل، وقد تمر عدة شهور أخرى قبل أن يعقد له مسئولو المحفل مقابلة، ويسأل السؤال المقرر: لماذا تريد أن تصبح ماسونيا؟ وإذا كان لطلبه أن يقبل يجب أن يوافق عليه جميع المسئولين الذين رآهم.

وقد تتلو ذلك فترة أطول من الانتظار قبل أن يصبح بالفعل عضوا فى الجماعة الماسونية، ذلك لأن مراسم دخول العضوية مراسم محكمة، ومعظم المحافل لا تقيم سوى عدد محدود كل عام.

وسرعان ما يعلم العضو الجديد أن الماسونية (على حد تعبيرها) نظام أخلاقى غريب يعتمد على المجاز وتوضحه الرموز. وتُستمد هذه الرموز بصفة رئيسة من حرفة بناء الحجارة الفعلية، وتلعب دورا حيويا فى الطقوس والتعاليم الماسونية. وبما أن الماسونيين لا يعملون بالبناء بالحجارة فإن أعمالا مثل تنعيم الحجر وتشكيله تفسَّر على أنها صور مجازية. وكما يشرح زعيم المحفل حين يقدم للعضو الجديد بطريقة طقسية معدات البناء ويقول: «نحن نستخدم هذه المعدات لتشكيل أخلاقنا».

ويضم حفل بداية العضوية النموذجية العديد من الملامح العتيقة. فطالب

العضوية يُجرد قبل الحفل مباشرة من سترته وياقته ورباط عنقه وكل ما يحمله من نقود أو أى آلات معدنية. (وتشرح الطقوس أن هذا يحدث حتى يتذكر العضو إذا قابل زميلا ماسونيا فى ظروف صعبة اللحظة التى استقبل فيها فى الجماعة الماسونية فقيرا معدما). وتُرفع رجل سرواله اليسرى إلى الركبة ويُفتح قميصه حتى يُعرَّى الجانب الأيسر من صدره، وتُنزع فردة حذائه اليمنى ويُستبدَل بها خُفّ. (ولا تعطى الطقوس أى شرح لهذه الممارسات). وكذلك تُعصب عيناه لإظهار حالة الظلام التى يحياها. ويُلف حبل حول رقبته.

وبعد أن يُفتتح المحفل رسميا، يقوده البواب إلى الباب الخارجى، وعند العتبة يواجهه الحرس الداخلى الذى يسدد حد خنجر إلى الصدر العارى فيسد طريقه. عندئذ يقاد حتى يَمثُل أمام الزعيم المتعبد أى المسئول الرئيس عن المحفل. ويرتل المتعبد صلاة للأب القدير والحاكم الأسمى للكون، ويوجه سلسلة من الأسئلة الطقسية إلى طالب العضوية، الذى يجب عليه أن يجيب طبقا لطريقة محددة ودون زلة لسان واحدة.

ثم يقسم الطالب ألا يكشف أو يكتب أو يقلد أو يحفر أو يشير أو يحفر على المعدن أو يصف بأى طريقة أخرى أسرار الماسونية. يفعل ذلك وهو راكع أمام منصة الزعيم المتعبد وقدمه اليمنى على شكل مربع، وطرفا بصلتين يلمسان صدره. وإذا فعل شيئا من هذا فعليه أن يقبل عقوبة قطع رقبته ويُقطع لسانه من جذره ويُدفن فى رمل البحر فى أسفل نقطة فى الماء، أو يُربط بحبل فى أقصى حد للشاطئ حيث يجذبه المد والجزر مرتين بانتظام خلال أربعة وعشرين ساعة، أو يعاقب بالعقوبة الأكثر تأثيرا وهى أن يُدمغ بأنه شاهد الزور المتعمد وبذلك يكون بلا أى قيمة أخلاقية وغير ملائم تماما لأن يُستقبل فى هذا المحفل المتعبد.

ثم يصدر الرئيس أوامر بإزالة العصابة والحبل، ويشرح للعضو الجديد مغزى التجارب التى كابدها توا، ويعطيه الخطوة والإشارة والقبضة وكلمة دخول ماسونى صبى تحت التمرين: أى خطوة قصيرة بالقدم اليسرى واضعا الكعب الأيمن فى التجويف الناتج، ويد تمر عبر الرقبة (وهى علامة على العقاب) وضغط بالإبهام على مفصل الإصبع الأول للشخص أثناء المصافحة.

حينئذ يتلقى العضو الجديد المريلة التى تحدد هويته، داخل المحفل كصبى أو عضو جديد تم قبوله، ويعلم أنه بهذه الصفة يرمز إلى أول حجر أساس فى بناء يمكن أن يُبنى فوقه بناء أسمى كامل فى أجزائه ومشرِّف لبانيه.

وكذلك تقدَّم أدوات العمل الخاصة بالمرتبة الأولى، وهى عبارة عن سماكة طولها أربعة وعشرين بوصة تمثل الأربعة وعشرين ساعة فى اليوم (جزء يُقضى فى الصلاة، وجزء ينفق فى العمل والترويح، وجزء فى خدمة صديق أو ماسونى زميل)، ورمح يمثل قوة الضمير؛ والأزميل يمثل مزايا التعليم، ويلى ذلك حث العضو ليس فقط على طاعة قواعد الماسونية ولكن أيضا على طاعة تعاليم الكتاب المقدس وقوانين الدولة. وبعد ذلك يقدم الرئيس المتعبد شرحا للوحة تتبع المرتبة الأولى، وهى إحدى الصور الثلاث الرمزية التى تُعرَض أمام الأعضاء الجدد.

وحين تنتهى المراسم يقال إن العضو الجديد قد اجتاز المرتبة الأولى ويمكن خلال بضعة أشهر أن يصل إلى المرتبتين (الحرفتين) الأخريين، وهما مرتبة زميل الحرفة وزعيم ماسونى.

يتوقف الكثيرون من الماسونيين عند هذه النقطة، إلا أنه توجد مراسم أخرى تسمى القوس الملكى تسمح للمتحمسين بتنويعة كبيرة من المراتب العليا، وهى مستمدة من مصادر عديدة مختلفة، تسمى بعضها مراتب الحيرة والغموض، وبعضها إحياء لتنظيمات الفروسية مثل فرسان الهيكل، وفرسان القسطنطينية.

إن الطقس القديم والمقبول، وهو نظام مكون من ٣٣ مرتبة، أكثر رفعة. هذا الطقس يشتمل على تراث من الصلوردية ومرتبة فارس البطريق والنسر، وكبير أمراء الصليب لهيردوم وتقوم طقوسه على صلب المسيح. وثمة حفلات لقبول العضوية فى هذا النظام تسبغ على الماسونى ألقابا مثل السيد الكامل وأمير القدس الحبر الأعظم ورئيس دار العبادة وآمر الهيكل والفارس المختار كادوش وكبير المفتشين والأمير الأعلى للسر الملكى.

وإذا كان معظم هذه الألقاب من خلق القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر، فإن كلمة الماسونية يرجع تاريخها على الأقل إلى القرن الرابع عشر، وقد تكون منحوتة من كلمات بناء الحجر الحر. و هذا الحجر الحر هو حجر لين كان يُستخدم

فى النحت الدقيق وأشياء مثل القناطر والنوافذ. لذا فإن بناء الحجر الحر أو الماسونى الحر كان أقرب إلى الحرفى الماهر منه إلى البنّاء العادى البسيط، الذى لا يقوم سوى بتشكيل الحجر الخشن كى يصبح كتلا سكنية.

غير أن اسم البنّاء الحر كان له مغزى آخر أيضا، وهو أن أولئك الذين يُطلق علهم هذا الاسم رجال أحرار، لا يخضعون لسيد إقطاعى أو هيئة بلدية. إذ كان يتوجب على معظم العمال فى العصور الوسطى أن ينتموا لرابطات حرفية تنظم واجباتهم وأحوالهم. ولم تكن الرابطات قومية (شأنها شأن النقابات المهنية فى أول عهدها)، إذ كانت كل منها قاصرة على مدينة من المدن يعطى عمدتها ومجلسها لتلك الرابطة ميثاقها وفى النهاية يسيطرون عليها.

وكانت العضوية تضم أصحاب الأعمال ومتلقّى الأجور (أى السادة والعمال الذى يعملون تحت إمرتهم). وفى لندن، حيث كان البناءون يُستخدمون باستمرار فى بناء مشروعات كبيرة مثل جسر لندن، كانوا ينتمون إلى تنظيم من هذا النوع، وهى فرقة بنائى لندن.

ولكن فى أماكن أخرى، كان العمل يجعلهم يعملون خارج المدن، فكانت معظم البيوت تُبنى من الخشب، وكان من يعملون فى الحجر مطلوبين من أجل بناء الكاتدرائيات والأديرة والقلاع. وعلى عكس الحائكين الذين كانوا يعملون فى وحدات منزلية صغيرة تتكون من أسطى أو رئيس واحد وحفنة من العمال الذين يعملون تحت يده، كان البناءون يُستخدمون بمجموعات كبيرة.

إلا أن الأمر الذى ميّز البنائيين عن غيرهم من العمال فى العصور الوسطى، هو أنهم كانوا متنقلين: فكان عليهم أن يكتشفوا المشروعات التى بها عمل، ويشقوا طريقهم للعمل فيها.

ويبدو أن جميع الماسونيين الأحرار كانوا ينتمون إلى جمعية قومية، رغم ندرة السجلات التى تصف مكان اجتماعها وكيفية قيامها بوظائفها. فعلى النطاق المحلى، ينظمون أنفسهم على هيئة محافل. والمحفل هو مبنى يشبه ما يمكن أن يجده المرء فى موقع بناء حديث يتناول فيه العمال وجباتهم ويستريحون. ثم أصبح

معنى الكلمة المركز الذى يضعون فيه خطط عملهم. وبذا أصبحت كلمة مجمع تعنى مجموعة من الماسونيين.

وطبقا لنظم الماسونيين فى لندن لعام ١٣٥٦، يتوجب على بنَّاء العصور الوسطى أن يبدأ حياته العملية بسبع سنوات يخضع خلالها للتعليمات، وعندها يُعد مدربًا ويُسجَّل فى الأوراق كعضو بالمحفل، ولكنه يظل مصنفا باعتباره صبيا ملحقا. وبعد ذلك بسبع سنوات، يصل إلى مكانة زميل الحرفة. وكان المسئول عن مشروع بناء يسمى رئيس البنائين.

وكما رأينا، فإن هذه الألفاظ قد استُخدمت لتصف درجات (الحرفة) الثلاث فى الماسونية الحديثة (واختفت مرتبة زميل الحرفة إلى حد ما).

وكانت لرئيس البنائين أهمية كبيرة ومهابة. ويرجع هذا بصفة رئيسة إلى أن مهنة الهندسة المعمارية لم تكن قد وجدت. فكان تصميم المبنى هو مسئولية كاتب العمال، وفى حالة بناء الكنيسة يكون قسا، أما فى حالة بناء قلاع أو قاعات فيكون مسئولا ملكيا أو إقطاعيا.

وكان الكاتب المشرف على العمل رجلا متعلما. فلقد تولى هذا المنصب مثلا الشاعر شوسر. وعلى أى حال، فإن السجلات تشير إلى أن رئيس البنائين كانت له فى غالب الأحيان يد مطلقة فى إدارة العمل، إذ كان مؤهلا فى الهندسة، التى كانت فى ذلك الوقت فى مرتبة الفنون السبعة الحرة. وكان أيضا يحتفظ بحسابات المبنى.

إن قواعد جمعية الماسونيين المعروفة بالأوامر القديمة محفوظة فى ما لا يقل عن ١٥٥ وثيقة، أقدمها مخطوطان كتبا حوالى عامى ١٣٩٠، ١٤٢٥.

وتوجد ديباجة فى المخطوطة الأكثر اكتمالا، وهى التى كتبت عام ١٤٢٥. وتسمى هذه الديباجة «إقليدس مؤسس الماسونية»، وتتتبع تاريخ الحرفة إلى بناء برج بابل وهيكل سليمان. وتزعم الوثيقة أن أول من أدخل الماسونية إلى فرنسا هو الملك شارل مارتل (الذى يقال إنه نفسه كان ماسونيا)، ثم دخلت إنجلترا حين تم الحصول على الميثاق الأول بمساعدة القديس أولبان، واستدعى الملك أذيلستان أول جمعية.

وتحوى الأوامر القديمة أيضا التزامات أخلاقية تتعلق بالأمانة وعدم شرب الخمر والتقوى والولاء للملك، وهى أمور كان الماسونيون مُلزمين بمراعاتها حفاظا على سمعتهم كجماعة.

وهذه الوثائق هى مصدر بعض من التاريخ الأسطورى والتعاليم الأخلاقية فى الماسونية الحديثة. وبرغم أن الأوامر القديمة أكدت على التزامات الماسونيين الأخلاقية، فإنها كانت فى الأساس قواعد تخص الرابطة، كما توحى المقتطفات التالية:

«ستكونون صادقين كل منكم مع الآخر، أى لكل رئيس أو زميل فى الحرفة، وتفعلون معهم كما تودون أن يفعلوا معكم. وألا يتحمل رئيس القيام بعمل لأحد السادة أو أى عمل آخر مالم ير فى نفسه القدرة والمهارة على أدائه. وأن يدفع الرئيس بأمانة وصدق لزملائه أجورهم كما تتطلب أخلاق الحرفة. ولا ينبغى لرئيس أو زميل أن يخلع آخرمن عمله، فلا يجب إبعاده عن العمل ما لم تتوافر له المهارة لإنهاء العمل.

وعلى كل ماسونى أن يستقبل الماسونيين الغرباء ويحتفى بهم حين يأتون إلى البلاد، إذ عليه أن يوفر للماسونى عملاً لمدة خمسة عشر يوما على الأقل ويعطيه أجره. وإذا لم تتوافر حجارة له فعليه عندئذ أن يزوده بالمال ليساعده فى الوصول إلى المحفل التالى».

إن جميع رابطات الحرفيين وجمعية الأخوة كانت لها أسرارها، أى طرق العمل الخاصة بها التى تخفيها عن الأغراب كى يحتفظوا لأنفسهم بنوع من حق النشر فى حرفهم. ولقد وضع هذا النظام الحرفيون جزئيا لكى يبقوا كمية العمل المحدودة فى أياد مؤهلة، كما وضعته جزئيا السلطات البلدية لمنع عبيد الأرض وغيرهم من الغرباء من أن يستبدلوا بقيود الحياة الريفية الإقطاعية الحرية النسبية المتاحة فى المدن.

وكانت كلمات السر ومراسم العضوية الجديدة هى التى تؤمن للرابطات وجمعيات الأخوة خصوصيتها. وبقى الكثير من هذه الطقوس حتى القرن التاسع عشر بعد بداية الثورة الصناعية (وسخر منها شارلز دكنز فى روايته ضغينةبارنابى)،

وكانت حتى ذلك الوقت بعض المراسم المختزلة أو الشكلية تمثل فى بعض الحرف فى السنوات الأخيرة، مثلا بين صناع البراميل ومصلحيها. وكان بناءو الحجارة فى العصور الوسطى الذين يعملون فى الريف وينضم إليهم غرباء يخاطرون مخاطرة خاصة تكمن فى أن يستغفلهم الأدعياء أو الدجالون.

وفى أواخر القرن السادس عشر أو أوائل القرن السابع عشر، يبدو أن الماسونيين الإسكتلنديين قد اخترعوا إشارات مختلفة كما فعل نظراؤهم فى الماسونية الحديثة.

ونشأت جمعيات ماسونية مشابهة فى أنحاء كثيرة من أوربا العصور الوسطى. ففى ألمانيا كان للشتينميتزين قواعدهم، ومحافلهم (باوهوتن) (وهى لفظة ألمانية معناها خاصة بالبنائين وقبضتهم السرية)، تم إنشاؤها فى القرن الثالث عشر.

وفى فرنسا، كان الكومبنيوناج أو الأصحاب لهم تنظيم متقن ينقسم إلى ثلاثة أفرع ذات طقوس للالتحاق بالعضوية. وظل الأصحاب حتى القرن التاسع عشر حين تأثروا بالماسونية الحديثة واستوعبوا حكاية هيكل سليمان ضمن أساطيرهم. غير أنهم ظلوا رابطة حرفية تسير على أساس خصوصية مهنة النقابة.

وكان هناك فرق بين رابطات الحرفية وجمعيات الأخوة التى كانت قائمة فى العصور الوسطى وشكل الماسونية التى ظهرت فى إنجلترا فى القرن السابع عشر. ويميز الماسونيون بين الشكلين بأن يصفوا الأولى بأنها ماسونية عاملة أو عملية، والثانية بأنها ماسونية تأملية.

إن أصول الماسونية التى ظهرت فى القرن السابع عشر غامضة، وبرغم أنه من الواضح أن مؤسسيها كانت لديهم معرفة بنظم بنّائى الحجارة وممارساتهم، فإنه لا يتوافر لدينا دليل على أنهم كانوا هم أنفسهم يعملون بالبناء، بل على العكس من ذلك يبدو أنه فى تلك الفترة أسّست محافل منفصلة من أجل أناس لم تكن حرفتهم البناء أو ربما أسسوا هم أنفسهم تلك المحافل.

وفى إسكتلندا قد يُسمح لأشخاص كهؤلاء أن يلتحقوا بالمحافل النظامية كأعضاء حرف؛ وذلك كقبول عضو شرف فى محفل أدنبرة يرجع تاريخه إلى عام ١٦٠٠ حسب ما تشير السجلات.

وانتشر هذان النوعان من الممارسة بسرعة، فبحلول عام ١٦٧٠ كان محفل أبردين يتألف من ٣ نبلاء و٣ من السادة و١٥ من حرف أخرى غير البناء بالحجر و١٠ فقط ممن يعملون بالبناء. عموما فإن أهم معلم فى تاريخ الماسونية الحديثة هو تأسيس فرقة ماسونيى لندن جهازا موازيا يسمى (التقبل) حوالى عام ١٦١٩.

ذلك أن هذا التنظيم قد أنشئ لقبول أعضاء ليست مهنتهم البناء بالحجر، وعُرفوا باسم الماسونيين المقبولين أو الماسونيين السادة، ولم ينتموا إلى الفرقة بمعناها المعروف، برغم أنهم كانوا يدفعون ضعف المصروفات الاعتيادية للالتحاق بالعضوية، ولا شك فى أنهم ساعدوا على تكوين الصندوق.

ومن غير الواضح على الإطلاق تلك الدوافع التى حفزت أناسا ليسوا من البنائين أن ينضموا إلى جمعيات على غرار محافل الماسونيين، ولكن يمكننا أن نجازف بأن نخمن أن السرية نفسها كانت سببا رئيسا لجذبهم.

وقد يكون الكثيرون مدفوعين بروح مشابهة لتلك التى ولدت الصلوردية، ألا وهى القناعة بأنهم قد يتمكنون من الوصول إلى حكمة خفية، إذ كان هذا هو الدافع الذى تعاهد عليه شاعرمن ويلز هو جوردون أوين وعالم الآثار ويليام ستوكلى، الذى اعترف بأن الفضول هو الذى حدا به إلى طلب عضوية الماسونية لطقوسها السرية، ذلك أنه اشتبه فى أنها قد تكون من بقايا طقوس الأقدمين السرية.

وثمة عامل آخر أشار اليه كل من دوجلاس نول و ج. ب. جونز فى كتابهما تكوين الماسونية. ذلك الدافع ربما كان تنامى اهتمام الهواة المتزايد بالهندسة المعمارية والآثار، إذ نما هذا الذوق لدى من كانوا على درجة من الثراء تكفى لأن يقوموا بجولة كبيرة فى أوربا، فعاد العديد من هؤلاء السادة الرحالة وهم يشعرون بعاطفة قوية نحو الهندسة المعمارية البالادية ورغبة جامحة فى أن يروا تصاميمهم وهى تنفَّذ.

وتجد هذه الدوافع نموذجا حيا لها فى حالة إلياس أشمول (١٦١٧-١٦٩٢)، وهو مؤسس المتحف الأشمولى فى أوكسفورد، والذى أصبح ماسونيا عام ١٦٤٦. وكعالم آثار، كان أشمول مهتما اهتماما قويا بعمارة العصور الوسطى، وجمع مادة للعمل فى دراسة لقلعة وندسور، كما استغرقته دراسة الكيمياء

والقبالاه. وكذلك كان لديه اهتمام عميق بالصلوردية وهو ما أدى ببعض الدارسين إلى أن يفترضوا أنه مسئول عن إدخال الرمزية الصلوردية ودرجة الصليب الوردى فى الماسونية، برغم أن سجلات المحفل تشير إلى أنه لم يكن كثير التردد عليه.

وفى الوقت نفسه كان لمهنة الهندسة وجود رسمى، وبعد ذلك فى نفس الوقت أصبح كثير من المعماريين أيضا ماسونيين، سيرا على نهج سير كريستوفر رن (١٦٣٢-١٧٢٣). ولكن مع مقدم عام ١٧٣٥، كانت الماسونية الحديثة أو التأملية فى أوج قوتها، ولابد أن الأعضاء المتصلين بالمعمار أو البناء قد تم التفوق عليهم عدديا من جانب الماسونية المتأملة. لذا نُصَّ فى كتاب الجيب للماسونية على «ألا يصل رجل إلى درجة رفيعة فى الماسونية ما لم تتوافر لديه على الأقل معرفة قوية بالهندسة والمعمار، وأنه مالم تتبع العلوم فى المحافل فما هو ذلك الشيء الذى يمكن أن يحل محلها»؟

وتوحى هذه العبارة التوبيخية بأن الكثير من الأعضاء الجدد قد التحقوا بالمحفل لأنهم اعتقدوا أنه ناد جيد، ومع ذلك لا بد أن معظم وقتهم كان يُنفَق فى مناقشات تأملية جادة، لأن السنوات التالية حتى ذلك الوقت شهدت تطور رمزية الماسونية لأول مرة، وكذلك اكتسبت العدد والأساليب المستخدمة فى حرفة البناء مغزى أخلاقيا دقيقا.

وهكذا فإن الحجر المربع الخشن، وهو جزء من أساس كل محفل ماسونى، يقال إنه يمثل الإنسان فى طفولته أو حالة البدائية التى يكون فيها فظا غير مصقول؛ أما الحجر الأملس المكتمل المربع، فهو يمثل الإنسان بعد أن تتوالى عليه السنون، بعد أن يقضى حياته بانتظام فى القيام بأعمال التقوى والفضيلة التى لا يمكن اختبارها وقبولها إلا باكتمال كلمة الله وإحاطتها بضميره المقنع لذاته.

وإذا ما توسعنا فى مغزى هذه المقارنة أبعد من ذلك وبتشبيهها بكلمات المسيح: «ألا تعلمون أنكم هيكل الرب»، فإن الهيكل يؤخذ على تمثيل الإنسان المكتمل.

لقد كتب جون بانيان كتابا اسمه هيكل سليمان وقد صار روحيا سنة ١٦٨٨ عقد فيه مجازا مشابها مستخدما إجراءات البناء لكى يوضح عملية النمو الروحى. ومع

أنه كـان لهـذا الشكل الرمزى مذاق من الكتاب المقـدس، إلا أنه لم يكن مسيحيا خالصا. ذلك أنه بعد جذوة العاطفة الدينية فى القرن السابق، أصبح مزاج الناس يفضل رفض الأفكار المذهبية الجامدة ويتسامح مع أى اعتقاد شخصى لا يستبعد وجود كائن أعلى.

لذا انتشرت عقيدة معرفة الله عن طريق خلقه بين المتعلمين والطبقات الأكثر ثراء وهى الطبقات التى استمدت منها الماسونية أعضاءها، وهى عقيدة توفيقية تؤمن بالله بغض النظر عن أى مذهب لاهوتى، وظل الحال على هذا النحو حتى ظهرت ضرورة لعقيدة مسيحية أكثر تحفظا من الناحية الاجتماعية فى القرن التاسع عشر.

وانعكس هذا التسامح الدينى فى الكتاب الماسونى الأول عن الدساتير (١٧٢٢-١٧٢٣) الذى نص على أن الماسونى بإمكانه أن ينتمى لأى طائفة دينية، ولكن ليس فى مقدور الماسونيين أن يكونوا ملحدين.

وكان يعتقد أن من اللازم فقط اتباعهم لتلك الديانة التى يتفق عليها جميع الناس، تاركين لهم الحرية فى اعتناق آرائهم الخاصة. لقد وضع الدساتير قس من كنيسة إسكتلندا هو د. جيمز أندرسون (١٦٨٤-١٧٣٩)، وكانت تشتمل على طبعة أكثر إحكاما من الأوامر القديمة، وهى الوثائق التى حددت للمرة الأولى أنماط الطقوس الماسونية ورمزيتها.

ولقد أُعدت بناء على طلب المحفل المتحد الجديد الكبير الذى تشكل عام ١٧١٧ باتحاد أربعَة من محافل لندن التى وجدت أخطاء فى جميع الدساتير الغوطية. وسرعان ما اتسعت سلطة المحفل الكبير فى كل أنحاء إنجلترا (أما إسكتلندا وأيرلندا فكان لهما محافلهما الخاصة بهما). كما انتشرت تلك السلطة إلى محافل موجودة فى المستعمرات.

ويعد تشكيل هذا المحفل وكذلك نشر دساتير أندرسون هما نقطة البداية للماسونية الحديثة، ويرجع إلى هذا الوقت تقريبا كل من حكاية هيرام أبيف (الذى يوصف بأنه كان كبير بنائى الملك سليمان)، وكذلك البناء الهرمى للماسونية الذى يتربع فيه رئيس كبير على قمة الهرم، ورؤساء كبار إقليميون فى كل منطقة.

وعلى أى حال، فقد واجهت دساتير أندرسون معارضة مريرة من محافل

موجودة اعترض أعضاؤها على القواعد والمراسم المنصوص عليها فى الشكل المراجع .

وفى عام ١٧٥١ ، شكل هؤلاء المنشقون الذين عُرفوا بالقدماء محفلا كبيرا منافسا ، له رئيسه الأعظم ويعمل تحت المؤسسات القديمة . ولم يُعترف بالقدماء فى إنجلترا ، غير أن محافل إسكتلندا وأيرلندا الكبرى لم تعترف بهم فحسب بل كانت تحبذهم . ولم يلتئم الشمل مرة أخرى حتى عام ١٨١٣ عن طريق اتفاقية عقدها الرئيسان الكبيران المتنافسان فيما بينهما ، وهما (دوق ساسيكس ودوق كنت أخوا جورج الرابع)، وكان الاتفاق أن يسوى أستاذ فن طقوس الماسونية النقاط التأملية المطروحة ، إلا أن الأميرين لم يعينا أستاذا قط .

ومع كل هذا الشقاق ، فلقد شهد القرن الثامن عشر نموا ضخما للماسونية . وحسب ماكتب دوق مونتاجيو (الذى كان رئيسا كبيرا فى عام ١٧٢١) فى سيرته الذاتية : لقد صارت أمرا علنيا بل أصبحت علنية أكثر منها سرية ؛ فلمدة ما اعتاد الماسونيون أن يجوبوا الشوارع فى استعراضات مرة كل عام فى لندن وهم يرتدون الزى الخاص بهم .

ومازالت الماسونية ذات احترام كبير لأنها اجتذبت معظم البلدان البروتستانتية : وكان أول رؤساء كبار فى إنجلترا هم أحد السادة وأحد موظفى الدولة وأحد العلماء ؛ أما الرابع فكان أحد الدوقات . ومنذ ذلك الوقت أصبح الرئيس من بين أعضاء العائلة المالكة ، وكان أرفعهم مرتبة هو أمير ويلز (الملك إدوارد السابع) ودوق يورك (الملك جورج السادس) . وبناء على تعاليم الماسونية ، فإن المحافل الإنجليزية كانت تبتعد عن الجدل الدينى والسياسى ، وتؤيد الفكر المحافظ دينيا السائد فى ذلك الوقت ، وهو الحكم الملكى تحت العائلة الهانوفارية والدستور النيابى ، وكذلك التسامح فى ظل الحماية السلبية لكنيسة إنجلترا .

أما فى قارة أوربا فلقد كان تاريخ الماسونية أكثر اضطرابا إلى حد بعيد ، كما كان موضع جدل وتعقيدات . فبعد إنشاء الماسونية التأملية عام ١٧١٧ ، عبرت القناة فورا وأسست جماعة من النبلاء والأشخاص العاديين الإنجليز الذين يقيمون فى باريس محفلا .

إلا أن فكرة التسامح الأساسية عند الماسونيين كانت بالتأكيد فكرة انقلابية وخطرة في أعين أسرة بوربون وغيرهم من الملوك الذين يحكمون حكما مطلقا . لذا أصدر لويس الرابع عشر فتوى عام ١٧٣٧ تحظر على كل الرعية التي تدين بالولاء له أن تكون لها علاقة من أي نوع كان بالماسونية .

وفي العقود التالية كانت أعمال القمع متقطعة ؛ فغالبا ما كانت المحافل تجتمع بحرية ، ولكن الشرطة كانت تشن غارات عليهم على فترات ، وكان الماسونيون يوضعون في السجون . كما واجهت الماسونية معارضة مشابهة في إسبانيا ، وفي مملكة نابولي وفي غير ذلك من الأماكن .

أما في ألمانيا والنمسا ، فقد كان هناك ملوك يتعاطفون مع روح التسامح ودراسة الفلسفة ، فنظروا بعين الرضا إلى المحافل الناشئة . وكان فريدريك (١٧٤٠-١٧٨٦) مسئولا إلى حد كبير عن إدخال الماسونية إلى بروسيا (ألمانيا) ، وكان هو نفسه رئيسا أعظم ، بينما كان حكام ولايات ألمانية أخرى مختلفة وإمبراطور النمسا فرانسيس الأول أيضا ماسونيين .

وقد كان هناك إيحاء بأن موزار - الذي كان ماسونيا متقد الحماسة - ألمح إلى هذا الوضع في أوبراه الناي السحري (١٧٩١) وبخاصة إلى الحماية التي أسبغها الإمبراطور جوزيف المتحرر الثاني على الماسونيين وكراهية الإمبراطورة مارية لذلك الوضع .

وهناك بلبلة حول قصة الماسونية في القرن الثامن عشر بسبب تأثير واختراق العديد من المدارس الفكرية والقوى السياسية والدينية للمحافل . ومما سبب أكبر درجة من الاضطراب تعاقب عدد من الصوفيين يصعب على المرء التمييز بينهم ممن يتحلون بالعقيدة الصادقة والعلم من غيرهم من الأدعياء العصابيين وأخيرا المشعوذين والنصابين .

وبحلول هذا الوقت ، كانت الماسونية قد استوعبت شيئا من التراث الهيرميزي القبالي وبدأت تربط نفسها بعبادات الطقوس السرية المصرية القديمة . وخير تعبير لها عن توقيرها للديانات المصرية يوجد في الناي السحري لموزار ، إذ فيها يتطابق التراث الماسوني مع التراث المصري ، وتشق الأرواح طريقها نحو الخلاص من خلال طقوس إيزيس وأوزيريس السرية .

وبينما تبنت بعض المحافل الصوفية الصلوردية ، تبنت محافل أخرى السحر الصلوردى ، وكرس أعضاؤها جهدهم للكيمياء العملية ، متبعين فى ذلك جوهانو أخريفر من نيورمبيرج الذى زعم أنه استطاع أن يصنع الذهب ويستحضر الأرواح .

وتم إحراز نجاح ساحق فى ألمانيا وروسيا وفرنسا بصفة خاصة حيث وُجد كجليوسترو (١٧٤٣ - ١٧٩٥) الذى لم تكن هناك حدود لادعاءاته : فقد زعم القدرة على صناعة الذهب والقيام بعلاجات معجزة وإطالة مدة الفحولة الجنسية والسيطرة على الأرواح ومد العمر حتى يصل إلى ٥٥٥٧ سنة .

وخلق كجليوسترو طرازه الخاص من الماسونية المصرية ، وهو الذى سيطر على محفل ليون ، وشمل هذا الطراز محافل نسائية كانت تحت رئاسة (من سميت بملكة سبا) . كذلك فإن الاختراع الذى جلبته جميع هذه المؤثرات نتج عنه إضافة المراتب العليا التى لم تكن موجودة فى ماسونية العصور الوسطى ، كما لم تكن موجودة فى دساتير أندرسون .

واشتملت هذه المراتب - كما ذكرنا - على مراتب الصليب الوردى معيدة للأذهان عبادات الطقوس السرية القديمة ، كما أحيت جماعات دينية فروسية . وكذلك كانت سببا فى وقوع انشقاق ومنازعات بين الماسونيين ، وبخاصة فى فرنسا حيث يوجد مركزان متنافسان من مراكز السلطة : الشرق العظيم الذى كان محبذا للمراتب العليا ، والمحفل الأعظم الذى لم يكن يفضل تلك المراتب .

وتم لمّ للشمل يشوبه القلق عام ١٧٧٣ تحت الرئاسة العظمى لدوق أورليان (١٧٤٧ -١٧٩٣) الذى تخلى بعد ذلك عن لقبه ولعب دورا كبيرا فى لم الشمل الفرنسى تحت اسم فيليب إيجاليت أو محب المساواة .

وكان للمنفيين الإسكتلنديين اليعاقبة الذين كانوا يعيشون فى فرنسا نفوذا مهما على المحافل الفرنسية وبخاصة أحد الإسكتلنديين يسمى ميكل رمازى (الفارس رمازى ، كما كان يطلق على نفسه) . ومن الواضح أن هدفه كان الحصول على التعاطف والمال من الماسونيين لإعادة أسرة إستيوارت للحكم . وكانت وسيلته لتحقيق ذلك تشكيل جماعات داخل الماسونيين عن طريق تجنيدهم للطقوس الإسكتلندية التى ربما كان هو مخترعها .

كان رمازى نفسه من كليوينينج ، وزعم أن محفل تلك المقاطعة أقدم المحافل فى تاريخ الماسونية وأن هذا المحفل كانت تربطه دائما علاقة بفرسان مالطا . وبرغم أن هذا كان محض خيال ، وأن نظام المراتب الجديد كان له قليل من الأتباع فى إسكتلندا فإنه أصبح شائعا فى أوربا .

وأيدت الفاتيكان قضية اليعاقبة ، وكان اليسوعيون متلهفين على مساعدتهم أى اليعاقبة بصفة خاصة . وأدى هذا إلى تحالف بين اليسوعيين والماسونيين أو على الأقل الماسونيين الإسكتلنديين ، غير أننا (لانستطيع أن نجزم بمدى اتساعه أو درجة رسميته) .

وعلى أى حال ، فقد تخلى جيمس إستيوارت المطالب القديم بالعرش عن رمازى ووصفه فى أحد خطاباته بأنه مجنون . ووجد أن المحافل القائمة فى روما وفلورنسا التى كانت تتكون من اليعاقبة المنفيين ، تضم عملاء من لندن بالإضافة إلى مفكرين أحرار إيطاليين وينسيين ، وبعض الشخصيات من سيئى السمعة . لذا ففى عام ١٧٣٨ ، أصدر البابا كليمنت الحادى عشر مرسوما يمنع الكاثوليك من أن ينضموا أو يؤيدوا الماسونيين وإلا عرضوا أنفسهم للحرمان الكنسى أو التكفير .

وكانت الحجة الرئيسة التى استخدمها هى أن الماسونيين لا بد أن لديهم شيئا يخفونه ، ذلك لأنهم مجبرون على حجب الأسرار حتى عن الكنيسة . وكتب قائلا : إنهم إذا كانوا لا يفعلون شيئا شريرا لم يكونوا ليكرهوا النور على هذا النحو . وخرج باستنتاج مؤداه أنهم حقراء ومنحرفون وخطرون على سلامة النفوس ، وبالتالى فإنهم يشتبه فيهم بشدة بكونهم هراطقة .

وكانت هناك عبارات فى المرسوم تعد عادية ، كالقول بأن الماسونية خطر على الأمن ، وأنها تزعزع سلام الدولة الزمنية ، كما كانت هناك إشارة إلى دوافع عادلة ومعقولة معروفة لدينا . إذ بما أن البابا فى تلك الفترة كان أكثر اهتماما بالسلطة الأرضية من السلطة الروحية إذن هناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن هذا المرسوم البابوى كان ذا دافع روحى فى المحل الأول .

وهناك مسألة ستظل موضع جدل ، وهى تدور حول ما إذا كان قد قصد بهذا

المرسوم إذاعة ماقاله كاردينال كورسيني، الذى كان من رعاة هذا المرسوم، من أنه أخبر دوق توسكانى أن الماسونية قد تكونت فى إنجلترا على سبيل التسلية أو كخروج مهذب عن المألوف، ولكنها تدهورت فى إيطاليا وأصبحت مدرسة للإلحاد، واستقبل مرسوم كليمنت فى البرتغال وإسبانيا حيث حوكم الماسونيون بواسطة محاكم التفتيش وسُجنوا فى بولندا.

وتم تجاهلها فى غير ذلك من البلاد، وأكد هذا المرسوم البابا التالى، أى البابا بنديكت الرابع عشر، الذى كتب أن ملك الصقليين كان يريد أن يفعل شيئا ما بالنسبة لهم (يقصد الماسونيين) إلا أن وزراءه وهم أعضاء فى الطائفة سيضيفون تكاسلهم إلى تردد الأمير المعتاد.

ولقد رأينا أن حرية البحث والتسامح كانا العلامتين اللتين تميزان الماسونية التأملية، كما رأينا أن جميع الجمعيات التى تتصف بهذا الطابع تعد موضع شبهة من جانب السلطات حتما فى بلاد مثل فرنسا حيث كان الناس يشجعون على التفكير فى ضوء الخطوط التى يوافق عليها الملك والكنيسة المستقرة، فبمجرد أن يصبح الناس ماسونيين يبدو أنهم يضعون أنفسهم فى مواجهة كل من الكنيسة والدولة.

لقد كرس الماسونيون أنفسهم أصلا لنشر المعرفة بأوسع معانيها، وكذلك للمناقشة التى تختبر العقيدة الرسمية الجامدة على ضوء تلك المعرفة. وكانوا على ثقة بأن هذا الفهم والتسامح سوف يعلى شأنهم فى عقول الناس وأن العقيدة الجامدة سوف يقل شأنها فى المقابل إلى أن تُرفض فى النهاية.

وأدى بهم المنطق إلى إدراك أن أهدافهم لن يتم تبنيها ما لم تضمن حرية النقاش وانتشار المعرفة، وحين تنخفض الحواجز التى أقامتها السلطات أو تُقلب، أى فقط حين يوجد نظام اجتماعى مغاير. إن الشروط اللازمة لانتصار المعرفة هى حرية التجمع والتعبير والصحافة وإلغاء الرقابة سواء من جانب الدولة أو الكنيسة؛ حرية العبادة؛ حكم القانون فى المجتمع، وإن لم يكن فى عالم الأفكار؛ التحرر من الإعتقال التعسفى والسجن بدون محاكمة؛ وحق كل فرد فى اختيار نوع العمل الذى يقوم به ومكان سكناه، وهو ما يعنى إلغاء نظام العبودية الإقطاعى؛ ووجود قوة يتحكم الرأى العام فى سلطتها، وتكون خاضعة لمجلس نيابى.

وكان كل هذا يصل إلى حد وضع برنامج للتغيير العميق، ولمطالب لن تمنحها السلطات ما لم تُجبر على ذلك. وبالتالى، فقد ظلت الماسونية كمؤسسة والمحافل كجماعات منظمة على الحياد، فى الشئون السياسية، إلا أن الماسونيين كأفراد كانوا مضطرين إلى أن يتخذوا موقع المصلحين، والثوريين إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وكان مقدرا أن تأتى المعركة السياسية فيما بعد، إذ شن الهجوم الأول فى قطاع المعرفة التنويرية، إذا ما استخدم الاصطلاح الذى تبناه أولئك الذين التزموا بهذه المعركة.

وخطط مشروع كتابة موسوعة فرنسية يشرف على تحريرها دنى ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤) نتيجة خطة تم إحباطها وكانت تستهدف ترجمة موسوعة تشيمبرلين إلى الفرنسية. لقد كان ديدرو قوميا فى نظرته الفلسفية ومتطرفا فى السياسة والدين، وكان أيضا ماسونيا هو وعدد ممن كانوا سيقومون بالعمل، (رغم أن هذه الحقيقة موضع شك فى حالات عدة). وكتب ديدرو نفسه أقساما كبيرة من الموسوعة، وشارك بأقسام أخرى أناس كانوا يسمون فلاسفة التنوير أمثال فولتير وروسو ومونتيسكيو، ودولباش ودالمبير، وكانت الموسوعة مثلها مثل الماسونية تعبيرا عن الإنسانية الجديدة والكونية والعقلانية، (رغم أن تلك العقلانية نفسها باختلاطهاكما كانت دائما مع اعتقاد فى ديانة للعقل، تبدو غير عقلانية اليوم).

وكانت بعض أجزاء العمل مثار جدل كبير، فلقد وضعت مبدأ مؤداه أن واجب الحكومة هورفاهية الشعب وتحدّى جميع المعتقدات التى تبررها أسباب إنسانية، كما ألقت الشك باستخدام المنهج التاريخى، على بعض تعاليم المسيحية والتراث المسيحى أيضا.

لذا فابتداء من عام ١٧١٥ حين ظهرت المجلدات الثمانية والعشرون الأولى كانت الموسوعة نفسها موقعة حربية، فلقد منع نشرها المجلس ورجال الدين، فصودرت النسخ، كما سُجن ديدرو وغيره من المعنيين. وفى إحدى الفترات قام عمال الطباعة بتخريبها بقطع بعض الأقسام وحرق المخطوط.

غير أن الموسوعة التى كانت تباع علنا فى بعض الأحيان وسرا فى أحيان أخرى، كان لها أثر ضخم فى المفكرين. فاكتسب دور الماسونية فى مناخ التنوير الفكرى

الذى اتسم بالحيوية الكثير من الأشياع الجدد لها، ذلك لأنها لحسن الحظ نجت من الاضطهاد الجاد فى العقود التالية، وإن كان ذلك يبعث على الدهشة إلى حد ما. ففولتير معبود جميع الفرنسيين باعتباره معارضا للسلطة القائمة، كان متعاطفا معها، أى الماسونية، (ومن المؤكد على وجه التقريب أنه كان ماسونيا سرا) من خلال صداقته لفردريك الأعظم.

غير أن أفكار التنوير على أى حال ترجمت لأول مرة بشكل عملى فى أمريكا وليس فرنسا، وأوجد أساسا للحكم كما يتضح ذلك فى إعلان الاستقلال والدستور. ومنذ عام ١٧٣٠ فصاعدا، تشكلت محافل ماسونية فى العديد من المدن الأمريكية، غير أنها كانت محايدة سياسيا حسب التقليد الإنجليزى. ومع ذلك، فثمة أشخاص بارزون هم الذين شكلوا همزة الوصل الأكيدة بين الماسونية من ناحية والأفكار السياسية الجديدة والكفاح من أجل الاستقلال من ناحية أخرى.

ذلك أن بنيامين فرانكلين الذى تبنت جمعيته الفلسفية النظرة العقلانية أصبح ماسونيا، عام ١٧٣١، وسرعان ما صار رئيسا أعظم لمدينة بنسيلفانيا. ومن بين الشخصيات الأمريكية الماسونية الشهيرة فى تلك الفترة جورج واشنطون (الذى كان رئيس ميثاق محفل الإسكندرية) وألجزندر هميلتون وأبطال ثوريون من أمثال بول ريفير و الأميرالاى جون بول جونز.

كما أضاف لافاييت - وهو أيضا ماسونى - همزة وصل أخرى مع فرنسا فى عصر التنوير، وفى ذلك كانت لدى بعض المصلحين والماسونيين فى أوربا فكرة تنظيم جهاز منتقى بعناية لنشر المعرفة وخدمة قضية الحرية، فوضع ميرابو (الذى ربما كان ماسونيا أو لم يكن) على الورق مشروعا لتنظيم سرى حميم كهذا لكى يشكل تنظيميا على غرار جمعية المسيح.

وكتب قائلا: لدينا آراء معاكسة تماما، فنحن نؤمن بتنوير الناس وجعلهم أحرارا وسعداء، ولكن من ذا الذى يمكنه أن يمنعنا من أن نوظف من أجل الخير ما قام اليسوعيون بتوظيفه من أجل الشر.

وفى نهاية المطاف دخلت الخطة حيز التنفيذ فى بافاريا، حيث أسس آدم فايشاوبت (١٧٤٨-١٨٣٠) أستاذ القانون فى جامعة أنجولشتاد، جمعية المستنيرين

السرية عام ١٧٧٦ ، وقرر الأعضاء المؤسسون أن تكون أهدافها هى تحسين قوى التفكير المهمة للبشرية ، ونشر العواطف الإنسانية والاجتماعية وكبح الميول الشريرة ومناصرة الفضيلة المقهورة التى تعانى الظلم وكذلك تسهيل اكتساب المعرفة والعلوم .

ولقد فتحت كتابات فايشاوبت مجالات أوسع ، إذ تنبأ بأن الأمراء والأمم ستختفى دون عنف من على وجه الأرض ، وسيصبح الجنس البشرى عائلة واحدة ، ولن يكون هذا التغيير محسوسا . وتساءل قائلا : لماذا يستحيل على الجنس البشرى أن يصل إلى درجات الكمال ، وإلى القدرة على ترشيد نفسه؟

ولم يكن فايشاوبت ماسونيا حين أسس جمعية المستنيرين ، ولكنه أصبح كذلك فى السنة التالية . وكانت خطته المتعمدة هى اختراق وإن أمكن السيطرة على المحافل ، لكى يتخير المستنيرين من بين الماسونيين الأكثر تبشيرا بالقدرة على العمل معه . وحقق نجاحا لبعض الوقت هو والبارون فون كينجى وبائع كتب اسمه يوهان تود وغيرهم من الشركاء . فأصبحت محافل ميونخ وأيخشتاد حلقات بحث للكاثوليك الأتقياء ، فشنت بافاريا هجوما على الجمعية الجديدة مستفيدة من الفضائح الشخصية (منها على سبيل المثال أن فيشاوبت له ابن غير شرعى) من أجل تلطيخ سمعة الجمعية . وفى عام ١٧٨٥ حظر حاكم بافاريا الماسونية وجمعية التنوير على وجه التحديد . وبعد أن فُصل فيشاوبت من منصبه الجامعى ، هرب إلى جوتا خوفا من الاعتقال . ولا يتبقى لدينا مزيد من السجلات الصادقة التى تتناول المستنيرين .

وفى عام ١٧٨٩ أشعل الفتيل الذى وضعه رجال مثل ديدرو وفولتير انفجار الثورة الفرنسية . ولقد خرجت كتب عدة لتثبت أو تنفى الصلة المفترضة بين الثورة والماسونية . وأول من دخل المعترك فى الفترة (١٧٨٩-١٧٩٩) ، كان الأب باركل وهو مهاجر فرنسى فى إنجلترا (وماسونى سابق) ، وكاتب إسكتلندى يسمى جون روبيسون الذى زعم أن المستنيرين قد نقلوا مركز عملياتهم من بافاريا إلى فرنسا . وإذا صح ذلك ، فلابد أنهم قد خرجوا بشدة على أفكار فايشاوبت الذى توقع - كما رأينا - أن الملكية ستزول بلا عنف تحت تأثير الأخلاق غير المحسوس .

ولا يوجد اليوم مؤرخ جاد يعتقد أن الثورة الفرنسية قد نتجت عن مؤامرة تورط فيها (حسب قول كادى جاسيكور) فقط سبعة وعشرون عضوا حقيقيا بينما علق ١٨٠١ ببرود على هذه المسألة . وحلت قضايا بسيطة محل قضايا شديدة التعقيد فى أيادى القوى التى أسهمت فى سقوط النظام القديم ، وهى قضايا تبلغ الغاية فى الجدية ، وهى كذلك قضايا سلّم بها كثير من الماسونيين الفرنسيين باعتزاز .

وفى هذه الحالة ، كما هو الأمر فى حالة الثورة الأمريكية ، تقودنا الأدلة إلى أن الماسونية كتنظيم لم تلعب سوى دور ضئيل إذا كانت قد لعبت أى دور أصلا ، ولكن الماسونيين ملئوا بعض الأدوار المهمة ، وربما كانوا فى معظمهم مرتبطين مع الجماعات المعتدلة التى شكلت درب الثورة حتى عام ١٧٩٠ ، ثم سُحقوا أو أزيحوا بينما بلغت الثورة ذروتها . وقد دافع دوق أورليانز الذى كان رئيسا أعظم عشية الثورة عن الدستورية الملكية ، ووُضع على المقصلة عام١٧٩٣ . وكانت شخصية لا فاييت من نفس الطراز .

والأمر المؤكد هو أنه فى عام ١٧٩٢ حين كان اليعاقبة فى ا لسلطة ، حظرت الماسونية وحُلت المحافل . ويبدو أن هذا يفتح مجالا للجدل فى أنه إما أن اليعاقبة ساووا بين الماسونيين والمعتدلين الذين كانوا يعتبرونهم أعداء لهم ، وإما أنهم على الأقل قد اعتبروا المحافل مخبأ محتملا لأن المعادين للثورة كانوا مايزالون يسيرون على النهج الذى وضعه الماسونيون .

ومما يزيد الأمر تعقيدا ، أن جميع الزعماء اليعاقبة من أمثال مارا ودانتون وروبيسبيير وغيرهم كانوا قد أطلق عليهم اسم الماسونيين . غير أن الأدلة مشكوك فى صحتها ، وحتى إذا قبلناها تبقى هناك إمكانية وهى أن هؤلاء الرجال قد تخلوا عن الماسونية أو ا نقلبوا عليها حين وصلوا للسلطة .

وبدأت الماسونية تقوم بوظائفها مرة أخرى فى فرنسا بطريقة قانونية عام ١٧٩٨ . وحين أصبح نابليون إمبراطورا أخبر الماسونيين أن أهدافهم الرفيعة وأخلاقهم وأغراضهم جديرة برعايته وحمايته . واتخذت هذه الحماية شكل التحكم النشيط بتعيين أخى الإمبراطور رئيسا أعظم برغم عدم حصوله على العضوية قط .

ولا شك فى أن الماسونيين قد تعلموا الدرس، وهو أن الأمن يكمن فى الولاء لمن فى السلطة أيا كان، لذا فإن المحفل الشرقى رحب بعائلة البوربون عام ١٨١٤، وبنابليون أثناء حكم مائة اليوم، ومرة أخرى رحبوا بالملك بعد ووترلو.

ومهما يكن من أمر، فإن الماسونية بالنسبة للبعض لا تنفصل أبدا عن الكفاح من أجل الحرية. ولقد وجد دليل على وجودها، أو على الأقل على وجود بعض أعضائها، فى مؤامرة دعاة المساواة التى وقعت عام ١٧٩٧، وهى محاولة أخيرة يائسة من أجل إعادة فرنسا مرة أخرى على طريق النقاء الثورى؛ وكذلك وجد أثر للماسونية بين الأيرلنديين المتحدين الذين تمردوا ضد الحكم البريطانى عام ١٧٨٩؛ وكذلك الحركة الهيلينية التى كانت عازمة على تحرير اليونان؛ وأيضا فى التمرد الديسمبرى الذى حدث عام ١٨٢٥ ضد الحكم القيصرى.

إن الحقائق المتعلقة بهاتين الحادثتين تعد غامضة، غير أنه لا يوجد أساس يمكن أن نبنى عيه افتراض وجود أى حملة ماسونية موجهة توجيها مركزيا ضد السلطة. ومع ذلك، فإنه فى إحدى البلاد من المشروع القول بأن المحافل ككل كانت متورطة بعمق فى السياسة، وهذا البلد هو إيطاليا حيث صوبت العناصر الديمقراطية المتطلعة إلى الأمام جهدها نحو الوحدة القومية التى تحققت أخيرا عام ١٨٦٠. وكانت أداتهم فى ذلك جمعية سرية سمى أعضاؤها بالكربونارى. ولم تكن محافلهم مطابقة للمحافل الماسونية، إلا أن العضوية بين الجمعيتين كانت متداخلة إلى حد كبير؛ إذ إن المؤكد أن معظم الماسونيين كانوا من بين أعضاء الكربونارى، وأن معظم الكربونارى كانوا ماسونيين، ويشمل ذلك شخصيات قيادية مثل غاريبالدى.

وثمة تشابه فى نظرة الجماعتين يتضح فى المادة الموجودة فى قواعد الكربونارى التى تنص على حرية الضمير، ولكنها تقول بعبادة كائن أعلى.

وكانت الجماعتان محظورتين فى كل أنحاء إيطاليا باستثناء بيدمونت، وهى قاعدة الحملة من أجل الوحدة الوطنية. ولم تبدأ المحافل فى الاجتماع علنا مرة أخرى إلا بعد أن توحدت إيطاليا، وحين أصبح غاريبالدى رئيسا أعظم.

ومن أهم نتائج تحالف الماسونية مع الكربونارى، أنها وضعت ماسونيى إيطاليا فى صفوف المعارضة المتشددة للفاتيكان. فبينما كانت البلاد منقسمة إلى وحدات صغيرة تخضع جميعا للحكم المطلق دون أى حقوق ديمقراطية، كان جزء كبير من الأراضى فى وسط إيطاليا تحت حكم البابا بوصفه حاكما زمنيا. فناصر باباوات تلك الفترة الملوك وكبار الدوقات كى يحافظوا على ممتلكاتهم. ومن الطبيعى أن كلا من الكربونارى والماسونية نادى بأن يرفرف علم إيطاليا العلمانية فوق ربوع البلاد بكاملها، وعلى البابا أن يقنع بالإمبراطورية الروحية.

وكثيرا ماذهبوا إلى ماهو أبعد من ذلك، وأوضحوا أن فى إيطاليا الموحدة ينبغى أن تكون سلطة الكنيسة محدودة كماينبغى أن يحرم الكهنة من الحق فى إخبار الناس بما يقرءون أو يعتقدون. فأعلن الرئيس الأعظم لمى قائلا : لقد عملنا الأزميل فى آخر معاقل الخرافات، وإن الفاتيكان سوف تسقط تحت مطرقتنا التى تبعث الحياة. وألح على أن الماسونيين يجب أن يعملوا على بعثرة حجارة الفاتيكان كى يبنوا بها معبد الأمة المتحررة.

وكان رد الفاتيكان من نفس النوع، إذ أصدر البابوات من عام ١٨٢١ إلى عام ١٩٠٢ عشرة منشورات لاستنكار الماسونية، ولكى يجددوا الحظر الذى أعلنه أول مرة كليمنت الثانى عشر. وبرغم أن السبب الفعلى للعداء كان قاصرا على إيطاليا وكان على الأقل جزئيا سببا سياسيا، فإن الحظر هذه المرة انطبق على الكاثوليك فى كل مكان.

وفى فرنسا أظهر الماسونيون تعاطفا قويا مع الديمقراطية مرة أخرى بعد فترة من التصالح اللبق مع الحكم الملكى لعائلة البوربون. لذا فإن ثورة سنة ١٨٣٠ التى خلعت شارل العاشر من العرش وأقامت ملكية دستورية تحت حكم لوى فيليب تم الاحتفال بها بمهرجان ماسونى. وفى عام ١٨٤٨ حين جاء الدور عليه لكى يُخلع بانقلاب وتصبح فرنسا جمهورية، فرح الماسونيون مرة أخرى، وأكدخطاب أرسله الرئيس الأعظم للمحفل الشرقى للحكومة الجديدة أن رايات الماسونية حملت دائما شعارات الحرية والإخاء والمساواة كما عبر الخطاب عن الابتهاج بالحركة الاجتماعية الوطنية الكبرى التى وقعت توا.

إلا أن حياة الجمهورية كانت قصيرة؛ إذ إن انقلابا حدث عام ١٨٥١ أعاد للسلطة نابليون آخر، فأمر رئيس شرطته بأن يحل الماسونيون محافلهم، فصدع المحفل الشرقى الكبير للأمر. وبعد ذلك سرعان ماقرر نابليون الثالث أن يتبع طريقة الإمبراطور الأول، فأخبر الماسونيين بترحيبه باجتماعهم على أن يكون ابن أخيه الأمير لوسيان مورا رئيسا أعظم لهم، ففرض مورا عليهم دستورا جديدا ذا طابع تسلطي.

وعلى حد تعبير أحد مؤرخى الماسونية، فلقد تم خنق روح الاستقلال التى تتسم بها الماسونية، وكان ينتظر منهم أن يظهروا إذعانا أعمى فحسب. ففى عام ١٨٦٠ ألقى مورا خطابا متعاطفا مع البابا، فطالبت الصحيفة الماسونية باستقالته، إلا أنها قُمعت وتم توقيف عدة رؤساء محافل. وبعد عامين من المنازعات، تزحزح الإمبراطور عن موقفه وعُدل الدستور وعين آخر محل مورا. غير أن الماسونيين قد ابتهجوا بتنازله عن العرش عام ١٨٧٠، وشهد العام التالى كفاحا مسلحا بين الحكومة الجمهورية الجديدة التى كانت تتبع سياسة محافظة، وكوميون باريس الذى كان الاشتراكيون يرأسونه.

وفى ذلك الحين، وجد اتجاه فكرى اشتراكى واضح فى الماسونية، إذ كان كل من لوى بلان الذى رفع شعار الجمهورية الاجتماعية أثناء ثورة عام ١٨٤٨ وبيير جوزيف برودون أشهرمفكر اشتراكى فرنسي، ماسونيين. فحاولت محافل باريس أن تتوسط بين الحكومة والكوميون، غير أن الحكومة رفضت مساعيهم.

ثم قرروا عرض راياتهم على جدران باريس، وأن ينضموا إلى الكوميون إذا مست رصاصة واحدة تلك الرايات. ويكتب جيلينك فى تاريخه عن الكوميون، أن عدة آلاف من الماسونيين قد قاموا بمسيرة على طول البولفار وسط حماسة عارمة، وكان المشاركون فى المسيرة مبتهجين يضعون شرائط رمزية زرقاء وخضراء وبيضاء وسوداء وقلائد من الذهب والفضة ومثلثات وشموسا وشعارات على هيئة معدات التشكيل والبناء.

ولم تمس الرصاصات الرايات، بل جرحت أحد الماسونيين، فقررت المحافل

الدفاع عن الكوميون بالسلاح. وبالرغم من هذه الحوادث ، فإنه كان مقدرا للماسونية أن تزدهر تحت حكم الجمهورية الثالثة. وكان النزاع بين الدولة والكنيسة فى فرنسا هو القضية السياسية المركزية لعدة سنوات وهى قضية لم تخمد بعد.

ولم يخف عداء الكنيسة الكاثوليكية للماسونية. كذلك أيد الماسونيون الحكومات التى كانت تفرض قيودا على الجمعيات الدينية وتمنع المعونة عن مدارس الكنيسة. وكان هناك مؤسستان متنافستان فى فرنسا الجمهورية الثالثة، وكانت كل منهما قوية فى نطاقها ، إذ كان حضور القداس بانتظام يؤدى إلى الترقية فى الجيش ، بينما كان اعتناق آراء معادية لرجال الدين يجعل الترقية أمرا واردا فى الجامعات والوظائف المدنية. فكان الماسونيون يحتلون مناصب رفيعة حين كانت آراؤهم تلقى الحظوة.

ولما كانت الماسونية محل لعنة الفاتيكان ومازالت ممنوعة ومضطهدة فى إسبانيا ، فلقد صارت هدفا للتهجمات اللفظية العنيفة فى كل مكان تقريبا. وبرغم ما كانت تتمتع به من احترام واضح فى بريطانيا ، فإن الأمر لم يكن يخلو من العداء لها. أما فى أمريكا ، فلقد حدث جو من الإثارة نتج عن مقتل ويليام مورجان الذى زعم أن الماسونيين هم الذين قتلوه لأنه قد نشر تعريضا بهم عام ١٨٣٦ . فهاجم الدهماء المحافل ، فاضطر الكثير منها إلى إغلاق أبوابها ، وأقحم أعداء الماسونية من المرشحين القضية فى مضمار السياسة ، أى فى الانتخابات.

ولم تشف الماسونية من هذه الضربات حتى النصف الثانى من ذلك القرن. أما اليوم فهى مستقرة تماما وتعد فوق الانتقاد سياسيا واجتماعيا ، ويتألف أعضاؤها بشكل رئيس من رجال الأعمال. وتعد الولايات المتحدة فى الواقع المعقل الرئيس للماسونية اليوم.

وكما يمكن أن يكون متوقعا ، فلقد استغلت جميع الهجمات الموجهة ضد الماسونية السرية ومابها من طقوس ، والقسم الذى أوردناه فى بداية هذا الفصل ، وخصوصية اجتماعات المحفل ، إذ ردد مناوئو الماسونية حجة كليمنت الثانى

عشر، وهى أن كل ما هو سرى، لابد أن يكون خبيثا. بل بعثوا نظرية الأب باركل للحياة، وهى الخاصة بدور للماسونيين فى الثورة الفرنسية.

كما حاول البعض تعقُّب سلسلة من الأحداث عن طريق صلات للماسونيين مع الكربونارى، وكذلك تأييد الماسونيين لليساريين فى فرنسا، لكى يثبتوا أن الماسونيين (هم والمستنيرين الذين زُعم أنهم مازالوا يعملون سرا، باعتبارهم مركزا للتوجيه) لا يكفون عن نسج المؤامرات لزعزعة النظام الاجتماعى القائم ويغرقوا العالم فى الفوضى.

كما قُدِّمت الثورة الروسية التى نشبت فى عام ١٩١٧ على أنها إحدى منجزات الماسونية. ولذلك حدث تنديد بالماسونية باعتبارها حليفة الشيوعية أو ملهمتها، برغم أن الماسونية محظورة فى البلاد الشيوعية. ولقد أُلقى اللوم على الماسونيين فى حادث اغتيال كبير الدوقات فردناند فرنتس، الأمر الذى أشعل شرارة الحرب العالمية الأولى. وكذلك اتُّهموا بالتسبب فى التضخم المدمر الذى حدث فى ألمانيا عام ١٩٢٤، كما اتهموا بالتسبب فى الحرب الأهلية الإسبانية.

وكثيرا ما اعتبرت الماسونية مصاحبة لمعاداة السامية. فلقد حدث هذا بشكل ملحوظ فى فرنسا أثناء قضية دريفوس. ذلك أن الماسونيين واليهود قد دُمغوا دائما باعتبارهم متآمرين دوليين أشرارا لا هم لهم سوى الحط من شأن النزعة الوطنية والقضاء على أمن الشرفاء المخلصين. كذلك وُصفوا على نحو ما بأنهم رأسماليون قساة، كما وصفوا بأنهم شيوعيون فى آن واحد.

وفى أوربا وصل الأمر إلى ذروته باعتلاء الفاشيين والنازيين السلطة، إذ حل موسولينى المحافل الماسونية الإيطالية، وسجن العديد من الماسونيين أو تم نفيهم. أما هتلر فقد تصرف على نحو أشد قسوة فى ألمانيا، وكذلك فى البلاد التى قام بغزوها، إذ إن أعدادا كبيرة من الماسونيين قضوا نحبهم فى معسكرات الاعتقال الجماعية. أما فى فرنسا، وفى غيرها من البلاد، فلقد عمل الماسونيون والكاثوليك الأتقياء بالإضافة إلى اليساريين والمحافظين ذوى النزعة الوطنية معا فى حركة المقاومة، كما قاسوا فى زنزانات الجستابو وفى معسكرات الاعتقال الجماعية.

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، أصبحت الحرب بين الماسونية والكنيسة أمرا ينتمي للماضي إلى حد كبير، برغم أن أصداءها مازالت تتردد من حين إلى آخر. ففي إنجلترا حيث ينضم إلى الماسونية كبار رجال الكنيسة القائمة، مازال بعض الناس يحتجون بأن التوفيقية الدينية الموجودة في الماسونية تجعلها غير متلائمة مع أي مذهب مسيحي محافظ، ويزعمون مثلا أن بعض كلمات السر الماسونية ذات طبيعة وثنية. كذلك فإن الكثير ممن يقسمون القسم الماسوني اليوم لايكادون يعرفون كيف يحددون الأشياء التي يفترض أن يحتفظوا بسريتها، اللهم إلا إذا كانت هذه الأشياء هي ببساطة الخطوة الطقسية والإشارات وكلمات السر.

وهذه كلها كانت متاحة منذ وقت طويل لمن هم لا يتمتعون بعضوية الجماعة، ممن يهتمون بالقيام ببحث صغير في إحدى المكتبات العامة الجيدة، لأن الماسونية لها كتابات كثيرة، إذ يوجد على الأقل ١٠٠٠٠٠ منشور عن هذا الموضوع، برغم أن الكثير منها لا يزيدعلى أنه محض خيال سواء في ذلك المؤيد والمعارض للماسونية.

وتمثل الماسونية تطورا مشابها للصلوردية في بعض النواحي برغم أنها كانت أوسع نفوذا منها. وإذا مانظرنا إلى الماسونية على أنها تطورت في عصر كان شغله الشاغل هو طبيعة الكون وطبيعة الإنسان، فإننا سنجد أنها استمدت قوتها الدافعة من روح البحث المخلصة، وبذلك يمكن اعتبارها مصدرا حقيقيا من مصادر التنوير سواء كان ذلك التنوير عقليا أو أخلاقيا.

وبرغم أن الماسونية لم تعد تتمتع بنفس القوة الدافعة اليوم، فإنها يبدو أن لديها شيئا ما تقدمه لأعضائها، وقد لا تعدو أن تكون بالنسبة للكثيرين منهم مجرد ناد اجتماعي مع إضافة السرية كعنصر جذاب، إلا أنه لا شك في أن الكثيرين يستمتعون بتمثيل طقوسها.

ويعتقد البعض أن التعاليم الماسونية تجسد حكمة قديمة تناقلتها الحضارات ككنز من ذهب. كما يفهمها البعض باعتبارها منهجا لتطوير الذات، ومع ذلك، فإن الكثير من الناس ينجذبون إلى هذا التنظيم معتقدين أن العضوية سوف تجلب لهم

فوائد مادية ، سواء كان ذلك من خلال ممارسة المصافحة الماسونية أو الأسئلة الرمزية التى ماتزال واسعة الاستعمال كوسيلة للتعرف ، أو من خلال منح المدارس الماسونية ، ودور الأيتام والمستشفيات ودور كبار السن .

وتبدو الماسونية فى عالم اليوم الذى يتصف بشدة التصنيع آخذة فى التحول أكثر فأكثر إلى رابطة غير رسمية لرجال الأعمال ، لو أخذنا فى الاعتبار فقط أنها تتطلب العون والتعامل المتبادل بين أعضائها .

وليس ثمة ما يحملنا على الاعتقاد بأنها تمنع هذه المعاملة عن الأغراب بالضرورة ، وأن مثل هذه الممارسات يجب أن تكون طقسا خاصا بعالم الأعمال ككل . فالماسونية بالنسبة لمعظم أعضائها اليوم جمعية مساعدات متبادلة وحيوية قد غيرت من طقوسها دون أن تبطلها ، وهى ليست أقل ارتباطا بعصرنا من طقوس المحاكم والجامعات أو غير ذلك من التنظيمات أو الأجهزة العامة .

الجمعيات السرية القومية

ديفيد أنان

إن الحكم الأجنبى أو حكم الأقلية من أكثر الظروف شيوعا التى تؤدى إلى نشأة الجمعية السرية القومية. ولقد نشأت الجمعيات الأيرلندية القومية فى القرن الثامن عشر، حين دعمت أقلية بروتستانتية أنجلو أيرلندية حكمها للغالبية الكاثوليكية.

وكذلك نشأت الجمعيات الإيطالية القومية فى أوائل القرن التاسع عشر بعد سيطرة إسبانية ونمساوية دامت ٢٥٠ سنة. وتبدأ المعارضة لمثل هذا الحكم عادة على شكل جمعية ثقافية مفتوحة، تنشأ كمنتدى لزعماء مثل هذه الجماعات المقهورة. وينتقل هذا النادى من الاعتبارات الثقافية إلى مطالبة القوى المحتلة بإجراء الإصلاحات. وعندما تقاوم القوى المحتلة القيام بتلك الإصلاحات، فإن النادى : إما ينشق إلى معتدلين ومتطرفين، وإما يصبح نشاطها سريا تحت الأرض، وتتشكل الجمعية السرية القومية عند هذه النقطة، ويكون هدفها قلب نظام الحكم ويكون تنظيمها عسكريا.

الجمعيات القومية الأيرلندية : وتعد الجمعيات القومية الأيرلندية مثالا جيدا لذلك، إذ كانت حالة الكاثوليك الأيرلنديين فى القرن الثامن عشر بائسة؛ فلقد حرمهم قانون العقوبات القاسى من جميع الحقوق المدنية وتركهم تحت رحمة البروتستانت، بينماكانت مجرد كلمة المالك الأيرلندى تعنى الظلم والاغتصاب. وفى الجنوب، لم يكن لدى جماهير الفلاحين الواسعة علاج لليأس والغذاء الذى يتكون جله من البطاطس سوى الإفراط فى الشراب وتدبير المؤامرا ت ضد الحكام الإنجليز وكتائبهم.

أما فلاحو ألستر فى الشمال فكانوا منشقين، فهم مهاجرون من إسكتلندا

وكانوا يحملون الكراهية لأنصار البابا أكثر حتى من كرههم لملاك أراضيهم، شأنهم فى ذلك شأن الفقراء البيض فى الولايات الجنوبية بأمريكا، الذين كانوا يتحملون صاحب المزرعة لأنه جعلهم يشعرون بالتعالى على الزنوج. كذلك فإن رجال ألستر كانوا يتحملون مالك الأرض لأنه جعلهم يشعرون بالتفوق على الكاثوليك.

وبينما كانت الإدارة الإنجليزية لأيرلندا تتميز بالخشونة والقسوة، كانت المقاومة الأيرلندية تتميز بالصمود والشدة. ويلخص جون ميتشيل فى كتابه التاريخ الوطنى لأيرلندا الموقف فى القرن الثامن عشر تلخيصا جيدا، فيقول: لقد وجد الناس فى أيرلندا أنفسهم ليسوا فى مواجهة طبقتين فحسب، بل أيضا فى مواجهة أمتين، واحدة منهما تملك إلى حد كبير قوة فرض الحياة أو الموت على الأمة الأخرى.

فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن واحدة من هاتين الأمتين جردت الأخرى من الأراضى نفسها التى كان ذلك الجنس المقهور سعيدا بزراعتها باعتبارهم مستأجرين؛ وكذلك إذا أضفنا أن الأمة المسيطرة شعرت باضطرارها إلى كراهية الأخرى من ناحية باعتبارهم شعبا من المتمردين يتحينون الفرصة للانقضاض على سادتهم، ومن ناحية أخرى باعتبارهم أنصارا للبابا يتشبثون بعبادة القداس الملعونة الوثنية - فإننا يمكننا عندئذ أن نفهم بسهولة صعوبة مسألة المالك والمستأجر فى أيرلندا.

ولقد أظهر الأيرلنديون دائما موهبة فى إقامة التنظيم السرى، وبخاصة على مستوى القرية، فكان للمهاجرين الأيرلنديين إلى الولايات المتحدة أن يجعلوا الجهاز السياسى الموجود فى نيويورك أنموذجا لسياسة المدن. وحين قدمت الثورة الأمريكية المثال للنجاح فى قلب الحكم البريطانى مع مطلع الثمانينيات من القرن الثامن عشر، كانت لدى كل من أيرلندا الشمالية والجنوبية خبرة فى المقاومة المنظمة خارج القانون.

ففى الشمال، أقسم فتيان البلوط وفتيان الفولاذ قسم السرية وذبحوا الماشية وحملوا السلاح وأحرقوا المنازل، تحديا لبناء الطرق الإجبارى والزيادة التى تقررت على الإيجارات. أما فى الجنوب فلقد هاجم الفتيان البيض ملاك الأراضى مسلحين بالمناجل والعصى والسيوف.

وأصبحت عبارة «عسر إنجلترا هى فرصة أيرلندا» بديهية سياسية منذ وقت طويل.

وفى عام ١٧٧٨ حين تدخلت فرنسا لتحاول قمع التمرد، جهز البروتستانت ميليشيا تسمى المتطوعين، وهى قوة تتكون من ٨٠٠٠٠ رجل جيدى التسليح يقودهم أفراد من طبقة الأشراف البروتستانتية. وإذ خشيت الحكومة البريطانية من إمكانية وقوع تمرد فى أيرلندا، وكذلك خوفا من أن يطالب المستوطنون بشىء أشبه بالمبدإ القائل لا ضريبة بلا تمثيل نيابى، اضطرت أن تمنح شكلا من أشكال الحكم الذاتى للبرلمان الأيرلندى عام ١٧٨٢.

غير أن هذا التنازل لم يعن سوى أن مليونا من البروتستانت أصبحوا الآن يحكمون ثلاثة ملايين من الكاثوليك غير الممثلين نيابيا فى أيرلندا، فوصف المؤرخ و. ا. ن. ليكى هذا النظام بأنه حكومة من خلال مدن متعفنة «تم انتخاب أعضائها وبرلمانها بواسطة حفنة من أصحاب حق التصويت»، وهم سادة أيرلندا، وبخاصة طبقة ملاك الأراضى بها.

وكتب ثيوبولد وولف تون زعيم أول جمعية قومية سرية فى أيرلندا بعد ذلك يقول: لقد كانت ثورة حققت بضربة واحدة مضاعَفَةَ سكان المدن فى المملكة، وفى الوقت نفسه تركت ثلاثة أرباع أبناء الريف وحكمت أيرلندا الأيادى الحقيرة البغيضة التى عاشت لتدمرها وتحط من قدرها.

وفى هذا الاستقلال الوهمي، بدأ المتطوعون يجندون أفرادا من الطبقة العاملة، ثم تحللت بالتدريج. وفى عام ١٧٨٥ احتج هنرى جراتان، زعيم البروتستانت فى البرلمان الأيرلندى قائلا: لقد أصبح المتطوعون القدماء الأصليون محترمين لأنهم كانوا يمثلون خيرة أبناء الأمة، ولكن ثمة محاولات لتسليح حثالة الأمة. لقد كانوا أفضل ما فى الأمة، فهل يجب أن يكونوا شحاذى الأمة المسلحين؟ وفى حالة أيرلندا كما هو الحال فى الولايات المتحدة، لم يكن الاستقلال يعنى الثورة الاجتماعية، وانشق المتطوعون إلى جماعات من الرجال المسلحين، ومن ذلك فتيان الحاضر البروتستانتية وجماعة المدافعين الكاثوليك.

وفى التسعينيات من القرن الثامن عشر، أعطى مذهب الثورة الفرنسية وما قدمته من مثل إلهاما جديدا للكاثوليك الأيرلنديين، ووجدوا قائدا لهم فى شخص المحامى كاتب النشرات وولف تون الذى أعلن قوله : إن أهدافى هى الانقلاب على طغيان حكومتنا المقيتة، وفصم الصلة مع إنجلترا وتأكيد استقلال بلادي. وسائلى لتحقيق ذلك هى توحيد جميع أفراد الشعب الأيرلندى وإحلال كلمة أيرلنديين محل المذاهب الدينية المختلفة من بروتستانتية وكاثوليكية والمنشقين.

وبذلك وضع تون المنهج الذى يمكن أن تستخدم بواسطته النزعة القومية لنيل الاستقلال لبلد مقهور وممزق. وفى عام ١٧٩١ فى بلفاست، وضع مشروع مسودة قرارات تأسيس جمعية الأيرلنديين المتحدين التى طالبت بتحرير الكاثوليك فى أيرلندا متحدة يحكمها برلمان إصلاحي.

وأضاف فرع الجمعية بدبلن إلى إعلان بلفاست تعهدا بالضغط من أجل الوصول إلى برلمان إصلاحى من خلال أخوة من المحبة، وتطابق فى المصالح ومشاركة فى الحقوق واتحاد فى قوة جميع الأيرلنديين من كل الاتجاهات الدينية. وفى عام ١٧٩٣، دخلت إنجلترا الحرب ضد فرنسا الثورة بتأييد البرلمان الأيرلندى، وأودع زعماء الأيرلنديين المتحدين بدبلن السجون. عندئذ تخلت الجمعية عن أفكارها فى الإصلاح الدستورى لصالح العمل الثورى، وأنشأت حركة مقاومة يكون فى استطاعتها مساعدة أى غزو فرنسى.

وفى مطلع عام ١٧٩٥ أصبح ضباط جمعية الأيرلنديين المتحدين فى القرى والريف والمدن الإقليمية ضباط ميدان فى حركة من حركات حرب العصابات، حتى أصبح هناك بناء هرمى لإثارة الفتن، على حد تعبير المؤرخ فيليب هاروود، وكان ذلك مصحوبا بعدد لا نهاية له من الجمعيات المحلية الصغيرة كقاعدة ترتفع تدريجيا من خلال تدرج دقيق فى لجان القرية والمنطقة والمركز حتى تصل إلى قمة الهرم فى إدارة تنفيذية قومية.

ولما كانت الجمعية قد اتخذت من الانقلاب منهجا لها، فقد كان من الطبيعى أن تصبح سرية. وكان هناك قدر أدنى من تبديد الوقت فى إجراء الطقوس ؛ ففى حفل قبول العضو الجديد كان على العضو فقط أن يقسم قسم السرية على الإنجيل،

وكانت كلمة السر هى فقط : أعرف حرف م وإجابتها أعرف حرف ن، وهلم جرا بهجاء حروف الأيرلنديين المتحدين. وتم تسليح الأعضاء وتدريبهم.

ومع بداية عام ١٧٩٦ كانت الجمعية مستعدة للقيام بالتمرد، غير أن أعضاء ها الذين لم يكونوا مسلحين إلا بالرماح كانوا فى حاجة لقوات فرنسية للاشتباك مع الجيش الإنجليزى بما يتسلح به من مدافع وبنادق. فقام وولف تون والزعيم الإنجليزى الأيرلندى الثورى لورد إدوارد فيتزجرالد الذى كان قد تحالف فى ذلك الوقت مع جمعية الأيرلنديين المتحدين، قاما بعدة رحلات إلى فرنسا فى محاولة لإقناع الحكومات الفرنسية المتعاقبة بغزو أيرلندا، وقامت البحرية الفرنسية بمحاولات للغزو أعوام ١٧٩٦، ١٧٩٧، ١٧٩٨.

وصدت العواصف محاولة الغزو الأولى وتم التصدى للمحاولة الثانية من هولندا. أما المحاولة الثالثة فانتهت بكارثة سريعة، ذلك أن قوات لورد كورنواليس الوصى نائب الملك قامت على الفور بذبح القوات الفرنسية بمجرد نزولها إلى البر، وفشل الأيرلنديون المتحدون فى تنسيق انتفاضتهم لمساعدة أى من محاولات الغزو هذه، إذ قاموا بمحاولة واحدة عام ١٧٨٩، غير أن القائمين على تنظيمها بمن فيهم لورد فيتزجرالد تم اعتقالهم.

ولم تنهض ألستر لتأييد الجمعية، التى كان الكاثوليك قد تغلبوا عليها من حيث العدد. بل إن ألستر فى حقيقة الأمر قامت بتشكيل جمعية مضادة من الأورانجمن أو البرتقاليين هدفها مقاومة هجمات رجال العصابات الكاثوليك.

وتوفى فيتزجرالد فى السجن متأثرا بجراح كان قد أصيب بها أثناء الانتفاضة. أما تون(الذى قبض عليه فى السنة نفسها على ظهر سفينة فرنسية) فقد تلقى الحكم بإعدامه فى نوفمبر فانتحر.

ولم تعد جمعية الأيرلنديين المتحدين قوة ثورية فعالة، فأصبح الفينيون الذين ظهروا بعد ذلك بخمسين عاما هم ورثة الأيرلنديين المتحدين، غير أنهم كانوا ثوريين لهم غرض مختلف، لأن الظروف فى أيرلندا قد تغيرت. ذلك أن الحكومة الإنجليزية قد أصدرت قانون الاتحاد الذى قام بضم أيرلندا إلى البرلمان فى وست منيستر وذلك عام ١٨٠٠.

كما صدر قانون تحرير الكاثوليك عام ١٨٢٩ ، نتيجة لضغط مارسه المحامى الأيرلندى دانيل أوكونيل وجمعيته الكاثوليكية التى اكتسب ضباطها سلطة حقيقية فى الجنوب أكبر من سلطة الإدارة الرسمية .

وكان هدف الفينيين هو الاستقلال التام وإقامة جمهورية أيرلندية منفصلة عن التاج البريطانى . وبرغم أن قانون تحرير الكاثوليك قد أزال شكوى عامة ، فإن المجاعة الكبرى التى وقعت فى أواخر الأربعينيات من القرن التاسع عشر أعطت الفينيين رصيدا ضخما من الكراهية يمكنهم استخدامه فى عملية البحث عن مجندين جدد .

ذلك أن فساد محصول البطاطس لسنوات متعاقبة أدى إلى انخفاض سكانى فى أيرلندا ، إذ انخفض عدد السكان فيما بين عامى ١٨٤٥ ، ١٨٥١ إلى ثمانية ملايين ونصف المليون . ويقدر أن مليون شخص ماتوا بسبب المجاعة وهاجر مليون آخرون إلى الولايات المتحدة ، نتيجة شعورهم بالمرارة بسبب تقاعس البرلمان فى وستمنيستر عن إرسال الغوث اللازم . وكذلك هاجر البعض لأن ملاك الأراضى الأيرلنديين قاموا بطرد المستأجرين من قطع الأراضى الصغيرة التى كانوا يقومون بفلاحتها لكى يطبقوا طرقا فنية زراعية جديدة ، فخطط الأيرلنديون الأمريكان للانتقام .

ذلك أنهم اعتبروا المجاعة الكبرى مؤامرة من تدبير الحكومة البريطانية لقهر روح الشعب الأيرلندى ، ولتخفيض عدده . لقد أدت سياسة ملاك الأراضى الأنجلو - أيرلنديين وكذلك الحكومة البريطانية ، على حد تعبير ميتشيل إلى نظام جعل جزيرة جميلة خصبة تنتج حصادا نبيلا ووفيرا عاما بعد عام ، تتحول تدريجيا فتصبح أفقر فأفقر حتى تهبط إلى مستوى الحاجة إلى شراء خبزها ثم تهبط إلى المجاعة التامة ، وهو ماجعلها تتدنى فى نهاية الأمر إلى مستوى أكلة لحوم البشر .

إن نظام التجارة الحرة الإنجليزى وكذلك إلغاء قوانين الحبوب عام ١٨٤٨ ، قد جعلا أيرلندا متسولة بحق ؛ غير أن المشكلة تفاقمت بسبب الزيادة الضخمة فى عدد السكان فى أوائل القرن التاسع عشر . ومع ذلك كان من السهل إلقاء اللوم

على نظام الملكية الزراعية الأيرلندى الذى بلغ من العفن والقبح بحيث لم ينقذه من الزوال المفاجئ سوى تحالف مع الأقلية البريطانية فى حالتى الهجوم والدفاع على حد سواء .

وفى عام ١٨٤٨ ، قام الكاثوليك الأيرلنديون الذين كانوا يعارضون سياسة أوكونيل الحذرة بمحاولة تنظيم انتفاضة مسلحة ، غير أن الحكومة التى علمت بالخطة قامت بترحيل بعض الزعماء ، كما هرب ثلاثة آخرون إلى الولايات المتحدة هم جون أوماهونى وميكل دوهينى وجيمز ستيفنز . وهناك على التربة الأمريكية ، حيث توجد أراض رخيصة تحت الطلب ومع عدم وجود نظام للاستئجار الجائر أو الأجور الزهيدة للعمال الزراعيين ، فى ظل هذه الظروف أسسوا الأخوة الفينية (التى تُعرف أيضا باسم الأخوة الجمهورية الأيرلندية أو بأحرفها الأولى بالإنجليزية) . وفى نفس السنة أى سنة ١٨٥٨ قاموا بإرسال الأموال إلى أيرلندا لاستخدامها فى تشكيل جناح هناك .

وكانوا ينظمون أنفسهم على النماذج الأوربية التى تتألف من خلايا تضم كل منها عشرة أعضاء لا يعرف أعضاؤها غيرهم من الأعضاء فى الخلايا الأخرى من الناحية النظرية .

وكان القسم الذى اتخذوه قسما صريحا من حيث ثوريته ؛ إذ لم يهتم ولو لفظيا بالإصلاح ، إذ تقول النسخة الأيرلندية : أنا المدعو فلان ، لأقسمن أمام الله القدير بأنى سأبذل كل جهدى ومهما كان الخطر ، مادمت حيا أن أجعل من أيرلندا جمهورية ديمقراطية مستقلة ؛ وأنى سأطيع طاعة مطلقة ، فى غير معصية الله أو أوامر رؤسائى من الضباط ، كما أنى سأحافظ على السرية التامة فى كل ما يعهد إلى من أسرار تخص تعاملات هذه الجمعية . وبالله التوفيق . . آمين .

وعلى الرغم من أن القسم قد وُضع بهذه الصيغة ، فإن رجال الكهنوت الكاثوليك ناصبوا الجمعية العداء . إذ إنه فى وقت مبكر جدا يرجع إلى عام ١٨٥٧ ، أبلغ أحد القساوسة عن مجموعة من الفينيين فى أيرلندا ، فقُدموا للمحاكمة . ثم عُدل القسم لاستبعاد التعهد بمراعاة السرية ؛ وحل محله تعهد بالولاء

للجمهورية الأيرلندية، ونص على أن الجمهورية قد تم تأسيسها تقريبا، وبذلك أصبح التمرد نوعا من المقاومة الوطنية.

ولقد قدمت الثورة الأمريكية (١٨٦١ -١٨٦٥) للأيرلنديين الثوريين الأمريكيين تدريبا فى التكتيكات العسكرية وكيفية استخدام السلاح. كما منحت الفينيين الأمل فى أن تعاطف الحكومة الإنجليزية مع الجنوب قد يدفع بها إلى الحرب، وهو ما يجعل الفرصة سانحة لنجاح التمرد فى أيرلندا. ولقد استطاع الفينيون أن يعملوا فى أمان على الأرض الأمريكية لأن أصوات الأيرلنديين كانت عاملا مهما فى السياسة الأمريكية.

لذا فإن شعورهم بالأمن، جعلهم يسقطون معظم ما كانوا يبذلونه من جهد من أجل السرية، فعقدوا مؤتمرا عاما فى شيكاغو عام ١٨٦٣، وهناك نادوا بإنشاء جمهورية أيرلندية. ولكن هذا لم يكن ليتحقق سوى بعد غزو كندا، وإنشاء جمهورية كندية مستقلة. فقام الفينيون بثلاث محاولات لإثارة تمرد فى كندا، أولاها عام ١٨٦٦، وفى كل مرة تم إحباطها على الفور.

وفى عام ١٨٦٧، قاموا ببعض المحاولات للاستيلاء على المؤن فى تشيستر كاسيل فى إنجلترا لكى يقوموا بتمرد فى أيرلندا نفسها، غير أن هذه الانتفاضات تم قمعها بسهولة تثير السخرية. وبعد ذلك بعدة سنوات توقفت أنشطة الفينيين، فلم يحققوا شيئا سوى قتل أحد رجال الشرطة وبضعة مدنيين والتخطيط الناجح لعملية هرب من السجن.

ذلك أن الفينيين قد فقدوا جميع المميزات بسبب العمل علنا، فكان أى أيرلندى أمريكى عابر يهبط على أرض أيرلندا هدفا واضحا للشرطة البريطانية. وكان كل من الأيرلنديين المتحدين والفينيين يجندون الأعضاء بلا تمييز، كما كانوا يتحيرون إزاء المخبرين الذين يعملون لصالح البريطانيين، حتى إن السلطات البريطانية كانت تتلقى تحذيرات عن المحاولات التى تخطط لها الجمعيتان لدى نشوئها.

فمن وجهة نظر القيام بانقلاب ناجح، كان يلزم وجود نواة صلبة من الخبراء المسلحين كما سيحدث لاحقا فى حالة البلاشفة. ويعد هذا مثلا أكثر فائدة لكتلة

من الأشخاص الذين تدفعهم العاطفة دون أن يكونوا مسلحين سوى بالرماح قابلين للزوال فورا لدى أول ضربة تضربها الميليشيا أو الشرطة.

إن كل فشل تمنى به جمعية سرية قومية يدفع إلى إزاحة العناصر المعتدلة من هذه الجمعية بطرق قاسية على أساس أن الإجراءات لم تكن متطرفة بالقدر الكافى.

وظهرت جمعية الكلان -نا- جول على أشلاء الفينيين فى أمريكا، وهى عبارة عن تنظيم سرى كانت لديه خطط لاغتيال الملكة فيكتوريا، وإغراق السفن البريطانية بالغواصات وتدمير مجلس العموم بالنيتروجليسرين المصنع داخل مصنع سرى بالقرب من بيرمنجهام.

وفى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، حدثت بالفعل انفجارات فى مجلس العموم وفى برج لندن وعند جسر لندن. غير أن الإرهابيين لم يضروا سوى أنفسهم، وهو مصير مشابه لمصير الفوضوى الذى حاول تفجير مرصد جرينتش عام ١٨٩٤.

وقد أدى استخدام جمعية الكلان - نا - جو للإرهاب لمجرد الإرهاب فى إنجلترا نفسها إلى ابتعاد الكثير من الإنجليز الذين يؤيدون الحكم الذاتى فى أيرلندا. إذ رفض بارنيل، وهو الزعيم البرلمانى لحزب الحكم الذاتى الأيرلندى، أن يعترف بالإرهاب، وانضم له الأعضاء الأكثر اعتدالا من بين مؤيدى أيرلندا القدامى فى حملته من أجل الإصلاح الزراعى من خلال رابطة الأرض. كما ساعد الكتلة الأيرلندية فى البرلمان الإنجليزى على ضمان عدم قيام الكنيسة الأنجليكانية فى أيرلندا (١٨٦٩) وساعد على صدور قانون للأراضى لحماية المستأجرين (١٨٨١).

ربما كانت كل حركة علنية تنادى بالحرية السياسية فى حاجة إلى متشدديها السريين كى تستغلهم لإرهاب السلطات وإثارة مخاوفها من احتمال أن يستولى هؤلاء المتشددون على الحكم. وفى الوقت نفسه ينبغى على زعماء تلك الحركة استنكار عنف هؤلاء المتشددين استنكارا رسميا. فحسب رأى أحد المؤرخين الأيرلنديين ب. س. أ. هاجارتى الذى قال فى التحليل النهائى بأن الفتيان البيض

وحاملي الشريط وكابتن ضوء القمر هى الجمعيات التى جعلت من الممكن إقامة بناء فوقى محترم يرتفع فوق أكتافهم، وهذا البناء هو الذى استنكر نشاط هذه الجمعيات.

وفي عام ١٨٨٢، قامت جماعة من الفينيين الإرهابيين السابقين تسمى (أصحاب المنعة) بقتل لورد فريدريك كافنديش كبير وزراء أيرلندا وتوماس وكيل الوزارة بفينكس بارك فى دبلن. وكان عملهم هذا محرجا للقضية الأيرلندية على وجه الخصوص، لأن حزب الأحرار فى إنجلترا كان فى ذلك الوقت يخطط لإدخال بعض الإصلاح فى أيرلندا، وبدا كأن الاستقلال يمكن الحصول عليه بوسائل سياسية. ولم ينتقل المتعاطفون نحو الثوريين إلا حين فشلت المحاولات المبذولة من أجل استصدار مشروعات قوانين من أجل الحكم الذاتى فى أيرلندا.

وبلغت المحاولة الهادفة إلى صد تيار الثقافة الإنجليزية بإحياء لغة الجيليك ـ وهى اللغة القومية الأيرلندية ـ مداها بتكوين الحركة السياسية الثورية المعروفة باسم الشين فين(١٨٩٠). وفى هذه الحالة، كما هو الأمر فى حالة الكثير من الحركات فى القرن التاسع عشر، أدت محاولات الحفاظ على ثقافة آخذة فى التآكل إلى ثورة جديدة. ولقد كان أرثر جريفث هو الذى حول الرابطة من أجل اللغة الجيليكية إلى حركة سياسية، إذ كان مثل وولف تون صحفيا وكاتب نشرات.

وكلمة شين فين معناها نحن أنفسنا. ولقد نادت باستقلال أيرلندا من خلال العمل داخل أيرلندا بجهود الأيرلنديين دون غيرهم. وكانت تسعى إلى إيقاظ وعى الأيرلنديين بتراثهم ولغتهم وثقافتهم وتفردهم.

ولقد أدت حماقة مجلس اللوردات فى تأخير إصدار مشروع القانون الثالث الخاص بالحكم الذاتى لأيرلندا عام ١٩١٢ إلى طوفان من التأييد للثوار الأيرلنديين فى مواجهة الدستوريين الأيرلنديين، كما أعطت البروتستانت فى ألستر الذين كانوا يخشون من السيطرة الكاثوليكية فى المستقبل فسحة من الوقت كى ينظموا أنفسهم ويتسلحوا. ووجدوا في شخص إدوارد مارسون زعيما حازما، إذ أعلن عام ١٩١٤ : لست آسفا على التدريب على السلاح الذى تلقاه أولئك الذين يعارضوننى فى

أيرلندا ، فليس لدى بالتأكيد أى حق فى الشكوى من ذلك ؛ إذ بدأت ذلك مع أصدقائى .

وبعد إعلان الحرب عام ١٩١٤ عُلق مشروع قانون الحكم الذاتى إلى حين . وفى يوم عيد القيامة من عام ١٩١٦ ، استولت جمعية ر . ي . ب . وجماعتان ثوريتان أخريان على مكتب البريد العمومى ونقاط إستراتيجية أخرى فى دبلن ، واحتفظوا بها لمدة أسبوع ، وأصدروا إعلانا قرروا فيه حق شعب أيرلندا فى ملكية أيرلندا ، وفى التحكم بلا قيد فى مصائر الشعب الأيرلندى كى يكون سيدا دون تجزئة .

وبذلك تأكدت الحركة من أجل استقلال أيرلندا بالدم ، وهوما دعم موقف الثوار الأيرلنديين كزعماء للكاثوليك الأيرلنديين ، كما عزز دعوتهم من أجل تسوية سلمية بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

كذلك فإن إعدام ١٦ من الثوار الذين تم أسرهم أعطى الحركة شهداءها ، وهذا أخر عنصر مطلوب لإنهاء الاعتدال وإثارة حرب أهلية على نطاق واسع . ففى قصيدة تسمى ستة عشر ميتا كتب و . ب . ييتس يقول : آه لو أنا تكلمنا كثيرا قبل أن يُرمى الستة عشر رجلا بالرصاص ، ولكن من بإمكانه أن يتحدث عن الأخذ والعطاء ، وما ينبغى وما لا ينبغى ، بينما يتجول هؤلاء الموتى هناك لتحريك المرجل الذى يغلى ؟

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى حين فشلت معاهدة فيرساى فى أن تتناول استقلال أيرلندا ، نشبت حرب عصابات هناك ، وسرعان ما اتسعت فصارت انقلابا واسع النطاق لأن زعماءها الكاثوليك كانوا يتمتعون بتأييد واسع .

لذا اعترف رئيس الوزراء البريطانى لويد جورج فى عام ١٩٢١ بمجلس الوزراء الأيرلندى الثورى الذى كان يسيطر سيطرة فعلية على مساحات واسعة من أيرلندا الجنوبية . ثم وقعت معاهدة كى تعطى أيرلندا الجنوبية مكانة حكم ذاتى تابع لبريطانيا واسم دولة أيرلندا الحرة ؛ غير أن ألستر قد استبعدت لأن جيش حرب العصابات الكاثوليكى الأيرلندى لم يكن قد دعم سيطرته فى الشمال . فانشطرت أيرلندا كما سيحدث بالنسبة إلى الهند بعد الحرب العالمية الثانية .

وكانت الجمعيات السرية الأيرلندية فى الكثير من النواحى انعكاسا لغيرها من الجمعيات السرية القومية التى ظهرت فى تلك الفترة. فلقد بدأت بالضغط من أجل الحصول على إصلاحات دستورية فى إطار القوانين الإنجليزية وانتهت بالقيام بالعمل الثورى ضد الجيش البريطاني، وانشقت إلى جماعات متناحرة أثناء المفاوضات مع إنجلترا. وبعد أن تم الاستقلال، رفض زعيم الشين فين دى فاليرا الاعتراف بالمعاهدة التى عقدت مع إنجلترا لعدة سنوات، برغم أنه أصبح بعد ذلك رئيسا لوزراء أيرلندا. ولقد تعلموا من خلال الكثير من مرات الإخفاق المريرة دروس الأمن، بل تعلموها بكفاءة حتى إن منظمة إل. ر. ب. التى تم إحياؤها نجحت فى تحقيق أهدافها طويلة المدى التى حددها أرثر ريفث بأنها: «منع إنجلترا من أن تمسك برقبة أيرلندا بإحدى يديها، وجعلها تخرج يدها الأخرى من جيب أيرلندا». وكانت الجمعيات الأيرلندية تحت قيادة رجال متعلمين من الطبقة المتوسطة شأنها فى ذلك شأن غيرها من الجمعيات السرية القومية فى أوربا حيث عولوا على الفوضى التى كانت سائدة فى القوانين الزراعية.

ولكن لا توجد ناحية ذات أهمية لم يتبعوا فيها الطراز الأوربى، غير أنهم لم ينجحوا قط فى التأثير فى الطبقات الدنيا فى المدن حيث إن تلك الطبقات تشعر نحوهم بالعداء، بل ربما تعاطفوا مع الإنجليز.

أما الجمعيات القومية السرية فى بقية أوربا، فكانت تعتمد فى الكثير من القلاقل التى أحدثتها فى القرن التاسع عشر، فى غالب الأحيان على تمرد جماهير المدن، إذ وجد المؤرخ البريطانى سير لويس نامير فى فحصه الدقيق لأسباب ثورات أوربا فى عام ١٨٤٨ أن معظم الثوار كانوا من بين مفكرى الطبقة المتوسطة الذين عولوا على الانفجار الشعبى الذى كان ينشأ فى الكثير من الحالات فى الأحياء الفقيرة المزدحمة فى عواصم الدول.

وكانت الثورة الفرنسية هى التى وضعت نموذج تمرد المدن. ففى عاصمة فرنسا، تآمر المتآمرون واعتلوا سدة الحكم ثم خلعوا منها بالانقلابات؛ فحيثما سارت باريس كانت الأمة تسير. ولقد أثبتت الثورة الفرنسية قبل عهد بونابرت أن مجموعة صغيرة من الرجال الحازمين مثل اليعاقبة قد استطاعوا الاستيلاء على

السلطة والاحتفاظ بها عن طريق استخدام عملائهم وجيوشهم لقمع المعارضة التى تواجههم فى الداخل والخارج .

المتساوون أو مايسمى بالمؤامرة :

لقد كانت الانتفاضة الفاشلة التى قام بها فرانسيس بوف نيابة عن الإسكالوتيين عام ١٨٩٧ هى بداية عصر الثوريين المحترفين ؛ إذ جعل رجال من أمثال فيليبو بوناروتى (١٧٦١ - ١٨٣٧) وأوجست بلانكى (١٨٠٥-١٨٨١)، وهم رجال غارقون فى حب الثورة والإعداد لها ومغرمون بطقوسها - جعلوا الجمعية السرية أداة للنزعة القومية .

وكانت سياسة رجل الثورة فى المدن واضحة القسمات، إذ كان يهدف إلى تشكيل جماعة من المتشددين لإحداث القلق عن طريق النشاط الإرهابى، وكذلك الاستعانة بتأييد ضباط الجيش المتعاطفين مع النزعة التحررية . لذا كان دأبه أن ينتظر حتى تُحدث المجاعة أو الركود الاقتصادى قلقا بين الطبقات الدنيا ثم يثير الشغب، ويستولى على النقاط الإستراتيجية فى المدينة (مثل مبنى البرلمان وقصر الحكم ومكاتب الصحف)، ويعلن أن جماعته من الثوار هم الحكومة المؤقتة ثم يقمع أى محاولة للثورة المضادة .

والشىء الجميل فى هذه الطريقة هو أنها لم تكن تحتاج سوى إلى قليل من المتشددين وقليل من التأييد الجماهيرى، هذا إذا كانت له ضرورة على الإطلاق . وكان الثوار المحترفون عموما ينظرون إلى الحكومة باعتبارها نوعا من المؤامرة يحيكه الأغنياء ضد الشعب الذى يفترض أنه جاهل وسلبى .

ولما كان هؤلاء الثوار متآمرين، عينوا أنفسهم نيابة عن الفقراء . فلقد كانوا يسعون إلى خلع الطغمة الحاكمة . وبعد الثورة كانوا يعلمون الشعب أنهم أى الثوار هم زعماؤهم الحقيقيون . ذلك أن بلانكى هو أول من نحت عبارة دكتاتورية البروليتارية أو الطبقة العاملة فى محاولة منه لتبرير الفترة التى تلى نجاح الثورة حين يكون الثوار المحترفون غير متمتعين بعد بتأييد الجماهير .

ولقد ظهر الثوار في عام ١٨٣٧ ، لأنهم افترضوا أنهم يتمتعون بتأييد الجماهير برغم أنهم لم يفعلوا سوى القليل من أجل ضمان هذا التأييد ، إذ كانوا يتآمرون في الفراغ ، وكان بلانكى نفسه من السخف بحيث يقسِّم زملاءه من المتآمرين إلى أعوام وفصول وأشهر وأسابيع وأيام ، يقودهم رجل يدعى يوم الأحد .

وبالرغم من أن طقوس الجمعيات القومية كانت فى غالب الأحيان مضحكة ، فإن هذه الجمعيات كانت أهم عوامل التغيير السياسى فى أوائل القرن التاسع عشر ؛ فلم يكن هناك أى شك فى فاعليتها فى وقت سادت فيه الفوضى .

ففى بلاد مختلفة ، وعلى الأخص إيطاليا أصبحت المحافل الماسونية هى أداة اليقظة السياسية بين أبناء الطبقة المتوسطة . ذلك أن أشهر الجمعيات السرية القومية فى أوربا كانت تحت تأثير الماسونية القوى ، فلقد اخترقوا تلك الجمعيات من أمثال الكاربونارى التى نشأت فى أوائل القرن التاسع عشر .

وبرغم أن الكاربونارى قد تبنوا الكثير من طقوس الجمعيات القديمة ، فإنهم كانوا فى الأساس تنظيما سياسيا يرجع عهده إلى فترة الحكم النابوليونى لإيطاليا . إذ تأسست محافلهم الأولى فى كابوا بين عامى ١٨٠٢ و ١٨١٠ بواسطة جماعة من الضباط الجمهوريين فى الجيش الفرنسى كانوا معادين لنمو البونابارتية .

وكانت وظيفة هذه المحافل الأولى هى تحريك المعارضة السياسية ضد الفرنسيين وكذلك الضغط من أجل الحصول على ضمانات دستورية . وجندوا أعضاءهم من بين ضباط الجيش الإيطالى وملاك الأراضى والموظفين . واستعار الكربونارى اسمهم والكثير من طرقهم من جمعية حرق الفحم النباتى التى ازدهرت منذ العصور الوسطى ، وتأثرت بالماسونية فى القرن الثامن عشر . وكانت مراسم دخول العضوية عند الكاربونارى خليطا من الطقوس التقليدية وتعريض العضو الجديد لمحنة عصب العينين والنار ومواجهته بالصليب والفأس .

وكذلك وُضع قَسَم العضوية عندهم على غرار قسم الماسونية ، وحظر على العضو كتابة أو نحت أو رسم أى شىء يخصه دون إذن مكتوب :

أقسم أن أعين أبناء عمومتي الطيبين إذا ما دعت الحاجة بقدر ما أستطيع، وألا أحاول القيام بفعل أى شيء مخل بشرف العائلة. وأوافق على أنى إذا ما شهدت شهادة زور تتعلق بى أن يمزق جسدى إربا، ثم يحرق ويبعثر رماد جسدى لتذروه الرياح لكى يكون اسمى عبرة لأبناء عمى فى كل أنحاء الأرض.

غير أن قسم الكاربونارى لم يكن سياسيا بشكل مكشوف؛ إذ لم يشتمل على كلمة تشير إلى غرض الجماعة، كما لاحظ مازينى فى دهشة وشك حين أصبح عضوا فى الجمعية عام ١٨٢٧ .

بيد أن الكاربونارى باعتبارهم من الطبقة المتوسطة كانوا يريدون لهذه الطبقة الاجتماعية التقدم. وانتشرت محافلهم من فرنسا إلى إسبانيا وإيطاليا واليونان، بل بلغت روسيا. وأينما حلوا كانوا يمثلون قضية اللبرالية فى مواجهة الحلف المقدس المقام للتحكم فى أوربا بعد هزيمة نابوليون عام ١٨١٥ . وفاز الكاربونارى بدساتير بعد سلسلة من القلاقل خلال عامى ١٨٢٠ و١٨٢١ فى إسبانيا وفى بعض الولايات الإيطالية، بل جلبوا الاستقلال لليونان.

وكانوا أشد تأثيرا حيثما جندوا شبابا من بين ضباط الجيش من أجل قضيتهم، حيث كان هؤلاء الضباط يتمتعون بشعبية بين قوات الجيش، وهو ما يمكنهم من إثارتهم فيقومون بالتمرد. وعلى أى حال فسرعان ما قامت القوى الرجعية فى أوربا بإسقاط الحكومات الدستورية الجديدة. وبانهيار آخر انقلاب من وحى الكاربونارى، وهو الانتفاضة الديسمبرية ضد نيكولاس الأول فى روسيا عام ١٨٢٥ ، أفل نجم الجمعية السرية الماسونية أو شبه الماسونية التى كانت تضم أفراد الطبقة المتوسطة.

وكانت النظم الدستورية فى إنجلترا والولايات المتحدة هى النماذج الاجتماعية التى اتبعتها جماعة الكاربونارى التى كانت دولية من حيث التنظيم، إلا أنها كانت قومية من حيث أهدافها. لذا فهى لم تنل أى تأييد جماهيرى. غير أنها أثبتت أن المؤامرات أو ثورات أوربا عام ١٨٣٠ التى قامت بها الطبقات المتوسطة ضد نظم الحكم قد استطاعت أن تنتزع تنازلات دستورية من القوى الرجعية إذا ماكان الجيش يشعر بعدم الرضا. ذلك أن نمطا ناجحا من التآمر قد تم وضعه. فقد نجحوا فى

بلجيكا وإسبانيا وبولندا وأجزاء مختلفة من ألمانيا وإيطاليا وسويسرا، حيث لم تعد الجمعيات مجموعات منعزلة من المتآمرين.

ووجد أولئك الذين تآمروا من أجل الفوز بتنازلات من أجل الطبقات أنفسهم بلا قصد تقريبا زعماء لأحداث شغب، فلقد استطاعوا جذب الناس وبخاصة فى المناطق الكبيرة التى يتكلم سكانها لغة واحدة، ورغم ذلك انقسمت إلى سلسلة من الإمارات الصغيرة كما هو الحال فى ألمانيا وإيطاليا، أو فى المناطق التى أجبرت مجموعات لغوية مختلفة على الانضواء تحت اتحاد غير مستقر كما هو الحال بالنسبة للإمبراطورية المجرية النمساوية.

ونتج عن الثورات التى نشبت عام ١٨٣٠ إيجاد أمة أوربية واحدة جديدة ألا وهى بلجيكا، كما وضعت عدة دساتير ليبرالية فى قارة أوربا. وربما كان أهم أثر لتلك الثورات هو أنها فصلت المعتدلين عن المتطرفين فى بلد مثل فرنسا، وما أن كانت الطبقة المتوسطة فى إحدى الإمارات أو الأمم أو الإمبراطوريات تنال قسطا من السلطة التشريعية، حتى تبدى حماسة بالغة لقمع الجمعيات السرية المتطرفة لاتقل عن حماسة أى نظام أرستقراطى.

ففى عام ١٨٣٠ حين انتشرت الثورة فى أنحاء أوربا انتشار العدوى حتى لم تكد عاصمة واحدة تخلو من العنف الجماهيرى، ولم تكد أمة تعانى دون أن تتمرد، حينئذ أصبحت الأهداف الاجتماعية المختلفة للزعماء القوميين شديدة الوضوح، كما حدث فى أيرلندا، حيث كان أولئك الذين تآمروا من أجل الحصول على الدستور يخالجهم الشك فى أولئك الذين تآمروا من أجل الانفصال، وكلاهما كان يخشى أولئك الذين تآمروا من أجل إحداث ثورة اجتماعية.

وفى مثل هذا الموقف الخطر الفوضوى، تستطيع النظم السلطوية دائما أن تستعيد السيطرة لأنها تمثل الشكل الوحيد المعروف للاستقرار. وهناك عادة ثورتان على الأقل فى أى وضع ثورى بعينه: الثورة الأولى تزيح النظام القائم، أما الثانية فتقرر أيا من الجماعات الثورية سوف تكون لها السيطرة على غيرها من الجماعات ومن ثم تشكل الحكومة الجديدة.

فالثورة الفرنسية التى نشبت عام ١٨٣٠ وضعت الطبقة المتوسطة الليبرالية فى سدة الحكم، وما أن تسلموا زمام الحكم حتى قلبوا ظهر المجن للثوريين المحترفين ولعمال باريس الذين أيدوهم. فسحبوا التنازلات التى قدموها للعمال عام ١٨٣٤ حين قام هؤلاء بتمرد ثان، وذبحوا عدة مئات منهم فى الثكنات.

وكان بلانكى هو بطل حركات الإضرابات الجديدة تلك لذا دخل السجن. وفى العواصم الأوربية الأخرى أيضا وجدت الجماهير أن الزعماء القوميين الذين قامت بمساعدتهم للوصول للسلطة قد انقلبوا على مؤيديهم خوفا من حدوث انقلاب آخر.

وفى نهاية الأمر، فضلت الطبقات المتوسطة وجود أى نظام مستقر، بما فى ذلك النظم المتسلطة، على أى نظام ليبرالى ضعيف. وكان الزعماء الجدد من الطبقات المتوسطة هم من أعضاء المنتديات الدستورية والثقافية. وقامت أندية سياسية مختلفة عام ١٨٤٨ ولكنها لم تدم فترة طويلة. غير أن الانقسامات الدينية بالتحالف مع أعداء النزعة القومية الدوليين أثاروا الصراعات بين تلك الأندية، فبددوا ما حققته من نجاح.

ولم تكن الشعوب التيتونية لتتفق فيما بينها بأكثر مما فعل كاثوليك أيرلندا والبرتقاليين أو الأورانجيين، وكانت نتيجة ذلك أن الإمبراطورية النمساوية المجرية وكذلك التحكم البريطانى فى أيرلندا، أمكنهما التحكم حتى القرن العشرين. وكان أول القرن العشرين هو حقبة الطبقة المتوسطة الثورية التى غالبا ما كانت تضطر إلى العمل تحت الأرض وتكوين جمعيات سرية كى تحصل على تنازلات من النظم الأرستقراطية وتفوز بالتمثيل فى البرلمان.

ولكن بعد عام ١٨٤٨ غيرت الجمعيات القومية السرية فى أوربا من طبيعتها، فما أن تم قبول الطبقات المتوسطة الأكثر ثراء داخل إطار الحكومة الأوربية الأرستقراطية حتى أصبحت بؤرة لغضب البروليتارية من البراجوزية الصغيرة.

وهكذا فإن المتآمرين من أمثال بلانكى الذى أنفق معظم عمره فى التآمر أو بين جدران السجن تمكنوا بمرور الوقت من نيل التأييد الجماهيرى لعمال باريس. وكانت عصبة بلانكى للعادلين وعصبة الخارجين على القانون- وهى جمعية سرية

تضم العمال الألمان فى باريس - هما إرهاصا للعصبة الشيوعية لماركس وأنجلز التى أسقطت المتعلقات الطقسية التى تلتزم بها جمعيات الأخوة القديمة، وهى التى وصفها ماركس بالسلطوية الخرافية.

وبمعنى من المعانى، فلقد كانت الجمعيات السرية السياسية بعد عام ١٨٤٨ دولية أكثر منها قومية. إذ كان ماركس وأنجلز، وهما من مواليد ألمانيا ومؤلفا البيان الشيوعى، ينادیان بحرب طبقية عبر الحدود الوطنية برغم أن كل انقلاب شيوعى تم تنفيذه بالفعل داخل إطار أمة بعينها.

ويعد تاريخ الحركة البلشفية بحق هو تاريخ المتآمرين الروس الذين أسهم البلانكيون فى تشكيلهم فى شكل جماعات صغيرة مدربة محكمة من الثوار، كما قلدوا الكاربونارى من حيث اجتذابهم لضباط القوات المسلحة وكذلك المتمردين الأيرلنديين فى استغلالهم الاستياء من الوضع الزراعى، وأخيرا قلدوا كوميونات باريس فى استخدامهم للطبقة الدنيا فى المدن.

وكان البلاشفة أنجح جمعية سرية قومية بين تلك الجمعيات. وبرغم ادعائهم تمثيل الطبقة العاملة فى كل مكان، فإن الثورة الشيوعية عجزت عن الانتشار بعد نجاح البلاشفة فى روسيا لسبب وحيد، هو أن البلاشفة كانوا روسا قبل أن يكونوا دوليين.

ولقد تخلى متآمرو الطبقة المتوسطة الذين ثاروا عام ١٨٤٨ عن التضامن الدولى لصالح التطاحن الوطنى، كما تخلى البلاشفة عن الثورة الدولية لصالح القوة القومية. إن أكثر الجمعيات السرية اتصافا بالنقاء الثورى فى أواخر القرن التاسع عشر هم الفوضويون. ولقد كان هؤلاء أيضا دوليين حسب إعلانهم لكنهم قوميون من حيث الإجراء ات. إذ كان الفوضويون يؤمنون بالعمل الثورى حسب التراث الذى خلفه بوف وبواروتى وبلانكى. ولما كان هدفهم المعلن هو قلب الحكومات، لذا فقد أجبروا على العمل وفقا لخطوط قومية. وأحد أوائل فلاسفة الفوضويين ميخائيل بوكانين (١٨١٤-١٨٧٦) يشارك بافوف الاعتقاد بأن الثورة الفرنسية ليست سوى إرهاصة لثورة أخرى أعظم وأكثر خطرا، وقد تكون الأخيرة.

ولم يدركوا أن الثورة الفرنسية قد أطلقت العنان فى العالم بدلا من أن تحقق

الحرية أو المساواة أو الإخاء . ولقد شعر الفوضويون بأن الثورة النهائية ستقوم بها حفنة من الثوار، يقلبون نظام الحكم، إلى أن تذوى جميع الدول القومية . وكانت طريقتهم هى العمل الجماعى، إذ قام من نصَّبوا أنفسهم فوضويين بقتل القيصر الإسكندر الثانى قيصر روسيا عام ١٨٨١ ، وقتل آخرون مثل رئيس فرنسا كارنو عام ١٨٩٤ ، والرئيس الأمريكى ويليام مكينلى عام ١٩٠١ ، محاكين بذلك الحشاشين القدامى فى عزمهم على ذبح الحكام .

ومع ذلك لم تذو الدول الأوربية بعد مقتل زعمائها كما حدث للممالك العربية . فبدلا من أن تحل أجهزة الحكم بها، قامت فقط بتغيير حكامها . وزعم أحد الفوضويين الفرنسيين إميل هنرى قبل إعدامه عام ١٨٨٤ أن الفوضوية لن تتحطم أبدا لأنها ضاربة بجذورها فى الأعماق، فقد وُلدت فى صلب مجتمع فاسد يتهاوى وينهار، فهى بذلك رد فعل عنيف ضد النظام القائم .

غير أن النزعة القومية أثبتت أنها أقوى من الفوضويين كثيرا، برغم سريتهم التى تتسم بالتعصب وطرقهم الإرهابية، فتحطمت الفوضوية كقوة سياسية . فإذا كان لجمعية سرية سياسية أن تنجح ينبغى عليها أن تسعى للسيطرة على النظام القائم، لا أن تحطمه . حتى البلاشفة قد اضطروا إلى تعيين البيروقراطية القيصرية من جديد لأنها كانت الجماعة التى تتمتع بالخبرة اللازمة لإدارة جهاز دولة كبيرة .

إن نظرية التآمر ، كما يقول المؤرخ الأمريكى ريتشارد هيوستاد، تكمن فى أعماق المجتمع الديمقراطى، إذ لابد من أن يبحث الناس عن أشرار سواء كان هؤلاء الأشرار حقيقيين أو أسطوريين لتفسير أمراض المجتمعات . ذلك لأن الديمقراطية بطبيعتها لا يمكن أن تكون ظالمة، فيمكن أن تعزى تلك المؤامرات لأى جماعة سرية، كرجال البنوك وصناع السلاح أو اليهود أو الكاثوليك أو الماسونيين أو الهراطقة أو الفوضويين أو الشيوعيين .

بمجرد ذكر هؤلاء يسود الظن بأنها تتمتع بالسلطة . وحين تُكتشف مؤامرة ضد الحكومة، تُشيع الحكومة الخوف منها على أنها مؤامرة ضد الشعب، لكنها ينبغى أن تبرهن على قوتها عن طريق ارتكاب أعمال إرهابية أو تقديم شهداء إذا كان لها أن

تنال الدعاية اللازمة لدى شرائح من الشعب كى يقبلوا زعامتها لهم فى الانقلابات التى ستقوم بها فى المستقبل. (فنجاح البلاشفة على سبيل المثال، يرجع إلى قبول عمال موسكو وبتروجراد لهم كقادة ناشئين بعد ما حققوه فى ثورة عام ١٩٠٥). وإذا ما نجح الانقلاب الذى تقوم به فإن الجمعية السرية تصبح هى الحكومة.

وعلى هذا، فإن الفوضويين الذين يعلنون أن جميع الحكومات ما هى إلا مؤامرات ضد الشعب، يعدون متسقين مع أنفسهم فى بقائهم جمعية ثورية سرية، خارج السلطة بشكل دائم، لأنهم لا يمكنهم بسبب ما يعلنون أن يشكلوا أى حكومة قومية من أى نوع.

ولقد تغذت الجمعيات السرية السياسية التى ظهرت فى القرن العشرين على الكراهية وأحلام الغزو بأكثر مما نمت بفضل الظلم الحقيقى.

وفى آسيا والشرق الأوسط وإفريقيا سارت الجمعيات السرية القومية على النمط الأوربى فى القرن التاسع عشر القائم على تمرد الطبقة المتوسطة ضد الإمبريالية يساندها التأييد الشعبى، غير أن نظريات الكمال والعنصرية فى أوربا قد أضاعت فى القرن التاسع عشر الهدف أمام الجمعيات السرية القومية.

فالفاشيون الإيطاليون الذين كانوا أعضاء فى مؤامرة برلمانية سرية بزعامة موسولينى قبل أن يصبحوا حكام إيطاليا وأدوات للإمبريالية الإيطالية، كانوايتمسكون بوجود نزعة قومية حادة أثبتت جاذبيتها لدى الجماهير الإيطالية.

وحاكى النازيون ذلك النموذج. فلقد راقت النازية كجماعة قومية علنية للينابيع المظلمة المتمثلة بمعاداة السامية وتفوق الجنس الآرى. وبرغم أن زعماءهم كانوا معلومين، فإن مؤامراتهم من أجل الاستيلاء على الحكم ظلت طى الكتمان. ومع ذلك فإن الفاشيين فى كل من إيطاليا وألمانيا عملوا للاستيلاء على مقاليد الدولة علنا من خلال ضعف النظام الديمقراطى النيابى. إذ استخدموا الأساليب الإرهابية برغم أنها لم تصل إلى حد شن حرب العصابات، إلا أنهم ما كانوا ليستولوا على السلطة دون تأييد شعبى واسع النطاق.

إن الجمعيات القومية السرية التى أضعفت إرادة فرنسا فى مقاومة الهجوم

الفاشى عام ١٩٤٠ كانت تسير على نمط النموذج الإيطالى والألمانى لقلب الجمهورية الثالثة للحصول على أغلبية من الفرنسيين، إذ عملت من خلال النمط الكلاسيكى التقليدى الذى تتبعه الجمعيات السرية القومية فى القرن العشرين، والذى يجتذب تأييد التقليديين من الطبقات كافة ممن يخشون من حدوث مؤامرة دولية يقوم بها الرأسماليون اليهود أو الشيوعيون البروليتاريون.

وكان جهاز الدعاية الرئيس الذى استخدمه الجناح اليمينى هو صحيفة ليون دودى المسماة العمل الفرنسى. إذ ركزت تلك الصحيفة من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩٤٤ على تلطيخ سمعة السياسيين الجمهوريين أو اليساريين، وكذلك المسئولين لكى تضعف إيمان الشعب الفرنسى بالديمقراطية كنظام للحكم.

وكان دودى يندد فى أعمدته بالوزراء الذين تضمهم الحكومة باعتبارهم مرضى بالجنس يجهرون بشهواتهم وزناة من أحط طراز ومخنثين من أرباب الصالونات بل ومرضى بالزهرى وعاهرات أو حثالة المواخير.

وكذلك اتهم الشرطة وجهاز الموظفين بالتآمر مع السياسيين كى يقوموا بقمع الجناح اليمينى الفرنسى. وفى عام ١٩٣٥ وتحت ستار الدخان القذر الذى نشره دودى بدعايته ضد ما أسماه الديمقراطية القذرة، شكل الأعضاء عن العمل الفرنسى تنظيما سريا شبه عسكرى عرف شعبيا باسم القلنسوة لأن أعضاءه فى بعض الأفرع الموجودة فى مدن الأقاليم كانوا يرتدون قلانس كى يخفوا شخصياتهم كما يفعل رجال الكلان. وقد أقيم التنظيم الذى استمد قدرا كبيرا من الجمعيات السرية القائمة على أسس عسكرية.

وكان يهدف إلى تعبئة ١٢٠٠٠٠ عضو، أى ما يقرب من قوة البلاشفة فى الثورة الروسية. وكانت لدى التنظيم كتائب إعدام للتعامل مع الخونة والأعداء؛ إذ إن أعضاء فرع المخابرات بالتنظيم كانت لديهم تعليمات تقول: يجب أن يكون لدى العضو شعور بالواجب وإدراك الظروف وأن يتحلى بالأمانة بحيث يعتبر كل شخص نفسه متحررا من أى التزام أخلاقى واجتماعى حين يكون مكلفا بتنفيذ مهمة ما. فيجب أن يسلم نفسه تماما لمهمته دون تحفظ، ويجب استبعاد أى تفكير

فى العفو عن حدوث أى تقصير . ذلك لأن أى شخص يدخل هذا الفريق يجب ألا يتركه .

وقام تنظيم القلنسوة باستيراد الأسلحة بما فى ذلك المدافع الرشاشة والديناميت من ألمانيا وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا . وفى سبتمبر عام ١٩٣٧ ، خطط التنظيم لانفجارين وقعا فى مكاتب جمعيات أرباب الصناعة فى منطقة الإيتوال فى باريس ، على أمل دفع كبار رجال الأعمال لتأييد الجناح اليمينى .

غير أن القبض على زعيم القلنسوة يوجين دى لونكل فى أكتوبر أدى إلى اكتشاف أهداف التنظيم ومخابئ أسلحته وذخائره .

وكان على جناح اليمين ، وقد جُرِّد بصورة فعالة من سلاحه ، أن ينتظر حتى قيام الحرب العالمية الثانية كى يبث الانهزامية بين صفوف الجيش الفرنسى للترحيب بهتلر وموسولينى وبيتان وحكومة فيشى .

وكان اليمينيون بالطبع قوة يعتد بها فى كل من شمال فرنسا وفيشى أثناء سنى الحرب برغم أنه كان أمرا مستغربا أن تقبل جماعة قومية مثل القلنسوة السيطرة الألمانية على فرنسا ، حسب تعليق كتبه أحد الكتاب الساخرين فى مجلة لى كانار فى عام ١٩٣٦ ، فقال : هناك أناس يدهشهم أن يسمعوا الفوق قوميين الذين يريدون ، حسب قولهم فرنسا للفرنسيين ، وهم يصيحون قائلين : عاش موسولينى ! وعاش هتلر ! ومع ذلك فإن هذا الاتجاه تقليدى ، ذلك أن المغالين فى الوطنية كثيرا ما فضلوا فى القرن ونصف القرن الأخير القوى الأجنبية على حكومة بلادهم ، ومازالت نظريات التآمر مزدهرة فى فرنسا .

وربما كان أحدث مثال وأكثره إثارة للاهتمام هو تلك النظرية التى استبدلت بالقلنسوة بروتوكولات حكماء صهيون ، ونظرية رجال المصارف اليهود . وهناك نظرية تقول بأن عددا من الساسة الذين هم فى السلطة ينتمون إلى جمعية سرية تهدف إلى السيطرة على فرنسا ، (وبقية العالم بمرور الوقت) بالاعتماد على مساعدة البيروقراطيين والتكنوقراطيين . ويقال إن المؤامرة بدأت عام ١٩٣١ حين شكل أحد المسئولين ، ويدعى جان كوترو ، جماعة تثبت النظام عن طريق توافق يمكن بواسطته تحقيق حياة جمعية كاملة عن طريق الاستخدام اللين للسلطة ، وهو

نوع من الاشتراكية التهدوية القائمة على التدرج الهرمى والتخصص فى الوظائف. وقام الفنيون التكنوقراطيون بتصنيف المتآمرين المحتملين لأنهم مثل كوترو جميعا طلبة سابقون متميزون فى الكلية الفنية بباريس.

وقد لا تدين هذه النظرية إلى الواقع بقدر ما تدين للخوف الشعبى من الفنيين الذين لا ملامح لهم. ففى هذا العصر الذى تتحكم فيه الحركة الذاتية للآلات ليس من المدهش أن يثير الفنيون من الفزع قدرا أكبر مما يثيره الفوضويون.

وتقدِّم لنا رابطة أخوة الأفريكان أكمل مثال على جمعية سرية قومية استولت على زمام الحكم بوسائل تهدوية ووضعت برنامجها موضع التنفيذ. ولقد قامت هذه الجمعية بين الأفريكان من أصل هولندى بعد أن فقدوا استقلالهم فى حرب الإنجليز والبوير (١٨٩٩-١٩٠٢)، وأصبحوا جزءا من جنوب إفريقيا متحدة، وكانوا من حيث العدد أقلية من السكان البيض، غير أنهم اعتقدوا أن من الممكن أن يكونوا أغلبية فى المستقبل.

وتأسست تلك الرابطة عام ١٩١٨ كجمعية أفريكانية ثقافية. ومع مطلع عام ١٩٣٤ أصبحت جماعة قومية منشقة داخل الصفوة الحاكمة؛ تهدف إلى الانفصال عن شعب جنوب إفريقيا الناطقين بالإنجليزية، وكذلك الانفصال عن الكومنولث. وأعلنت أن علاج أدواء جنوب إفريقيا يكون فى أن تحكم رابطة الأفريكان جنوب إفريقيا. وبرغم ذلك، ظلت جنوب إفريقيا تابعة للكومنولث البريطانى، وقاتلت من أجل بريطانيا فى كلا الحربين العالميتين تحت قيادة الجنرال السابق فى حرب البوير سمتس الذى كان عازما على أن يبقى على جنوب إفريقيا موحدة ويحافظ على السلام بين البيض الناطقين بالإنجليزية والأفريكان.

وفى عام ١٩٣٨ كانت رابطة الأفريكان قوة دافعة وراء الإعادة الرمزية للنهج العظيم لعام ١٩٣٨ الذى انتقل بموجبه أفريكان إقليم الكاب نحو الشمال ونجوا من الحكم البريطانى. ولقد ألهبت احتفالات هذا العيد المئوى قوى القومية الأفريكانية التى بدأت تتطابق مع العنصرية النازية. ودفعت الرابطة د. مالان (وهو عضو مؤسس للرابطة ورئيس للوزراء من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٤) دفعته إلى الثناء على تنظيم أفريكانى جديد شبه عسكرى يسمى الأوسيبر إندواج والذى قال

إن عدد مؤيديه بلغ ٤٠٠,٠٠٠ وهو ما يزيد على العدد الكلى لقوات جنوب إفريقيا المسلحة.

وفى عام ١٩٤٠ حين بدا أن الألمان قد كسبوا الحرب فى أوربا ووقفت بريطانيا والكومنولث وحدهما، هدد القوميون بالتمرد مع الأوسيبر إندواج. غير أنه بدخول الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا وكذلك هزائم ألمانيا فى إفريقيا وروسيا، أدارت الرابطة ظهر المجن للأوسيبر إندواج.

ومن الحذق أن التنظيم أدرك أن فرصه للاستيلاء على الحكم بطريقة ديمقراطية كحزب قومى من سمتس الطاعن فى السن أفضل بكثير من فرصه فى قيادة انقلاب ناجح مؤيد للنازيين. ولقد حلل ألان بيتون دوافع الرابطة تحليلا جيدا، وهو ربما يعد أشهر معارضيها اليوم، إذ قال: «كانت الرابطة تسعى للحصول على السلطة عن طريق اللعب على المظالم، وكذلك استغلال مثيرى الشغب من بين المغالين فى الوطنية».

ولا شك فى أن كل هذه العوامل كانت مجتمعة، وأيا كانت هناك من أسباب فإن الرابطة استمدت قدرا كبيرا من قوتها من الكراهية التى تراكمت عبر «قرن من التصرفات الخاطئة». وكانت علاقة الرابطة بالنزعة القومية الأفريكانية علاقة حيوية وإن كانت غامضة. فلم يكن كل عضو فى الحزب القومى عضوا فى الرابطة، بل إن بعض الأعضاء نددوا بالرابطة قلبا وقالبا. ولقد أبقت كل من الرابطة والحزب القومى بالطبع على الجراح دون التئام، ولعبا على مظالم الماضى، ولكن من ذا الذى بإمكانه إنكار وجود تلك المظالم ؟! غير أن سمتس رأى أن الرابطة تنظيم انقلابى، حتى إنه فى عام ١٩٤٤ حظر على موظفى الدولة الانضمام إليها، إذ كان يخشى طرقها فى الاختراق، ورأى أن من الممكن أن تسيطر على مقدرات الحكم، سواء كان بطريقة سرية عن طريق البيروقراطية أو علنا من خلال الحزب القومى عن طريق صناديق الانتخابات.

وأيا كان الأمر، فإن الحظر الذى أصدره سمتس لم يوقف قوة الرابطة المتعاظمة بالتدريج. ولقد حققت الرابطة أهدافها حينما وصل الحزب القومى إلى

السلطة عن طريق صناديق الانتخاب كما يبدو بأغلبية دائمة تحبذ سياسته الخاصة بالفصل العنصرى وذلك عام ١٩٤٨ .

وبرغم أن الرابطة ماتزال جمعية سرية ، فإن السياسة الرسمية المؤيدة للقومية المتطرفة والفصل العنصرى هى سياستها . فالترقية فى السلم الوظيفى والقضائى وكذلك فى صفوف الحزب القومى تعتمد على عضوية الشخص المخلصة فى الرابطة إلى حد كبير . وفى عام ١٩٦٤ وجدت لجنة مكونة من رجل واحد عينتها حكومة جنوب إفريقيا للبحث فى التنظيمات السرية ـ وجدت أنها «غير مذنبة فى أى من التصرفات المذكورة فى حدود اختصاص اللجنة» . ولقد اشتملت هذه الاتهامات على محاولات من أجل السيطرة على مقر رئيس الوزراء والخيانة والمحسوبية وقلب نظام الحكم بالدولة وفساد الأخلاق .

ووصف التقرير الذى قدر عدد أعضاء الرابطة بـ ٦٧٦٨ نظامها بأنه يتكون من ٤٧٣ قسما محليا ، يتكون كل منها من عدد يتراوح بين ٥ و ٥٠ عضوا . كما أن العضوية قاصرة على البالغين من الذكور البيض من البروتستانت الناطقين باللغة الأفريكانية ممن تجاوزوا الخامسة والعشرين من العمر . وكان انضمام الماسونيين محظورا . وكان العضو يتعهد فى حفل مراسم بسيط بألا يكشف عن عضويته أو عضوية غيره وألا يكشف عن أى شىء قد يعلمه من الوثائق الخاصة بالرابطة ، أو مناقشاتها أو قراراتها أو أنشطتها ، ويتعلم أن أعضاء الرابطة هم أفريكان بحكم رسالتهم ويرغبون فى تمثيل أفضل ما فى أمتنا ويقومون بخدمته .

ويمثل الأفريكان فى الواقع بقيادة الرابطة أشد الجمعيات السرية معاداة للمساواة على مدى التاريخ ، برغم أنهم يظلون إحدى جماعات الأقلية . ولقد وصلوا إلى السلطة بالطرق السلمية لكنهم على استعداد لأن يقاتلوا حتى الموت ضد أى محاولة تقوم بها الأغلبية السوداء من أجل تحقيق المساواة مع الأقلية البيضاء القومية .

غير أن الكثير من طرق الجمعيات السرية القومية الحديثة قد تكونت بواسطة الثورة الفرنسية التى أطلقت العنان للنزعة القومية فى شتى أنحاء العالم . وما زالت النزعة القومية حتى اليوم تكتسح الكثير من بلدان العالم . كذلك فإن بقايا حريق

الفاشية قد أضاف وقودا زاد نارها اشتعالا . فحيثما تحكم أقلية ما أغلبية عنصرية أو عقائدية أخرى تتآمر جمعية قومية سرية تمثل تلك الأغلبية لكى تحصل على السلطة، وتعتمد شرعية وسائلها أو عدم شرعيتها على فرص قيامها بثورة. وهكذا فعل الزنوج فى زنزبار عام ١٩٦٤ فنجحوا فى طرد حكامهم العرب عن طريق تمرد عنصرى قومى قامت به الأغلبية أشعلت شرارته جمعية سرية مدربة على الطرق الثورية .

ولكن الجماعات التى ليس لديها سوى أمل ضئيل فى النجاح كما هو الحال بالنسبة للقوميين الإسكتلنديين والولزيين، فلم تقم بأكثر من تقديم مرشحين لدخول الانتخابات. وحينما تخشى أقلية ما عنت الأغلبية فى بلد بعينه قد تتآمر أيضا من أجل الحصول على الاستقلال عن طريق الانفصال أو التجزئة. فأكراد العراق والناجا فى الهند على سبيل المثال تقودهم جمعيات سرية فى كفاح كل منهما من أجل الحصول على الاستقلال. ولاتوجد حدود لمطالب جماعة من أجل الحكم الذاتى بأن تنظر إلى نفسها على أنها أمة. ويمكن إقناع أى جماعة بأنها أمة منفصلة لا تقبل التجزئة عن طريق دعاية تقوم بها جمعية سياسية صغيرة مستعدة لأن تقود تلك الجماعة للحصول على الاستقلال.

وفى عالم منشطر إلى مناطق متنافسة على النفوذ مثل الأمريكان والروس والصينيين وبدرجة أقل البريطانيين والفرنسيين والمصريين والكوبيين، فإن المتآمرين السياسيين لا يجدون عناء كبيرا فى الحصول على مدد مالى وعسكرى من القوى الأجنبية. ويمكن أن يستغل مثيرو الشغب المدربون السخط الجماهيرى فى أى منطقة معينة أو بين أفراد جماعة ما لإحداث تمرد، وتمكينهم من الاستيلاء على السلطة.

فما زالت النزعة القومية هى الصيحة التى تجمع جماهير الشعب حول المتآمرين، وستظل الجمعية السرية أداة رئيسة لإحداث التغيير إلى أن تخبو نارها.

الجمعيات السرية الصينية

بربارة إى. إدوارد

فى شهر يونية من عام ١٩٠٠، كانت الجالية الأجنبية فى بكين بأكملها تحت الحصار، وأكثر من ٣٠٠٠ شخص من بينهم (القساوسة الأجانب وأسرهم وأعضاء البعثات التبشيرية وكذلك من اعتنقوا المسيحية على أيديهم من الصينيين) قاموا باللجوء إلى الممثليات الغربية خوفا من القوات الإمبراطورية لحكومة المانشو بعد أن شعروا بالصدمة نتيجة لقتل السكان الغربيين الأوربيين وغيرهم وتدمير ما لهم من ممتلكات.

ولقد تسبب هذا الحصار نتيجة وسائل الإرهاب التى مارسها «الملاكمون»، وهو الاسم الذى أعطى لجمعية سرية معادية للأجانب كانت حكومة المانشو قد نددت بها فى أول الأمر. وانتهى الحصار فى بكين بعد ٥٥ يوما بوصول قوات إنقاذ بريطانية، وروسية، وأمريكية وفرنسية، وكذلك بعد فرار رجال بلاط المانشو.

غير أن دافع حكومة المانشو قد حير المراقبين الغربيين فى ذلك الوقت، كما أكد رأيهم بأن الصين بلد غير مستقر بشكل مزمن، فهى مليئة بشبكة معقدة من التنظيمات الإجرامية، ولها حكومة تنتمى لعصور الظلام. وأخذوا ينظرون إلى الصينيين باعتبارهم «سماويين منحوسين» مزودين بميل فطرى لتنظيم الأنشطة السرية، وهى نظرة ربما كان من الممكن تحسينها بقراءة خاطفة للتاريخ وببعض الفهم للتركيبة الصينية الاجتماعية التقليدية.

غير أن انتفاضة الملاكمين كانت قد سبقتها سلسلة طويلة من الاعتداءات ضد الصين قامت بها القوى الأجنبية، ذلك أن انتصار إنجلترا السهل فى حرب الأفيون الأولى (١٨٤٢) قد أشعل شرارة التنافس على الأراضى شمل تقريبا ضم جميع الأراضى الأجنبية الخاضعة للصين، ثم بلغ حد الاستيلاء على أراض صينية صرفة،

وتلت ذلك سلسلة متتابعة من المعاهدات المتصاعدة حصلت بموجبها جميع القوى الأوربية كل بدورها، بالإضافة إلى الولايات المتحدة واليابان، على امتيازات تجارية وسياسية خاصة. كما استخلصت بعض هذه القوى امتيازات من أجل المبشرين التابعين لها، فحصلوا على حق الإقامة فى الصين وأن تتم محاكمتهم حسب قوانين بلادهم الأصلية.

وكان أكثر الأعمال عدوانية وخرقا للقانون هو ذلك الذى تمكن به الألمان من السيطرة على موقع تسينجاتو فى مقاطعة شانتونج، وكان هذا هو أحدث الأعمال العدائية فى عام ١٨٩٧.

وكان أول ظهور للملاكمين فى المقاطعة نفسها فى وقت مبكر من العام التالى. غير أن الملاكمين كانوا أولى الحركات الحديثة المعادية للأجانب التى قدّر لها أن تبقى بعد زوال النظام الإمبراطورى وأن تستمر حتى القرن العشرين.

ولكنهم من الناحية التنظيمية، كانوا يمثلون تراثا أكثر قدما. لقد كانت تربة الصين، بل وكل مكان وجد فيه صينيون بأعداد كبيرة، خصبة بصفة خاصة لتنمية جمعيات غير رسمية. وما الجمعيات السرية إلا مجرد مثال من بين العدد الضخم من تلك التنظيمات(فهناك جمعيات الإحسان، وجمعيات الائتمان والإقراض وجمعيات المهنيين والحرفيين وكذلك الجمعيات الترفيهية والتعليمية التى ازدهرت بين الصينيين فى ألفى السنة الماضيين).

ولكن لا يوجد ما يثير الغرابة فى ذلك. ففى أوربا الغربية أيضا، كانت مسائل مثل نظم التجارة والصناعة وبناء الطرق، وكثير من نواحى النظام العام وإجراءات الرفاهية الاجتماعية لعدة قرون، هى مجال الجمعيات التطوعية الخاصة. وفى الواقع حين حدث اتصال بين أوربا والصين لأو ل مرة، كان هناك الكثير من السمات المشتركة، مع اختلاف رئيس هو أن الصين تتحمل أكثر من أى دولة أوربية باعتبارها أكثر سكانا.

وحتى القرن الثامن عشر كانت الصين أكثر تقدما من الناحية التكنولوجية. فحتى ذلك الوقت، كان النظام الاجتماعى الصينى فى واقع الأمر، أكثر تعقيدا من

النظم الاجتماعية الغربية المعاصرة ، أى حكومة أكثر رشدا وأكثر تمثيلا كما كانت هناك درجة أكبر من التطور .

ولولا الثورة الصناعية لما تقدمت أوربا تكنولوجيا وعسكريا واقتصاديا ، وبذا طورت طرقا فى الحكم أكثر عقلانية ، ومدت مجال الإدارة الرسمية إلى ماكانت حتى الآن مجالا خاصا . وأثناء ذلك احتفظت الصين بنظامها الاجتماعى التقليدى وفلسفتها فى الحكم ، التى أصبحت مع الوقت أقل كفاءة فى وجه التغير الذى جاء مع القرن التاسع عشر فأعطى مجالا متزايدا لخلق جمعيات خاصة ، منها الجمعيات السرية . وهكذا فإن الفترة التى بدأ الغرب يتطور فيها ، بدا أن الصين تجمدت ، بل وازدادت تخلفا . وتفسر هذه الحقيقة سوء الفهم المتبادل والعداوة التى سممت العلاقة بين المنطقتين .

وفوق ذلك ، لم يكن لدى الغرب المبدأ الذى يمنعه من الاستفادة سياسيا واقتصاديا من التفوق المادى الذى أصبح يتمتع به فى ذلك الوقت بالتحديد .

غير أن التاريخ الحديث وحده لا يكفى لتفسير قوة جمعيات الصين السرية ، التى تضرب بأصولها فى أعماق الزمان ، والتى اعتمد نجاحها وبقاؤها على أحوال بنية الصين التقليدية وتركيبتها الاجتماعية ، وعلى الأخص الملكية الإمبراطورية وكذلك البيروقراطية والتنظيمات الدينية التقليدية .

ويرجع التراث الصينى بداية الملكية إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، أما النظام الإمبراطورى بمعناه الحقيقى فيرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، إذ شهدت هذه الفترة أول توحيد للدولة تحت حكم أسرة شى أن ، وتركزه تحت حكم أسرة هان عام ٢٠٢ ق . م . وكان الملك من الناحية النظرية حاكما مطلقا وهو المصدر الوحيد والمنظم للسلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية .

وبما أنه « ابن الشمس » فهو لايمكن أن يخطئ . وفى الوقت نفسه ، وحسب مبادئ كونفوشيوس ، كان من المنتظر منه أن يقدم للشعب قدوة أخلاقية تتسم بالكمال ، وأن ينال ثقتهم عن طريق إحسانه وصلاحه وفضيلته . وكان الحاكم الذى يفشل فى أداء هذه الواجبات ، يقال إنه أخل بتكليفات السماء ، ويصبح واجب الشعب حينئذ مقاومته بل خلعه عن العرش .

وكانت فكرة صلاح الإمبراطور مرتبطة ارتباطا وثيقا بمعتقدات عن بناء الكون ككل، بحيث إن الكوارث الطبيعية (مثل الفيضانات) أو النذر (مثل النيازك) كان يُعتقد أنها تشير إلى أن الإمبراطور قد قصر فى أداء واجباته، وبذلك كانت الكوارث أو النذر فى حد ذاتها أحيانا تعد سببا كافيا للتمرد. فلا غرابة إذن فى أن الفترة التى شهدت هذا التطور فى النظرية السياسية قد شهدت أيضا أول تسجيل لانتفاضة قامت بها جمعية سرية.

ففى عام ٩م استولى على عرش الصين غاصب اسمه وانج مانج الذى أدخل إصلاحات جذرية فى نظام الضرائب والربا والتجارة، وملكية الأرض. فأثارت هذه السياسات سخطا شعبيا كبيرا، فأعلنت جمعية سرية تسمى «الحواجب الحمر»، (حسب الطلاء الذى كان أعضاؤها يستخدمونه أثناء المعارك)، أنها كرست نفسها تماما لتحقيق هدف القيام بانقلاب ضد هذا الغاصب.

ويبدو أن «الحواجب الحمر» الذين ظهروا فيما يعرف الآن بمقاطعة شانتونج، قد لعبوا دورا مهما فى التمرد الذى أدى إلى اغتيال وانج مانج، وتأسيس عائلة إيستر أو التى سميت فيما بعد بأسرة هان فى عام ٢٥م. ولكن بعد نجاح التمرد ظل «الحواجب الحمر» يتصرفون كقطاع طرق يقومون بأعمال السلب والنهب. وكان لابد من قمعهم، وبمرور الوقت أصبح قمعهم ضروريا وتم ذلك بحيلة بسيطة، إذ إن جنود الإمبراطور هم أيضا قاموا بطلاء رموشهم باللون الأحمر، و تم القضاء التام على الحواجب الحقيقيين أثناء البلبلة التى تلت ذلك.

ومن الناحية العملية، بالطبع كان من المستحيل على الإمبراطور أن يحكم بلدا بمثل اتساع الصين بشخصه، فكانت الأسرتان الأوليان هما بداية طريقة الحكم عن طريق البيروقراطية فى طول البلاد وعرضها من الموظفين الرسميين الذين يتصرفون بناء على ما يرتئون، رغم أنهم مسئولون أمام الإمبراطور. وبقى النظام البيروقراطى قائما حتى القرن العشرين، رغم أحداث التمرد، وفترات الانهيار الحكومى وحركات الإصلاح المختلفة.

ولهذا النظام جانبان، هما طريقته فى تعبئة موظفيه والمدى الذى يبلغه فى السيطرة، وكلاهما له علاقة خاصة بتطور الجمعيات السرية، إذ كان الموظفون يتم

اختيارهم من خلال إجراء اختبارات عامة تحريرية، وكانت هذه الاختبارات مفتوحة نظريا أمام الجميع بغض النظر عن الناحية الطبقية. ومن الطبيعى أنه لم يكن أى شخص يحضر هذا الاختبار يتمكن من النجاح، وكان معنى هذا وجود عدد كبير من الرجال المتعلمين بالمعنى الحرفى، ومع ذلك لا يتمكنون من إيجاد وظائف لهم فى الخدمة المدنية أو العسكرية. وفى أوقات ضعف أو فساد السلطة الإمبراطورية، قد يجد مثل هؤلاء الرجال إغراء فى الانضمام إلى الفلاحين فى معارضتهم للحكومة. وكان من الوارد أيضا أن تستفيد الجمعيات السرية من زعامتهم.

ولم تخترق البيروقراطية القرى لأن عددا قليلا من مكاتبها يوجد فى أسواق البنادر. وكان هناك إيمان حقيقى بأن الحكومة لا ينبغى لها أن تهتم بتنظيم حياة الناس اليومية، ويرجع ذلك جزئيا إلى هذا الاعتقاد نفسه، كما يرجع جزئيا إلى بطء المواصلات، لذا فإن الجزء الأكبر من نشاط الناس العاديين الذى كان يتركز فى القرى كان بعيدا عن قبضة الحكومة المركزية. وهنا أيضا تسنح الفرصة للتنظيمات السرية للقيام بتنظيم ناجح للانقلابات والجريمة، بواسطة جمعيات سرية بالضرورة.

ويعتمد أى تنظيم يتحدى السلطة المستقرة من أجل بقائه على ولاء أعضائه الذين يكونون عرضة بصفة خاصة للاستنكار. ويعد استخدام الطقوس إحدى الوسائل القوية التى تضمن التضامن الجماعى، فولاء الفرد للطقوس له قدرة تمييز المشتركين عن بقية العالم مؤكدا على تطابقهم بعضهم مع بعض. وتزيد فاعلية هذه الوظيفة بحيث تتخذ المراسم شكل طقس متكامل يعتقد أن العالم الخارق للطبيعة مشترك فيه (كما هو الحال بالنسبة لأشهر الجمعيات الصينية السرية).

ويعتمد الشكل الخاص الذى تستخدمه الجمعيات السرية الصينية على اثنين من معايير الفكر الدينى الثلاثة التى كانت توجد جنبا إلى جنب فى المجتمع بصفة عامة، ألا وهى الطاوية والبوذية وسلسلة الطقوس والمعتقدات التى شاع تلخيصها تحت اسم الكونفوشيوسية. لقد قدم التعايش بين هذه التقاليد الدينية المختلفة للجمعيات السرية مجالا ثريا وبخاصة بالنسبة للنزعة الرمزية؛ فمعظم الجمعيات

نهلت من الطاوية (وهى منهج فلسفى أسسه لاوتزو فى القرن السادس الميلادى وأقام صلة بين الكيمياء والسحر الشامانى - وهو اعتقاد كاهن يسمى الشامان له قدرة السيطرة على الأرواح الشريرة والخيرة وشفاء الأمراض وغير ذلك) وأيضا البوذية (التى أدخلت إلى الصين من الهند فى نهاية أسرة هان الثانية، ولكنها لم تنتشر لعدة قرون) .

واستطاعت الكونفوشيوسية، باعتبارها الأساس الفلسفى والطقسى للنظام الإمبراطورى الرسمى، بالكاد أن تقدم الأساس الطقسى لعدة أيام، وأُجبرت على أن تعمل تحت الأرض لتتجنب اضطهاد الحكومة لها. وهكذا فإن بعض طوائفها اضطرت من وقت لآخر لأن تتخذ طابع الجمعيات السرية. ولقد واجه حكام أسرة هان المتأخرون مشقة شديدة فى الاحتفاظ بتفوقهم، وهذا راجع جزئيا إلى أن الولايات الأقدم كانت لا تزال متشبثة باستقلالها التقليدى.

وكانت هذه فترة اضطرابات شهدت قيام جماعات أخرى من المتمردين، مثل الخيل النحاسية أو القصبات الحديدية، (ويُقصد بها قصبة القدم). وقد تكون هذه الحركات مرتبطة بالطاوية التى كان كهنتها فى أغلب الأحيان على خلاف مع الحكومة.

وفى حوالى عام ١٧٠م ظهر زعيم فى شمال شرق الصين يسمى شانج شوه يُعتقد أنه كان وثيق الصلة بزعماء الطاوية. وزعم شانج، الذى ينظر إليه أتباعه على أنه إله، أنه يمتلك قوى خارقة وقدرة على الشفاء. وسرعان مازاد أتباعه بحيث بلغوا من القوة حدا مكنهم من القيام بتمرد صريح فى عام ١٨٤م. وكانوا يرتدون أشرطة صفراء على رءوسهم (وهو ما أكسبهم اسم العباءات الصفراء)، كما أضيفت إليهم أعداد غفيرة من المتمردين حتى إنهم كانوا تحت قيادة ٣٦ قائدا عسكريا، فزحفوا وضربوا بشدة وبسرعة حتى إنهم تمكنوا خلال شهر واحد من إخضاع معظم شمال الصين.

وهكذا فإن كلا من حمر الحواجب الذين ساعدوا على إعادة أسرة هان، وذوى العباءات الصفراء الذين ساعدت فتوحاتهم على تجزئة إمبراطوريتها، يمكن

اعتبارهما إرهاصات الجمعيات السرية البشعة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر من حيث مزجهم بين الدين والجريمة والسخط السياسى.

وكان لهذا المزيج أن يظهر المرة تلو الأخرى عبر تاريخ الصين الطويل فى العصر الإمبراطورى، وكذلك نمط الزعماء فى أحداث التمرد الناجحة من حيث استخدامهم الجمعيات ثم بعد نجاحهم يقلبون لها ظهر المجن. غير أنه أثناء الفترة التى تميزت بحالة خطيرة من عدم الاستقرار وهى الفترة التى أعقبت تمرد العباءات الصفراء، ظهر ثلاثة زعماء شعبيين قيض لهم أن يصبحوا أبطالا قوميين. ويتعلق أجمل مافى القصص والمسرح والأدب الصينى بهؤلاء الزعماء الثلاثة، وهم كوان يو، وليو بى، وتشانج فى، الذى أقسم فى إحدى المناسبات قسما شهيرا بأخوة الدم فى حديقة الخوخ.

واعتبرت الجمعيات السرية هؤلاء الأبطال أبطالا لها، فأصبح كوان يو بعد ذلك كوان تى، أى إله الحرب والإله الراعى لجميع جمعيات الأخوة، بينما صار قسم حديقة الخوخ معلما مهما فى حفل دخول العضوية فى العديد من الجمعيات السرية. وبعد انهيار أسرة هان فى عام ٢٢٠ م انشطرت الأرض التى كانت فى أحد الأوقات الصين الموحدة إلى ثلاث ممالك هى وى (فى الشمال) ووو (فى الجنوب الشرقى) وشو (فى الجنوب الغربى) التى أسسها ليو بى الذى ينحدر عن أسرة هان.

ثم أعيد توحيد الصين تحت حكم أسرة سوى التى لم تعمر طويلا فى عام ٥٧٩، إذ تبعتها أسرة تانج التى توسعت نحو الغرب، حتى إن الصين غطت منطقة تبلغ من الاتساع تقريبا ما تبلغه الصين اليوم، وشهدت هذه الفترة قمة ازدهار الثقافة البوذية الصينية رغم وقوع ثلاث حالات اضطهاد بإيحاء رسمى. وأثناء حالات الاضطهاد هذه طورت البوذية لأول مرة تنظيمها السرى.

إن الطوائف الدينية السرية تعد معالم شائعة فى معظم أنواع المجتمعات الإنسانية، إلا أنه من ذلك الوقت فصاعدا، قد أصبحت معلما سائدا بصفة خاصة فى الصين. وفى الوقت نفسه، فإن طقوس معظم الجمعيات السرية الصينية اكتسبت نكهة بوذية قوية، ظلت عالقة بها حتى اليوم. وتبع القرون الثلاثة من

حكم أسرة تانج، حكم أسرة سونج وفى نهايتها خضعت الصين بأكملها للسيطرة الأجنبية لأول مرة.

ذلك أن أباطرة أسرة سونج الذين كانوا قد فقدوا الأراضى الواقعة شمالى نهر يانجتسى، تم الانقلاب عليهم عن طريق المغول بقيادة كوبلا خان، الذى أصبح إمبراطورا على الصين بأكملها، وأسس الأسرة المغولية أو أسرة يوان.

وكانت حالات التمرد الصينية واسعة الانتشار، ومعظمها نشأت عن معاقل لأسرة سونج فى الجنوب والجنوب الشرقى. وفى البداية كان هناك قليل من التنسيق، إذ كان الأمر ببساطة هوقيام سلسلة من الحركات التلقائية ضد الأجانب الذين كانت هذه الحركات تشعر نحوهم بالبغض.

وإحدى أنجح هذه الحركات كانت حركة بوذية الأصل تعرف باسم جمعية اللوتس البيضاء، التى زعم قائدها أنه ينحدر عن أسرة سونج. وكان أعضاء هذه الجمعية أحيانا يُعرفون باسم متمردى العباء ة الحمراء، لأنهم كانوا يرتدون عباءات حمراء فوق رءوسهم أثناء معاركهم ضد المغول. وكانت جمعية اللوتس البيضاء فى تلك الفترة شأنها شأن غيرها من الجمعيات المتمردة، تعتمد كى تنجح على وجود زعامة قوية، كما كانت تعول على ولاء أعضائها الذى لا يهتز، كذلك كانت بالضرورة جمعيات سرية.

ويقال إن جمعية اللوتس البيضاء كانت قد أسست حوالى عام ٣٧٦ بغرض استدعاء وتأمل «أمتبها بوذا» أو «بوذا الأرض النقية» حيث يستطيع المتعبدون أن يلتحقوا بها عن طريق أعمالهم الإيمانية. ويقال إن زندو، وهو مؤسس إحدى الطوائف البوذية الرئيسة فى اليابان، اتبع مذهب الجمعية حوالى عام ٦٣٠. ولقد تعرضت الجمعية لهجوم قاس أثناء عمليات الاضطهاد التى بدأها أباطرة أسرة تانج، وقد تكون هذه التجربة أسهمت فى ظهورها بعد ذلك كحركة سياسية. وفى عام ١٣٤٤ ظهر زعيم متمرد يقال إن جده كانت تربطه صلة وثيقة بجمعية اللوتس البيضاء وادعى قرب ظهور ميتريا أو «بوذا المستقبل» أى بوذا المنتظر، وبذا اجتذب العديد من الأتباع للجمعية.

ومما ساعد على نجاح حملته فى تجنيد الأعضاء، ظهور نذير يتنبأ بسقوط الأسرة

الحاكمة. وكان هذا من بين الكثير من النذر التى ظهرت فى لحظات ملائمة تماما فى تاريخ الصين. ففى ذلك الوقت كانت إحدى الوسائل الشائعة التى يستخدمها الأطفال فى تزجية الفراغ فى مقاطعات هونان الوسطى وهو بيه، هى لعبة تعتمد على الغناء تقول كلماتها: «حين يتقلب الرجل ذو العين الواحدة، ستزول هذه الأسرة عن العرش».

وفى تلك السنة نفسها أظهر العمال الذين كانوا يعملون فى العمل الدائم، وهو إصلاح ضفاف النهر الأصفر، تمثالا حجريا لرجل ذى عين واحدة. فأثارت هذه الحادثة أو ربما الإشاعة الخاصة بها قدرا كبيرا من الإثارة، وهو ما أدى إلى انضمام جماهير غفيرة إلى جمعية اللوتس البيضاء، ومن هؤلاء أربعة من أبرز زعماء المتمردين، فانتشر التمرد انتشار النار فى الهشيم فى وسط الصين. وبرغم أن هان شانتونج نفسه كان قد قتل فى مرحلة سابقة، فإن اللوتس البيضاء وغيرها من الجماعات المتمردة بعد أن اتحدت تحت زعامة راهب بوذى سابق تمكنت فى نهاية الأمر من طرد المنغوليين خارج الصين، نتيجة المساعدة الكبيرة التى تلقوها من الأسلاب التى سلبها فانج كومانشين وهو قبطان شهير وغيره من الذين يعملون وحدهم.

وفى عام ١٣٦٨، اتخذ شو نفسه لقب الإمبراطور تحت اسم هونج وو. وبرغم أن شو هو الذى أصبح الإمبراطور الجديد، فإن جمعية اللوتس البيضاء هى التى أعطت الأسرة الجديدة اسمها، وهو اسم مينج على اسم شخصيتين مسيحيتين هما مينج وانج الكبير والصغير، اللذين ساد الاعتقاد بأن بوذا ميتريا أرسلهما لإعادة السلام والنظام إلى العالم.

وفيما بعد، تنكَّر أوائل حكام أسرة مينج للجمعيات السرية التى تشتتت بعد أن حققت أهدافها. أما جمعية اللوتس البيضاء، فقد ظلت صامتة أثناء الجزء الأكبر من حقبة أسرة مينج ولم تطف على السطح إلا قرب نهاية تلك الفترة حينما صارت الأسرة الحاكمة ضعيفة وفاسدة، وأخذت الجيوش الأجنبية تهدد حدود الصين.

ولايبدو أن جمعية اللوتس البيضاء كانت متورطة فى أعمال التمرد الأخيرة التى حطمت قوة أسرة مينج ومهدت الطريق لغزو أسرة مانشو للصين فى عام

١٦٤٤ . وخضعت الصين مرة أخرى لسيطرة الأجانب التى لم يكن من السهل اليسير التخلص منها هذه المرة، إذ دام حكم أسرة مانشو التى عُرفت باسم «أسرة تشى إنج» إلى عام ١٩١١ ، إلا أن أباطرة أسرة مانشو قد واجهوا المتاعب أولا من جانب غير الصينيين على حدودهم، وبعد ذلك كان عليهم أن يواجهوا المزيد من المتاعب من المتمردين داخل الوطن.

وفى هذه الفترة ظهرت الطوائف والجمعيات السرية بعدد يثير الحيرة، وتشابكت بعضها مع بعض فى نسيج متداخل.

ويصعب تحليل هذا الوضع أكثر فأكثر، إذا أخذنا فى الاعتبار أن هذه الطوائف والجمعيات كثيرا ما كانت تغير أسماءها لكى تتجنب القمع. فجمعية اللوتس البيضاء كانت تُعرف أيضا فى ذلك الوقت باسم طائفة مستنشقى البخور وطائفة اليانج الأبيض، وربما تكون قد ارتبطت بالرسوم الثمانية، أو جمعية المبادئ السماوية، وكذلك طائفة المنازل التسع. ومن المؤكد أنها كانت على صلة بجمعية السماء والأرض؛ تلك الجمعية المهمة (وهى نفسها تحمل عدة أسماء أخرى، منها: الجمعية الثلاثية أو العصبة المعلقة، أو الجمعية الثلاثية المتحدة). كما كان على إدارة تشى إنج أن تتصارع مع طائفة الخيزران السماوى، وطائفة ما قبل الميلاد، والكثير غيرها من الطوائف التى كان زعماؤها يتمتعون بقدرة شديدة على التأثير، بألقاب عالية الرنين مثل: ملك السماء الحمراء العظيم، وملك الأرض الحمراء العظيم، وملك البشرية الحمراء العظيم.

ولقد مرت الصين، فى منتصف القرن الثامن عشر، بما يقرب من مائة عام من التمرد الدينى والسياسى، زاد من خطرها وحدتها طرق أسرة المانشو فى القمع. وفى خضم كل هذا النشاط السياسى، أخذ اسم اللوتس البيضاء يظهر ويختفى بشكل محير إلى حد ما.

وحدثت انتفاضة قامت بها جمعية اللوتس البيضاء عام ١٧٧٤، أى فى تمام منتصف حكم أقوى وأمجد حكام تشى إنج ألا وهو الإمبراطور تشى ين لونج، (وكان قد بلغ من القوة والمجد حدا جعل الوطنيين من بعده يبذلون قصارى جهدهم كى يؤلفوا قصة مؤداها أنه كان من أصل صينى وليس من المانشو).

وبعد الانتفاضات التى قامت بها طوائف الأشكال الثمانية والمنازل التسع (١٧٨٦ - ١٧٨٨)، وتلك التى قامت بها جمعية السماء والأرض فى (١٧٨٦-١٧٨٩)، أطلقت جمعية اللوتس البيضاء شرارة التمرد الكبير فى عام ١٧٩٤، ذلك التمرد الذى انتشر على مساحة تسع مقاطعات، واستغرق الأمر ثمانى سنوات لقمعه. ثم حدثت انتفاضة أخرى قامت بها طائفة الأشكال التسعة، دهم خلالها المتمردون القصر الملكى المسمى (المدينة المحظورة) فى بكين، وحاولوا الاستيلاء على العرش بالمعنى الحرفى للكلمة.

ولا يوجد ثمة شك فى وجود صلة بين جميع هذه الحركات، التى كان بينها الكثير من أوجه الشبه، كما لا يوجد أى شك فى أن جمعية اللوتس البيضاء كانت أكثرها نفوذا. ويقدم لنا ويليام ستانتون (وهو أحد أوائل الغربيين الذين يظهرون اهتماما بالجمعيات السرية الصينية) روايته لهجوم المتمردين على القصر الملكى فى كتابه الجمعية الثلاثية أو رابطة السماء والأرض المنشور فى هونج كونج، فقال:

«لقد خطط لهذه الاضطرابات رجل يدعى لى وان تشينج لديه عدد كبير من الأتباع فى هونان، وآخر يدعى لين تشينج، لديه أتباع فى تشيلى وشانتونج.

وادعى هذان الرجلان أن لديهما قدرة على التنبؤ بالأحداث، وذلك عن طريق قراءة مجموعات النجوم. وأخذ لين تشينج على عاتقه رشوة الخصيان الموجودين داخل القصر لشراء ولائهم والحصول على مساعدتهم فى إدخال بعض أتباعه الذين كان منوطا بهم الاستيلاء على القصر. وتم الترتيب على أساس أن الجماعة التى تتمكن من دخول القصر وتلك التى تمت رشوتها لمساعدتهم سيتعين عليهم أن يرتدوا مناديل بيضاء فوق رءوسهم، بحيث يتعرف بعضهم على بعض عن طريق هذه المناديل.

كما كان على أنصارهم فى هونان وشانتونج أن يقوموا بانتفاضتهم فى نفس الوقت. وأثناء ذلك يكون المتمردون قد قاموا بتخزين السلاح فى محال الخمور فى المدن الداخلية. وفى اليوم السادس عشر من الشهر التاسع، تجمع ٣٠٠ أو ٤٠٠ من المتمردين، وهم يرتدون ملابس قرويين ويحملون سلالا مملوءة بالفاكهة يخفون

تحتها السلاح. تجمع هؤلاء حول بوابات القصر الأربع وقاموا بعمل جيد إذ باعوا ما لديهم من فاكهة للحراس ولمن كانوا يتسكعون حول البوابات.

وبعد فترة، انتهزوا فرصة عدم وجود الحراس فى أماكن الحراسة، فأمسكوا بأسلحتهم وألقوا بسلالهم ثم اندفعوا فذبحوا الحراس تقريبا دون مقاومة. وبعد ذلك دخلوا إلى القصر قاتلين جميع من لم يحملون شارة الجماعة.

وما حدث هو أن الخصيان كانوا منهمكين فى عملهم العادى، ذلك أنهم بسبب خطأ ما ظنوا أن الانتفاضة من المقرر لها أن تقوم فى اليوم السادس والعشرين بدلا من اليوم السادس عشر من الشهر، وبالتالى لم يكونوا متهيئين. وبرغم ذلك فإن الكثير منهم لعبوا أدوارا بارزة فى الانتفاضة. وأثناء الاندفاع داخل القصر أصبح الانقلابيون فى حالة من البلبلة فى تحركاتهم، وكانوا لايعرفون بالتحديد إلى أين يتقدمون، وهو ما مكن أولئك الذين بقوا فى القصر وظلوا على ولائهم من مقاومتهم مقاومة ناجحة حتى أتت النجدة».

ويستمر قائلا: «لقد حدث أن الإمبراطور كان بعيدا فى موكدين، فى زيارة للمقابر الإمبراطورية، إلا أن ابنه الثانى الذى عرف فيما بعد باسم الإمبراطور تاو-كوانج أظهر طاقة عظيمة وشجاعة فى هذا الظرف الطارئ، فجمع جماعة من الحراس والخصيان على وجه السرعة ونصب نفسه قائدا لهم، وأخذ يدفع المتمردين من أحد أجزاء القصر إلى جزء آخر، وأخذ يطلق عليهم الرصاص أثناء محاولتهم الفرار أو إخفاء أنفسهم فوق السطح أو بين جنبات المبانى. بل إن الأمير نفسه قام بإطلاق الرصاص على بعض المتمردين، واكتشف أثناء ذلك وجود خونة داخل فرقته الصغيرة. ذلك أن أحد الخصيان من المتمردين حاول إطلاق الرصاص عليه، إلا أن الطلقة أخطأت الأمير ولم تصبه، فأثارت هذه الحادثة شكوكه، فأوقع بالخصى الذى تم القبض عليه فى الحال وإعدامه. ويقال إن الكثير من المتمردين قتلهم البرق أثناء عاصفة رعدية فى خضم هذا الاضطراب».

ولم يكن لين تشين موجودا فى هذا التمرد، وظل مختبئا فى قرية تبعد عن العاصمة فى انتظار أنباء عن نجاح خطة الهجوم على القصر، وكذلك فى انتظار أنباء عن قيام انتفاضات فى هونان وشانتونج.

وتولى أحد رجال المخابرات القيام بخطة للقبض عليه، وكان اسمه تشانج تسو. وبناء على ذلك أسرع فى عربة يجرها حمار متجها إلى قرية هوانج، وبمجرد وصوله، توجه مباشرة إلى لين تشينج وهنأه بنجاح الخطة التى قام بوضعها، وأخبره أن القصر قد تم الاستيلاء عليه وأن أتباعه يطلبون حضوره عاجلا بينهم قبل أن يقوموا بأى عمل آخر. فصدق لين تشينج القصة وانطلق مع المخبر قاصدا بكين. وهناك سرعان ما سمع عن فشل خطته والقضاء على فرقته الصغيرة الشجاعة. وبعد ذلك بوقت قصير تم إعدامه.

وتخبرنا هذه القصة بالكثير عن أعمال التمرد التى قامت بها الجمعيات السرية فى تلك السنوات. ويُظهر مجال نطاق عملياتها وكذلك مدى نجاحها عقم حكم أسرة مانشو وعدم شعبيته، فغالبا ما اشتركت فيها مقاطعات برمتها (الكثير منها أكبر حجما من بعض الدول الأوربية). وكذلك اشترك فيها عشرات الآلاف من المقاتلين.

وفى بعض الأوقات كانت تتلقى العون من بعض أعضاء البلاط الإمبراطورى حيث كان الكثيرون منهم صينيين، وليسوا من المانشو. ولقد اقتربوا أكثر من مرة من بلوغ هدفهم، وهو قلب حكم تلك الأسرة. وبرغم أن أهداف تلك الحركات جميعا كانت سياسية بشكل واضح، فإنها كان لها جانبها الدينى، إذ كانت تعتمد اعتمادا قويا على عقائد سحرية مثل تلك التى تظهر فى قصة (قراءة النجوم)، وكذلك كان هناك شك فى أن المتمردين لا يتأثرون بطلقات الرصاص ما لم تكن مصنوعة من الفضة. ولكن فوق كل هذا، فإنها كانت روابط من الرجال تربطهم أقوى وشائج الولاء المتبادل والتضحية بالذات والإقدام.

وفى أثناء القرن التاسع عشر، لجأ البلاط الإمبراطورى لأسرة المانشو إلى فلسفة أكثر تخلفا، كما لجأ إلى المزيد من التشريعات القمعية التى لم يكن قادرا على وضعها موضع التنفيذ بشكل مناسب، وذلك بعد أن وجد ذلك البلاط نفسه ممقوتا من قبل رعاياه الصينيين يوما بعد يوم، كما وجد نفسه عاجزا عن السيطرة على التعديات التجارية والسياسية والفكرية التى كانت القوى المصنعة حديثا تمارسها.

لذا فحين جاء اليوم الذى كان فيه آخر أباطرة المانشو يستعد لمغادرة عرشه

أخيرا، (وهو مايزال على قيد الحياة، ليعيش كمواطن فى الصين الشعبية)، كانت الصين قد شهدت ما يربو على القرن من الحروب الأهلية، وسوء الحكم والبؤس. وشهدت تلك الفترة تزايدا ضخما فى نشاط الجمعيات السرية، حيث أخذ الناس فى قطع الطرق واتجهوا للدين طلبا للعون الذى لم تكن الدولة قادرة على تقديمه، أو أنهم لجئوا إلى محاولة قلب نظام الحكم الذى بدا ليس فقط أجنبيا الآن، بل وعديم الجدوى أيضا.

كل هذا يجعل من الغريب أنه منذ منتصف القرن التاسع عشر لم يسجل سوى القليل عن جمعية اللوتس البيضاء. ويبدو من المحتمل أن الكثير من أعضائها بالإضافة إلى أهدافها السياسية وكذلك الكثير من طقوسها، قد انتقلت إلى جمعيات أخرى، وبخاصة جمعية الأرض والسماء، التى يُنظر إليها فى بعض الأحيان باعتبارها خليفتها. ومن ناحية أخرى فمن الجائز أن جمعية اللوتس البيضاء قد غيرت اسمها ببساطة. ومن بين تشعباتها العديدة طائفة الوحدة، التى ظهرت كحركة على صعيد الأمة بأكملها أثناء الاحتلال اليابانى الطويل للصين قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية.

واليوم فإن عددا غير قليل من الصينيين سواء كانوا من الأشخاص ذوى الشأن أو المتواضعين يدينون بحياتهم لهذه الجمعية التى مكنها تنظيمها الممتاز من تهريبهم من خلال خطوط اليابانيين إلى أن وصلوا إلى بر الأمان.

وفى السنوات الأخيرة، قامت الحكومة بحملة نشطة ضد عدد من الجمعيات ذات الطابع الدينى والسياسى، ومن الجائز أن تكون طائفة الوحدة بين تلك الجمعيات. وكما رأينا، فإن جمعية اللوتس البيضاء كانت جهازا دينيا اتخذ خصائص الفصيل المتمرد فى أوقات الاضطهاد االدينى والسخط السياسى. وقد لخص مرسوم إمبراطورى كتب عام ١٨١٣ الموقف بدقة إذ قال:

«فى الأوقات العادية، كانت الجمعية تنشغل فى العبادة اليومية وقراءة الكتب المقدسة، وتزعم بذلك أنها تجعل أعضاءها محجبين ضد السلاح أو النار أو الغرق. أما فى أوقات المجاعة والفوضى، فإنها قد تتآمر من أجل بلوغ «الهدف الكبير» (وهو تأسيس أسرة حاكمة جديدة)».

وكان هذا النمط واسع الانتشار؛ فجميع الجمعيات السرية التى ظهرت فى وقت لاحق مثل: الثلاثيين، والرماح الحمراء، والسيوف الكبيرة، والخناجر الصغيرة، واللحى الصفراء، وجمعية المبادئ السماوية موحدة القلب، والزهرة التنينية، والديانات المقدسة، على سبيل المثال لا الحصر، إن هى جميعًا إلا ورثة لجمعية اللوتس البيضاء من هذه الناحية. غير أنه كانت بينها خلافات من حيث النواحى التى تركز عليها كل منها، وأحيانًا كان هناك خلاف فى المضمون والهدف. فحركة التايبينج التى جذب تمردها تقريبا كل الحركات الأخرى فى القرن التاسع عشر والتى كانت على وشك تحقيق النصر، بدأت باسم ملك المسيحية.

وكان اسم تايبينج تين كوو، (أو المملكة السماوية للسلام الكونى) هو الاسم المختار لأسرة حاكمة جديدة (وبالطبع صينية) وقد اختاره لها مؤسس هذه الحركة المحتمل وهو شخص كان فى وقت ما مدرسا فى إحدى القرى يدعى هونج - سيو تشوان.

ولقد ولد هذا الرجل حوالى عام ١٨١٢ على بعد ما يقرب من ثلاثين ميلا من كانتون. وأرسل إلى المدرسة وهو يبلغ من العمر سبع سنوات، وجد فى الدراسة على أمل تحسين أحوال الأسرة عن طريق الحصول على منصب رسمى، غير أنه فشل فى اجتياز الاختبار الصعب، ربما لأن نظام المانشو فى الاختيار كان يميل كثيرا ضد المتقدمين من الجنوب لشغل هذه المناصب و الذين يحملون كرها شديدا لأسرة المانشو.

وفى عام ١٨٣٧ أصيب بالمرض، وأثناء مرضه هذا، رأى سلسلة من الرؤى حيث رأى نفسه وقد تطهر من جميع الأدران بواسطة رجل مسن وقور ذى لحية طويلة ذهبية كما رأى نفسه يتلقى تعاليم من رجل ودود فى منتصف العمر أخبره عن المنهاج الذى ينبغى أن يسير على هديه كى يساعده فى عمله فى القضاء على الشياطين.

وبعد ذلك ببضع سنوات، عثر هونج على بعض المقالات التبشيرية المسيحية مكتوبة باللغة الصينية حين كان يعمل مدرسا فى إحدى القرى بالقرب من منزله. ومما أدهشه أن هذه المقالات أعانته على أن يفسر رؤاه. فمن الواضح أن الرجل

الوقـور المسن هو الله الأب ، وأن الرجل الودود الذى هو فى منتصف العمـر هو المسيح المخلص، أما الشياطين فهى الرموز المعبودة فى العقائد الصينية القديمة .

وبعد أن اقتنع هونج هو وأحد أصدقائه بأنهما قد وجدا الطريق المؤدى للحياة الأبدية ، قاما بتعميد نفسيهما وبدآ معا كشخص واحد يعظان الآخرين . وبحلول عام ١٨٣٤ لم يعد يخالج هونج أدنى شك فى أن الله قد كلمه فى السجن كما كلم القديس بولس ، وأن عليه من الآن فصاعدا أن ينفق حياته فى نشر مملكة الله على الأرض .

وفى السنوات الأربع أو الخمس التى تلت ذلك ، كون هونج وأصدقاؤه أتباعا فى جنوب شرق الصين ، واتخذوا ترجمة صينية للكتاب المقدس مرجعا لهم ، كما اتخذوا الوصايا العشر قاعدة لهم فى الحياة . ولقد أصبحوا موضع بعض من الكره الشعبى نتيجة للكثير من أنشطتهم ، وبخاصة التدمير الإجبارى للصور التى كانت فى المعابد المحلية ، وهو ما أدى بهم إلى الدخول فى بضع مصادمات مع السلطات ، ولكن لا يبدو أنهم فى هذه المرحلة كانوا يخططون للوصول إلى أكثر من حركة دينية .

غير أن منتصف القرن التاسع عشر لم يكن فترة تتيح لأى جمعية كبيرة فى الصين أن تظل معزولة ، إذ كان أعضاء الجمعية الثلاثية دائما على خلاف مع إدارة المانشو فى الجنوب الشرقى . كما اشترك فى ذلك جنود أجانب ، وانجر إلى القتال (عباد الله) التابعون لهونج كما كانوا يسمون حينئذ ، وهو القتال الذى جرى بين الصينيين المهاجرين والصينيين الأصليين .

أما الحكومة التى كانت عديمة الثقة تماما فى هذه الحركة ، فقد قمعتها وهى فى مهدها ، فأثارت محاولاتها فى القمع رد فعل سريع . لذا ففى نهاية عام ١٨٥٠ وجد هونج نفسه زعيما لتمرد مسلح واسع النطاق . وشغل تمرد تايبينج انتباه حكومة المانشو وجيوشها لمدى الأربع عشرة سنة التالية .

وبدأ أعضاء تمرد التايبينج، بتأييد من انتفاضة كبرى فى الجنوب والكثير من الجمعيات المتمردة، بالقيام بسلسلة من الأعمال العسكرية الناجحة المثيرة. فبمقدم عام ١٨٨٣ كانوا من القوة بحيث استطاعوا الاستيلاء على نانكينج حيث أقام هونج عاصمته وأعلن نفسه إمبراطورا بلقب (الحاكم السماوى). واستولت قوى متمردة أخرى مثل الثلاثيين على شانجهاى وغيرها من المدن المهمة، كما ضربوا الحصار حول كويلين وكانتون.

ولم يقمع هذا التمرد الكبير لمدة عشر سنوات إلا عن طريق المساعدة الأجنبية والتضحية بما يقدر بـ ٢٠٠٠٠ شخص وكذلك تدمير الكثير من أخصب الأراضى فى الصين. ولقد حكم هونج نصف الصين حين كان فى أوج قوته، وانتحر فى عام ١٨٦٤، حين حطمت قوات الجنرال جوردون ورجل السياسة الصينى لى هونج شانج قواته، وتلا ذلك خمسون عاما من التحلل السياسى والاجتماعى والاقتصادى والدينى.

لم تشهد تلك السنوات الإضعاف السلبى للمؤسسات الصينية التقليدية تحت مجموعة واحدة من الأجانب وهم المانشو فحسب، بل وشهدت أيضا تآكل تلك المجموعة عن طريق التعديات المتلاحقة عليها من جانب مجموعة أخرى أكثر غرابة ألا وهم الغربيون. فبما أن تمرد التايبينج قد فشل (جزئيا بسبب التدخل الغربى)، كان من الضرورى حتى الآن طرد المانشو، إلا أن الأمر الذى أصبح يحتل جانبا أكبر من الأهمية هو طرد الأجانب.

وكما رأينا، تجسد هذا الهدف فى جمعية سرية أخرى ظهرت فى نهاية القرن هى جمعية الملاكمين، غير أنهم كانوا بعيدين تماما عن معاداة المانشو، بل كانوا مؤيدين لأسرة التشى إنج، كما كان هؤلاء بدورهم يؤيدونهم. وكان هذا التأييد سريا فى البداية ثم أصبح علنيا.

وتعنى عبارة إى هو تشوان باللغة الصينية حرفيا (قبضات التآلف المستقيم). ولقد أخبر أحد الوزراء المقيمين فى الصين وزارة الخارجية البريطانية أن «الفكرة الكامنة وراء هذا الاسم هى أن أعضاء المجتمع سوف يتحدون ليرفعوا دعوة الاستقامة بالقوة إذا لزم الأمر».

وظلت مسألة وجود صلة بين الملاكمين والجمعيات السرية وعلى الأخص جمعية اللوتس البيضاء موضع جدل، ومن المحتمل أن تكون هناك صلة ما ولكنها تكمن جزئيا فى أوجه الشبه فى العمل مع هذه الجمعيات.

وباستثناء الشراسة المغالى فيها، فإن السمة المميزة للملاكمين هى اعتمادهم على القوى الخارقة للطبيعة. واتخذ هذا شكل الاعتقاد فى السحر، دون أن يكون ذلك به أى ظل من الاعتقاد الروحى فى الخلاص المسيحى أو البوذى الذى كان يميز جمعية اللوتس البيضاء أو التايبينج.

ويبدو أن مثل هذا الاعتقاد فى السحر، وهو علامة مميزة لسائر حركات التمرد الصينية، كان بلاط المانشو يتمسك به كما يتمسك به أى شخص آخر. وكانت أهم قوة سحرية هى موهبة التحجب ضد الخطر. ويكتب بيتر فلمينج فى كتابه (الحصار فى بكين):

«إن هذه القيمة المفيدة قد أسبغتها أرواح الأبطال على الملاكمين، وكذلك أسبغها عليهم أنصاف الآلهة والكائنات الأسطورية حيث توجهوا إلى ما يجسد هؤلاء الأبطال وأنصاف الآلهة. ويعد المثال التالى مثالا صادقا: إن تعاليم الإله مى تاو التى أعطاها لتلاميذه هى التى يدعى بها فوق كل جبل عن طريق المعلمين القدامى حيث تدعو الآلهة من وسط الجنوب كى يدرسوا فن الملاكمين للحفاظ على الصين وتدمير الأجانب.

وإذا تعرض أحدهم للحديد أو السكين أو الفأس فلن يحدث ذلك أى أثر، ولا يستطيع المدفع أن يخدشه، كما أن الماء لا يمكن أن يغرقه. وإذا استغثت بالآلهة فسيأتون على الفور، أما إذا دعوتهم بتكاسل فسيأتون بتكاسل، من مقاعدهم فى كل كهف فى جبل من الجبال. لذا يجب على المعلمين القدماء والأمهات الوقورات أن يفعلوا ما أمر به».

ويتابع قائلا: «إن هذه الشعوذة كانت تقال فى مصاحبة تأدية بعض الإشارات والأوضاع. وكان المتعبد يولى وجهه شطر الجنوب الشرقى - (لا يدرى أحد لماذا) - ويتأمل ويدوس بقدمه على صليب، ويضرب رأسه على الأرض وينحنى ويقوم بإشارات قبالية بيديه».

وحين يكمل هذه الطقوس، يصبح المتعبد متلبسا بعد أن يمر بسلسلة من التقلصات العنيفة، مثل التشنج والإزباد من فمه وتحريك عينيه حركات متشنجة، بل قد يغيب فى إغماءة. وبعد ذلك يفترض أنه أصبح محجبا ضد كل من السيوف والرصاص. ومن الطبيعى أن هذه الحفلات كانت تجذب الكثير من المتفرجين، الذين كانوا يتأثرون تأثرا عنيفا بما يظهره هؤلاء من علامات التحجب التى كانت تلى ذلك.

وكان من الممكن دائما تفسير حالات الفشل بالقول بأن الضحايا قد قصروا فى تأدية الطقوس على مايرام، أو أن الشخص قد تعدى على أحد محرمات الجمعية الكثيرة.

وبدأ الملاكمون أنشطتهم بالهجوم على مواقع الإرساليات الصغيرة فى شانتونج، وسرعان ما اكتشفوا أنهم بدلا من أن يعاقبوا قد لقوا تشجيعا على ذلك، إذ إن الإمبراطورة الثرية البالغة من العمر ٦٤ سنة والتى صارت وصية على العرش وتشبثت به حتى إنها قامت بانقلاب فعلى ضد الإمبراطور الشاب ابن أخيها، وبذلك صارت حاكمة الصين الفعلية لمدة أربعين عاما - كانت هذه الإمبراطورة دائمة التعلق بالخرافات. وفى عام ١٩٠٠، أصبحت (على حد تعبير الوزير البريطانى فى بكين) واقعة تحت تأثير مزاعم الملاكمين بامتلاك قوى خارقة حتى إنها اعتقدت أن فى مقدورهم تحدى بقية العالم بأمان.

ولفترة ما، عملت القوات الإمبراطورية النظامية مع الملاكمين عن طريق تزويدهم بالضباط، فذُبح عدة مئات من المبشرين، كما دُمر قدر كبير من ممتلكات الأجانب، وأخيرا وضعت منطقة الممثليات الأجنبية فى بكين تحت ا لحصار.

ولقد حققت هذه السياسة شعبية من جانب الجماهير فى شمالى البلاد، غير أن هذا الوضع لم يدم سوى بضعة أشهر. وقبل نهاية أغسطس أصبحت بكين فى يد الأجانب. وعلى كل، فقد تلكأت أسرة تشينج فى الحكم حتى عام ١٩١١ حين قام حزب د. سون يات سين الجمهورى، وذلك بمساعدة أبرز الجمعيات السرية الصينية أولا وهى عصبة السماء والأرض. وكانت الجمعية الثلاثية أو مجموعة الجمعيات من الناحية التنظيمية مشابهة لجمعية اللوتس البيضاء وما تفرع عنها، كما

كانت تهدف إلى قلب نظام أسرة تشينج وتنتهز كل فرصة من أجل تحقيق هذا الهدف، كما رأينا فى حالة حروب التايبينج.

إلا أن ما يستحق الذكر فى هذا الفصل، هو الطقوس المحكمة والرمزية فى الجمعية الثلاثية، وكذلك نظامها فى الإشارات السرية، أكثر من أنشطتها السياسية، وذلك على أساسين هما:

أولا: أن هذه الطقوس ما تزال تُمارس على نطاق واسع بين الجاليات ا لصينيةحتى اليوم. وثانيا: لأن هذا المثال من الطقوس تتبعه العديد من الجمعيات السرية الصينية.

وتنبنى طقوس الجمعية الثلاثية على القصة التقليدية الخاصة بتأسيس الجمعية عام ١٦٧٤. وطبقا لهذه القصة، فإن خمسة رهبان هم الذين قاموا بإنشاء الجمعية (يوصفون الآن بأجداد الجمعية الخمسة) بهدف الانتقام من خيانة إمبراطور تشينج لهم أثناء حكم هسى (١٦٦٢-١٧٢٢) حين هدد متمردون من دولة سيلو بغزو البلاد. ووصل نداء الإمبراطور من أجل المساعدة على قمع المتمردين إلى أسماع عضو سابق فى جماعة مينج يدعى تشينج كوان تات الذى كان فى ذلك الوقت فى دير شاولين، حيث كان يتعلم فن الملاكمة.

وكانت النتيجة أن تشينج كوان تات و ١٢٨ من الرهبان وضعوا أنفسهم ومهاراتهم القتالية فى خدمة الإمبراطور، فقضوا على المتمردين فى ثلاثة أشهر، كما رفضوا الألقاب التى عرضها عليهم الإمبراطور الشاكر للجميل وكذلك المناصب الرسمية، ثم عادوا إلى ديرهم. غير أن اثنين من وزراء الإمبراطور الذين شعروا بالغيرة بسبب التكريم الذى أسبغه الإمبراطور على هؤلاء المقاتلين، نجحا فى إقناعه بأن ا لرهبان لم يعودوا إلى ديرهم إلا لكى يثيروا تمردا فى الجنوب.

وعند هذه النقطة، أصدر الإمبراطور أوامر بتدمير دير شاولين وإعدام تشينج كوان تات. وبمساعدة أحد الرهبان الذى لم يكن يرتدى المسوح، أحاطت قوات الإمبراطور بالدير وأشعلت فيه النيران، فأحرق حتى الموت مائة وعشرة من الرهبان، ١٨ منهم هم الذين دعوا لبوذا كى ينجيهم تمت حمايتهم بطريقة سحرية

من اللهب عن طريق ستارة صفراء ظهرت كاستجابة لصلواتهم، ولكن خمسة فقط من هؤلاء هم الذين بقوا على قيد الحياة، هؤلاء هم (أجداد الجمعية الخمسة). أما عن رحلتهم التالية بل فى الحقيقة معظم هذه القصة، فإنه يقع فى دائرة المجاز وليس الواقع.

وجد خمسة أجداد من أولئك الذين هربوا من الدير المحترق، مبخرة ذات ثلاثة سيقان على شاطئ أحد الأنهار، مكتوبا عليها الكلمات التى ستصبح شعار الجمعية الثلاثية وهو: «انقلبوا على تشينج وأعيدوا مينج». وبينما كانوا يقدمون صلوات الشكر، فاجأتهم فرقة من جنود الإمبراطور، ولم ينقذهم سوى تحول صندل عشبى مقدس إلى قارب عبروا به النهر إلى بر الأمان.

ثم فقدوا الصندل فى هجمة أخرى من جانب جنود الإمبراطور. وبمرور الوقت مروا بأحد الجسور يحرسه جنديان، وعبروا النهر محتمين بالجسر، عن طريق ثلاثة حجارة كانت طافية بشكل معجز على سطح الماء. وبعد سلسلة من مثل هذه المحن وزيارة «إلى كهف طائر اللقلق»، (الذى يوصف باعتباره أحد معاقل المتمردين بالقرب من حدود هونان وشانتونج)، وصل الرهبان مع الوقت إلى إحدى مدن مقاطعة جوكيين، حيث أسسوا الجمعية الثلاثية وبدءوا تجنيد الأعضاء لها، فعقدوا مراسم جماعية أقسم أثناءها الأعضاء الجدد قسما بأن يقوموا بانقلاب ضد أسرة تشينج وأن يستعيدوا المينج.

فى بداية هذه المراسم كان يظهر بريق أحمر لامع، فى الجو من ناحية الشرق. ولهذا اللون ظلال مفضلة كثيرة فى الثقافة الصينية، منها السعادة والنجاح والثراء. فالعروس الصينية ترتدى تقليديا اللون الأحمر (واليوم، فإن قيمة علم الشيوعيين الأحمر له أهميته من أجل قضيتهم فى الصين). لهذا السبب جزئيا، وجزئيا لأن كلمة هونج أى أحمر إذا كتبت بالصينية بطريقة مختلفة تعنى اسم عائلة هونج.

ويروى التراث أنه بعد أن هاجم الثلاثيون التشينج، وبعد أن تم لهم أسر مقاطعة جوكيين، سرعان ما ذبحهم جنود الإمبراطور بالآلاف. ويرجح الدارسون الغربيون للثلاثيين أن هذه الحادثة قد تكون توضيحا لبقية القصة المرتكزة على

ذكريات تمرد اللوتس البيضاء الذى وقع عام ١٧٩٤ . ذلك لأن هؤلاء الدارسين قد فشلوا فى الاتفاق على سنة وقوع الحادثة أو حتى القرن الذى وقعت فيه .

وتروى بقية القصة كيف أن الأجداد الخمسة قرروا أن يتفرقوا بعد فشل هذه الانتفاضة كى يقوموا بتنظيم أعمال تمرد متزامنة فى أنحاء مختلفة من البلاد ، وكيف أن كلا منهم أسس محفلا فى أحد الأقاليم أو المقاطعات .

ويوجد شك فى الأماكن المحددة لتلك المحافل ، إذ لا يمكن فى الحقيقة تعيين معظم الأماكن التى ذكرت فى قصة الأجداد الخمسة على نحو مُرض . ويعد اللعب على لفظة هونج ذا أهمية خاصة ، لأن اللغة الصينية تقدم فرصا لا حصر لها للعب بالألفاظ وتحريك الأحرف ، لذا فإن سر الثلاثيين يتألف أساسا ، إلى حد كبير من الكلمات الصحيحة .

وقد يكون من الطريف فى هذا السياق ، أن نعيد إلى الذاكرة أن زعيم حركة التايبينج حدث أيضا أن كان اسمه هونج . والأكثر من ذلك أن الجزء الأعلى من الشكل - أى الحرف - الصينى لاسم «هونج» يشبه الشكلين الموجودين فى رقمى ٢١ , ١٢ وأن العدد الرمزى ٤٨٩ يمثل أعلى مراتب الجمعية .

وحين ندرك أن معظم الرمزية الموجودة فى الديانات الصينية ذات طبيعة مشابهة من حيث اللعب بالألفاظ ، كما أن علم الأعداد قد دُرس بعمق فى الصين لما يربو على ألفى عام ، يمكننا أن نرى أن هذه المضامين الغريبة لهذا النوع من اللعب بالألفاظ يمكن أن يصبح بالغ التعقيد .

أما أردية المراسم التى يرتديها ضباط الثلاثيين ، فهى بوذية من حيث الطابع وكذلك أثاث محافلهم وممتلكاتهم . ومعظم هذه الأشياء تمثل مشاهد فى قصة الأجداد الخمسة ، لأن كل مرحلة من هذه القصة وما صاحبها من محن يعاد تمثيله بطقوس يلحق بها الأعضاء الجدد فى (أسرة هونج) . وفى ذروة طقس دخول العضوية يقسم المتقدمون قسما بأخوة الدم - وهو ذكرى للقسم الذى أقسمه الأبطال الثلاثة منذ حوالى ألفى عام .

ولقد وجد الماسونيون الذين قاموا بدراسة خاصة عن الجمعية الثلاثية أوجه شبه

مستلفتة للنظر من حيث طريقة تنظيم المحافل الماسونية ومحافل الثلاثيين ، وبخاصة فى تدرجهم الهرمى من حيث رتب الضباط . كما وجدوا تشابها ملحوظا فى بعض الأعداد والإشارات والمعانى التى يستخدمها الثلاثيون وتلك التى يستخدمونها هم .

غير أن هذه ليست هى آخر ادعاءات الماسونيين . إذ يكتب ج . س . م . قائلا : «إن جمعية الهونج أو الثلاثيين شأنهم شأن ماسونيى الغرب ، يبدو أن من حقهم أن يزعموا أنهم منحدرون عن سلالة معينة تدين بهذه الطقوس السرية . فإشاراتهم ذات طابع بدائى أثرى قديم ، غير أنها تمثل الدرجات العليا فى الماسونية أكثر من كونها تمثل الحرفة من حيث إن الجزء الرئيس فى الطقوس يتناول ما يُفترض أنه يقع للإنسان بعد الموت .

كما توجد تشابهات مثيرة بينها وبين مصر القديمة ، فعلى سبيل المثال فإن قارب هونج يشبه مراكب الشمس للإله رع . . » .

وبالرغم من كل هذه الأسباب ، ليس من حقنا أن نفترض أن الجمعية الصينية ثمرة مصرية . والأمر الأكثر احتمالا ، على ما يبدو هو أن الطقوس السرية المصرية نشأت عن جد مشترك وتطورت عبر خطوط مختلفة اختلافا ضئيلا .

ولا يمكن لمحاولات تخمينية من أجل الوصول إلى تفسير تاريخى كهذه إلا أن تثير البلبلة ، ومع ذلك فمن الصحيح أن ممارسات الثلاثيين تظهر أوجه شبه مثيرة مع الكثير من التنظيمات السرية الأخرى . ذلك أن القسم الذى يقسم به أثناء دخول العضوية غالبا مايكون مصحوبا بالتهديد بالموت فى حالة الخيانة ، كما هو الحال فى الستة والثلاثين قسما عند الثلاثيين من أجل دخول العضوية . فقسم أخوة الدم مصحوب دائما بسفك الدم واقتسامه فى شرب تناولى ، كما هو الحال فى مراسم الثلاثيين .

وكذلك من الشائع تعرية ركبة العضو الجديد وعادة ما تكون الركبة اليسرى ، غير أن الشيء الأكثر شيوعا هو مسلك الرمزية الذى يوجد فى الطقوس الثلاثية المعقدة لدخول العضوية ، مع ما فيها من محنة مختلطة من الموت بالنار والماء ،

ويتبعه «بعث» العضو الجديد، ومروره خلال ثلاث بوابات عليها حراسة إلى «شجرة الصفصاف» الشرقية، وهى السماء الأسطورية عند أبطال الهونج.

ومن بين أصعب المسائل المتعلقة بالجمعية الثلاثية درجة تنظيمهم تنظيما حقيقيا كحركة واحدة مركزية. أما اليوم فلا توجد حركة ثلاثية منفردة، وإنما يوجد عدد من المجموعات التى عرفت باللغة الإنجليزية بالتريادات أو الثلاثيات بشكل جماعى. غير أن ثمة دليلا على أن سون يات سين مؤسس الجمهورية عام ١٩١١، و الذى كان عضوا بارزا فى جمعية الثلاثيين، قد استفاد استفادة فعالة من التنظيمات الثلاثية المختلفة الموجودة فى الخارج لجمع الأموال وبث الدعاية.

واعتبرت مساعدة الثلاثيين من أجل تحقيق هدف إقامة الجمهورية مهمة بحيث نالت اعترافا نسبيا بها فى الصين. وفيما تلا ذلك من سنوات، ازدادت عضويتها أكثر فأكثر حتى إنها أصبحت جماعة ضغط من القوة بحيث إن معظم المسئولين وجدوا أنفسهم مجبرين على الالتحاق بها حتى يصلوا إلى أهدافهم، بينما وجد الآخرون (وعلى الأخص أصحاب الأعمال الذين يستخدمون العمال) أن العضوية فى الجمعية تزيد من تمتعهم بالأمن كما تزيد من أرباحهم.

وثمة خطوة سهلة بين الجريمة المنتواة والجريمة الفعلية. فبالإضافة إلى نشاطهم السياسى اكتسب الثلاثيون شهرة باعتبارهم عصابات إجرامية. فبعد الثورة الجمهورية، أصبحوا بغير شك أقرب إلى التنظيمات الإجرامية، كما زاد تشرذمهم، وأضافوا إلى أنشطتهم الأخرى التطاحن والقتل فيما بينهم. فمن الواضح أن الضرورة الطاغية من أجل اتخاذ عمل مشترك فى المجال السياسى هى التى أمكنها أن تحدث تنسيقا حقيقيا بينهم.

فبين عامى ١٩٤٦، ١٩٥٦ بُذلت محاولات عدة لتوحيد عصابات الثلاثيين الإجرامية فى هونج كونج بهدف معاداة الشيوعية، غير أنها جميعا باءت بالفشل. ويرجع ذلك إلى حد كبير، إلى أن من قاموا بها مهاجرون صينيون من مراكز خارجية، وكذلك لأن الثلاثيين هم الجمعيات التى لدينا أكبر قدر من المعلومات عنها.

ومن أشمل الكتب التى كتبت عن تاريخها فى العقود الخمسة الماضية ما كتبه

و . ب . مورجان فى كتابه (جمعيات الثلاثيين فى هونج كونج) المنشور عام ١٩٦٠ . ويصف مورجان، وهو مفتش شرطة سابق، الجماعات الثلاثية السبع الرئيسة فى المستعمرة، أى هونج كونج، حيث لكل منها منطقة النفوذ الخاصة بها، ومقرها الخاص وكذلك أفرعها .

ولقد عملت معظم هذه الجماعات أولا تحت قناع الروابط المهنية أو الجمعيات الخيرية أو الأندية الرياضية . وهكذا، ومن وراء واجهة الفوك يى المسجلة رسميا كجمعية تجارية صناعية عامة (والتى كانت تعنى بالمتكلمين بلهجة معينة وهى الهوكلو) خلف هذا القناع كانت تختفى الجمعية الثلاثية المسماة فوك يى هينج؛ حيث كان نفس الضباط يحكمون كلتا الجمعيتين، غير أن الطقوس والطرق والأهداف ظلت سرية .

ويعرف عن جمعية الفوك يى التجارية الصناعية أنها كانت تملك ١٢ من المكاتب الفرعية على الأقل كى تدير أعضاءها . وكان الناس ينضمون إلى الجمعية المسجلة لأنها كانت الوكالة الرئيسة التى تأخذ على عاتقها العناية بتشغيل ورعاية الناطقين بتلك اللهجة كما تحل مشكلاتهم الجنائزية . وكان الاشتراك الشهرى حوالى ١٧ سنتا أمريكيا . وكذلك كان حوالى ٣٠٠٠ من أعضائها الذين يبلغ عددهم ١٠٠٠٠ ضابط .

وكان هؤلاء الزملاء الثلاثيون، ضباط الجمعيتين، قادرين نسبيا على التحكم فى جميع الجالية الناطقة بلهجة الهوكلو فى هونج كونج . ومع تزايد السكان، والصعوبات الاقتصادية التى أثرت عمليا فى كل مدينة صينية فى تلك الفترة، تزايدت أيضا قدرة الضباط على تحقيق مكاسب شخصية أكبر نتيجة لمواقعهم . وبدأت جمعيات جديدة تشق طريقها على الساحة، وكذلك بدأت الجمعيات القديمة تتعدى على ما لغيرها من الجمعيات القديمة .

وفى ظل هذه الظروف، تطور نظام الإتاوة أو الحماية المدفوعة، فكان الناس يُجبرون على حلف قسم الثلاثيين، ويدفعون المصروفات كى يؤمِّنوا أعمالهم وممتلكاتهم (أيا كانت) وكذلك حياتهم .

وحدث هذا التزايد فى النشاط الإجرامى فى هونج كونج أثناء الحرب اليابانية

وفى أعقابها. فقبل عام ١٩٤١، كان ثمانية أو تسعة فى المائة فقط من سكان هونج كونج ينتمون للجمعيات الثلاثية. وفى عام ١٩٥٨، اقترب العدد من ١٥ فى المائة، رغم أن عدد سكان الجزيرة كان قد زاد إلى ثلاثة أضعاف فى الفترة الفاصلة بين هذين التاريخين.

وكان هناك ثلاثة تيارات للتفكير السياسى بين أعضاء الجمعيات الثلاثية فى هونج كونج عشية الهجوم اليابانى؛ فبعضهم كانوا مؤيدين للصين، والبعض كانوا ممالئين لليابان، والبعض الآخر لم يلزم نفسه بموقف معين. وفى الأيام الأولى من الحرب، ساعدت الجماعة الأولى عددا من الصينيين على الفرار إلى الصين الحرة. غير أنه مع نجاح اليابانيين، زادت أهمية الجماعة الثانية، وكانت الثالثة متلهفة على الانضمام إليها أى إلى الجماعة الثانية. واستخدم اليابانيون الجمعيات فى مهمة الحفاظ على النظام ومنع أعمال التخريب والانقلاب. ووضع هذا نقاطا واضحة أمام الناس، بالإضافة إلى أن الجمعيات قد شجعت على الدعارة بشكل صريح والقمار وبيع المخدرات (وهو الذى حصلت منه الجمعيات على معظم ما كان لها من دخل). كل هذا أثر فى فترة ما بعد الحرب، وكانوا يعتقدون أن الأمور فى الصين ما زالت على حالها.

غير أن السلام مع اليابانيين لم يضع حدا للقتال فى الصين، فاستمرت الحرب الأهلية بين جيوش الشيوعيين والوطنيين، حتى اكتسح الشيوعيون عام ١٩٤٨ معارضيهم نحو الجنوب (وتقريبا أغرقوهم فى البحر حرفيا) وتدفقت على هونج كونج أعداد ضخمة من اللاجئين، وجاء معهم المزيد من العصابات.

وكان هناك بين الجنوبيين عدد أكبر من أعضاء الجمعيات الثلاثية، وبين القادمين من شانغهاى، وغيرهم ممن لم يكونوا من الناطقين باللهجات الجنوبية. كان هناك أعضاء من جمعية الوخزة الخضراء والوخزة الحمراء. وسرعان ماصارت جمعية الوخزة الخضراء على وجه الخصوص، تشكل تهديدا جديا، إذ إن أعضاءها الذين كانوا موجودين بالفعل فى هونج كونج نصبوا من أنفسهم لجنة استقبال تتلقى الشماليين المغتربين، وادعوا وجود علاقة خاصة تربطهم بإدارة هونج كونج، وأطلقوا إشاعة بأن من يعتمد على مساعدتهم يمكن أن يُمنح سكنا وعملا،

ورخصة للتجارة، بل وكذلك إمكانية تعليم أبنائه، بينما يكون مصير أولئك الذين لا يعتمدون على عونهم الترحيل مرة أخرى إلى شانغهاى.

إلا أن تجربة هؤلاء اللاجئين السابقة لم تكن لتجعلهم يعتمدون على نزاهة أى مسئول إدارى (فمعظمهم لم يكونوا قادرين على التحدث بالإنجليزية، كما لم يكن لديهم أى معرفة بطرق حكم غير ما درجوا عليه من حكامهم). فلا غرو إذن أنهم كانوا على أتم الاستعداد لدفع مبالغ كبيرة مقابل تلك الادعاءات الزائفة بإعطائهم خدمات وحمايتهم من الترحيل.

وفى الوقت نفسه، بدأت جمعية الوخزة الخضراء فى تنظيم الدعارة وكذلك تجارة المخدرات على نطاق أكبر مما كان فى أى وقت مضى فى هونج كونج. ذلك أنها روجت تعاطى الهيروين ونظمت السطو المسلح وإشاعة وباء النشل. ومازال أعضاء الوخزة الخضراء نشطين رغم ما قامت به شرطة هونج كونج من جهود. فهم يتحكمون فى العمل ويديرون الدعارة ويبيعون المخدرات. ويعتقد أنهم يسيطرون على المرشدين غير الرسميين ووكلاء الحائكين الذين يتخصصون فى استقبال زوار هونج كونج وعلى الأخص الجنود الأمريكيون.

وكانت جمعية الوخزة الخضراء تركّز على الأغنياء أكثر من تركيزها على الفقراء. أما قاطنو المنازل البسيطة الفقيرة فى المدن الذين بلغ عددهم ما يقارب ٦٠٠٠٠٠ فى الخمسينيات، فلقد أحضروا جمعيتهم الثلاثية معهم، ولقد تأسست هذه الجمعية التى تسمى جمعية ١٤ لتأييد قضية معاداة الشيوعية، وأقيمت عمدا على خطوط الجمعيات الثلاثية.

وبعد عام ١٩٥٣، انحدرت إلى أن صارت عصابة إجرامية لها خصوصية فى درجة قسوتها، مستغلة نفس الناس الذين أقيمت خصيصا لمساعدتهم. وفى عام ١٩٥٤ حين بلغت عضويتها ٨٠٠٠٠ تقريبا، أصبحت تهديدا واضحا ليس فقط للمجتمع بصفة عامة، وإنما أصبحت أيضا تهديدا لغيرها من الجماعات الثلاثية الأقدم المستقرة.

ونتيجة لذلك وجدت نفسها هى الأخرى مجبرة على زيادة عضويتها. وكان من بين نتائج هذا التزايد فى نشاط الثلاثيين من حوالى عام ١٩٥٣ فصاعدا، تلك الحدة

فى أعمال الشغب التى نشبت فى هونج كونج فى أكتوبر عام ١٩٥٦، وصدم الرأى العام من جراء أعمال الشغب تلك وما أعقبها من اعتقالات بحيث حاول الناس الحد من نفوذ الثلاثيين.

ولأول مرة كانت هناك زيادة ملحوظة فى المعلومات التى قدمت للسلطات. وبعد أن أعيد تنظيم الشرطة، أعطيت لها صلاحيات جديدة للقيام بالاعتقال، ومع ذلك فقد ظل الثلاثيون أقوياء، ومن المحتمل أن يظلوا كذلك طالما استمرت الأحوال الاقتصادية الحاضرة.

ويصعب على أى شخص لم يشهد هذه الجمعيات وهى تعمل أن يفهم كيف يؤثرون فى الناس العاديين فى حياتهم اليومية. خذ على سبيل المثال بائعا متجولا صغيرا فى أحد الشوارع، وهناك ٢٠٠٠٠ منهم فى هونج كونج بعضهم يعمل بتراخيص ولكن العدد الأكبر لا يعمل بتراخيص، وهناك شيئان على أكبر جانب من الأهمية للبائع المتجول: الأمن على عربته، والأمن على سلعته. ولكى يحول دون «الصبية البلطجية» من الثلاثيين وسرقة عربته أو تخريب سلعته، ينبغى على البائع المتجول: إما أن ينضم إلى جمعية ثلاثية ويدفع ما تطلبه بنفسه، وإما أن يدفع إتاوة يومية صريحة لمحصلى الجمعية. وغالبا ما يجر هذا إلى تضحيات كبيرة، إلا أنه بدون تلك التضحيات لن يحصل البائع المتجول على أى حماية.

ويُعتقد أن الجمعيات الثلاثية فى هونج كونج تحصل على دخل يومى يربو على ١٠٠٠٠ دولار من هذا المصدر وحده. وإذا ضممنا هذا إلى الأرباح التى يجمعونها من ماسحى الأحذية والعاهرات، وراقصات الصالات والمطاعم، ومن بيع تذاكر المسرح والمباريات الرياضية فى السوق السوداء، وكذلك مصروفات العضوية والمبالغ الأضخم بكثير التى تجنى من تجارة المخدرات وحماية المجرمين، والقمار، والتحكم فى أصحاب عربات الروكشة (عربة انتقال صينية) والعمال وغير ذلك، فإن الثلاثيين يكونون قد حققوا دخلا يقارب ٤٠ مليون دولار من عملة هونج كونج أى ٧٠٠٠٠٠٠ دولار أمريكى، فى عام ١٩٥٨ من سكان يبلغ عددهم حوالى ثلاثة ملايين نسمة. ومن أجل تحقيق طلباتهم يعتمد الثلاثيون على العنف، والتخويف.

وبرغم أن تحكُّم الجمعيات السرية يكون دائما عملا غير شرعى، فإن هذا لا يعنى أنه دائما عمل معاد للمجتمع، كما هو الحال فى هونج كونج. فلقد كانت هناك مناسبات فى الصين وفى غيرها من الأماكن كانت السلطات الشرعية فيها معتمدة على إجبار الناس على دفع ما تشاء، شأنها فى ذلك شأن الجمعيات السرية، وكذلك فإن تحكم الجمعيات السرية على الأقل أفضل من عدم وجود تحكم على الإطلاق.

وهنا نأخذ مثالا من بلد حول ديرين فى شمالى الصين فى أوائل القرن العشرين. فنظرا لضعف الإدارة الرسمية، استطاعت جمعية سرية محلية تسمى اللحى الحمراء أن تصبح تقريبا حكومة بديلة، فلقد جمعت الجمارك وأصدرت التراخيص وكانت تحكم فى المنازعات.

وعادة ما تظهر مواقف كهذه فى فترات الانهيار الحكومى والفساد والظلم، كما كان الحال فى القرن الماضى إبان حكم أسرة التشينج أو السنوات الأخيرة من حكم الكومنتانج. وفى أوقات معينة قررت الحكومات عمدا أن تدع التنظيم المحلى للمجتمعات الصينية للمجهودات الخاصة. وتثبت صحة ذلك حين بدأت هجرة صينية على نطاق واسع إلى جنوب شرق آسيا والولايات المتحدة فى منتصف القرن التاسع عشر. ففى سنغافورة حيث كانت السياسة الرسمية هى ترك الصينيين يديرون شئونهم، أصبحت الجمعيات السرية قوية جدا. ومع أن معظمها كانت تنتمى للتجمعات الثلاثية، فإن معاداتها لأسرة المانشو فقدت مغزاها بالنسبة للثلاثيين على الأقل، إلى أن طُلب منهم أن يقدموا دعما ماليا لـ «سون يات سين».

فى البداية كانوا يعملون علنا ولم يلتزموا السرية إلا فى الطقوس، فلقد تم تسجيلهم باعتبارهم جمعيات تطوعية يتجه إليها المهاجرون الذين يصلون حديثا، إذ إنهم عادة ما كانوا يرتبون مرورهم، طلبا للمساعدة من كل نوع. فكانوا يقومون بدور الشرطة الداخلية بالنسبة للجاليات الصينية، إذ كانوا يسوون المنازعات ويقدمون الإطار الإدارى الذى لم يقدمه البريطانيون.

غير أنه فى عام ١٨٨٠ حين بدا أن استقلالهم قد أصبح أكثر مما ينبغى، وأصبحت تعدياتهم أوضح من اللازم، قرر البريطانيون اعتبارهم جمعيات غير مشروعة، لذا بدأت الجمعية السرية تعمل تحت الأرض أى فى الخفاء، واتبعت نفس الدرب الذى اتبعته شقيقاتها من الجمعيات السرية فى هونج كونج.

وتوجد الآن ست تجمعات رئيسة للجمعيات السرية فى سنغافورة، بعضوية كلية تبلغ على الأقل ٩٠٠٠. وتقدر الشرطة أنه فى عام ١٩٥٧ كان هناك قرابة الـ ٤٠٠ صدام بين عصابات الجمعيات السرية المتنافسة، رغم أن العدد انخفض فى عام ١٩٦٥ إلى سبعين بعد إدخال قوانين أكثر إحكاما. ويمكن إعطاء روايات مشابهة عن معظم مراكز الاستيطان الصينية فى الخارج. ذلك أن أعدادا كبيرة من العمال الصينيين وقد جذبتهم أنباء اكتشاف الذهب بدءوا فى الوصول إلى الساحل الشرقى للولايات المتحدة فى نهاية الأربعينيات من القرن الماضى، وكان من المستحيل على السلطات فى واشنطون، أو حتى فى ولاية كاليفورنيا الجديدة نفسها أن تتحكم تحكما وثيقا فى الشئون الداخلية لمراكز التنقيب عن الذهب الضخمة التى نشأت تقريبا بين عشية وضحاها.

وكان هؤلاء المهاجرون الصينيون المتجمعون كالقطيع معا فى بلد أجنبى تماما، تحت رحمة من استأجروهم ودفعوا لهم ما يسر لهم القدوم إلى تلك البلاد تربة خصبة لأنشطة على غرار أنشطة الثلاثيين. فهب الثلاثيون بسرعة مذهلة فى كل مكان من الولايات التى استوطنها صينيون، ومن بينها «الفرق الخمس» على اسم مناطق الصين الخمس التى بلغت عضويتها مع قدوم عام (١٨٥٤) ٣٥٠٠٠ عضو فى كاليفورنيا، فكان كل مهاجر صينى ذكر تقريبا فى الولاية منضما إليها. وكان كثير من الجمعيات أو الأندية الاجتماعية التى تبدو ظاهريا خيرية وبريئة، إن هى إلا واجهة فى الواقع لنفس المزيج من العناصر الإجرامية والتنظيمية التى أصبحت شائعة فى أى مكان آخر.

ولم يكن هناك اختلاف سوى فى الاسم، لأنه فى الولايات المتحدة عرفت الجمعيات السرية الصينية باسم تونجات وهى كلمة صينية معناها مقر اجتماع، وهذا الاسم استخدم كثيرا كلقب لجميع أنواع الجمعيات.

وفى الخمسينيات من القرن الماضى تقاتلت مقار الاجتماع أو التونجات المتنافسة فى حروب مصغرة فى الولايات المتحدة، وكان أعضاؤها يضعون دهانا دافئا، ويحملون البلطات. واستمرت هذه الحروب، بشكل أقل إضحاكا حتى السنوات الأخيرة. فبرغم أن سلطات الولايات والسلطات الاتحادية أحكمت قبضتها بالتدريج على الإدارة، فإنه لهذا السبب أصبحت المقار إجرامية أكثر فأكثر على نحو واضح.

وكما حدث فى هونج كونج وفى غيرها من الأماكن بدأ الانشقاق فى الوقوع، وفى نفس الوقت بدأ المزيد من المهاجرين يدركون أن مستقبلهم يوجد فى الولايات المتحدة، وليس فى حلم بعيد المنال بالعودة إلى الصين، (وكما حدث فى سنغافورة) أخذت الجوانب الثورية فى الجمعية السرية تقل من حيث الأهمية.

ولكن فى هذه الحالة أيضا، تم إحياء العداء التقليدى للمانشو مع نهاية القرن الماضى عن طريق طاقة د. سون يات سين وإيمانه حيث قضى ١٦ عاما فى المنفى مسافرا من أجل قضية ثورته. ولقد انتهى عصر ازدهار الجمعيات السرية الصينية كتنظيم سياسى، إذ كانت مرتبطة بمرحلة معينة فى تطور بنية الصين الاجتماعية، وإن هذه المرحلة قد مضت رغم أنها دامت إلى ما يقرب من ألفى عام.

ومنذ عام ١٩١١، لم تلعب الجمعيات السرية سوى دور ضئيل فى السياسة الصينية رغم أنه قد عرف عن شيان شاى تشيك، وماو تسى تونج أنهما كانا يتعاملان مع تلك الجمعيات. فقد تمنح الجمعيات تأييدا متقطعا لهذا الحزب السياسى أو ذاك، وقد تكون هناك مناسبات يصبح فيها مثل هذا التأييد حاسما، إلا أنه فى الصين اليوم لا توجد أهمية للجمعيات السرية بقدر ما توجد مثل هذه الأهمية للأحزاب السياسية.

فالسياسة الحديثة لا تدور ببساطة حول السلطة، وإنما هى أيضا تتناول البرامج السياسية. ولم تكن هناك على الإطلاق لإحدى جمعيات اللوتس البيضاء أو الثلاثيين أى برامج سياسية تتعدى ما تجسَّد فى الشعار القائل: «انقلبوا على تشينج وأعيدوا مينج».

وبحلول عام ١٩١١ ، تطلّب الموقف ما يزيد عن مجرد تغيير الأسرة الحاكمة حتى مع أعضاء جمعية التايبنج . ذلك أن الموقف تطلب ثورة أو على الأقل إصلاحا حاسما . والثورة (أو الإصلاح) يتطلبان كفاءة فى صنع السياسة ، وهو ما لم يتوافر قط للجمعيات السرية ؛ فصناعة السياسة الحديثة تقتضى معالجة عقلية لا تتمشى فى نهاية الأمر مع نوع الطقوس الصوفية التى تميز تلك الجمعيات الصينية وتزودها بمعظم ما لها من أسرار .

ومن المحتمل أن تؤثر التغيرات التى تحدث فى البنية الاجتماعية على الجمعيات السرية الدينية أيضا . ذلك أن التطورات الاقتصادية والتكنولوجية الحديثة تتطلب رقابة حكومية أكثر قربا ، بل وتؤدى إلى ذلك ، وهذا على عكس ما كان عليه الحال فى الأيام الخوالى ، فليس ثمة مجال للجمعيات الخاصة .

وفى العالم الغربى ، برغم أن الدولة قد تدخلت بشكل متزايد فى مجالات لم تكن فى دائرة اهتمامها فى السابق مثل التعليم ، والإسكان ، والصحة ، فإن هناك مجالات أخرى لم تمس بعد . فالدين يظل خارج سيطرتها ، والجمعيات الطقسية مثل الماسونية ما زالت آخذة فى الازدهار . غير أنه ليس من المحتمل أن تقوم حالة مشابهة لذلك فى الصين الشعبية . ومن غير الوارد أن تبقى الجمعيات الصينية باعتبارها تنظيمات دينية إلا بين الجاليات الصينية فى الخارج ، والتى توجد فى بلاد ذات تقاليد ديمقراطية . ومن الممكن أن تبقى الطوائف الصينية سرية فقط بالمعنى الطقسى لفترة طويلة ، بل وتزدهر على الساحل الغربى من الولايات المتحدة على سبيل المثال .

أما عن الجمعيات الإجرامية ، فمن المحتمل أيضا أن تتغير ، وذلك بأن تحتفظ بالسرية الضرورية ، إلا أنها ستصبح أقرب إلى العصابة الإجرامية فى بقية أنحاء العالم مع ما فى ذلك من تزايد فى التشرذم التنظيمى . وقد يفقد الجانب الطقسى لهذه الجمعيات الكثير ، غير أنه قد يبقى لما يقدمه للتضامن الجماعى .

المـافيـا

ديڤيد أنان

ربما جاء ت كلمة مافيا من الكلمة العربية التى تعنى « المخفية أو المخبأ أو المأوى » حسبما يتصور[١].

ذلك أنه أثناء الحكم العربى لصقلية الذى بدأ فى القرن التاسع ، كانت أرضها مجزأة إلى حيازات صغيرة ، ولكن حين فتح النورمانديون البلاد فى القرن الحادى عشر ، استولى السادة الإقطاعيون على الأرض وأداروها بنفس الطريقة التى كانت تدار بها مزارع العبيد الرومانية من حيث الاتساع والاستبداد وهى الطريقة التى استنكرها شيشرون .

ففر الكثير ممن نزعت ملكياتهم إلى مأوى فى التلال بدلا من أن يصبحوا عبيدا للأرض فى الإقطاعيات التى التهمت حقولهم . وحين فتح الإسبان البلاد فى القرن الخامس عشر ، استخدمت محاكم التفتيش محاكمات الهرطقة لتعذيب كل من الأغنياء والفقراء وإلحاق الأذى بهم على حد سواء .

فكانت المقاومة الوحيدة ضد الحكومة المستبدة تتمثل فى الخارجين على القانون ، وبذا أصبح قطاع الطرق فى المدن الإيطالية هم أبطال الفقراء والمقهورين حيث كانوا فى مأمن طالما احترموا مجتمعاتهم المحلية .

وهكذا عرف الصقليون جذور المافيا باعتبارهم «الجمعية الشريفة» ، وذلك من جانب الآلاف من البشر الذين كانوا يعانون على يد مختلف الغزاة ، مثل : الرومان والعرب والنورمانديين والإسبان والنابوليين والبوربون والإيطاليين الشماليين .

---

(١) عزيزى القارئ: نظرا إلى أن كاتب هذا الفصل لم يورد منطوقا يشبه كلمة عربية ، كان على المترجم محاولة إيجاد ألفاظ قريبة لكلمة مافيا .

وبرغم أن المافيا الحديثة يرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر ، فإن تقاليدها ضاربة فى الأزمنة القبلية . وتكمن قوة المافيا فى أنها جمعية عائلية ، تشعر بالكراهية والمرارة نحو الحكومة الرسمية ، وأن شعب صقلية تعلقوا لعدة قرون بهذه العائلة أو القبيلة بحسبانها المصدر الوحيد للحماية والأخلاق .

ونما الانضباط الذى تتسم به المافيا لأن العدل لا يتحقق ضد المظالم التى يعانى منها أحد أبناء تلك العائلات إلا خارج نطاق القانون الرسمى ، حيث لم يكن هناك من يثق فى قانون الغزاة ، وكان هذا مكتوبا فى قانون العائلة . وهذا الانضباط العائلى - المشابه فى الكثير من النواحى للعشائر الإسكتلندية ـ كان يسمى الأوميرتا ، أى الرجولة (١) .

وكان هذا الانضباط أو الأوميرتا يشمل رفض إعطاء أى معلومات للسلطات بعد ارتكاب عمل من أعمال العنف ، لأن الانتقام فى هذه الحالة يعد واجبا عائليا وليس واجب الدولة أو واجب الله . ومن ذلك أخذ العين بالعين والسن بالسن فى معركة بين العائلات ، حتى يموت جميع رجال إحداها ؛ وكذلك التقبل الرواقى الهادئ لسباب أحد الأعداء أو أحد الظالمين ، حتى تسنح ساعة الانتقام ؛ وأيضا رفض العفو عن أى إساءة أو نسيانها مدى الحياة ؛ وتكريس حياة الفرد من أجل رفاهية العائلة لأن الحظ الحسن الذى يصيب الفرد يعد حظا حسنا للجميع ، وكذلك فإن العائلة الثرية يمكنها أن تصد هجمات الأعداء على نحو أفضل ، كما أن الطاعة العمياء لرأس العائلة الذى تعد مشيئته قانونا ، وحب النظام السرى لأن القانون الرسمى كان على الدوام معاديا لأى جمعية داخل المجتمع .

لقد أحدث قانون كهذا فى عائلات المافيا قدرا كبيرا من احترام الذات وإحساسا بالشرف والواجب ، كذلك تسبب فى ارتكاب جرائم بلغت من الوحشية والوضاعة حدا يندر العثور على مثيل له فى العصور الحديثة .

إن تحول عائلات المافيا من مجرد فرق خارجة على القانون إلى حكام صقلية الحقيقيين ، قد حدث فى القرن التاسع عشر ، حين تحللت السلطة الإقطاعية على الجزيرة ، ذلك لأن ملاك الأراضى الإقطاعيين الذين أصبحوا أقل اهتماما بالعناية

---

(١) سيستخدم المترجم لفظة «الأوميرتا» لما فيها من ظلال خاصة بالمافيا .

بأراضيهم، بدءوا فى تعيين وكلاء يسمون جابليوتى، الذين وافقوا على أن يقوموا على العناية بالأرض مقابل مبلغ سنوى ثابت. فقام هؤلاء الوكلاء الذين كان الكثير منهم من المافيا، بتأجير الأرض من الباطن للفلاحين. وحين غزا غريبالدى الجزيرة بقمصانه الحمراء عام ١٨٦٠ حولت هذه الطبقة الصقلية الجديدة من الوسطاء تأييدها من نظام حكم البوربون إليه بعد أن كانت تؤيد ذلك النظام، وتحكمت فى سياسة الجزيرة فى الجمهورية التى تلت ذلك بالقوة وعن طريق تخويف الناخبين.

وكان هؤلاء الوكلاء أو الجابليوتى قد استأجروا أعضاء آخرين من عائلات المافيا لجمع الإيجارات من الفلاحين وحماية بيارات البرتقال ومناجم الكبريت وممتلكات أصحاب الأراضى. وبمرور الوقت قاموا بشراء الإقطاعيات بأسعار منخفضة من الأرستقراطيين، وكذلك دعموا سيطرتهم على حكومات المدن. وكان حكمهم كحكم من سبقهم يتسم بالقسوة والوحشية والظلم.

وكان انتقامهم فظيعا، بل كان من المؤكد وقوع ما هو أكثر من انتقام غيرهم، لأنهم كانوا من الأهالى المحليين. ويكمن السبب فى أن المافيا وقانونها ما زالا يزدهران فى صقلية فى تخلف الجزيرة، حيث يسود الشك العميق فى القانون والحكومة المركزية، وحيث يسود اقتصاد لا يجد المرء فيه عملا إلا لمدة لا تتجاوز مائة اليوم فى السنة فى وقت البذر والحصاد، وكذلك استبعاد المرأة من الحياة الاجتماعية، والزيادة السكانية الرهيبة، والتعصب الكاثوليكى، وهو ما أتاح لعائلات المافيا أن يستغلوا تقاليدهم الماضية باعتبارهم أبطالا شعبيين كى يكونوا رؤساء الشعب والمصفاة التى يتدفق من خلالها كل عمل أو رعاية وكل تجارة، باسم حكومة صقلية سرية تحكم حكما أقل فاعلية بكثير من الحكومة الرسمية الموجودة فى روما.

وتمكنت المافيا من الاحتفاظ بسريتها عن طريق عدم سماحها لأى مخبر بأن يظل على قيد الحياة. وبرغم أن المافيا تقوم بانتزاع المال مقابل الحماية، إذ تأخذ فى الأغلب الأعم نسبة مئوية عن كل صفقة تتم على الجزيرة من الناحية العملية، فإنها تظل قوة قانون ونظام، أى قانونها ونظامها.

ويضطر أهل صقلية إلى أن يدفعوا ضرائب مزدوجة، الأولى للحكومة الرسمية لدفع أجور الشرطة الرسمية والقضاة الرسميين، والثانية للمافيا كى تدفع للشرطة الحقيقية والقضاة الحقيقيين.

ذلك لأنه إذا ازدهرت فى صقلية جريمة تافهة دون مباركة المافيا، وهى التى لا تسمح بوجود أى منافسة، فإنها تقضى تقريبا على المجرم الصغير، أما أولئك الذين يقصرون فى دفع الإتاوة فتقطع رقاب أغنامهم وتشق أشجار زيتونهم حتى تهوى إلى الأرض، وتُفجر سياراتهم بالقنابل وتُحرق منازلهم. وعلى العكس من ذلك فإن الذين يقومون بدفع ما يُطلب منهم، وهذا معناه جميع السكان تقريبا، فترد إليهم سلعهم المسروقة حين تكون الشرطة نفسها غير فعالة.

ويعتمد تنظيم المافيا على شكل فضفاض من أشكال الديمقراطية داخل عائلات صقلية معينة، غير أن عضوية التنظيم قد تُمنح أيضا لغيرهم من العائلات كثيرة الكسب على أن تكون من دم صقلى. ومن بين الاعترافات القليلة المعروفة التى أدلى بها أحد أعضاء المافيا من صقلية هو ذلك الذى أدلى به د. ملكيورى أليجرا عام ١٩٣٧، (ولكنه لم ينشر حتى عام ١٩٦٧) إذ تحدث عن جمعية منقسمة إلى عائلات، كل منها يرأسها رئيس منتخب.

وتتكون العائلة من رجال من المدن المجاورة وكذلك تربطهم إما رابطة الدم وإما وضعهم فى المجتمع. وكان رئيس العائلة هو الحاكم الفعلى لمنطقته كما كان مستقلا، ولكن يُنتظر منه أن يتعاون مع جميع رؤساء المافيا المحليين وأن يطيع رئيسهم جميعا أى رئيس الرؤساء.

ولم تقتصر الجمعية على صقلية ؛ إذ كان لها آثارها فى تونس ومرسيليا بالإضافة إلى أمريكا الشمالية والجنوبية.

وكذلك تحدث أليجرا عن وجود كلمات سر معينة وإشارات يتعرف بها أحد أعضاء المافيا على الآخر، إلا أن هذه الكلمات والإشارات كانت قليلة وكانت فى معظمها قاصرة على تبادل أو إظهار تبادل مناديل ملونة. وربما كان الأمر الأكثر أهمية هو وصف أليجرا للمراسم التى أصبح بموجبها عضوا فى الجمعية، إذ تم ثقب طرف أصبعه الوسطى بإبرة واعتصر الدم منه على صورة ورقية صغيرة لأحد

القديسين، ثم حرقت الورقة ووضع رمادها على يد الدكتور. ثم جعلوه يقسم هذا القسم : « أقسم أن أكون مخلصا لإخوتى، وألا أخونهم أبدا، وأن أساعدهم دوما، وإذا قصرت فى ذلك فإننى أحرق وأستحيل رمادا كرماد الصورة».

وبرغم أن المافيا جمعية عائلية، فإن أعمال الثأر الداخلى شائعة فيما بينها. ومما يعقد جهودها فى حفظ السلام بين أعضائها وجود قانون الثأر، الذى يحكم الأعضاء وغير الأعضاء على حد سواء.

فعضو المافيا ليس عليه فقط أن ينتقم لموت عضو مافيا آخر فحسب، ولكن عليه أن ينتقم لموت أى شخص تربطه به رابطة الدم. وفى العديد من المرات أزال أعضاء المافيا التنظيم من أجزاء مختلفة من صقلية تقريبا عن طريق قتل بعضهم بعضا فى أعمال الثأر.

وهكذا فإن ١٥٣ جريمة قتل قد ارتكبت فى معقل المافيا فى كورليونى، بين عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٨. أما فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩١٨، ١٩٦٠ فإن مايقرب من عشر سكان مدينة جدرانو قد قُتلوا فى أعمال ثأرية، رغم جهود رئيس الرؤساء لإحلال السلام. وغالبا ما يتم ارتكاب جرائم كهذه بروح من الاستسلام واليأس، إذ يصبح فلاح مسالم فجأة رئيسا لعائلته وبذا يرث الالتزام الذى لامناص منه بقتل عدد من أبناء العائلة المتنازعة مع عائلته كى يرضى كرامة العائلة وينفذ القانون القائل النفس بالنفس.

إن صقلية التى سلبها الغزاة عبر القرون، بعثت أبناءها مع مرور الوقت ليقوموا بأعمال السلب فى الخارج، ذلك أن أعضاء المافيا الذين كانوا يسيطرون على معظم الأراضى فى صقلية تركوا معظمها كى تتحول إلى خرائب كى يرفعوا أسعار منتجاتها ولكى يكون لديهم سيل دائم من العمالة الرخيصة تحت تصرفهم، فاكتشفت أعدادا غفيرة من الفلاحين العاطلين فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن الطريقة الوحيدة لكى يقتاتوا ويعولوا عائلاتهم هى أن يهاجروا، ويفضل أن يكون ذلك إلى أمريكا، وأن يرسلوا النقود إلى الوطن حتى يتوافر لدى عائلاتهم ما يكفى للحاق بهم.

وأثناء هذه الفترة وصل إلى الولايات المتحدة ما يزيد على المليون من أهل

صقلية ، ومن الصعب تحديد عددهم بدقة ذلك لأن دولة المنشأ كانت دائما تسجَّل تحت اسم إيطاليا . ووجد هؤلاء الصقليون عملا على الأخص في أرصفة الموانى ، فلم يتوافر سوى القليل من الطرق للمهاجرين كى يكون لهم شأن رفيع فى الدنيا ، رغم أن هذا القليل كان أكثر بكثير مما توافر لهم فى صقلية . وليس من شك فى أن إحدى هذه الطرق القليلة هى الجريمة ، فسرعان ما استقر زعماء المافيا فى جميع الإيطاليات الصغيرة التى أقيمت فى الأحياء الفقيرة فى المدن الكبيرة ، حيث تمتعوا بنفس الاحترام الذى حظوا به في مجتمعاتهم فى صقلية .

وشعر الجمهور الأمريكى لأول مرة بهذه الجماعات الجديدة عام ١٨٩٠ ، حين نشبت حرب العصابات الإيطالية فى نيو أورلينز ، ذلك أن أخوين من بليرمو يسميان مترانجا فرضا إتاوة على جميع البضائع التى تُشحن أو تفرغ فى أرصفة الموانى ، فقبل عمال الموانى الصقليون النظام التقليدى الخاص بدفع جزية لأعضاء المافيا حيث اعتادوا على أعمال مشابهة فى بليرمو ، وكذلك كانوا يتحدثون بالكاد اللغة الإنجليزية ، ناهيك عن معرفتهم بالقانون الأمريكى .

غير أن زعماءالعصابات من نابولى كانوا قد نزحوا إلى أرصفة موانى نيو أورلينز ، ، ونعنى الأخوة بروفنزانى الذين ينتمون إلى كمورا وهى جمعية سريةإجرامية بالكامل . وسرعان ماوقعت عدة جرائم فى الأسبوع الواحد عن طريق استخدام المسدس والقنبلة والخنجر ، فقرر رئيس الشرطة المحلية ـ وهو رجل أيرلندى يدعى هنسى ـ التحقيق فى هذه الجرائم بدلا من السماح للإيطاليين بأن يذبح بعضهم بعضا وأن يحلوا المشكلات القانونية خارج نطاق القانون . فعرف الكثير عن تنظيم المافيا والكمورا (التى كانت أقل تغلغلا فى النسيج الاجتماعى فى مدينتها الأم) ، إلا أنه قتل رميا بالرصاص فى أكتوبر عام ١٨٩٠ قبل الموعد الذى كان سيدلى فيه بشهادته بعدة أيام أمام هيئة محلفين كبرى فى هذا الموضوع . ووجهت الاتهامات ضد ١٩ صقليا ، غير أن نصف أعضاء هيئة المحلفين تم تخويفه أو رشوته ، كما تمت الاستعانة بكتائب من كبار المحامين الأمريكيين ليقوموا بالدفاع عن المتهمين ، وكانت نتيجة ذلك وقف التنفيذ عن ثلاثة متهمين ، بينما أعلنت براءة الباقين .

ويبدو أن نمط محاكمة الصقليين قد استقر فى أمريكا؛ بيد أنه فى لويزيانا تغلب عرف قانون لينش على عرف المافيا، ولم يسمح للمواطنين أن يأخذوا بزمام القانون فى أيديهم. ذلك أن جمهورا يتألف من عدة آلاف تجمعوا وجروا ١١ من أعضاء المافيا خارج زنزانة المدينة وعلقوهم فى الشارع وأمطروهم بالرصاص. وحين لم يُقدَّم المهاجمون للمحاكمة قطعت العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وإيطاليا. واستنتج وزير خارجية إيطاليا أن الأمريكيين همج، وغير قادرين على وضع قانونهم موضع التنفيذ، فأجاب وزير الخارجية الأمريكى بأنه على الرغم من أن الولايات المتحدة دولة فتية نسبيا، فإنها ليس لديها جمعيات إجرامية كتلك المزدهرة فى إيطاليا على ما يبدو.

ومع ذلك استؤنفت العلاقات الدبلوماسية والهجرة، وتطورت المافيا الأمريكية حتى صارت تنظيما لامعا قويا، ومتكيفا مع طرق جرائم المدن، تماما مثل الأيرلنديين فى تنظيماتهم السرية السياسية فى الوطن حيث طوروا الطرق السياسية العائلية التى جعلتهم رؤساء ورجال شرطة فى المدن الأمريكية الناشئة الجديدة، فكذلك الإيطاليون وعلى الأخص المافيا، إذ كانوا الورثة الطبيعيين ومطورى الجريمة المنظمة فى الولايات المتحدة. (ومع أنه بالنسبة لأعمال العنف الفردية، فإن التراث الغربى كان دمويا إلا أن الجنوب كان له تراثه الخاص به من الثأر العائلى).

ولم يكن على عضو المافيا المهاجر إلا أن يتعلم طرق السطو على البنوك والقطارات التى طورها الأمريكيون الخارجون على القانون ويضيف إليها خبرته فى جمع الإتاوة كى توجد مافيا أكثر ربحا، أيا كانت درجة اختلافها عن المافيا فى صقلية.

إن الفضائل نفسها التى غرستها المافيا بسبب الوضع الاجتماعى فى صقلية، أى الأوميرتا التى نتجت عن الفقر والريبة فى القانون وكراهية المحاكم، كل هذه تأثرت تأثرا سيئا بمفهوم الإناء الأمريكى الذى تنصهر فيه كل الأجناس. إذ بدأت مؤامرة الصمت تتكسر، ذلك أن المخبرين عن المافيا أصبحوا يوجدون على وتيرة مرتفعة بين المواطنين الأمريكيين وبين أعضاء المافيا الأمريكيين أنفسهم بشكل أكثر مما وجد فى صقلية إلى يومنا هذا.

وفوق ذلك، فلا تجسر المافيا الأمريكية على أن تزعم أنها كانت المدافع عن الشعب ضد عسف الحكومة، بل على العكس من ذلك، فقد نجا الكثير من أعضاء المافيا من الكرسى الكهربائى بسبب منازعات نجمت عن الصراع بين قانون الولايات والقانون الفيدرالى.

وسرعان ماكان للمافيا الأمريكية تقاليدها. ففى الستينيات، أصبحت الولايات معتادة على ظاهرة «اليد السوداء» وكانت ترسل مطالب بدفع الإتاوة وتوزع بين الجالية الإيطالية، وكان كل طلب مرسوم عليه يد سوداء. وكان الضحايا الذين يتم اختيارهم يُهددون بخطف أبنائهم أو قتلهم أو التمثيل بجثثهم مالم يتم دفع الفدية.

وقد استخدم الأمريكيون اسما واحدا للإشارة لجميع العصابات الإيطالية المهاجرة، ألا وهو الجمعية الإيطالية. أما الآن فقد قفزوا إلى الاستنتاج بأن هناك شخصا واحدا يقف وراء مطالب «اليد السوداء»، غير أن إدارة الشرطة فى نيويورك كان لديها رجل مباحث هو الملازم أول[1] جو بيتروسينو يتمتع بدأب استثنائى، واستطاع جو بحكم أصله الإيطالى الحصول على معلومات من غالبية المهاجرين الإيطاليين، ممن كانوا عمالا شرفاء، فاكتشف عدم وجود تنظيم مركزى لليد السوداء؛ فأى مجرم يحلو له أن يرهب شخصا ما بحيث يجبره على دفع إتاوة كان يستخدم طرق التحذير التى تتبعها المافيا أو الرموز الشائعة التى تستخدمها اليد السوداء.

قضى بيتروسينو عامين فى جمع ملفات ضخمة عن الجماعات الإيطالية الإجرامية والجمعيات السرية، ومنها المافيا والكامورا. والأمر الذى يدعو إلى العجب هو أنه بينما كان لا يوافق على وجود أسطورة المؤامرة الدولية لليد السوداء، أصبح هو أول ضحايا مؤامرة المافيا الدولية.

ففى عام ١٩٠٩، زار إيطاليا لإقامة صلات مع الشرطة الإيطالية، حتى يمكن تحذير شرطة نيويورك حين يبحر المجرمون الإيطاليون فى طريقهم إلى الولايات المتحدة. ولقى هذا الرائد فى البوليس الدولى نحبه على يد رواد نقابات المجرمين الدوليين. فما أن نزل إلى بليرمو لفحص سجلات الشرطة الخاصة بالمافيا، حتى

---

(١) يفضل المترجم لفظ قائمقام.

قتله رئيس رؤسام عموم صقلية، دن فيتو كاسيوفيرو بنفسه. واعتاد دن فيتو الذى بُرئ من ٢٠ جريمة قتل أثناء حكمه للمافيا الذى دام ٢٥ سنة، أن يفخر بواحدة فقط من هذه الجرائم، ألا وهى جريمة قتل بيتروسينو. لقد استأذن لبعض الوقت أثناء العشاء مع أحد أعضاء البرلمان لكى يقتل بيتروسينو بمسدس واحد بينما كان خارجا من أرصفة موانى بليرمو. وأظهرت تعليقات دن فيتو أنه يعترف بوضوح بأهمية محاولة المباحث أن ينشئوا تعاونا شرطيا دوليا فاعتاد أن يقول: «لقد كان عملى عملا نزيها، وقمت به استجابة لتحدٍّ لم يكن فى مقدورى تجاهله».

وبمرور الوقت وضعه رئيس شرطة موسولينى فى السجن باتهام زائف بالتهريب، حيث توفى هناك.

وثمة تفجر آخر لحرب بين العصابات الصقلية والنابولية حدث فى نيويورك فى العقد الأول من هذا القرن. وهذه الحرب أفرزت إجنازيو سايتا الذى يعرف باللوبو أى الذئب وصار رئيس مافيا المدينة.

قام سايتا بسك العملة عن طريق اليانصيب غير الشرعى كما تاجر فى المخدرات وكذلك كان يأخذ إتاوات من المهاجرين. وجاء أفول نجمه حين بدأ يسك النقود بما فى الكلمة من معنى، فحكمت عليه الحكومة حكما بثلاث سنوات عقوبة على التزييف. وبعد صراع على إيجاد خليفة له خلفه جو سيبى ماسيريا، المعروف باسم جو الريس.

وكانت مثل هذه الحروب الدولية كثيرة الحدوث، وذلك راجع إلى أن المافيا الأميركية كانت تفتقر إلى التحكم المركزى. فحتى الآن ليس لديها ما يعادل رئيس الرؤساء كما هو الحال فى صقلية، وعلاوة على ذلك فإن سائر جمعيات المافيا فى المدن كان عليها أن تتنافس من أجل التحكم فى الجريمة فى مدنها مع غيرها من العصابات الأخرى.

فـ «جيم الماسى» أو كولوسيمو الذى كان يدير شبه إمبراطورية مبنية على الدعارة والقمار فى شيكاغو، اضطر إلى أن يترك مناطق واسعة فى المدينة فى يد رجال العصابات الأيرلنديين واليهود. وتم اغتيال كولوسيمو فى عام ١٩٢٠، ويحتمل أن

يكون ذلك قد تم على يد أنصار جونى توريو، وهو عضو مافيا منافس من نيويورك.

وتوريو ذو الطموح الكبير والكفاءة المتسمة بالقسوة قد تغلب عليه هو نفسه الشاب الذى كان قد اتخذه نائبا له وهو ألفونسى كابونى، الذى حُجبت عنه عضوية المافيا بسبب أصله حيث إنه ولد فى روما، إلا أنه أصبح رئيس تنظيم توريو فى عام١٩٢٥، وهو الذى أعطى المافيا الأمريكية الأفكار التى مكنتها من الاتساع.

لقد كانت ميزة المافيا فى صقلية هى عشائريتها المتطرفة، بيد أن هذه الفضيلة ثبت أنها رذيلة فى سياق الجريمة الأمريكية، فلقد بددت جهود المافيا فى قتال رجال العصابات الأيرلنديين والنابوليين واليهود بدلا من إيجاد طرق جديدة لإزعاج الجمهور.

وما أن تمكن كابونى من توطيد مركزه كرئيس لرجال العصابات فى شيكاغو، حتى بدأ يظهر ميزات التعاون، ذلك أن مئات حالات القتل التى وقعت فى شيكاغو أثناء فترة حظر الخمور، والتى تسبب فيها الصراع الطاحن على الأرباح الهائلة من بيع الخمور المهربة بواسطة المسلحين من المتنافسين من أيرلنديين وإيطاليين ويهود وبولنديين، كل أعمال القتل هذه انتهت بهدنة فرضها كابونى. وطبقا لهذه المعاهدة، قُسمت المدينة إلى مناطق تخضع كل منها لرئيس عصابة. بيد أن رؤية كابونى سرعان ما انتقلت من شيكاغو لتحيط بالولايات المتحدة برمتها. ففى عام ١٩٢٩. قام بتنظيم مؤتمر قومى لرؤساء المافيا فى مدينة أطلنطا، وفى هذا المؤتمر قُسمت الولايات المتحدة بأكملها إلى أقاليم كلف بالقيام عليها قادة العصابات.

إن كابونى الذى علم الأقربين من الصقليين حكمة التعاون مع رجال العصابات سن مختلف الجماعات العرقية، ظل رئيسهم الفعلى رغم محاولة قام بها أحد زعماء المافيا من نيويورك يدعى جوسيبى أيللو لقتله. وحتى أفول نجم كابونى كان درسا مستفادا كى تتعلمه المافيا الأمريكية، ذلك أن حبه للأضواء وازدراءه للقانون أديا إلى إلقاء القبض عليه ومحاكمته باتهامات تخص الإبلاغ الخطأ عن الدخل، أى عائد الضرائب عام ١٩٣١، فأودع السجن حيث قضى نحبه عام١٩٤٧.

وأفرخت حقبة التعاون الجديدة التى بدأها كابونى الشبكة القومية للقتلة التى تُعرف باسم الجريمة المتحدة، وكانت تشمل أعضاء غير صقليين وتقتل لقاء المال كما فعل الحشاشون فى أيام انحطاطهم.

ذلك أن الطمع كان يحتل مكانة عند رجل المافيا الأمريكى فوق قيمة الانضباط أو الأوميرتا أو الرجولة، وكانت تعلو بصفة خاصة على مفهوم الطاعة العمياء الواجبة نحو أعضاء المافيا الأكبر سنا. ففى غمرة سعيهم لإشباع شهوتهم فى الحصول على الغنائم بل أكبر قدر منها، بدأ أعضاء المافيا الأصغر سنا فى طرد الجيل الأكبر عن طريق القتل.

وفى عام ١٩٣١، بدءوا تحت قيادة «تشارلز المحظوظ» ولوسيانو، فى القيام بالقضاء المنظم على أعضاء المافيا الأكبر سنا وعائلاتهم، وبدءوا هذه العملية بجو الريس فى نيويورك، وقتلوا حوالى ثلاثين أو أربعين من رؤسائهم بمساعدة أشخاص ليسوا من بين أعضاء المافيا. وبرغم أن جماعتهم كانت تُعرف باسم الاتحاد الصقلى، فإنها كانت عصابة إجرامية أمريكية تماما.

ولقد ذهب أحد المخبرين وهو إيرنست روبولو (الصقر) إلى حد القول إنه منذ عام ١٩٣١ تفوق الاتحاد على المافيا تماما، و أى مقارنة بين الاثنين هى محض خيال بالتأكيد.

ومن المؤكد أن أساس الأوميرتا الاجتماعى قد اختفى مع تدمير البناء الأبوى والوراثى للمافيا الأمريكية، فلا توجد هناك علاقة تُذكر بين حياة الصقليين الأمريكيين الأثرياء فى المدن الكبرى وبين حياة أعضاءالمافيا فى المدن الصغيرة فى صقلية. فالأمريكيون يتعاملون فى بلايين الدولارات جُمعت من مجتمع صناعى غريب، أما الصقليون فيتعاملون مع مبالغ أقل جمعت من مجتمع ريفى متخلف هده الفقر.

وأصبحت المافيا الأمريكية معقدة، إذ تعلمت كيف تنتقل إلى الصناعة المشروعة (وتحرك روافع الرأسمالية)، بينما احتفظت بممارسات المافيا القديمة المفيدة لعصابة إجرامية تعمل فى الولايات المتحدة - كالانتقام من المخبرين، وتخويف المحلفين

وإفساد القانون. وتخلت عن فلسفة المافيا التقليدية. ومع كل فقد ظلت المافيا فى صقلية طريقة حياة كما ظلت وسيلة للاستغلال.

لقد نجحت المافيا الصقلية من العديد من الهجمات، أقساها بلا شك تلك الحملة التى شنتها ضدها سيزارى مورى، رئيس شرطة موسولينى فى أوائل العشرينيات. فبعد أن جلد وشوه وخصى وسلخ المئات من المشبوهين ورحل مئات أكثر، أعلن مورى عام ١٩٢٨ أن المافيا تم سحقها. وبرغم أن روايته للحملة قد تتسم بالغرور وعدم الدقة، فإنها تحتوى على بعض النقاط على جانب من الأهمية، إذ كتب قائلا: «إن أكثر العوامل إثارة للحيرة فى نفسية عضو المافيا النموذجى هو اقتناعه بأنه لا يقوم بشيء خاطئ. فطالما كان مطيعا لقواعد الأوميرتا، فسواء كان يجبر الناس على دفع النقود أو يسرق بل يقتل، فهو بالنسبة لنفسه كما بالنسبة لإخوته رجل شريف وضميره فى سلام».

إن قواعد الحرب التى يسمح المجتمع من خلالها لأفراد فى قواته المسلحة بأن يقتلوا ويسلبوا يطبقها أعضاء المافيا فى وقت السلم، لأنهم يشعرون بأنهم دائما فى حالة حرب مع المجتمع الأكبر. ومع كل فإن مورى ليس هو الشخص الذى يصلح لإعطاء آراء أخلاقية ضد آراء المافيا الصحيحة، ذلك أن الحكومة فى روما كانت فى حالة حرب صريحة ودموية ضد وجودها نفسه.

ولم يعتقد أن عائلات المافيا كانت تنتخب رؤساءها، وزعم أن هؤلاء الرؤساء اختاروا أنفسهم، بل وفرضوا أنفسهم. وهو على صواب بمعنى من المعانى، لأن العائلة كانت تثبت فى سدة الرئاسة من يُظهر أكبر قدر من السلطة بين أفرادها. كما اعترف مورى بأن المافيا يمكن أن تستوعب أى صقلى موهوب لديه المؤهلات المرغوبة، ولكن ما أن تشعر المافيا بأن أحد أعضائها سيساوم على الآخرين، فإنه يُقتل أو يُجبر على التقاعد. وأكد أن المافيا فلسفة بقدر ما هى جمعية فليس لديها كثير حاجة لاستخدام كلمات السر والإشارات السرية، ذلك أن أعضاء المافيا يعرف بعضهم بعضا بطريقة فى الحديث والكرامة والتحفظ فى السلوك والنظرة الباردة والحدس.

ويؤكد شاهد قريب العهد، هو الأب البروتستنتى توليو فينى هذه النظرة، معلنا

أن المافيا فى صقلية تعد عقيدة الشعب - إذ يريد لها أن تقوى وتشتد وتسود. هذا هو أول شىء ، وهذا هو أثر تاريخ صقلية ، لأن شعب صقلية يحتاج لأن يكون ذا أهمية. وأول الطريق لبلوغ هذا هو أن تسود المافيا ، بل أن تكون وحدها سيدة الموقف.

وازدهرت المافيا فى أمريكا أيضا لأنها وفت باحتياجات المهاجرين للحصول على المكانة. غير أن تراث المافيا الذى يرجع إلى القرن التاسع عشر والذى يحض على جمع المال بالقوة والسطو يعد غير متمش تاريخيا مع مجتمع تفوقت فيه الأعمال الكبيرة على ما فى المافيا من قسوة وما قامت به من تهذيب لوسائلها فى النجاح. ومع ثراء الكثير من الصقليين بالوسائل المشروعة وانضمامهم إلى الطبقات المتوسطة الأمريكية ، ماتت المافيا القديمة ، وأصبح من الصعب التمييز بين خليفتها وبين الأعمال الكبيرة بشكل متزايد.

فالمافيا الأمريكية الجديدة تمتلك شركات لعربات النقل والمطاعم ومنتجعات بأكملها ، بل إنها تنظم الدعارة وهوما لم يكن ليخطر على بال الصقليين القدامى من أعضاء المافيا.

إن رجال المافيا الناجحين الذين احتفظوا بصلات مع أرض الوطن علموا الصقليين طرقا جديدة لانتزاع المال. وتكمن بدايات هذا التأثير فى غزو الحلفاء لصقلية ، عام ١٩٤٣ حين قررت المافيا الصقلية ولها ما لها من مهارة فى التقاط الفائزين ، أن تأخذ بنصيحة فرعها فى أمريكا وتسمح للجزيرة بأن تسقط كالريشة فى يد الغزاة.

ولهذا الغرض ، استعان الحلفاء بجهود «المحظوظ» لوسيانو الذى كان يقضى حكما مدته ثلاث سنوات فى السجن كعقوبة على قيامه بتنظيم الدعارة ، والذى تمت الاستفادة منه سابقا فى إيقاف الإيطالى الأمريكى ستيف دورس عن نهب سفن الحلفاء فى نيو يورك. وكان أثر السجين واضحا. فلم يكد يبلغ عن أى حادث نهب من قبل موانى نيو يورك. وكذلك لم تلق جيوش الحلفاء مقاومة تذكر فى غرب ووسط صقلية ، حيث كانت المافيا أقوى ما تكون.

وقبل الغزو تم الاتصال بكالو جيرو فيزينى الذى كان رئيس رؤساء المافيا

الصقلية في مدينة فيلالبا في وسط صقلية عن طريق طائرة أسقطت لفة في منديل حريري أصفر عليه حرف « ل» يفترض أنه يرمز إلى لوسيانو. وسلم فيزيني صقلية للأمريكيين الذين كان قد تحالف معهم.

وتعبيرا عن الشكر، عينوا كالو عمدة على فيلالبا، ووضعوا أعضاء المافيا الذين أوصى بهم في مراكز مهمة حيث إنه قال إنهم معادون للفاشية ووطنيون إيطاليون حقيقيون. وهكذا سلموا صقلية مرة أخرى ليد المافيا، بعد أن كان موسوليني قد أنقذها تقريبا.

وكان مما يدعو للسخرية أن يدين الحلفاء لتعاون رجال العصابات الأمريكية الصقلية في تحقيق أرخص انتصاراتهم في الحرب العالمية الثانية وأكثرها حسما. وعلى أي حال، فلقد تم تسديد ثمن هذا الانتصار بالكامل. ذلك أن لوسيانو قد أُخرج من السجن بتعهد وتم ترحيله إلى إيطاليا، حيث أصبح الرئيس المعترف به للمافيا الدولية، بينما قام زعماء المافيا القدامى مرة أخرى بالسيطرة على مدن صقلية الصغيرة وأخذ نصيبهم من كل صناعة وزراعة صقلية تقريبا.

ولقد تعلمت المافيا من واقع تجربتها تحت الفاشية وفي أمريكا أن أفضل مناخ مناسب لانتزاع الأموال هو النظام الرأسمالي، وأن أضعف نظام قانوني يوجد في ظل الديمقراطية. فكما أعلن أحد محللي إيطاليا المرموقين، أن المافيا تقف إلى جانب من هم في السلطة، فلقد أيدت ملوك البوربون قبل عام ١٨٦٠، وسرعان ما حولت قوتها وولاءها لغريبالدي حين هبط على الجزيرة. وكذلك وقفت المافيا إلى جانب الأمريكيين حين نزلوا إلى صقلية، وهم أي المافيا يساندون المسيحيين الديمقراطيين الذين يديرون البلاد في الوقت الحاضر، إذ سرعان ما عثر المسيحيون الديمقراطيون على سبيل للحصول على مقاعد في صقلية.

وكان عليهم أن يتعاونوا مع المافيا كي يحجبوا التصويت عن الشيوعيين. وأدى هذا التحالف إلى أكثر الحلقات مأساوية في تاريخ صقلية في سنوات مابعد الحرب، ألا وهي المذبحة التي ارتكبت ضد أهل المدينة في بورتيللا ديللا جنيسترا عام ١٩٤٧.

ذلك أن المسيحيين الديمقراطيين لم يبلوا بلاء حسنا في الانتخابات في صقلية

فى ذلك العام ، حيث إن أهل المدن القريبة من جنيسترا قد صوتوا لصالح مرشحى الجبهة الشعبية ، فقررت القوى التى كانت موجودة فى صقلية أن الحمر فى حاجة إلى تلقى درس . وكانت أداة الانتقام التى وقع عليها اختيار المافيا والأرستقراطية التى كان مازال لها بعض السطوة تتمثل فى قاطع الطرق الناجح سالفاتورى جوليانو حيث إنه كان مازال قويا فى صقلية باعتباره يتمتع بشعبية بين الخارجين على القانون لأنه كان قد أيد الحركة الانفصالية فى صقلية بعد الحرب ، بل إنه دعا الولايات ا لمتحدة كى تضم صقلية وهو حل كان من شأنه بالتأكيد أن يحل مشكلة الزحام فيها ، كما كان من شأنه أن يحل مشكلة المافيا فى نقل أعضائها من قطر إلى آخر .

ولقدتلقى جوليانو (وهو الذى لم يكن فى أى من الأوقات عضوا فى المافيا) ، وعدا بتأمين مروره إلى البرازيل مع رجاله إذا ما تعاون فى ردع الحمر . ففتح النار فى الوقت المناسب من المدافع الرشاشة على أهل المدن الذين كانوا يحتفلون بعيد العمال فى أول مايو فى بورتيللا ديللا جنيسترا ، فقتل ٢٢ شخصا وجرح ٥٥ آخرين .

وكانت نتيجة ذلك أن حفظ الفلاحون فى صقلية هذا الدرس عن ظهر قلب . ففى الانتخابات التالية قفز التصويت لصالح مرشحى المسيحيين الديمقراطيين بشكل كبير . ولما لم تعد هناك حاجة لجوليانو بالنسبة للمافيا أكثر من ذلك حان الوقت لتصفيته . بيد أن استخدام جوليانو كان أسهل من القضاء عليه ، فحين تم تحذيره من وجود مؤامرة تدبرها المافيا ضده ، حاول اختطاف رئيس رؤساء المافيا دن كالو وكذلك مطران مونريالى .

ذلك أنه لم يكن ليخضع للمافيا مطلقا ، بل كان يحاول القيام بانقلاب ضدها بالفعل ، غير أن المافيا استطاعت أن تضم إليها نائبه أو مساعده وابن عمه بيسكيوتا الذى قام بقتله عام ١٩٥٠ . وحين قدم بيسكيوتا للمحاكمة على دوره فى مذبحة بورتيللا ديللا جنيسترا شرح بوضوح أن المافيا الصقلية والشرطة وقطاع الطرق قد تعاونوا فأعطوا ما للحكومة للحكومة - أى الأصوات - كما أعطوا للباقين مالهم وهو نصيب مما تم سلبه .

وقال بيسكيوتتا فى شهادته : « لقد كنا جهازا واحدا : قطاع الطرق والمافيا والشرطة كالأب والابن والروح القدس» . فهذا الثالوث المكون من السلطة المرتبط الذى لا يكاد ينفصل قد حكم ومازال يحكم فى صقلية ، بينما يصبح الصقليون الذين يهاجرون إلى الشمال من أجل العمل ، أشد أنصار الحزب الشيوعى .

لقد منحت قدرة المافيا على استنقاذ الأصوات الصقلية نفوذا ضخما فى روما . ويقول أحد المعلقين من بليرمو : « إن هذه المحاباة الماسونية تتعدى حدود صقلية لأن أعضاء المافيا المحدثين ، هؤلاء الذين نقلوا أنشطتهم نحو البر الإيطالى إلى المناطق الواقعة حول نابولى وروما ، على سبيل المثال ، استطاعوا العمل هناك بفضل نفس الحظوة والحماية السياسية التى تمتعوا بها هنا فى بليرمو تماما» . فالمافيا تتحكم فى إيطاليا وكذلك فى ولايات أمريكية معينة ، فى قطاعات كبيرة من مراكز السلطة .

وفى هذه المناطق كما هو الحال فى مدن صقلية الصغيرة ، يعلم الجميع تماما من هم أعضاء المافيا رغم أن حيلهم قد تظل سرية . وأقوى أسلحة زعماء المافيا هى أنهم معروفون غير أنهم محصنون ، إذ يبدو أنهم قادرون فيما يختارون من مناطق ، على أن يتحكموا فى الصناعة والانتخابات ومجريات القانون . ذلك أن نجاح المافيا الجديدة فى الصناعة فى حد ذاته قد كان له أثر كبير فى إكسابهم « احترام الأغنياء» والأقوياء .

كما اكتسبت المافيا الجديدة إذعان المجتمع الأكثر اتساعا ، وهو الإذعان الذى ناضل زعماء المافيا القدامى كى يفوزوا به بشق الأنفس فى مدنهم الصقلية الصغيرة .

ويتحدث أحد المعلقين الإذاعيين عن إيطاليا فيقول واصفا المافيا بأنها «نوع من العادة ، العادة الأخلاقية ، وهذا هو الخطر الذى يكمن الآن فى أن المافيا لم تعد كما كانت ، أى نوع من الانحراف المنظم . أما الآن فقد انتشرت كالأخطبوط فى عقلية رجال الأعمال ورجال السياسة بصفة خاصة . فهم يقومون علنا بالتشهير ويضعونك تحت أضراسهم ، وهم يستخدمون سطوتهم علنا وبلا أى محاولة للإخفاء » .

وربما كان المثل الذى تعطيه المافيا، فى العديد من النواحى خارج صقلية أكثر خطرا مما تمارسه بالفعل، إذ إنها علمت غيرها من رجال العصابات الأمريكيين طرقها فى الحصول على الإتاوات وطرق التخويف، وكذلك علمت السياسيين الإيطاليين كيف يحصلون على الأصوات الانتخابية التى يحتاجون إليها.

إلا أنه إذا كانت ممارسات المافيا هى نوعًا من التعليم الذى يتلقاه الفرد من أجل الجريمة الأمريكية، فإن فلسفتها كانت تعليما من أجل ممارسة السياسة فى إيطاليا. ولا يخسر فى هذا الوضع سوى المواطنين والعملية الديمقراطية. فلقد تحدث نيكولا جنتيل، وهو زعيم سابق من زعماء المافيا الأمريكية عام ١٩٦٣ عن المركزية المتزايدة فى المافيا. فبرغم أن التنظيمات المحلية ما زالت تتمتع بالحكم الذاتى، فإن وسائل الاتصال الحديثة قد وفرت قدرا أكبر بكثير من السلطة للرؤساء الصقليين وكذلك لنظير «الملك» فى الولايات المتحدة، فالأرباح الهائلة التى تُجنى من تجارة المخدرات الدولية والتهريب تتطلب قدرا أعلى بكثير من التعاون والخضوع.

ولقد تمكن أعضاء مافيا صقلية عن طريق اتصالهم بالمافيا فى أمريكا من أن يستغلوا حالة التصنيع التى تزحف ببطء إلى الجزيرة، ذلك أن لوسيانو وغيره من رجال العصابات الأمريكيين المغتربين قد نصحوا باتباع طرق جديدة لانتزاع المال وأشرفوا على هذه الطرق.

فكانت نتيجة ذلك أن بلوكات الشقق والمصانع الجديدة فى بليرمو أصبحتا خاضعتين لسيطرة المافيا تماما مثل بيارات البرتقال القديمة ومناجم الكبريت. فقاطع الطرق يظل قاطع طرق، فحين حول بريخت ماك السكين من السطو إلى مجال الأعمال وسأل سؤاله الشهير: «ماذا تكون سرقة أحد البنوك إذا ما قورنت بتأسيس بنك؟»، كان بذلك يتنبأ بالسبيل الذى ستسير عليه المافيا.

إن ذبح المافيا الأمريكية القديمة على يد المافيا الجديدة وانهيار السيطرة الأبوية قد أعيد تمثيله أيضا فى صقلية فى السنوات الأخيرة، إذ تسللت نظرة المافيا الجديدة إلى مدينة كورليانو، حيث أعلن عضو مافيا على الطريقة الأمريكية الحرب على المافيا التى تتبع الأسلوب القديم تحت قيادة د. ميكايللى نافارا فى عام ١٩٥٧،

وهذا الشخص يدعى لوسيانو ليججيو، وكانت القضية تدور حول تشييد سد فى وقت قريب، وكان نافارا يعارض هذا المشروع توجسا من أن الرى سيجعل الفلاحين مرفهين، وهو ما يحررهم من سيطرة المافيا.

غير أن ليججيو كان متطلعا إلى الأرباح السريعة التى ستأتى من وراء تشييد ذلك السد الذى كان يقدم له الحماية المناسبة. وفى عالم نافارا كل تغير يعد سيئا حتى و إن كان مربحا، أما فى عالم ليججيو فكل ربح جيد، ومن الممكن دائما استغلال أى تغيير.

وكذلك كان ليججيو يرفض أى شىء يمت بصلة لما فى المافيا من سرية، مع ما فيها من نظام متدرج فى إصدار التحذيرات وأعمال القتل الخفية؛ ففى مدينة كان معدل جرائم القتل فيها يتضخم بسبب الثأر القديم والحروب بين الرعاة والفلاحين، وكذلك الهجمات التى تشن ضد الشيوعيين، أخذ ليججيو ورجاله يقتلون الناس فى وضح النهار، فقتل ليججيو نافارا، وحوكم وأدين على قتله غيابيا. ولم يتم القبض عليه هو و ٥٤ من شركائه حتى عام ١٩٦٤، وحكم عليهم بناء على قائمة مطولة من الاتهامات بعد تحقيق استغرق أكثر من عام.

إن رجل المافيا الصقلى الذى يعول ثلاثة أبناء يحاول أن يزرع واحدا منهم فى الكنيسة، وآخر فى مهنة الطب، وثالثا فى المهن المتعلقة بالقانون، فتكون النتيجة هى أن رجال الكنيسة فى صقلية يذعنون إلى حد كبير أمام ماتقوم به المافيا من أفعال. وقد يكون كبير عائلة المافيا هو الكاهن المحلى. ففى عام ١٩٦٢، قدم للمحاكمة أربعة من رهبان الفرنسيسكان فى مزرينو لاتهامهم بالتآمر، وانتزاع المال والقتل.

وبينما كان الاختراق المتبادل باديا أمام أعين جميع المراقبين الخارجيين، كمم الخوف من قوة المافيا أفواه معظم الشهود الحيويين. ووجدوا فى شخص بستانى الدير كبش فداء، وأخليت ساحة الرهبان على أساس أنهم كانوا يتصرفون وهم واقعون تحت الضغط. غير أنه بعد عام حين كان من المقرر أن تصل لجنة خاصة من روما للتحقيق فى مسألة المافيا، أعطيت أذن صاغية لنداء توجهت به النيابة،

فأعيدت محاكمة الرهبان عندئذ، فأدينوا وحكم عليهم بثلاث عشرة سنة سجنا.

وكما حدث فى وقت من الأوقات أن أصبحت المافيا قوة للقانون والنظام عن طريق القضاء على قطاع الطرق المنافسين، كذلك فحين يوطد أعضاؤها أقدامهم فى إحدى الولايات فهى تدمج نفسها مع الولاية وتضحى بأتباعها الأقل حنكة. فتحقيق الأرباح المرتفعة عن طريق استغلال العامل فى المدينة استغلالا مشروعا قد يغريها بأن تتخلى عن قبضتها على الفلاح الصقلى، الذى يجد أخيرا أبطالا لهم فاعليتهم، وأجرأ هؤلاء هو المصلح القادم من شمال إيطاليا دانيو دولتشى الذى تزوج أرملة صقلية واستقر بين الفلاحين.

وقاد دولتشى الفلاحين لخوض معارك من أجل الاستيلاء على الأرض غير المستغلة لكى يبنوا الطرق، فصار ضمير إيطاليا فيما يتعلق بمشكلة صقلية. وبالرغم من العديد من التحذيرات التى وجهتها له المافيا، فإنه ظل على قيد الحياة.

وبضغط من الرأى العام، شرعت الحكومة فى روما فى إصلاح زراعى فى صقلية وشمل ذلك بيع الأراضى غير المستغلة للفلاحين. أما المافيا الجديدة فى بليرمو، التى كانت أكثر اهتماما بأرباحها فى المدن، فقد رحبت فعلا بالإصلاح الزراعى كوسيلة أخرى لجمع الريع، فكانت تأخذ عمولتها المعتادة عن كل عملية بيع للأراضى، وجعلت أسعار منتجات المزارع منخفضة بشكل مصطنع فى الريف وجعلتها مرتفعة فى أسواق بليرمو. فمن الأفضل استغلال مشروع صغير عن استغلال فلاح، ومن الأفضل استغلال صاحب مشروع كبير عن استغلال صاحب مشروع صغير، ومن الأفضل استغلال الدولة بكاملها عن استغلال صاحب مشروع كبير.

ولما أحست الحكومة المركزية فى روما بوطأة ضغط الرأى العام فى بقية إيطاليا، أرسلت لجنتها المعادية للمافيا إلى صقلية فى يوليو عام ١٩٦٣. ومنذ ذلك الوقت، كانت الشرطة تُجبر على عمل شىء ما، فقامت بـ ٢٠٠٠ عملية اعتقال،

وقامت المافيا بإعلان معاهدة بالتوقف عن أعمال القتل، دائما ما يقل مفعولها حين تشتد الحرارة. وعلى أى الأحوال، يبدو أن المافيا باقية مع وجود اللجنة كما بقيت مع وجود العديد من الأعداء الأكثر خطرا.

ويقول أحد أعضاء اللجنة وهو لويجى بارزينى: «سيستغرق الأمر جيلا بأكمله حتى يتم اجتثاث المافيا، وحتى نوقن بأن الصقليين الذين اخترعوا هذه الطريقة الرهيبة للحياة فى دولة تحترم القانون وكأن القانون غيرموجود، يستطيعون التخلى عن هذه الطريقة بينما تقدم مثل هذه الطريقة - حتى للرجل الشريف - ميزات عدة».

إن الطريقة الوحيدة لاجتثاث المافيا الصقلية تكمن فى اجتثاث الفقر والأخلاق الريفية التى أفرختها. فالرفاهية ستضع حدا للمافيا القديمة، حيث لن يحتاج الفلاحون إليها لإيجاد عمل. وسيسعى أعضاء المافيا الجدد فى المدن إلى كسب احترام الأغنياء وأهل المدن بدلا من محاولة كسب احترام من هم على شاكلتهم. فحين تنتشر رفاهية إيطاليا نحو الجنوب ستنهمك المافيا فى انتزاع أموال أصحاب الأعمال الكبار، ولن تكون هناك أى حاجة لأساليب الإرهاب لإدخال أصوات انتخابية للمسيحيين الديمقراطيين، وسيذبل ثراء هذه الجمعية التى أفرخها الفقر، فلن يتبقى لها ما تتعلق بأهدابه سوى الإحساس العنيف بالشرف.

لقد بدأت بالفعل هذه العملية فى الولايات المتحدة، ذلك أن السلطات الاتحادية تضيق الخناق باستمرار على زعماء العصابات. ففى عام ١٩٥٧، تم القبض على ما يقرب من ستين من كبار زعماء المافيا حين كانوا مجتمعين فى أبالتشى فى أعالى ولاية نيويورك، وحكم على عشرين منهم بأحكام السجن تتراوح ما بين ثلاث وخمس سنوات لتآمرهم على التحايل على القانون وكذلك على الإدلاء بشهادة زور. وبرغم أن المحكمة العليا نقضت الاتهامات، فهى غيورة دائما على الحريات الفردية، فإن المافيا الجديدة اكتشفت وهى تتآمر وتم الحكم عليها.

ولقد أنشئ قسم خاص تابع لمكتب التحقيقات الفيدرالى التابع لوزارة العدل لجمع ملفات عن ١٨٨ وهم أهم المجرمين الصقليين القادمين من جنوب إيطاليا.

وتم تدعيم هذا القسم عام ١٩٦١ حين أصبح روبرت كندى نائبا عاما. وفوق ذلك، وبعد جلسات استماع عقدتها لجنة تابعة لمجلس الشيوخ أعدت لها دعاية جيدة، أبرزت السلطات الفيدرالية مخبرا من بين صفوف العصابات الصقلية هو جو فاليتشى.

ففى عام ١٩٦٢، بعد أن قبل جينوفيز قبلة الموت الطقسية فى الزنزانة (وهى الإشارة الدالة على أن المجلس قد قرر قتل فاليتشى) قام فاليتشى وهو يائس بقتل زميل له فى السجن أخطأ فظن أنه أحد عملاء المافيا. وكان مخرجه الوحيد من الجلوس على الكرسى الكهربائى هوأن يبلغ السلطات، وفعل ذلك فعلا بتلذذ، حيث استمتع بالدعاية التى أتاحها له التلفزيون وبالسرد القاسى للكثير من الجرائم التى شهدها.

وبرغم أن ماقاله فاليتشى لم يكن قد أيد بالأدلة، فإن المافيا الجديدة فى الولايات المتحدة ظلت جامدة فى الشرق ونقلت الكثير من عملياتها إلى ولايات مثل نيفادا، حيث سلطات القانون تبلغ من المرونة حد تقبل ما يجرى من جرائم. وفى أشهر عملية فضح للمافيا فى الولايات المتحدة - أى جلسات الاستماع أمام لجنة كيفوفر فى مجلس الشيوخ- فى عام ١٩٥١، وجد عضو مجلس الشيوخ أن «من المخيف للمرء أن يتأمل كيف أن أمريكا قد اقتربت من نقطة التشبع من حيث الفساد السياسى والإجرامى». غير أنه نسى شيئا واحدا، وهو أنه حين يتم الوصول إلى نقطة التشبع فإن الشىء الذى يشبع الجسم السياسى يصبح هو الجسم السياسى نفسه.

وفى نهاية الأمر، ستعمل بوتقة الصهر الأمريكية عملها، وستستوعب الولايات المتحدة المافيا الصقلية كما استوعبت فى وقت من الأوقات الصبية المتشردين الأيرلنديين. فمع تحول عائلات المافيا إلى كبار رجال أعمال، كذلك سينزلق التحكم فى الجريمة المنظمة إلى جماعات أخرى محرومة.

وبرغم أن المافيا قد تلقن الحكام الأمريكيين دروسا فى الاستخدام القاسى

للقوة، فإن هذه الدروس لا يمكن تطبيقها بالكامل فى أمة بها الكثير من الأشكال الحقيقية من الديمقراطية وتقاليدها.

ويمكن تلخيص طموحات أعضاء المافيا الجدد، وربما مستقبل المافيا، فى الكلمات التى قالها (المحظوظ) لوسيانو (الذى حين وافته المنية عام ١٩٦٢ كان على وشك القبض عليه متهما بالتجارة الدولية للمخدرات) فقال حينئذ: «لو أتيح لى عمرى مرة أخرى، لفعلت نفس ما فعلت،، ولكنى كنت سأفعله بالطرق الشرعية. فلقد تعلمت بعد فوات الأوان أن كل ما تحتاج إليه هو عقل جيد كى تجعل مليونا تم كسبه بطرق ملتوية يبدو مليونا تم كسبه بشرف».

فالجريمة تجدى كما تبين لنا أى دراسة للمافيا. غير أنه حين تفيد الجريمة فائدة جيدة حقا، فإن المجرمين يصبحون محترمين. وأول من يفعلون ذلك هم أولئك الذين صاروا مجرمين فقط من أجل الفوز بالاحترام.

الكو كلس كلان

ديفيد أنان

[هذا إقرار منى أنا أمام قاضى السماء والأرض الطاهر، وأقسم بالكتاب المقدس لأناجيل الرب القدير لأنْضَمَّنَّ بمحض إرادتى الحرة ومن تلقاء نفسى إلى هذا العهد الملزم إلزاما مقدسا، والذى ينص على الآتى :

١- نحن نقف إلى جانب العدل والإنسانية والحرية الدستورية، فى نقائها كما أوصى أجدادنا لنا بها.

٢- نعارض ونرفض مبادئ الحزب الراديكالى.

٣- نتعهد بأن يقدم كل منا العون المتبادل لغيره، فى المرض والحزن والضيق المالى.

٤- ستكون صديقاتنا النساء و الأرامل وأهل بيوتهن موضع اعتبارنا وحمايتنا.

« إن أى عضو يقوم بإفشاء أى من هذه الالتزامات أو يتسبب فى إفشائها سيواجه الجزاء الرهيب ومصير الخائن المحتوم ألا وهو الموت ! الموت! الموت!»].

هذا هو قسم دخول العضوية الذى كشف عنه عضو سابق فى الكو كلس كلان أمام لجنة تحقيق تابعة لمجلس الشيوخ بالولايات المتحدة عام ١٨٧١ . ولقد كشف التحقيق عن مدى البشاعة والإرهاب اللذين كان البيض المهزومون فى الجنوب يستخدمونهما ضد من انتصروا عليهم من أهل الشمال وكذلك ضد العبيد السود السابقين الذين تم تحريرهم فى نهاية الحرب الأهلية.

لقد كانت جمعية الكو كلس كلان تنظيما سريا يضم المتعالين البيض، الذين كانوا يعتقدون أن العنف هو الرد الوحيد على الحكومات العسكرية الفاسدة التى فرضت على ولايات الجنوب المهزومة. وكان فى إمكان الكلان، أن تزعم فى

بدايتها أنها معركة مقاومة ضد الظلم الذى لا يمكن تحمله، حتى إذا كان الأمر أن يبلغ بها المطاف إلى أن تكون مجرد أداة للكراهية والطمع والسادية.

ومن المحقق أن جنرال ناتان بدفورد فوريست الذى أسس الكلان وأدارها، كان يراها على أنها تنظيم مؤقت لحرب عصابات ستدوم فقط طالما حكم ذوو الخُرْج، أى أولئك الذين ذهبوا إلى الجنوب وليس معهم سوى الخُرْج بحثا عن الثراء، طالما حكم هؤلاء هم والسود الأميون، والمرتادون الجنوبيون الولايات الأجنبية.

كان فوريست طويلا، أسود الشارب. وكان قائدا للموت أو المجد فى الفرسان المتحدين. وكان مذهبه للفوز بأفعال الفرسان هو: « اذهب إلى هناك أولا بأسرع ما تستطيع ». وفى وقت من الأوقات كان تاجر عبيد، غير أنه اشترى لنفسه مزرعة كبيرة ثمنا لأن يصبح أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية. وأثناء الحرب الأهلية اتهم بالقيام بمذبحة بشعة فى فورت بيلو، حيث تمت إبادة القوات الملونة التى تم أسرها. ولم يكن من الوارد أن يتقبل مبدأ أن يمثل السود الأمريكيون الشعب الأبيض فى مجالس الجنوب التشريعية.

لقد مثل فوريست أمام لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ وتم سؤاله عن الكلان، ولم يقر قط أنه قائدها رغم أنه قد أعطى مقابلات للصحف أخبرها فيها عن الكلان. كذلك فإن نهوضها فى مختلف الولايات الجنوبية قد بدأ مباشرة بعد رحلاته خلال تلك الولايات.

لقد كان على كل حال، واثقا ثقة مطلقة فى أغراض الكلان الصحيحة، بل إنه أخبر لجنة مجلس الشيوخ عن هذه الأغراض: « لقد شعر أهل الجنوب بقدر كبير من عدم الأمن. ولقد كان هناك عدد كبير من أهل الشمال قدموا إلى هناك، مكونين روابط فى كل أنحاء البلاد. كذلك كان السود يعقدون اجتماعات ليلية، ويتجولون فى كل مكان ويزدادون وقاحة، وكان أهل الجنوب فى سائر الولايات يشعرون بالخطر. وأظن أن الكثير من التنظيمات لم يكن لديها أسماء؛ إذ نظمت الأحزاب نفسها كى تكون متأهبة فى حالة ما إذا قام أحد بمهاجمتها ».

«وقام بعض هؤلاء السود بمضايقة السيدات، فحوكموا ووضعوا فى أديرة للندم، غير أنهم أخرجوا بعد ذلك ببضعة أيام، فكان هناك قدر كبير من انعدام

الأمن فى البلاد، وأعتقد أن هذا التنظيم قد قام لحماية الضعفاء دون أن تكون له أى نوايا سياسية على الإطلاق».

وبدأ فوريست، بطريقة غير منسقة الضغوط الاجتماعية العشوائية التى قد تؤدى إلى تأسيس جمعيات سرية لإزاحة جماعة مهزومة والرغبة فى مقاومة الطغيان، وكذلك الخوف من الإذلال على أيدى قوات أو خدم قد صاروا حكاما. وهناك أيضا العذر فى أن رابطة من الأعداء ينبغى مقاتلتها عن طريق تآمر الأصدقاء، والخيالات الجنسية المظلمة التى تسعى إلى الانتقام لدى مجرد إشاعة بارتكاب عمل فظيع.

وكذلك أظهر فوريست أن جمعية سرية بعينها تزدهر حين تنتشر فرق صغيرة من المتمردين فى كل مكان ويبحثون عن شكل موحد وزعيم يستطيع أن يضع غطاء من الغرض السياسى تحت عباءة جمعية خيرية من الإخوان.

ولايكاد القسم الذى يضطر عضو الكلان إلى أن يقسم به للالتحاق بالعضوية أن يبرر ما قدمه فوريست من وصف معتدل لهذه الجمعية، ذلك أن الكلان كانت فى واقع الأمر مجموعة الديمقراطيين الذين كانوا يشعرون بالكراهية نحو السود والشماليين والجمهوريين. فبعد الحرب الأهلية، وجد الرجال المهزومون فى الجنوب (على حد قول من قام بتحطيمهم، وهو جنرال شيرمان): «الحداد فى كل بيت، والبؤس مكتوبا بحروف كبيرة عبر وجه البلاد برمتها». كما وجدوا مدنا وقد استحالت رمادا، وحقولا وقد صارت يبابا وضاعت تجارتهم، كما انهار نظامهم فى العمل وتحطم، أى ساد الفقر والدمار والحزن فى كل مكان.

وحاول الجنوبيون أن يستعيدوا حكم ولاياتهم وأن يحطوا من شأن السود المحررين إلى مستوى عبيد الأرض، وذلك عن طريق استصدار قوانين جديدة أصبحت تعرف باسم «القوانين السوداء»، غير أن الكونجرس الجمهورى المتطرف ثأر من ذلك عن طريق فرض الحكم العسكرى على الجنوب، بعد مقتل لينكولن المعتدل وعدم كفاءة خلفه، أندرو جونسون.

وحين أصبح القائد العام، وهو من الشمال ويدعى جنرال جرانت، رئيسا فى عام ١٨٦٨، لم يكن هناك أى تحكم فى الجمهوريين المتطرفين فى الكونجرس،

فاستغل نظام حكم فاسد يديره الشماليون والعبيد المتحررون ما لحق بالجنوب من دمار، فكان لا بد من وجود مقاومة من جانب مئات الاتحاديين القدامى، الذين لم يكن لهم دور تقريبا فى الركود الاقتصادى الذى حدث بعد الحرب فى الجنوب.

ففى عام ١٨٦٥، شكل ستة من الشباب فى بولاسكى فى تنيسى جمعية ترتدى العباءات على شكل الأشباح والغيلان، وأطلقوا على هذه الجمعية اسم الكو كلس كلان، وهواسم مشتق من الكلمة اليونانية كو كلوس ومعناها « الدائرة». وكذلك من الكلمة الإسكتلندية كلان « بمعنى العشيرة». فحيثما كان أعضاء الكلان يركبون خيولهم ليلا وهم مسربلون فوق خيول مسربلة، كانوا يجدون السود المحررين من العبودية غير متعلمين ويؤمنون بالخرافات، فكانوا يفزعون لدى رؤية هؤلاء الزوار الأشرار، الذين كانوا غالبا ما يزعمون أنهم أشباح الموتى من الاتحاديين، وكانوا يتظاهرون بأنهم يشربون جالونا من الماء فى رشفة واحدة، كما كانوا يبرزون من أكمامهم هيكلا ليد كى يقبضوا على كم أحد السود.

وسرعان ما شعر فوريست بإمكانية استخدام مثل هذه المقالب لإرهاب الريف الجنوبى، وادعى أن لديه ٥٥٠٠٠٠ خيال مسربل فى الجنوب بمقدم عام ١٨٦٨ تحت اسم رجال الكلان، أو الوجوه الشاحبة، أو الأخوة البيض، أو العصبة البيضاء، أو فرسان زهرة الكاميليا البيضاء.

وبرغم أن ضباطا متحالفين سابقين قد ساعدوا فوريست، فإنه لم يتوافر لديه تنظيم عسكرى سليم، كما لم يكن قادرا على الاحتفاظ بالسيطرة على رجاله. وقد تكون نيته أن يكون شخصية شبيهة بروبين هود، كما يوحى بذلك قسم الكلان المبكر، وقد يكون قد حاول أن يحمى الضعفاء ضد القراصنة من قطاع الطرق الذين يعملون باسم الحكومة. ولكن سرعان ما انحدرت الكلان إلى مجموعة متنافرة من العصابات التى ندد بها أحد مؤسسيها باعتبارها غالبا ما تتكون من «رجال أشرار وقحين طائشين».

فكانت هذه العصابات تركب الخيول ليلا من أجل الانتقام الشخصى، أو الربح، أو الإثارة. وكان بإمكان أى وغد أن يرتدى عباءة سواء كان ذلك الشخص رجلا أسود أو أبيض؛ ذلك أن العباءة فوق الرأس كانت تخفى أى

مسئولية. أما السرية التى كانت مصدر قوة الكلان القديمة، فقد صارت نقطة ضعفها. ولغز تنظيمها للإرهاب، كما صارت رخصة المجرمين الفوضويين للقيام بأعما ل الانتقام.

ومن الصعب تحديد عدد أعمال القتل والتعدى التى ارتكبتها الكلان بين عامى ١٨٦٨ و١٨٧٢. فما كان على كل مجرم أو أى رجل يرغب فى القتل من أجل الثأر إلا أن يرتدى عباءة. وكانت هناك دائما حروب متقطعة فى كل مقاطعة جنوبية بين الميليشيا السوداء المسلحة وقدامى المحاربين الجنوبيين، إذ كان كلا الجانبين يستخدمان الإرهاب، رغم أنه لا يمكن إنكار أن السود قد عانوا أسوأ المعاناة.

ووجدت لجنة مجلس الشيوخ أنه فى تسع مقاطعات من كارولينا الجنوبية أن الكلان قد قامت فى ستة أشهر بإعدام ٣٥ شخصا دون محاكمة، وجلدت بالكرباج ٢٦٢ رجلا وامرأة، هذا عدا ما قامت به من أعمال تعدّ وقتل بالرصاص وتمثيل بالجثث واغتصاب، وكذلك أحرقت ١٠٣ آخرين.

وأثناء هذا الوقت، قام السود بقتل ٤ رجال وضرب رجل واحد، وارتكبوا ١٦ حالة تعد أخرى؛ ولم يبلَّغ عن وقوع أى حالة اغتصاب للنساء البيض. فمن بين آلاف جرائم القتل التى وقعت فى الجنوب فى العقد الذى أعقب الحرب الأهلية، قتل الجنوبيون البيض أو هاجموا السود فى كل حالة تقريبا، وكان باعث هذا العنف المنتشر بسيطا؛ وهو أن يبقى الرجل الأسود الأمريكى فى مكانه وأن يكون بعيدا عن صناديق التصويت.

وقد لخص و. أ. دى بواز، وهو من كبار زعماء ومؤرخى الشعب الأسود، الأسباب« المتنوعة بشكل له مغزاه»، لما قامت به الكلان من تعديات، فقال: يجب أن يعانى الضحايا انتقاما من القتل، و من بعض حالات الحرق المتعمد؛ فلقد كانوا جمهوريين، وكانوا راديكاليين، وحاولوا عقد انتخابات، وكانوا يحملون السلاح، وكانوا سودا؛ كانوا سودا ملاعين وشعروا بالفخر لأنهم يمتلكون أراضى، فكانوا يجلدون بالكرباج للعجز عن سداد الدين، وكذلك للاتصال

بالنساء البيض، كما كانوا يجلدون لأنهم قرروا أن يدلوا بأصواتهم فى الانتخابات.

إن الرعب الذى بثته الكلان كان يرجع إلى هجماتها العشوائية أكثر من كونها تنظيما يشمل الدولة بأكملها. وبرغم أن فوريست لم يتمكن قط من السيطرة على رجاله، فإنه قام بتنظيم الكلان على الورق كجيش جنوبى، فسمى الجنوب كله الإمبراطورية الخفية؛ فكانت كل ولاية بمنزلة مملكة، وكل منطقة نيابية منطقة نفوذ، وكل مقاطعة مركزا، وكل محلة كانت بمنزلة عرين أو وكر.

وكان فوريست الساحر الأكبر، والهيئة التابعة له هم الجن العشرة. وكان على كل مملكة تنين أكبر، وثمانيةأفعوانات. وكل منطقة نفوذ عليها عملاق وستة أشخاص يثيرون الهلع، وعلى كل مقاطعة أو مركز مارد أكبر وأربعة غيلان، وكان على كل وكر عملاق ذو عين واحدة فى وسط الجبين وصقران من صقور الليل.

وكان من المستحيل أن يفعل هذا البناء الهرمى فعله لو لم تكن الكلان تنظيما خفيا، غير أن ما حدث هو أنه لم يكن فى مقدور فوريست محاسبة أى فرع محلى للكلان على ما يرتكبه الراكبون المسربلون فى منطقتها من تعديات تخلو من التعقل أو الإحساس، لأن رجال الكلان المحليين كان فى استطاعتهم ادعاء أن المسربلين المذنبين قد يكونون من السود المتنكرين.

وظهر فشل فوريست فى السيطرة على رجاله حين رفض رجال الكلان المحليون أن يطيعوا أمره بالتفرق فى عام ١٨٦٩، فرأى فوريست بنفسه أنهم قد خرجوا عن طاعته وأصبحوا يزيدون الفوضى الضاربة فى الجنوب بدلا من أن يضعوا حدا لها. وبعد أن أثار فوريست - هو وخيرة قادة التنظيم العسكريين - اشمئزازا بسبب أعماله الطائشة من الانتقام بلا تمييز، لم يعد هناك قيود على سادية رجال الكلان المحليين وتصرفاتهم الصبيانية.

ويمكن عنونة المقار العامة للكلان فى توسكالوزا وألباما كما يأتى: الجحيم الأجوف، ووكر الشيطان، والظلال المرعبة، وأضرحة الأشباح. وكانت الأشهر الثمانية الكئيبة عند الكلان تسمى: القمر الدموى، والليل الأسود، والساعة

الأخيرة، وغير ذلك من مثل هذه الفنتزيا للهلوين مما نتج عنه أعمال قتل حقيقية وتمثيل بجثث السود والجمهوريين .

وبينما كانت لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ منعقدة، تدفقت شكاوى من السود المذعورين إلى الكونجرس، إذ طالب أحد سود كنتكى بقوانين : لقمع ركوب الكو كلس كلان ومنعهم من الركوب كل ليلة حيث يتنقلون من مقاطعة إلى أخرى فى مدن المقاطعات وهم يبثون الرعب حيثما ذهبوا عن طريق السطو والجلد والنهب وقتل شعبنا دون استفزاز، كما يجبرون الملونين على كسر الجليد وأن يستحموا فى مياه نهر كنتكى شديدة البرودة .

وكان الرئيس رجلا عسكريا لا يؤيد قلاقل عصابات . وفى عامى ١٨٧٠ ، ١٨٧١ صدرت «قوانين الكو كلس كلان »كى تجعل الحكومة الفيدرالية مسئولة عن الانتخابات الجنوبية، كما أعطت الرئيس سلطة إعلان الأحكام العرفية أو العسكرية فى الولايات، وأن يوقف العمل بقانون هبياس كوربوس أى قانون إبراز شخص المعتقل بعد مدة معينة من اعتقاله .

فكان رجال الكلان كثيرا ما يزج بهم فى السجون لمدد طويلة دون محاكمة، لأن المحلفين كانوا عادة ما يبرئونهم - باستثناء إذا ما كان المحلفون من السود . فحل الانتقام المفرط عن طريق غياب القانون محل الانتقام المفرط بالقانون . وأيد رأى المعتدلين فى الجنوب، الهجوم المشروع وغير المشروع على الكلان، فلقد سئم الكثيرون من الجنوبيين الفوضى، وكانوا يعتقدون ـ كما كان يقول أحد وزراء المسيسيبى ـ أن الكو كلكس لاضرورة لها، وهى حمقاء سواء اشترك فيها البيض أو السود .

فتلاشت الكلان فى مواجهة هذا السخط العام، وكذلك لأن الديمقراطيين البيض قد أخذوا بالتدريج يستعيدون السيطرة على حكومات الولايات فى الجنوب، فنحيت العباءات الحمر والبيض والسود جانبا . واقتصرت مرة أخرى مقالب الغيلان والأزياء الشاذة على احتفالات الهلوين والماردى جرا أى عيد المرافع (وهو الثلاثاء الذى تسمح فيه الكنيسة الكاثوليكية بأكل الدهون قبل صيام عيد القيامة) فى نيو أورليانز، وسمح للديمقراطيين أن يحكموا الجنوب عن طريق

حل وسط ضمنى عام ١٨٧٧ ، باسم التفوق الأبيض مقابل السماح للجمهوريين بحكم الشمال باسم الأعمال الكبرى .

وحين سمح الكونجرس للجنوب أن ينزل بالسود إلى مرتبة شركاء المحصول دون حق التصويت، لم يعد هناك داع لأن تمارس الكلان أعمالها . وعاد حملة الخُرج إلى الشمال كى يقوموا بأعمال السلب ضد مواطنيهم هناك . وبقيت العنصرية قابعة تحت السطح وبقى الفساد ظاهرا، ولكن كليهما يوجدان جنبا إلى جنب .

إن أهل الجنوب يعشقون الماضى، ويميلون إلى اعتباره زمنا ذهبيا . وفى ذاكرتهم، فإن قطعة أرض صغيرة تصبح مزرعة كبيرة، وتتحول الأمة الذليلة إلى أمة راضية . فكما حول مالورى فى وقت من الأوقات البارونات الإقطاعيين اللصوص فى العصور الوسطى إلى فرسان الملك آرثر حول المائدة المستديرة، فكذلك حولت ذاكرة الجنوبيين البيض رجال الكلان الغلاظ إلى نبلاء الفروسية والحب والمغامرة .

وفى أدبهم الشعبى المتعلق بالغرام كان هناك قدر أكبر من وولتر سكوت مما كان يحدث فى الواقع . وحين جاء دور السينما كى توجه خيال الإنسان بالرؤى المطبوعة على السليولويد، استطاع عبقرى من الجنوب اسمه ديفيد وورك جريفيث أن يخترع الملايين من المسربلين الراكبين بمجرد إعادة تقديم الكو كلكس كلان كجماعة من الأبطال الفرسان الذين كانوا يتعقبون أسود قاتلا ومغتصبا .

وإذا كانت رواية كوخ العم توم قد حثت على قيام الحرب الأهلية فى الشمال، فإن (مولد أمة) قد ساعد فى عام ١٩١١ على بعث جثة الكلان فى الجنوب والغرب، فقال أحد الجنوبيين عن جريفيث إنه « صنع الكو كلكس كما صنع روبرت إدلى» ففى السنة التى ظهر فيها فيلم جريفيث الكلاسيكى شم أحد العنصريين رائحة رياح الرجعية ضد المؤثرات الغريبة، وقرر أن يكون جنرال فوريست الثانى من أجل خاطر الجنوب القديم، فانضم إليه ويليام جوزيف سيمونز من ألباما وكان فى وقت من الأوقات جنديا وقسا وبائع ربطات جوارب للسيدات .

فلقد كان ينتمى إلى ما يقرب من ١٥ تنظيما أخويا منها الماسونيون، فكتب يقول فى كتاب (أخوة الأم) : «أؤمن بالجمعية الأخوية والعلاقات الأخوية بين الناس وباسم أخوة البروتستانت الأمريكيين البيض ضد تيار الملونين المتصاعد والكاثوليك واليهود والمهاجرين من جنوب أوربا».

وصعد سيمونز إلى قمة جبل صخرى بالقرب من أطلنطا مع ١٥ من أتباعه عام ١٩١٥، وأحرق صليبا ليلا بجانب مذبح صخرى خشن حيث كان العلم الأمريكى يرفع فوقه، ويوضع عليه كتاب مقدس مفتوح وسيف مجرد وإناء من ماء النهر «المقدس». وهناك أعلن سيمونز عن نفسه أنه الساحر الأعظم للكو كلس كلان التى تم بعثها، وأدار قسم الولاء أمام تلاميذه الراكعين، الذين نهضوا وكأنهم ملوك للإمبراطورية الجديدة الخفية.

بيد أن سيمونز كان فاشلا من الناحية التنظيمية تماما كما كان فاشلا كبائع. فالهون فى أوربا (وهم شعب ماغولى سيطر على أجزاء من أوربا) كانوا بالنسبة له عدوا أكثر أهمية بكثير من الأغراب داخل وطنه، فكاد سيمونز أن يحطم نفسه فى محاولته جذب بضعة آلاف من الأعضاء من أجل قضية الكلان التى تم بعثها. غير أنه حين أوشك على الإفلاس، التقى باثنين من أنجح تجار الكراهية الذين عرفتهما العصور الحديثة، وهما إدوارد ينج كلارك، وعشيقته مسز إليزابيث تيلر اللذان كانا يديران مكتبا للعلاقات العامة وتنمية الأعمال يسمى «جمعية الدعاية الجنوبية». وكانا يجمعان المال لجمعية الشبان المسيحية وجيش الخلاص، غير أنهما قررا أن أرباح التعصب الفكرى قد تزيد عن أرباح الأخوة.

وحين التقى كلارك بسيمونز عام ١٩٢٠، وقع على عقد بموجبه يبقى الساحر الأعظم رئيسا صوريا للكلان التى تم إحياؤها بينما يتولى فريق كلارك- تيلر تجنيد الأعضاء واستنزاف جيوب فرسان الإمبراطورية الخفية.

بلغت عضوية الكلان ١٠٠٠٠٠ بحلول عام ١٩٢١، عن طريق بيع عباءات الكلان بالقسوة التى كان العلم الأمريكى يباع بها أثناء الحرب الكبرى، كما بلغت حوالى ٤٠٠٠٠٠٠ عام ١٩٢٤، فلقد استحوذت على خيال مدن الجنوب الصغيرة الخائفة بل كسبت أتباعا فى الشمال الريفى، ولم تبل أى حركة بلدية

أخرى مثل هذا البلاء الحسن منذ جمعية الذين لا يدرون وجمعية الحماية الأمريكية فى القرن التاسع عشر .

كما أن نجاح الكلان فى التجنيد نفسه الذى كان ينظر إليه كلارك ومسز إليزابيث على أنه مجرد طعم لدخول أخوة أخرى خرافية غير عاقلة ـ هذا النجاح قد غير غرض الكلان من طريقة لجمع المال إلى قوة سياسية داخل الكثير من الولايات وداخل الحزب الديمقراطى .

ذلك أن الكو كلس الثانية قد قامت باعتبارها الظل المعروض فى السوق للكلان الأولى ؛ غير أنه حين صار أعضاؤها يعدون بالملايين ، تحولت إلى تهديد ضد الديمقراطية فى طول البلاد وعرضها ، بينما لم تقم الكلان الأولى إلا بالانقلاب على الحكومة الشعبية فى الجنوب . وكان من الممكن ألا تعنى الكلان الثانية سوى القليل ، ما لم تقم جماعة من المتمردين الذين هم على وعى بالسياسة تحت قيادة طبيب أسنان من تكساس هو هيرام وزلى إيفانز الذى استولى على زمام الأمور فى الكلان من سيمونز وكلارك وتيلر فى عام ١٩٢٢ .

فبعد أن نصب سيمونز إيفانز كأمين قومى ، أو إمبراطورى للجماعة ، تمكن إيفانز من الفوز بما يكفى من تأييد بين زعماء الكلان كى يرقى سيمونز إلى منصب إمبراطور الكلان ، وهومنصب بلا سلطات ، وأن يزيح كلارك ومسز تيلر . وعموما ، فقد اكتُشف هذان الاثنان نصف عاريين ومخمورين معا ، فاتهما بالسلوك غير المنضبط ، إذ كيف يتسنى لهما أن يديرا تنظيما ملتزما بمكافحة الزنا وتعاطى الخمر .

قام إيفانز بتنظيم الكلان كجماعة سلطة سياسية داخل الحزب الديمقراطى الجنوبى ، وتمكن مرشحو الكلان من الوصول إلى مجلس شيوخ الولايات المتحدة ، كما صاروا حكاما لعدة ولايات . ففى إنديانا كان ديفيد ستيفنسون الذى كان مثل غيره من الحالمين فى المدن الصغيرة يعبد نابليون ، كما كان يريد أن يصبح رئيسا ـ كان هذا الشخص تنينا أعظم للولاية ، ومن الناحية الفعلية استولى على الحكومة بكاملها ، فعين مؤيديه فى كل منصب فى الولاية .

وبعد الحدث الكبير فى كوكومو فى الرابع من يوليو عام ١٩٢٣ حين وصل

ستيفنسون على متن طائرة وهو يرتدى ثوبا أرجوانيا كى يلقى خطابا أمام المؤمنين، حكمت الكلان إنديانا نسبيا، وارتدى ما يقرب من ٥٠٠٠٠٠ ملابس الكلان وأيدوا سياسة تنظيم العباءات.

ربما كانت الكلان تنظيما سريا، إلا أنه لم يكن استبعاديا أو قاصرا على جماعة بعينها، فلقد كان يريد كل من كان فى إمكانه الحصول عليهم من أعضاء، من أجل مالهم وأصواتهم الانتخابية، بحيث إن أحد رجال الكلان من تكساس قد خاب أمله فقال: «لقد فتحوا الأبواب على مصاريعها وأدخلوا كل رجل يملك نقودا لكى يحصلوا على صوته الانتخابى. وإن لم تكن لديه نقود فهم يأخذون صكا منه قابلا للدفع فى الخريف».

لقد حول سيمونز نفسه لغة الكلان القديمة الغامضة إلى بعبعة من البلاهة، وفتنه سحر حرف ك. فكانت المحاكمات تعقد فى كلونسيليوم أو مجلس. وكان يجلس تحت العملاق ذى العين الواحدة فى العرين المحلى الذى أصبح يسمى الآن كلافيرن أو كهف كالاليف وكوكارد وكاليجراب وكلابى وكليجورات وكليكسترات وكوكان. وكان كتاب طقوس الكلان الجديدة يسمى الكلوران، وهو عنوان غريب لكتاب مقدس لتنظيم مسيحى، أما الطقوس نفسها فكانت مزيجا من الطقوس الماسونية والبلاغة الصبيانية مزجهما سيمونز معا.

ولم يكن لديه من الإلهام سوى حرق الصلبان فى كل موقع للجماعة كى يبث الرعب ويثبت الإيمان بالمسيحية. ولكن وبشكل يثير العجب كان حرق الكلان للصلبان كفرا، تماما مثلما كان البصق المفترض على الصليب الذى كان فرسان الهيكل يفعلونه.

ذلك أنهم كانوا يقومون بأى عمل كى ينكروا الجانب الرحيم فى المسيح، ذلك أن الكلوران كان يعظ بعقيدة مسيحية متشددة شنيعة، هى عقيدة المتعالين البيض الذين يركبون لحرب الكاثوليك واليهود والسود، ويفرضون قانونا بيورتانيا أى تطهريا ونظاما على البروتستانت المنسحقين. ذلك أن التعليم الشفاهى يطلب من رجل الكلان أن يجعل من الواضح الجلى أن التنظيم هو للقوميين البروتستانت

الأنجلوساكسون البيض فحسب، فكانت الأسئلة كما يلى :

١ - هل الدافع من وراء طموحك أن تصبح رجل كلان جادًا وغير أنانى ؟

٢ - هل أنت مواطن أمريكى غير يهودى وأبيض مولود فى هذا البلد؟

٣ - هل أنت معارض ومتحرر من أى ولاء من أى طبيعة لأى قضية، أو حكومة أو شعب أو طائفة أو حاكم أجنبى عن الولايات المتحدة الأمريكية؟

٤ - هل تؤمن بالمبادئ الأساسية للديانة المسيحية؟

٥ - هل تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسساتها فوق أى حكومة أخرى، سواء كانت مدنية أوسياسية أو كنسية فى سائر أنحاء العالم؟

٦ - هل تقسم قسما غليظا بأن تدافع عن الجماعة وتحافظ عليها وتدعمها ؟

٧ - هل تؤمن بالعشائرية ؟ وهل تمارسها بإخلاص نحو رجال الكلان؟

٨ - هل تؤمن بالسيادة الأبدية؟ وهل ستكافح من أجل صيانتها ؟

٩ - هل ستطيع دستورنا وقوانيننا، وتتوافق بملء إرادتك مع جميع طرقنا ومتطلباتنا ونظمنا ؟

١٠ - هل يمكن الاعتماد عليك دائما ؟

لقد أظهر قسم الكلان الثانية فروقا مهمة عن قسم الكلان الأولى، ذلك أنه كان قوميا أكثر من كونه مختصا بقسم معين ومؤيدا لسيادة البيض بكل وضوح، إلا أن مواد القسم كانت عقلانية تماما، ولكن هذا لا يصدق على قانون الكلان السرى، الذى كان مغاليا فى صبيانيته.

فحين كان رجلان من رجال الكلان يلتقيان كانا عادة ما يقبض كل منهما على اليد اليسرى للآخر بعد أن يتبادلا حوارا يشبه هذا الحوار :

آيا : هل أنت أحد رجال الكلان؟ آكى : أحد رجال الكلان أنا (العلامة الموجهة أو كلمة السر أو الدليل المكتوب). سينجار : هل يمكنك أن تعطنى الرقم أو المملكة ؟ كلان رقم واحد فى أطلنطا جورجيا. كيجى : أيها الزميل أنا أحييك، إتسوب باسم الرباط الذى لا ينفصم، سانبوج احذر فإن ثمة غرباء بالقرب منا.

لقد أدت نهاية الحرب الكبرى إلى موجة من رد الفعل ضد أوربا الغربية، كما

أدت إلى أن يرفض الأمريكيون الانضمام إلى عصبة الأمم. وتحت راية (أمريكية مائة فى المائة) تشرنقت الولايات المتحدة لتحتمى من الأجانب ووضعت قيودا على الهجرة، بينما أخذت المدن الأمريكية الصغيرة تكره المدن الكبرى بشكل متزايد، لما فيها من جيتوات - أى معازل - تمتلئ بالأمريكيين الذين ولدوا فى بلاد أجنبية.

إلا أن الرواج الذى حدث فى العشرينيات كان قاصرا على المدن الكبرى، لذا فإن المزارع وساكن المدينة الصغيرة بدآ يفقدان نفوذهما ودخلها باضطراد. فلاغرابة إذن فى أن يرى الريفيون فى الراكبين المسربلين مولدا لأمة وبعثا للولايات المتحدة البروتستنتية الريفية القديمة، التى قاومت الحكومات اللاأخلاقية التى أتت لتستغل الجنوب، كما قاومت سلوك المدن الكبيرة. وفوق ذلك كله ماذا يمكنه أن يرضى غرور رجل المدينة البسيط، وهو فيما هو فيه من إحباط جراء ما فقده من أهمية قومية، أكثر من أن يرتدى أثوابا فخمة ويرطن بكلمات طويلة ويروع من هم أقل ثراء منه ؟! فحين يشعر الناس بعدم الكفاية، عادة ما يبحثون عمن هم دونهم كى يسيئوا معاملتهم فيستردوا احترامهم لأنفسهم.

لقد وصف ويلبر كاش، وهو أعمق من حللوا عقلية الجنوب الأمريكى، الدوافع الكامنة وراء إحياء الكلان حين قال :

« هنا فى طلعات كالأشباح خلال الأمسية القمرية التى تتضوع بروائح الزهور يكون جلد أحد السود، أو إحدى العاهرات أو بعض البيض الفقراء الذين درجوا على عدم اتباع الوصية السابعة أو شخص يشرب الخمر بما يتقاضاه من أجر زهيد بدلا من أن يشترى ما يكسو به أجساد أولاده، أو أنه فقط اعتاد على ألا يتردد على الكنيسة، وكذلك تلطيخ أحد منظمى العمال أو وضع ريشة فوق رأسه، أو الخروج للتعرض لمدرس بقصد الفضيحة لأنه عبر عن أفكاره الجديدة أكثر مما ينبغى، والتجول به فى بطء فى الظهيرة من خلال صمت المدن الصغيرة الحارق حيث تخلو الشوارع من السود، وقد أغلق اليهود والكاثوليك وكل الأغراب أبواب محالهم ومنازلهم - فى هذا توقف مؤقت لمشاعر الإحباط الشخصية ووخزات ضمير رجل الكلان بالطبع.

ولكن هناك أيضا الإحساس القديم الرائع المشتهى فى أن يكون المرء أداة

بطولية، أو محاربا صليبيا يصعد درجات التصوف المنحدرة من أجل تحقيق سيادة البيض، والدين والأخلاق وكل ما يشكل عقيدة الرب، ذلك الشعور بأن المرء هو الوريث المباشر لخط لا ينقطع من الجنود المتحالفين فى جيتسبيرج، وانتمائه لرجال الكلان القدماء الذين طردوا فى إحدى المرات حملة الخرج واستأنسوا المرتدين من البيض؛ فجعلوهم يشاركون فى طقوس تؤكد على هوية الجنوب المستمرة وإرادته فى أن يظل كما هو دون تغيير، ويتحدوا طرق الينكى بل الدنيا بأسرها لصالح ذلك العالم الذى كان فى وقت ما عالمهم».

لقد كانت الكلان، بلا شك حركة شعبية صادقة، غير أن خبرة كلارك ومسز تيلر قد وجدت الطريق كى تحيى حنين الريف إلى الماضى وتثير السخط. فبالإضافة إلى التنظيم القديم للكلان الأولى وضعا فى الميدان مئات من قارعى الطبول يسمون كليجلز أو نسور الكلان. وسافر هؤلاء حول الولايات المتحدة كى يجمعوا توقيعات من ينضم من أعضاء إلى الكلان؛ فبينما كانت ١٠ دولارات تقتطع من كل ٤٥٠ دولارا يدفعها العضو كمصروفات دخول العضوية تذهب إلى خزانة الكلان فى أطلنطا ومائة وخمسين دولارا أخرى كانت تبقى فى يد الكلان المحلية، كانت الأربع دولارات المتبقية تعلق فى كف أولئك الذين يقرعون الطبول.

لقد شجع الكليجلز أو قارعو الطبول على أن يضموا للعضوية الشخصيات القائدة فى أى مدينة صغيرة، ثم يلعبوا على أشكال التعصب والتحامل المحلية كى يجذبوا مزيدا من الناس إلى الكلان، إذ كان من المسموح به أن ينضم أى متعصب أو مجرم أو سادى إلى الكلان طالما كان يملك الدولارات العشرة.

وكانت الأناشيد التى ينشدها أعضاء الكلان أقرب إلى أناشيد المدارس منها إلى صيحات الحرب، ذلك أن أحد رجال الكلان شهد بأنه غنى حين دخل عضوية الكلان النشيد التالى بجانب الصليب المحترق:

« نلتقى فنحيى بعضنا بعضا تحية من القلب، فى كهفنا هذا المقدس، كى نعيد تأكيد تعهدنا بقلوب مخلصة وجسورة. نحن فرقة من رجال الكلان الأوفياء، وسنقف سويا فرسانا لـ« ك. ك. ك»، دوما دوما إلى الأبد».

ولقد قامت الكلان أيضا بإعادة تنظيم التقويم السنوى، فوضعت تقويمها الخاص على أساس ألعاب الكلان القديمة. إذ حلت سنة ١٧٦٨ التى تم فيها إنشاء الكثير من أفرع الكلان المحلية باعتبارها نقطة البداية فى التقويم محل العام الذى ولد فيه المسيح، واتخذت أيام الأسبوع السبعة هذا الترتيب: «المظلم، المميت، الخبيث، الحزين، الكئيب، المرعب، واليائس».

أما الأسابيع الخمسة كانت: «المنتحب، الباكى، المولول، المدهش، والشرير». أما الأشهر الاثنا عشر، فكانت: «الدامى، المقبض، السيئ، المخيف، المفزع، المنذر، الرهيب، المريع، شهر الحداد، المؤسف، المروع، المقذع».

ولم يثر هذا التلاعب فى التأريخ سوى السخرية من جانب أعداء الكلان دون أن تخفى مواعيد اجتماعاتهم، ذلك أن هذا النظام كان واسع الانتشار بأكثر مما ينبغى لشئ سرى حقا. كذلك فإن ما فى طقوس الكلان من أشياء غير معقولة جعلها جذابة لأصحاب العقول المحدودة والتعليم القاصر، وثمة عامل جذب إضافى آخر يجذب حتى ذوى الذكاء المعتدل، ألا وهو ما لرجال الكلان من سرية ضئيلة، إذ كتب جون ميكلين وهو أول محلل لهذا التنظيم قائلا: «إن السرية هى أحد معداتهم الكامنة التى لا غنى عنها، إذ بدونها سيكون من العبث محاولة الهرب من ضوء نهار الديمقراطية الشائع المتاح للجميع».

فحاجز السرية يجعل من الممكن وجود أرض مسحورة مليئة بالغموض والخيال والصداقات الحميمة. ومن المؤكد أنها أرض الإيهام، وهى بديل رخيص للحياة فى خضم وقائع غير مثيرة فى المدن الصغيرة. بيد أن حاجز السرية يمنح أرض الإيهام هذه سحرا فتانا فيخلع عليها واقعا أسمى أمام الأعضاء الجدد وكذلك أمام الحلفاء، كما كان رجال الكلان يسمون الأشخاص غير الأعضاء. ويتخذ أى شىء يحدث تحت ستار السرية هذا أهمية فريدة.

إن مراسم دخول العضوية على يد رجال الكلان المسربلين، مع ما فى ذلك من استخدام حرق الصليب والماء «المقدس» والكتاب المقدس والسيف المجرد، كل هذه الأمور كانت مبعث رهبة بالنسبة للبسطاء من القوم. بل إن الأذكياء والطموحين

انضموا إلى الكلان حين أصبحت قوة فى مجال الأعمال والسياسة. وليس هناك مجال للشك فى أن الكلان راقت أيضا فى أعين الكثير من الريفيين المهذبين الذين كانوا يريدون بشكل غامض أن «يصلحوا» الفوضى التى أحسوا أنها تدمر طريقة الحياة المستقرة فى القرية فى أيام تهريب الخمور، و«المنع»، أى منع الخمور وكذلك انعدام الأخلاق فى المدن الكبيرة الذى بثه الراديو والسينما وكذلك عربة فورد من طراز ت التى قال عنها أحد القضاة إنها «بيت للدعارة يسير على عجل»، كذلك فإن تقليدا ريفيا من هجمات النشطاء على غير المرغوب فيهم محليا أعطى الكلان شارة من الاحترام. فحين كان القانون فى أمريكا ضعيفا وغير كفء، كان هناك تاريخ طويل من رجال المدن ينظفون المنطقة بالإعدام دون محاكمة أو عن طريق العمل الدهمائى.

أما كلان العشرينيات، فكانت حقا شيئا مختلفا عن الكلان الأولى. فبينما كان التنظيم الأصلى يعمل ضد السود والجمهوريين فى الجنوب، قام التنظيم الذى قلده بالهجوم على اليهود والكاثوليك والراديكاليين واللاأخلاقيين بقدر ما كان يشن الهجوم على السود. إذ بدا أن الأسود هو التهديد السياسى والاجتماعى الرئيس بعد الحرب الأهلية. وبقدوم العشرينيات تم الحط من قدره حتى صار شخصا عديم الأهمية من الناحية الاجتماعية خارج الأحياء الفقيرة فى المدن الكبرى. إذ إن أحد رجال الكلان من رجال الدين قال فى فورة إيمانية: «إن خصومنا هم: الخارج على القانون والعاهرة والأسود واليهودى والكاثوليكى والأجنبى والبروتستانتى المضلل». ثم طلب من سامعيه من جماعة المصلين فى أوهايو أن يعلنوا عن الجانب الذى يؤيدونه.

فبالرغم مما فى الكلان من بعض الحمق، فإنها إذا لم يكن لها جاذبيتها كحركة إصلاحية حقيقية أطلقت العنان للتطلع إلى حياة مسيحية أفضل، لم تكن لتحقق النجاح الذى وصلت إليه فى حزام الكتاب المقدس الذى يحيط بالولايات المتحدة.

ولقد أعلنت صحيفة تابعة للكلان قائلة: «إن الكلان تكتسح هذه الأمة العظيمة اكتساح الحريق للغابة، ولم يتمكن شىء من نوعها من أن يكتسح أمريكا قط كما فعلت هذه الحركة المدهشة من أجل المسيحية. فالصليب المشتعل يواصل

تقدمه، وينشر ضوءه الجميل في كل مكان من أجل تحسين الإنسانية ونصرة تلك المبادئ التي جعلت هذه الأمة أمة عظيمة».

أما الكلان الثانية، فكانت أكثر تعصبا وميلا إلى إحياء القديم عن الحركة الأولى. فلقد كان للإمبراطورية الخفية الأولى عدوها المرئى، وهو حكم حملة الخرج أو المستغلين من الشمال. أما الحركة الثانية فلقد كان عدوها غير مرئى وهو التغير الذى طرأ على المدن.

كذلك فإن الكلان الجديدة كانت تعظ فى مسألة بسيطة، وهى الاختيار بين الأبيض والأسود داخل العقل البروتستانتى الريفى. ولقد تم إفراخها فى عصر تنظيمات الأخوة الأمريكية بما لها من طرق جديدة ذات كفاءة فى جمع المال من خلال العضوية، فلقد أصبح ستيفينسون فى إنديانا مليونيرا من خلال الكلان بينما تدفقت عشرات الملايين من الدولارات على الخزانة فى أطلنطا.

وتتضح جاذبية الكلان لرجل الأعمال الصغير فى المدن فى عقد العشرينيات عن طريق أكثر وسائل الكلان الجديدة كفاءة، ألا وهى المقاطعة الإقتصادية. وتبدو الكلان الثانية معتدلة نسبيا إذا ما قورنت بعشرات الآلاف من التعديات التى ارتكبتها الكلان الأولى، برغم ما عزى للكلان الثانية من مئات الحالات من جرائم قتل، وإعدام دون محاكمة قانونية أو إعدام بدون محاكمة، وجلد، وتلطيخ بالقطران، ووضع الريشة فوق رءوس بعض الناس والإبعاد عن المدينة.

وعلى كل فلقد أصبحت طريقتها الجديدة، وهى المقاطعة الاقتصادية أمرا لا يمكن مقاومته. ذلك أن فضيلة «العشائرية» علمت أعضاء الكلان ألا يتعاملوا سوى مع زملائهم من الأعضاء، فظهرت لافتات مكتوب عليها: «تاجر مع الكلان» فى واجهات محال رجال الكلان؛ وكانت تتلى أسماء أصحاب المتاجر غير المرغوب فيهم فى اجتماعات الكلان وتتم مقاطعتهم إلى أن يصفوا أعمالهم.

وانضم الكثير من التجار إلى الكو كلكس كلان كما انضموا لغيرها من الجمعيات لفائدة أعمالهم ولكى يستغلوا الكلان ليزيحوا منافسيهم خارج المدينة. ولم يمنع ما فى طرق الكلان المتأخرة من تعقيد نسبى، مثل المقاطعة والمساهمات

التى تقدم لرجال الدين المؤيدين لها والإحسان على أرامل أعضائها ، لم يمنعها هذا من ارتكاب العديد من الأفعال الرهيبة .

ذلك أن تعبئة أى شخص يملك عشرة دولارات إلى صفوف الكلان أعطى الفرصة للساديين والمجرمين ليجلدوا ويعذبوا أى ضحية يقع عليها اختيارهم . فاستطاع السفاحون المسربلون أن يأخذوا القانون فى أيديهم ويطلقوا على ذلك : عدالة أخلاقية .

فانبعاث الكلان قد زاد عدد عمليات الإعدام دون محاكمة قانونية للسود فى الجنوب ؛ ذلك أنه كانت هناك ١٣٥ حالة إعدام من هذا النوع فى مركز الكلان فى جورجيا وحده فى السنتين السابقتين على عام ١٩٢٢ . حتى إن حاكم جورجيا أعلن قائلا : « فى بعض المقاطعات يزاح الأسود وكأنه حيوان متوحش ، وفى ولايات أخرى يباع كعبد ، أما فى مقاطعات غيرها فلم يتبق شخص أسود واحد» . ولم تكن هناك صلة بجريمة الاغتصاب المعتادة سوى فى حالتين فقط من بين الـ ١٣٥ حالة التى أشرنا إليها .

وفى حقيقة الأمر ، قد أصبح الهجوم على السود كالاعتداء على اليهود والكاثوليك يتم بصفة رئيسة من أجل الحصول على ميزات اقتصادية ، وذلك عن طريق الحصول على أعمالهم أو أراضيهم بثمن رخيص عن طريق إبعادهم .

وكانت أعمال الفوضى المتقطعة التى أحدثتها الكلان فى العشرينيات أقل خطرا من تنظيمها السياسى باعتبارها جماعة محتملة من الفاشيين الأمريكيين . وبلغ نجاحها أوجه فى سياسة الولايات فى مؤتمر الانتخابات الرئاسية الديمقراطى عام ١٩٢٤ . ذلك أن محافظ نيويورك ألفريد سميث الذى كان مناوئا لمنع الخمر ، وهو كاثوليكى يتمتع بشعبية كبيرة ، يريد من الحزب الديمقراطى أن يرشحه للجلوس فى البيت الأبيض . وكان ينافسه ويليام جيبس الذى كانت تسانده الكلان وهو من ألد أعداء بيع الخمر ومن أصل بروتستانتى أنجلوسكسونى .

ومع هتاف القاعات لسميث وتهديد رجال الكلان لمندوبى الجنوب والغرب ، توقف المؤتمر توقفا تاما عند ١٠٢ صندوق انتخابى قبل أن يتم اختيار مرشح توفيقى كى يقود الحزب إلى الهزيمة . وكان نجاح الكلان العظيم يتجسد فى منع

مؤيدى سميث من إصدار قرار يندد بالكلان بالاسم ، فبدا أن الكلان من القوة بحيث تتمتع بالفيتو أى حق الاعتراض على المرشحين فى أحد الحزبين الكبيرين ، مما أدى إلى وضع حكومات ست ولايات فى جيبها . فكانت على الأقل فى قوة فاشيى موسولينى قبل استيلائه على الحكومة الإيطالية فى عام ١٩٢٢ .

ومن ثم كان فى إمكان الكلان أن تأمل فى ما هو أعظم من ذلك فى المستقبل . غير أنه يبدو أن الحركات المحلية الأمريكية تذبل فجأة فى أعظم لحظات قوتها . ولم تكن الكلان استثناء من ذلك ، فلقد أدى نجاحها نفسه بزعمائها إلى ارتكاب تصرفات متعجرفة ، كما أدى ذلك أيضا إلى هجوم حقيقى عليها من قبل الصحف والمهذبين من الديمقراطيين .

وأدرك رجال السياسة الذين ينتمون للعهد القديم فجأة أن هناك منافسا للسلطة والرعاية يطلب شريحته من الكعكة ، وأن من الخير لهم القضاء على الكلان من مشاطرتها المناصب . وكانت نتيجة ذلك ، هى أنه حين قام ستيفينسون باغتصاب فتاة والتمثيل بجثتها فى قطار سريع ، وذكرت اسمه قبل وفاتها بعد أن تناولت السم ، اتُّهم على غير توقع بارتكاب جريمة قتل من الدرجة الثانية ، وحكم عليه بالسجن المؤبد . فأبعد هذا الدليل على الوحشية من جانب أحد زعماء رجال الكلان من الغرب الأوسط الملايين من أصحاب المشاعر النبيلة .

ففى إنديانا نفسها هبطت عضوية الكلان بثلاثة أرباع فى مدى عامين ، حتى إنه وأمام لجنة أخرى من مجلس الشيوخ كانت تجرى تحقيقا فى هذا الموضوع ، قال كاهن لأحد رجال الدين فجأة : « كان لدينا بعض الرجال الطيبين فى الكلان ، إلا أنهم لا يقفون إلى جانبها الآن ، ذلك أن الشهوانية والرغبة فى الربح اللذين كانا يختبئان وراء العباءة قد تم فضحهما الآن » .

فالسرية التى تسمح بعدم المسئولية تؤدى إلى الفساد . فحتى الساحر الأعظم د . إيفانز كان يعرف جيدا طراز الناس الذين اجتذبهم إلى تنظيمه السرى ، إذ حين سأله عملاق بعين واحدة فى إنديانا : لمْ لَمْ يترك رجال الكلان يقومون باستعراض وهم يرفعون عباءاتهم؟ رد ساخرا : «إن روح الكلان المعنوية ستقتل نفسها» . وأقر هذا العملاق أمام لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ التى قامت بعملها عام

١٩٢٦ بدرجة التصديق من جانب الأعضاء التى كان إيفانز يستغلها، عن طريق إعلانه أن الساحر الأعظم فى إمكانه تقريبا «أن يقنع رجل الكلان المتوسط من أولئك الذين لدينا فى إنديانا بأن يسوع المسيح لم يكن يهوديا».

كذلك فإن التطاحن الداخلى والصراع من أجل الأسلاب والمناصب السياسية، كان لهما دورهما أيضا فى تحطيم الكلان. فحين خرج سيمونز من السلطة، حاول تأسيس تنظيم منافس للنساء يسمى الكميليا، فدفنت الكلان هذا المشروع، ومنعت سيمونز من النجاح فى تأسيس جماعة أخرى، هى ملوك السيف الملتهب.

وعلى أى حال، فإن مرشح الكلان لنيل منصب حاكم الولاية فى تكساس فى عام ١٩٢٤، أخذ فى التنديد بالكلان بمرارة حين ألقت تأييدها إلى جانب أحد منافسيه، فانطلق لسان الحاكم السابق اللاذع بأسلوبه البليغ ووضع زوجته فى مكان الحاكم (جيم المزارع) فيرجسون ضد مرشح الكلان الذى قال فيرجسون عنه: «الساحر الأعظم الناطق باسم التنين الأعظم». وسرعان ما خرجت الكلان من سياسة الحزب الديمقراطى فى تكساس عن طريق ائتلاف مكون من أعدائها.

وحدثت هجمات مضادة فى جميع الولايات التى كانت الكلان تتمتع فيها بالسلطة. وحين رأى معظم رجال الكلان من أين تهب الريح، نحّوا أثوابهم جانبا وابتعدوا عن مهب الريح.

لقد كانت نهاية فترة الكلان الثانية مفاجئة كما كانت نهضتها. فحين كان ستيفنسون يفكر فى الظلم الذى لحق به، إذ لم تتم أى محاولة لإخراجه من السجن، طلب أن يدلى بالشهادة أمام الولاية، فكشف عن تفاصيل فساد الكلان فى إنديانا، فكانت نتيجة شهادته سجن أحد أعضاء الكونجرس وعمدة إنديا نبوليس، ورئيس مقاطعة ماريون، وغيرهم من المسئولين، ولم ينج حاكم الولاية سوى عن طريق لائحة الحدود. وفى عام ١٩٢٧، حين أعلنت شهادة ستيفنسون، تداعى عدد الكلان فأصبح لا يزيد على ٣٥٠٠٠٠ عضو.

إن الهستيريا التى هبت ضد المتحالفين والتى جعلتها تنمو نموا سريعا لم يكن لها مثيل سوى النفور من الفساد الذى جعلها تذوى. وحين رشح ألفرد سميث نفسه للرئاسة ضد روبرت هوفر، بعثت الكلان فى الجنوب كى تكافح ضد « وضع البابا

فى البيت الأبيض»، وحرقت الكلان تمثالا صغيرا من القش يمثل ألفرد. وكانت حملات سميث الانتخابية تقابل بالصلبان المشتعلة، فأعلن سميث قائلا: «سأكون على استعداد لأن أرتمى فى أحضان الهزيمة المنكرة على أن أنتخب لأى منصب، إذا كان إنجازى لعملى يتطلب أن أحظى بتأييد أى جماعة لها مثل هذه الأفكار المنحرفة عن الأمريكية». فكان سميث يفضل أن يكون معاديا للكلان على أن يكون رئيسا. غير أن هذا أمر طبيعى باعتباره كاثوليكيا.

إن المعركة ضد سميث الذى كان هوفر سيهزمه على أى الأحوال، أفلست الكلان وأزاحت عن التنظيم آخر التطهريين. واعترف أحد التنظيميين فى الكلان قائلا: «أصبحنا فى حاجة يائسة للحصول على أصوات انتخابية حتى إننا أدخلنا أى شخص يملك عشرة دولارات، فكانت النتيجة أننا أدخلنا أى حثالة». فترك رجال الأعمال الكلان، ومن بقى منهم هم فقط المتعصبون ذوو الرقاب الحمر والمتخلفون عقليا. وسخرية السخريات أن قصر الكلان الإمبراطورى القديم فى أطلنطا أصبح موقع كاتدرائية كاثوليكية رومانية بعد أن تعاقب عليه عدة ملاك عبر فترة طويلة.

وازدهرت جماعة منافسة لكلان تسمى الكتيبة السوداء لفترة وجيزة فى الغرب الأوسط أثناء الثلاثينيات. غير أن مثالية صفقة فرانكلين روزفلت الجديدة أدت إلى قمع الكتيبة السريع القاسى عن طريق حكومات الولايات.

واستولى العديد من التنظيمات الأكثر ميلا للسياسة، وكذلك الفاشيون مثل كتيبة القميص الفضى، على المال والأعضاء من الكلان. وحين دخلت الولايات المتحدة الحرب ضد الفاشية فى أوربا، تخلى معظم أعضاء الجناح اليمينى عن انتماءاتهم خشية أن يبدوا غير وطنيين.

وفى عام ١٩٤٥ حين قدرت الخزانة أن الكلان عليها ضرائب متأخرة قدرها ما يربو على نصف مليون دولار، تمت تصفية التنظيم.

وهكذا فإن الحرب العالمية وضعت حدا للكلان الثانية رسميا، وهى التى نشأت بعد الكراهية التى خلفتها الحرب العالمية الأولى، ذلك أن الكثير من السود خدموا فى القوات المسلحة أثناء الحرب العالمية الثانية، أو أصبحوا معتادين على الأجور

العالية والأعمال الجيدة فى مصانع الذخيرة . فحين انتهت الحرب ، ووجه الجنوب بحركة سوداء تطالب بالحقوق المدنية والمعاملة المتكافئة .

وقامت الكلان مرة ثالثة فى الجنوب ؛ وكان هدفها مشابها لهدف الكلان الأولى وهو إبقاء الشعب الأسود فى وضع أدنى وأقل قيمة . غير أنها فى هذه المرة كانت تفتقر إلى المبرر القائل بأن الجنوبيين البيض لا يسيطرون على الحكم فى الولايات الجنوبية ، فادعوا أن الحكومة الفيدرالية - وفيما بعد : المحكمة العليا - كانت تتعسف ضد حكومات الولايات وتجبر الأغلبية البيضاء فى الجنوب على ابتلاع الحقوق المدنية قسرا . ولم يكن هناك قوات شمالية فى الجنوب أو رجال ميليشيا سود كى يقوموا بمقاومة رجال الكلان . بل الواقع أن الرؤساء المحليين كانوا يرتدون عباءات الكلان ليلا فى الأماكن الأشد قسوة فى أعماق الجنوب المتخلف . وكثيرا ما كان رجال الشرطة فى مدن الجنوب الصغيرة يساعدون رجال الكلان فى إرهابهم السكان السود المحليين ويبعدون من يعملون من أجل تحقيق الحقوق المدنية .

وقبل أن يدرك الرؤساء الأمريكيون أهمية أصوات الناخبين السود فى الانتخابات الرئاسية ، وقبل أن يخترقوا أفرع الكلان بعملاء من مكتب التحقيقات الفيدرالى ، لم يكن لدى أولئك الذين كانوا يريدون مساعدة السود فى أعماق الجنوب أى أمل فى حماية القانون .

وعلى الرغم من أن الغالبية من الأمريكيين كانت ترفض أن يكون السود جيرانا أو أصهارا لهم ، كما كان الكثيرون يخشون من منافسة السود لهم اقتصاديا واجتماعيا ، فإن ظهور الكلان الثالثة كان فاشلا بشكل يثير العجب . فباختصار حققت نجاحا أوليا فى الحياة السياسية فى جورجيا ، بعد حرق صلبان مشتعلة على ستين مونتين فى عام ١٩٤٥ حيث انضم مايقرب من ٥٠٠٠٠ من رجال الكلان إلى الجمعية مرة أخرى ، إلا أن الذعر من فظائع النازية ضد اليهود جعل معاداة الكلان للسامية تزكم أنوف الأمة وبخاصة أن الكلان كانت على علاقة بالرابطة النازية قبل الحرب العالمية الثانية ، فرفضت مختلف حكومات الولايات الإذن بإشهار الكلان . بل إن جورجيا نفسها أجبرت كلان الولاية على تسليم

مقرها، بعد أن تدخلت الكلان تدخلا فاضحا فى الانتخابات من أجل اختيار حاكم الولاية.

وهكذا وبعد أن حظرت الكلان فى مقرها، انكمشت على نفسها كالأخطبوط الذى أبعد عن أمه. وتنافس من أجل زعامة الحركة المتشرذمة التى تنادى بسيادة البيض، كما تنافس من أجل الأسلاب : ساحران إمبراطوريان وتنين عظيم وأحد المساعدين فى المناطق.

وما زالت هناك تفجرات تقوم بها الكلان من آن لآخر فى الجنوب، غير أن الإعدام دون محاكمة قانونية قد قلت حدته، مع قيام المجالس التشريعية فى الجنوب بإصدار قوانين تحظر ارتداء الأقنعة، ماعدا فى احتفال الهلوين وماردى جرا، وهما المهرجانان اللذان يتصفان بالشغب واللذان أعطيا لأول مرة فكرة مقالب الكلان لفرسان بولاسكى الستة.

ومع ذلك، فإن الكلان ظلت متلكئة فى الاختفاء فى مناطق الغابات الخلفية حيث كان البيض الفقراء يريدون كبح «غرور» السود، فلم يكونوا يشعرون بالأمن إلا وهم يتسربلون بالعباءات ويقومون بالهجمات. ذلك أن فتاة حاملا فى كارولينا الشمالية ضربت بالكرباج وقيل لها : «يريد السود أن يذهبوا إلى المدارس مع البيض، ولكن الكلان ستعنى بمنع ذلك، وبحيث لايركبون الحافلات المدرسية ولا يتناولون الطعام فى نفس المقاصف».

ولم يكن لدى الفقير الأبيض فى الجنوب سوى شعور واحد بالتفوق فى العالم، وهو أنه أفضل من الأسود. فإذا كان الأسود يتساوى معه فى فقره، فليهبطن به هو نفسه إلى موضع مزر.

بيد أن الكلان المحلية كان أمامها عدو جديد يتعين عليها القتال ضده، هو مكتب التحقيقات الفيدرالى. ذلك أن حالة الاختطاف التى وقعت فى لندبيرج عام ١٩٣٢، أجبرت مكتب التحقيقات أن يتولى التحقيق الذى كان جزءا من مهمة الشرطة المحلية فى الولايات. غير أن قوانين التجارة بين الولايات كانت تحظر تدخله. و تلك القوانين جعلت نقل الناس عبر حدود الولايات لأغراض غير مشروعة جريمة اتحادية، كذلك بدأت الاعتبارات السياسية فى إقناع الرؤساء

بأنهم يجب أن يتخذوا إجراءات ضد الكلان كيما ينالوا رضا الناخبين السود الأقوياء في مدن الشمال.

فقام مخبرو مكتب التحقيقات الفيدرالى بتفكيك الكلان فى كارولينا الشمالية، وأرسلوا ثلاثة وعشرين من رجال الكلان إلى السجن.

وكانت نقطة ضعف الكلان أنها غاصة بالفقراء الذين كان من الممكن رشوتهم. فحين كان مكتب التحقيقات الفيدرالى يحتاج إلى بعض المعلومات، كان بإمكانه دفع الثمن اللازم أو دس رجاله داخل الجماعة.

وكان من شأن قرار المحكمة العليا بأن يسمح بالاختلاط بين البيض والسود فى المدارس الجنوبية أن يجعل الكثير من رجال الكلان يركبون مرة أخرى - ولكن هذه المرة سيارات - ويحملون البنادق والهراوات. غير أن رجال الكلان كانوا يتحركون وهم بداخلهم شعور دائم بإمكانية وقوع الغدر. فإلقاء القنابل على مدارس السود وبيوتهم وقتل الكثير منهم وإلقاؤهم فى وحل بايوس، وكذلك جلد من كانوا يقومون على تطبيق الحقوق المدنية .كل هذه الجرائم وقعت فى أعماق الجنوب فى أواخر الخمسينيات.

وحدثت أعمال شغب كهذه فى لتل روك، وأركانسو، فى عام١٩٥٧ حين استدعى الرئيس أيزنهاور القوات الاتحادية لحماية العدد القليل من الأطفال السود الموجودين فى مدارس البيض.

وحيثما وُجدت أعمال شغب كان هناك رجال الكلان بين المشاغبين، ذلك أن ستة من رجال الكلان كانوا هم الذين قاموا بجلد وخصاء الرجل الأسود المسمى القاضى آرون عام ١٩٥٧ ؛ فجعل عملهم هذا سلطات الولاية تشعر بالصدمة حتى إن أربعة من هؤلاء الرجال تلقوا أحكاما بالسجن لمدة ٢٠ عاما عقابا على «أبشع وأجبن الجرائم الأكثر شيطانية التى ارتكبت على الإطلاق».

فبدأ جو من الاعتدال يزحف نحو الجنوب مصحوبا بمستوى معيشة أعلى مبنى على التصنيع، ففى الجنوب الجديد بدت الكلان كأنها مجرد خيال مآتة مغطى بملاءة فى أحد الأركان فى العيد.

ولم تكن سلطات الجنوب، فى حقيقة الأمر متعاطفة مع الكلان فى السنوات الأخيرة، ذلك لأن كل عمل من أعمال التعدى يصعب الأمور على ولايات الجنوب من حيث قدرتها على اجتذاب الاستثمارات والعمال الذين تحتاجهم لإدارة المصانع.

وقلت فاعلية الكلان على نحو ملحوظ مع قدوم آلاف من عمال الحقوق المدنية لزيارة أعماق الجنوب فى العقد الأخير. فمن عام ١٩٥٥ حتى عام ١٩٥٩، لم تسجل سوى ٥٣٠ حالة تخويف أو عنف فى الجنوب قاطبة - وهو شىء ضئيل إذا قيس بما حدث أثناء فترة التعمير.

ويرجع هذا إلى أن الكلان كانت مرتعدة بشكل مفرط من الخيانة، وهو ما منعها من مهاجمة السود المتشددين الذين يحاولون تسجيل أصوات السود الانتخابية فى الحزام الأسود. كما أنها فشلت فى اجتذاب الكثير من الأعضاء الجدد، لأن الزعماء المحتملين الذين يمكن أن يقودوا مقاومة البيض لحقوق السود قد انضموا إلى مجالس المواطنين، بدلا من الانضمام إلى الكلان. وسميت هذه المجالس: «كلان أعلى المدينة» أو «كلان الياقة البيضاء» أى الموظفين. كما فضل رجال الأعمال ورجال البنوك الذين كانوا عمود الكلان الفقرى ويقرتها الحلوب الانضمام إلى تنظيم «مدنى» بدلا من الانضمام إلى جماعة منشقة مكروهة تعد طقوسها إهانة للعقل.

فالكلان حركة حقوق قد عفا عليها الزمن، ولم يعد فى إمكانها جعل رأس المال القادم من الشمال من أجل الاستثمار يهرب بسبب الإرهاب. وحقيقة الأمر أن الكثيرين من رجال الكلان قد انضموا إلى «مجالس المواطنين» كى يكافحوا فى وضح النهار ضد سعى السود الدءوب لنيل المساواة.

وفى عام ١٩٦٠، حين وصلت حركة الاعتصام السوداء بما اتبعته من طرق المقاومة السلمية إلى الجنوب، عقدت جماعات الكلان المنشقة مؤتمرا عاما واتفقت على إقامة اتحاد فضفاض. وكان رجال الكلان الذين يعملون تحت زعامة تنين جورجيا الأعظم حاضرين فى أعمال الشغب التى حدثت فى جامعة جورجيا حين سمح بالتحاق الطلاب السود لأول مرة بها. وحاول روبرت شلتون الرئيس

الأسمى لاتحاد الكلانات القيام بالتعبئة ، غير أن هذه المحاولات قُبرت فى مهدها ، برغم أن طراز شلتون القائم على كراهية اليهود والسود والشيوعيين والمحكمة العليا وغسيل المخ من خلال الصحة العقلية ـ كل هذا كان يروق للمتهوسين فى أقصى الجناح اليمينى الأمريكى .

وفى الواقع ، حين أصبح بارى جولدووتر مرشح الحزب الجمهورى للجلوس فى البيت الأبيض عام ١٩٦٤ ، اعتقدت الكلان أنها وجدت أخيرا مرشحا رئاسيا يمكنها تأييده . وأعلن جولدووتر فى خطابه الذى قبل فيه الترشيح : « إن التطرف فى الدفاع عن الحرية ليس رذيلة» . فعوت الكلان بالتأييد . غير أن منافس جولدووتر وهو نلسون روكفيلر أعلن : « أن تطرف الشيوعيين والكو كلكس كلان وجمعية جون بيرش – شأنها شأن معظم الطغاة – ادعت دائما أنها تدافع عن الحرية» . لذا ففى هزيمته المذهلة أمام لندون جونسون ، لم يفز جولد ووتر سوى بست ولايات – خمس منها كانت فى أعماق الجنوب . ولم يساعده على الفوز بهذه الولايات سوى ما شعر به الفقراء البيض من إحباط فى الجنوب . ولكن الكلان أمكنها حينئذ أن تدرك كيف أن الجنوب أيضا منقسم .

فدقت مجموعة معتدلة من الولايات الجنوبية الناقوس الذى آذن بنهاية آخر مرتع للكلان ، إذ كانت الكلان تلفظ أنفاسها الأخيرة بيْما كان السود يندمجون فى المدارس الجنوبية . بل إن سياسة الكلان الرسمية تأثرت بنجاح طرق السود من أجل الحصول على حقوقهم ؛ فبدءوا فى الامتناع عن استخدام العنف تقليدا لأعدائهم مثل مقاطعة المحال والفنادق المندمجة .

بل إن شلتون نفسه درج على معاداة الشيوعيين أكثر من السود فى جهد منه للفوز بالجناح اليمينى بدلا من الفوز بتأييد المعادين للسود ، فقال فى نبرة يقلد فيها نزعة الجنوبيين الأبوية نحو السود : « أنا لا أكره السود ، بل إننى أشعر بالأسف من أجلهم ، فلقد استخدمتهم القوى التى أرادت أن تستولى على هذه البلاد كما تستخدم الآلة » . ثم يأخذ فى الحديث عن إيجاد حل سلمى لمشكلة السود ، وشحن جميع السود إلى إفريقيا مرة أخرى فى الأسطول الذى تبقى من الحرب العالمية الأولى . وتركزت فى ذلك الوقت عضوية الكلان التى تراوحت ما بين ٤٠٠٠٠ و ٦٥٠٠٠ تقريبا فى المناطق الريفية فى أعماق الجنوب بلا استثناء .

وكان رجال الكلان المحليون يتورطون بانتظام فى إلقاء القنابل المتكرر على الكنائس والمنازل فى مناطق ناتشيز وماكومب فى المسيسيبى عام ١٩٦٤ . فألقى القبض على أحد رجال الكلان مرتديا المريلة الجلدية السوداء وعباءة من يقومون بتنفيذ الإعدام من الكلان، ومعه أربعة مسدسات وترسانة من الهراوات وحقنة تحت الجلد وشارة نائب رئيس مقاطعة . وبعد قتل أحد المدرسين السود، الملازم أول ليمويل بين، ببندقية أطلقت من سيارة مارة بينما كان يقود سيارة خلال طرق جورجيا، أظهر التحقيق مع أحد رجال الكلان وجود رجلين آخرين من رجال الكلان باعتبارهما القاتلين، إلا أن هيئة محلفين محلية برأت كليهما .

وفى ديسمبر عام ١٩٦٤ ، قتل ثلاثة من العاملين من أجل الحقوق المدنية، اثنان منهم من البيض، وواحد من السود بالقرب من فيلادلفيا فى الميسيسيبى، ودفنوا فى أحد السدود ولم يكتشفهم سوى مكتب التحقيقات الفيدرالي . واتهم مكتب التحقيقات بارتكاب هذه الجريمة ٢١ شخصامن بينهم ضابطا سلام وأحد الوعاظ . وكان الكثير منهم من رجال الكلان . كما اتهم رجال الكلان بقتل مسز ليوزو بينما كان الرجال يصحبون أحد عاملى الحقوق المدنية إلى منزله بعد مسيرة مارتن لوثر كينج وأتباعه السلمية فى مارس عام١٩٦٥ . ومنذ عام ١٩٦٠ قتل ٢٧ من مؤيدى الحقوق المدنية، غير أنه لم تتم أى محاكمة فى أى من محاكم الجنوب . وبعد مقتل مسز ليوزو، طالب الرئيس جونسون بتشريع جديد لمحو الكلان، كما فعل جرانت عام ١٨٧٢ .

واتحاد الكلان الموجود فى الوقت الحاضر هو بقية مزرية للكلان الأولى والثانية ؛ فهم يحاربون معركة خاسرة ضد التقدم نحو تمدين الجنوب والتصنيع، بالإضافة إلى التقدم الذى يحققه السود . فلغتهم الغريبة لا صلة لها بالأزمنة الحديثة، فهى لم تعد زئيرا يثير الرعب بقدر ما أصبحت مثل شهيق منفر . ولم تعد الكلان ذات جاذبية سوى لما يشعر به الرجل الأبيض من إحباط بسبب ما يفتقر إليه من تعليم لازم كى يحتفظ باحترامه لنفسه فى أكثر مجتمعاتنا اعتمادا على التقدم الأوتوماتيكى فى هذه الأيام . ذلك أن أحد رجال الكلان انفجر وهو يملأ سيارة أحد الصحفيين بالوقود فى محطة بنزين متهالكة قائلا : لدى اليهود جمعية أبناء العهد(بناى بريت) وللكاثوليك فرسان كولمبس وللسود الـ أ . أ . س . ب . أخبرنى

ماذا لدى الرجل الأبيض بحق الجحيم سوى الكلان ؟! ماذا يملك البروتستنتى الأمريكى غير اليهودى ما عدا الكلان؟ إن ابن السفاح الأسود ممن هم على شاكلتى هو الذى يدفع الضرائب فهو الذى يبقى العجلة دائرة.

وحتى أعماق الجنوب أصبح غير متناغم مع الجماعة المسربلة . ولا يستطيع الجنوب، مع الصورة التى يريد أن يقدمها عن نفسه لبقية الأمة، ومع حاجته إلى جذب رأس المال اللازم للتنمية، لا يستطيع أن يتقبل أعمال الثأر العتيقة التى تقوم بها الكلان.

ولم تعد الكلان جمعية سرية، فأعضاؤها والكثير من خططها صارا معلومين فى واشنطون. إن السرية، بدلا من أن تكون فى الكلان، صارت تتركز فى وضع « المؤامرة ضد الدولة الأمريكية أو الحزب الشيوعى الأمريكى الذى يقال إنه قد تم اختراقه بواسطة عملاء من مكتب التحقيقات الفيدرالى، حتى إن معظم تمويله الحزبى يأتى من الحكومة».

ومع أن الكلان مازالت تملك القدرة على ارتكاب جرائم رهيبة محليا، إلا أن أيامها حتى فى أعماق الجنوب معدودة، لسبب بسيط هو أن فقراء البيض قد أخرجوا من مزارعهم الهامشية وأصبحوا يعملون فى مصانع المدن. وأصبح الجنوب بالتدريج مجتمعا أقل انغلاقا، فهو ينفتح أمام الابتكار والتغيير كى يكون فى ثراء الشمال والغرب.

فلقد وزع السود أنفسهم عبر الولايات المتحدة، ولم يعد يعيش فى الجنوب سوى حوالى نصف سكان الولايات المتحدة. وهكذا أصبحت مشكلة السود مشكلة قومية لا مجرد مشكلة جنوبية، فلم تعد هناك حاجة للجنوب لأن يشعر بالعزلة ويساء فهمه بشأن طرقه فى التعامل مع مجتمعه المنقسم بين البيض والسود.

ومن السخف أن يزعم بقايا الكو كلكس كلان أنهم يمثلون حتى الآن، أغلبية فى أمريكا. صحيح أن الغالبية فى أمريكا هى من البيض البروتستانت الأنجلوساكسون ؛ غير أنه ليس لديها أدنى شعور بأن الكلان تمثلها، فهى ترمز إلى جماعة أقلية آخذة فى التناقص. فيقول الساحر الإمبراطورى شلتون: إن الكلان «هى دين وعقيدة ومعتقد، وقد يقتنع المرء بمبادئها ويحيا فى ظلها وفى تراث

الكلان وخلفيتها - فهى التنظيم الذى خلق من أجل الأمريكيين وبهم بشكل عاطفى، وبهذه الطريقة كلنا أعضاء ».

بيد أن شلتون لا يتحدث عن الوقت الحاضر، فهو يشير إلى حنينه إلى حكومة من صغار المزارعين من أصل بريطانى، وهو ما لم يعد موجودا فى أمريكا منذ حوالى مائة عام. أما الكلان الباقية فما هى إلا شيء ناقص مضاف إليه العبث الذى يوجد فى أى جمعية سرية، فلقد حولت الطقوس الماسونية المثيرة إلى كوميديا رخيصة. وتحولت العقيدة العدوانية لدى الجمعيات العسكرية عند الصليبيين إلى انتقام حقير سادى لاهدف منه، ولا يعنى أى شيء. كذلك فإن مراسم العضوية وقسم السرية اللذين كانا يثيران الذعر فى قلوب الطوائف الإرهابية كالحشاشين بحيث يطيعون ما يؤمرون به حتى الموت قد صارا حجرة تدخين.

ففى كارولينا الشمالية، يقدم للرجل المحتمل انضمامه إلى الجمعية قضيب من الحديد الذى احمر من شدة الحرارة، وتُعصب عيناه ويُطلب منه أن يكشف عن مقعدته، ثم يصرخ حين توضع قطعة من الثلج فى ردفه وهو ما يبهج زملاءه فى الكلان.

فالكلان فى الوقت الحاضر فاسدة ولم تعد سرية، وأعضاؤها معروفون فى واشنطون التى تشتريهم بانتظام، كذلك لم تعد توحى بالخوف خارج الغابات الخلفية، بل إنها تثير الضحك والدعابة.

ويقول شلتون: « نحن نحاول أن نقيم الكلان اليوم على نفس الأساس من تاريخ حركة التعمير فى الماضي، حين لم تكن هناك قوانين للدفاع عن الجنوبيين تحت أقدام العسف الاتحادي». غير أن الأوقات تتغير وليس فى مقدور أى أحد إزالة الصدإ عن دروع الكلان.

إن الجمعية السرية التى كثيرا ما قلبت حكومات وأرعبت شعبا بأكمله، حولتها الكلان إلى مجرد مخالب ضعيفة لا تثير عباءاتها أى فزع فى روع المواطن المتوسط أكثر مما تفعل ذلك قبعة شخص أحمق.

الخاتمة

نورمان ماكنزى

لقد بدأنا هذا الكتاب بأن أشرنا إلى أنه ثمة حاجة إنسانية أساسية للسرية. فبدون القدرة على الاحتفاظ بالأسرار، يعجز الإنسان عن أن ينمى شخصية مميزة. ودون القدرة على احترام أسرار الآخرين فلن يكون الشخص عضوا محترما فى أى مجتمع.

ومع ذلك، فإن السرية تثير انفعالات قوية، فمعظمنا يشعر ببعض الضغينة حين يصر صديق أو زميل على أن يحجب معلومة معينة عنه، ويكون رد فعلنا غالبا هو الاستهزاء بهذا السر، وكأننا نقنع أنفسنا بأن هذا السر لا يستحق المعرفة.

لذا فقد يكون من المفيد، عند هذه النقطة أن نتذكر أن ثمة نوعين من الأسرار : ليس هناك فقط الأسرار «المصطنعة» أو المخترعة عن قصد، (مثل الكلمات الرمزية وإشارات اليد)، ولكن أيضا الأسرار «الطبيعية»، مثل خبرة دخول جمعية أو طائفة دينية. وإذا كان هناك شيء واحد نكرهه فى من حولنا أكثر من السرية، فذلك هو التطفل على «سريتنا الطبيعية »أو خصوصيتنا.

بيد أنه ينبغى علينا جميعا أن نتعلم كيف نحدث توازنا بين الخصوصية والعلانية التى تلائم مجتمعنا.

ماذا عساه أن يكون السبب الذى يدفع الناس إلى الانضمام إلى جمعية سرية ؟ هل بإمكاننا أن نقول إن من يفعلون ذلك لديهم إحساس مبالغ فيه بالاحتياج إلى السرية ؟ فنحن نعرف أن بعض الناس مفرطون فى مراعاة الكتمان فيما يتعلق بشئونهم الشخصية، وآخرين لديهم الشعور بأن هناك من يتجسس عليهم، أو أن أفكارهم تُكشف لغيرهم ؛ غير أن هذا أحد أعراض الشيزوفرينيا، ومن يعانون من

هذا لم يعودوا مندمجين أو ليسوا شخصيات اجتماعية، ولايصدق هذا على الناس الذين ينضمون إلى جمعيات سرية، ذلك أن العضوية فى أى جماعة حتى لو كانت سرية تتطلب الاشتراك فى الحياة الاجتماعية لتلك الجماعة.

ويمكننا أن نتساءل عما إذا كان السر يظل حقا سرا إذا تشاطره أعضاء إحدى الجماعات ؟ بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنسأل: هل يمكن أن توجد جمعية تامة السرية؟

إن أى دراسة للجمعيات السرية يجب أن تبين أن سريتها ليست إلا سرية جزئية، وأن بينها شيئا مشتركا مع الجماعات المفتوحة. وقد لا نجد الإجابة عن تساؤلنا بين الأفراد أو الجماعات المعنية، بقدر ما نجدها فى العلاقة مع المجتمع ككل.

فإذا نظرنا فى الأمثلة التى سقناها فى هذا الكتاب، سنجد أن معظمها قد نشأ فى فترات انعدام النظام الاجتماعى والصراع العقائدى الأيديولوجى حين تنهار أساليب الحياة القديمة أو تكون أساليب جديدة فى الحياة آخذة فى الظهور. ويعد تطور الماو ماو مثالا جيدا لهذا القول: ذلك أن حياة الكيكويو القبلية قد تم إخضاعها لضغوط وتوترات لا تُحتمل فى محاولاتها التكيف مع التغيرات التى فرضها المبشرون البيض والمزارعون المستوطنون.

وأسست جمعية فرسان الهيكل كجهد لخلق نظام من ركام فوضى الحروب الصليبية. كذلك فإن تاريخ الماسونية المبكر هو جزء من عصر التنوير الأوربى - فهى محاولة لإنشاء نظام أخلاقى كونى فى عصر سادته النزعة العقلانية والشك الدينى، ومع أن الكو كلكس كلان نشأت عن التوتر الذى حدث عقب الحرب الأهلية، إلا أن المافيا قد نشأت عن البناء الاجتماعى الضارب فى القدم فى جزيرة أقحمتها الجغرافية والسياسة فى أوربا الحديثة.

وجميع الجمعيات السرية القومية تقريبا نشأت بالتأكيد فى فترات القلق والقلاقل الاجتماعية. ويصدق القول نفسه على معظم المؤامرات الانقلابية الثورية. كذلك فإن الطغم الحاكمة العنصرية والسلطوية التى تتخذ شكل الجمعية

السرية تميل إلى جذب أعضائها من بين من يعانون الاضطراب الاجتماعى أو من لا يربطهم شيء ما بأحد.

ويمكننا القول بأن هؤلاء الذين ينضمون إلى الجمعيات السرية قد يكونون أناسا يتعلقون بأساليب الحياة القديمة التى حدث انقطاع فى مجراها العادى أو قد يكونون، على العكس من ذلك، أناسا فى حالة من التمرد ضد النظام القائم، ويجدون أن السرية ضرورية كغطاء لنشاطهم. يمكننا أن نرى أمثلة للنمط الأول في حالتى الماو ماو والمافيا، أما النمط الثانى فيمكن أن نري أمثلة له فى المستنيرين أو الكربونارى والبلاشفة، أى أن نشوء الجمعيات السرية هو أحد مؤشرات عدم الاستقرار الاجتماعى والصراع.

وهذا لا يعنى بالضرورة أن المجتمع الأكبر بكامله غير مستقر، ذلك أن طبقات معينة من المجتمع مثل المهاجرين والأقليات العرقية والدينية قد تكون خاضعة بشكل غريب لحالة من عدم النظام.

وتبدو الكثير من الجمعيات السرية وما قاربها من جماعات تنشأ فى مجتمعات ريفية على وشك الانتقال إلى الأوضاع التجارية والصناعية، وذلك حين يبدو أن أساليب الحياة الراسخة تتعرض للاهتزاز. فعلى سبيل المثال، ظهرت عبادات خاصة فى هذه الظروف كما أن الفلاحين الذين تقوم بتعبئتهم التنظيمات الثورية قد يكونون تعبيرا عن رد فعلها على نوع من الضغط أكثر من إعجابها بالعقيدة الشيوعية.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أنه فى المجتمعات المتمدينة أو المصنعة، يبدو أن الجمعيات السرية الأخوية الشبيهة بالماسونية تلعب دورا فى الاستقرار وتساعد على ملء الفراغ الذى خلقه مجرد حجم وتعقيد وتفكك حياة المدن.

وقد يعوِّض بناؤهم الهرمى فيما يتخذونه من ألقاب، وكذلك وظائفهم عن إغفال اسم الفرد فى بيئات كهذه، وقد تقدِّم أسطورتهم وطقوسهم راحة من ضغوط النزعة العقلانية؛ كذلك قد يقدِّم تأكيدهم الإحسان والنزعة الأخلاقية والاعتدال اطمئنانا ضروريا ضد الرغبة اللاشعورية التى تدفعهم إلى ارتكاب سلوك معاد للمجتمع.

لقد وصف عالم الاجتماع الألمانى جورج سيميل البيئة الخاصة التى توجد فيها الجمعية السرية وصفا جيدا، ونشرت مقالته سوسيولوجيا السرية فى بداية هذا القرن. وكان سيميل واحدا من المنظرين الاجتماعيين القلائل الذين حاولوا بناء نظرية عن الجمعيات السرية، ويظل الكثير مما كان لديه كى يقوله ذا فائدة اليوم.

إذ قال إن السرية تمنح «إمكانية وجود عالم ثان إلى جانب العالم الواضح». وكان يرى أيضا وجود معدل ثابت من السرية فى حياة الإنسان، وأن كلا منا فى حاجة إلى الاحتفاظ بقدر مناسب من حياتنا مخفى عن الآخرين. كما أوحى بأن السرية «تحصل على امتداد كبير للحياة، فمع العلانية لا يتحقق الكثير من الأغراض». بيد أنه أشار إلى أن الأسرار التى يتم إخفاؤها تختلف من مجتمع إلى آخر كما أن من الممكن أن تتغير عبر فترة من الزمان.

فمثلا فى المجتمع ا لقبلى، لا يتم إخفاء سوى القليل جدا من حياة الفرد الخاصة. فالرجال والنساء والأطفال، يعيشون فى تجاور شديد، و تظهر دورة الحياة بأكملها من الميلاد إلى الممات فى خصوصية علنية. غير أنه يوجد فى مثل هذه الجماعات قدر كبير من السرية تتعلق بأمور مرتبطة بالجماعة ككل. فهى تحرس أسرارها الدينية على نحو يتسم بالغيرة عن طريق رجل الطب والشامان أو الكاهن الذين يعدون وسطاء بين القبيلة والقوى غير المرئية.

ذلك أن سحر المهابة حق خاص بالكاهن؛ وتتحكم الجمعيات ا لسرية فى قبول الأعضاء الجدد، ويبدو أن العكس صحيح فى الجمعيات الكبيرة الحديثة، التى يكون فيها تركيز متزايد على الخصوصية الشخصية، وتناقص مضطرد فى سرية الجماعة. فيتعلم الأفراد إخفاء انفعالاتهم ومعتقداتهم الدينية والسياسية عن غيرهم، غير أنهم وصلوا إلى توقع حقيقة مؤداها أن الأمور المتعلقة بالجمعية ككل ينبغى إخفاؤها.

ولابد أن يقود الرؤساء ورجال السياسة والمغنون الشعبيون الحياة العامة؛ كذلك فإن سلوك الحكومة وحالة اقتصاد الأمة أمور مطروحة للمناقشة؛ كما أن أدلة العلماء على أسرار جزء ما يصبح من المخزون المعرفى للفرد بالتدريج.

كما لا حظ سيميل أن السر يعطى الفرد «شعورا بالملكية الشخصية». ومما

لاحظه أن الأطفال يحبون السر لأنه يقويهم ويجعلهم يحسون بالفخامة؛ ويستمدون بهجة وإحساسا بالقوة حين يقاومون الإغراء الذى يتعرضون له دائما كى يكشفوا ما يعرفون.

وعلى هذا، فإن السرية «عامل لخلق الفرد من الطراز الأول». وهذه طريقة مختلفة للقول بأنها تربى شعور الفرد بذاتيته.

ولاحظ سيميل أنه كلما كبرت الجماعة الاجتماعية، شعر الفرد بالحاجة لأن يميز نفسه بشكل ما عن غيره. ويصدق هذا بصفة خاصة على المجتمعات الصناعية المعاصرة التى تولى أهمية للفردية (وهذا جزء من الخلفية الثقافية التى أوجدها نشوء البروتستانتية والرأسمالية الصناعية)، غير أنها وفى الوقت نفسه، قد فرضت مزيدا من الانتظام على جماهير المواطنين.

ويبدو أن هذه المفاتيح تشير إلى العلاقة بين السرية والإحساس بذات الفرد أو الجماعة، ويبدو أنها تشير إلى أن السرية حين تتخذ شكلا تنظيميا يوجد نوع ما من الإزعاج أو التهديد بالإزعاج، فى أنماط الذاتية لدى الجماعات أو الأفراد المعنيين.

لقد أكدت الكتابات النفسية الحديثة، وبخاصة كتابات عالم التحليل النفسى إيريك إيريكسون العلاقة بين أزمات النمو الانفعالية واكتشاف ذاتية مرضية تمكن الفرد من أن يتماشى مع متطلبات الحياة أثناء البلوغ. ويصف د. إيريكسون العملية التى يسعى بها الطفل أثناء نموه لأن يتطابق مع الآخرين - أولا مع والديه ومع القيم التى تجسدها أسرته. وبعد ذلك يمد هذه العملية إلى المجتمع الأكبر من خلال المدرسة، والعمل والأنماط المقبولة لقضاء أوقات الفراغ والسياسة والدين. وإذا نقص من هذه العملية شيء ضروري، سواء كان ذلك فى بيئته أو فى نفسه، فسيحاول الوصول إليه من خلال الحياة، ويظل دوما فى حالة بحث عن الاعتراف والتدعيم وعن وسائل تخفف عزلته وقلقه.

وتنبع الكثير من أزمات منتصف العمر فى المجتمع الحديث من الجهد الذى يُبذل لحل مشكلة تحقيق الذاتية من هذا النوع (ولهذا فإن جميع المجتمعات الإنسانية لها طريقة معينة لتسجيل الانتقال من وضع الطفولة إلى وضع البلوغ). كما يلاحظ د. إيريكسون فى كتابه التبصر والمسئولية، قائلا: «لهذا السبب نفسه، ترسّخ

المجتمعات الفرد فى هذا الوقت فى جميع أنواع الأطر الأيديولوجية، وتسند إليه أدوارا ومهام يستطيع من خلالها التعرف على نفسه ويشعر باعتراف الآخرين به.

فليس لترسيخ الطقوس ودخول عضوية أى جمعية أو التربية المذهبية سوى تقوية عملية صحية لا غنى عنها تمنح بها قوة تقليدية للجيل الجديد وبذا تضم إليها قوة الشباب».

وتجد عناصر هذه العملية توضيحا قويا فى طقوس دخول الجماعات القبلية. غير أنه فى المجتمعات الصناعية، حيث تنشطر المجموعات، تكون هذه الأمور غائبة. ونتيجة لذلك فإن طرق دخول العضوية المقبولة تفقد الكثير من مغزاها بالنسبة للفرد، ويشعر الكثير من الناس بالإحساس بالغربة والافتقار إلى الذاتية الحقيقية.

لذا يبدو من المحتمل أن أحد عوامل الجذب الكبرى فى الجمعيات السرية هو أنها تمنح دخولا للعضوية يسبغ دورا خاصا على الفرد ويربطه بجماعة محددة تحديدا واضحا. وفى بيئة مثل هذه الجماعة، التى تمتلك ذاتيتها الجمعية، يستطيع الفرد حقا أن «يتعرف على نفسه ويشعر باعتراف الآخرين به». وكأن الجماعة السرية تعوض الفرد عن عدم قدرة المجتمع الأكبر على تربية وتعليم أطفاله مع إحساس بالانتماء الذى يميز المجتمعات الأصغر والأقل تحركا والأكثر استقرارا.

إن تضامن الجماعة السرية يتدعم نتيجة أن أسطورتها وطقوسها ملكية خاصة تحفظ وتنتقل داخل الجماعة. فالأسطورة هى التى تنبنى عليها البيئة الخاصة بالجماعة، من طقوس وطريقة يتكامل بها الفرد أو « يبعث» داخل تلك البيئة.

بيد أن وظيفة الطقوس لاتنتهى عند هذا الحد، فهى عادة تكون صارمة ثابتة وصحيحة إذا تمت تأديتها فقط بالشروط الموصوفة دون خطإ واحد أو تنويع. وهذا يعنى أن الحلف الملزم عاطفيا الذى تحدثه على العضو الفرد عند دخوله العضوية سوف يتجدد حين يدخل غيره الجمعية.

إن تكرار الطقوس باستمرار يضعه داخل التنظيم ويخلق علاقة بينه وبين زملائه من الأعضاء وهو ما يذكره بالتزاماته وبالهدف المشترك، بينما يوقظ إحساسه

بالمسئولية نحو الجماعة، وكذلك يذكره بأنه يعمل الآن داخل بنية يستطيع الاعتماد عليها .

فالفرد الذى كان يشعر سابقا بأنه مكشوف وعرضة للتأثر ، من المحتمل أن يجد أن العضوية فى مثل هذه الجماعة تمنحه اطمئنانا فى العالم الخارجى . ومع أنه قد يستمر فى الحياة والعمل فى ذلك العالم ، فهو لم يعد يعتمد عليه بنفس الطريقة ، إذ إنه قادر على الانسحاب منه وأن يجد الثقة المتبادلة التى يعتمد عليها وجود الجمعية السرية .

وقد يخلق هذا الإحساس الجديد بالزمالة روابط قوية يشعر معها الفرد بأنه محصن إزاء العالم الخارجى . ويمكننا أن نلاحظ هذه الظاهرة فى جماعات متنوعة تشمل شهود يهوا والكاميكاز اليابانية وملاحى العالم والأحزاب الشيوعية السرية فى الحرب العالمية الثانية أو - إذا رجعنا إلى التاريخ - فى الحشاشين . إن ملاحظة أن الطوائف الدينية والجمعيات السياسية السرية لها هذه السمات المشتركة لا يعنى أن نقيم تشابها بين النوعين ؛ فلقد أكدنا التمييز بين السرية الطبيعية فى الأولى والسرية المصطنعة فى الثانية .

ومع ذلك ، فإن الانطباع الذى يثيره التشابه ، تدعمه حقيقة أن الكثير من الجمعيات ذات الأهداف العلمانية أساسا قد تبنت طقوسا قائمة على إلزام أعضائها عاطفيا وبعثهم وبنياتهم الهرمية ذات نكهة دينية مثل المستنيرين الذين اتخذوا ألقابا مثل كاهن وماجوسى تفصل صفوفهم إلى « طقوس سرية أعظم وأقل شأنا » .

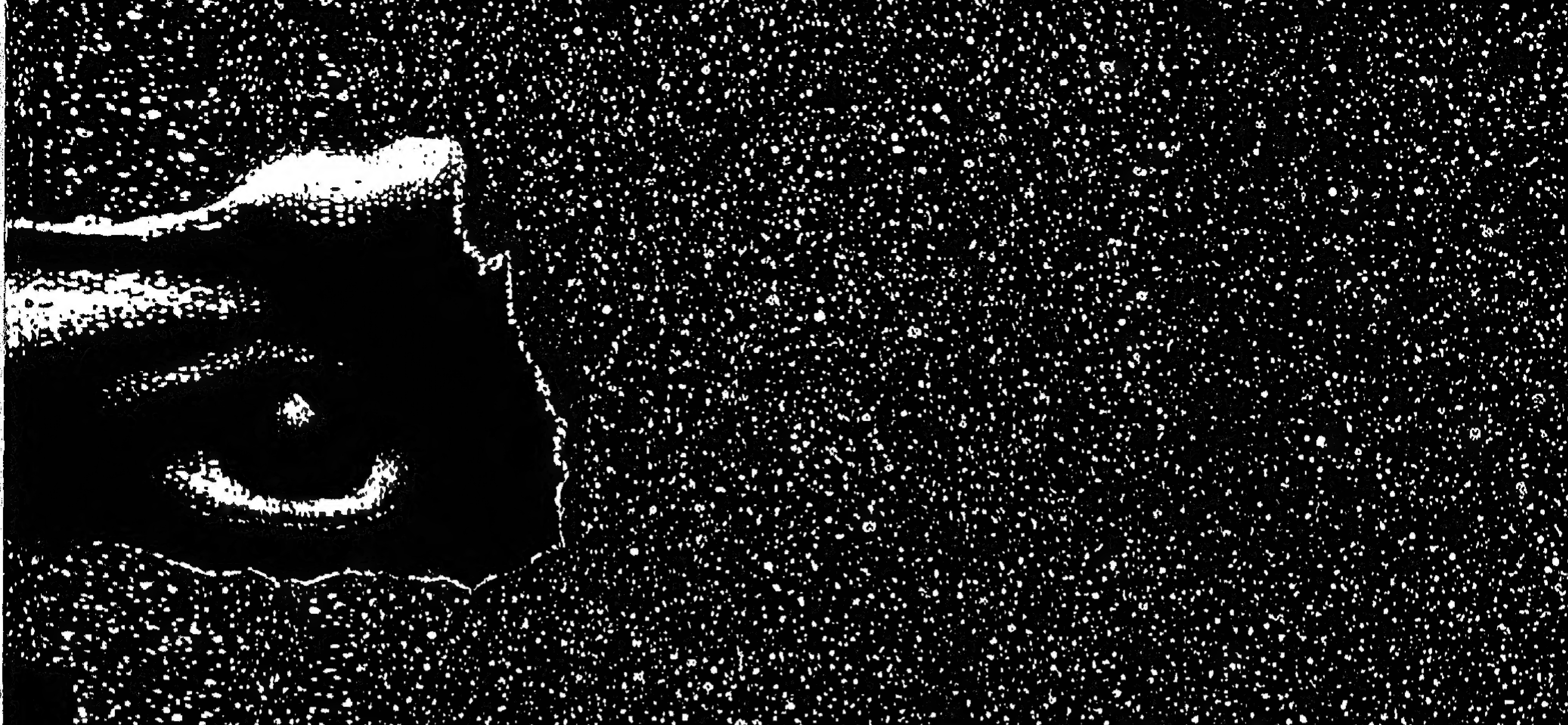
إن هذه التشابهات السطحية تثير البلبلة ، لذا فلا غرابة فى أن نندهش من أن المجتمع الأكبر غالبا ما فشل فى أن يرى ما وراء ذلك ، وكان يميل إلى النظر إلى جميع الجمعيات السرية بنفس القدر من العداء والشك .

إن الجمعيات السرية وجماعات الأقلية التى تشبهها قد اتخذت دائما كبش فداء للفشل وإساءة تصرف المجتمع ككل . لذا فمن المهم إدراك أن هذه الجماعات قد تعكس الكثير من النواحى المختلفة للفكر والفعل الإنسانى كما توجد فى المجتمع ككل ، وأن كلا منها يمثل بطريقته محاولة لحل المشكلة الإنسانية المشتركة ، ألا وهى مشكلة الذاتية .

صفحة

رقم الايداع ٩٨/١٦١٧٢
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-0517-8

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الجمعيات السرية

الكتاب الذي بين أيدينا يتناول موضوعا ينتمي الى هذا العالم المجهول، وهو موضوع الجمعيات السرية. والاهتمام بالجمعيات السرية قد يكون تعبيرا عن تمرد الإنسان على عالم المادة المصمت، وهو تمرد بلا شك محمود، ولكنه - مع هذا اهتمام له جانبه المظلم. فكثير من الناس الذين يفشلون في التعامل مع العصر الحديث، وفي تفسير ما يحدث لهم، وهو عصر بلا شك يسبب الاغتراب والقلق، يلجئون الى الصيغة السحرية: الحركات السرية.

فكل حركة في التاريخ في تصورهم هي نتاج حركة سرية، وكل حدث سياسي هو الاخر ثمرة جهد تقوم به جمعية سرية. والجمعية السرية هذه عادة ما تضم أعداء الإنسان، فهم تارة اليهود، وتارة الامريكان، وكل العالم هم مجرد رقعة شطرنج، وكل البشر هم مجرد قطع شطرنج يتلاعب بها أعضاء الجمعيات السرية. وهذا ما يسمى "فكر المؤامرة".

وفكر المؤامرة هو "فكر" تجاوزا، لانه في واقع الامر أساطير تحل محل الفكر، وتهرب من الاجتهاد والتفسير وتحل وهم المعرفة محل المعرفة الحقة.

لكل هذا نجد أن هذا الكتاب جاء في موعده، فهو دراسة علمية مستفيضة لهذا الموضوع.

د. عبد الوهاب المسيرى

دار الشروق

تصميم : محمد حجي